بسم الله الرحمن الرحيم

معتقدات آسيوية

العراق - فارس - الهند

الصين - اليابان

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

دار الندى
٢٩ عمارات حدائق العبور - صلاح سالم - مدينة نصر
تليفون وفاكس : ٤٠٣٥١٣١

موسوعة الأديان القديمة

مُعتقدات آسيويّة

(العراق - فارس - الهند - الصين - اليابان)

د. كامل سعفان

د. كامل سعفان

دار الندى

بسم الله الرحمن الرحيم

عن الموضوعات التى تناولها الكتاب وجدت معلومات كثيرة مبعثرة متناقضة ، اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة ، فكان همى الجمع والتنسيق والنقد والتعليق .

وبما أن أكثر مصادر هذه المعلومات مترجم ، وأكثر المترجمات ليس مباشرا ، ولايقدم المعلومات كاملة ، ولا يحسن تنسيقها - فقد وجبت المقارنة بين المترجمات وصولا إلى الحقيقة ، أو إلى مايطمأن إليه ، إلى حد ما ، مع العناية بالنقد ، أو الحوار مع ما تقدمه هذه المصادر من نصوص .

وقد توخيت فى هذه الدراسة أن أدل على أن التعرف إلى الله قد يكون بمعرفة صفات الكمال ، كما يكون بسلب صفات النقص ، لكن الفلاسفة قد فضلوا سلب صفات النقص ، بحجة أن صفات الكمال نسبية ، وكذلك الشأن مع الأديان ، فلأن تضع صورة الدين فى المرآة فإنك لاتضيف جديدا ، فما أكثر من يفعلون ذلك ، إنما الأكثر تأثيرا وإقناعا هو مقارنة دين بآخر ، أو هو عرض السلبيات لإظهار الإيجابيات .

وهذا ما قصدت إليه فى الحديث عن معتقدات غير سماوية تعيش فى ساحة انتشار ديانات سماوية .

ثم إن المعتقدات غير السماوية - سواء كانت ترجع إلى جذور سماوية أو لا - أكثر دلالة على الحركة الفكرية ، والانبعاث الحضارى ، لأنها أقرب إلى التخلق الذاتى ، والتحقق الإرادى ، كما أنها أقرب إلى الانحراف ، وأجدر بالاختلاف .

ولو أنك تابعت سيْر التاريخ أو سيَره لعرفت أن هذه المعتقدات - مع ضعف بنيتها ، واعتمادها على الأساطير والخرافات - تتخذ من عوامل الضعف هذه قدرة على البقاء ، كالنبات اللين الذى يتخذ من لينه قدرة على الصمود فى وجه العواصف .

كما أن هذه المعتقدات أشبه بالنباتات المتسلقة التى تستطيع أن تحتوى فى تسلقها نباتات أقوى ، وقد تنسج حولها ستارا يحجب أصالتها ، ويُعطب ثمارها ، أو يُخْفيها .

ولاتزال الشعوب - بسبب من الجهل وسهولته ، وبسبب من الأساطير والأوهام التى تغذى المشاعر ، وتشبع فى الفطرة الإنسانية نزوعا إلى الخيال (السمادير) وعشق الفناء - حريصة على اتخاذ الخرائب سبيلا إلى العرى ، وإلى الطيش ، وإلى جَلْد الذات .

ولايزال الوقوف على الأطلال ، ممثَّلة فى الآثار المادية ، والذكريات الإنسانية - أحبَّ إلى النفس من الوقوف عند القدرات الحضارية الحديثة ، لأن الماضى أفعل فى النفس من الحاضر ومن المستقبل ، لأنه يدغدغ مشاعر الفاشلين والمطحونين ، ومن تَنكبوا أيسر السبل وأقربها إلى النجاح .

إن أولئك الذين يعملون فى خدمة الموت ، من حفارى القبور المادية والمعنوية ، ومن صناع النعوش المادية والمعنوية ، ومن مثيرى الإحَن والحروب والأوبئة ، ومن الذين يتغذون على الإحن والحروب والأوبئة ، وأولئك الذين يَحْتفلون بالموت : جنازات ومآتم وقراءات وتلاوات وقرابين (وأفلام ڤيديو) وبناء قَبور وتشييد أضرحة وإقامة احتفالات لسكان هذه الأضرحة ، وكثرة النذور والأوقاف ، إلى آخره ، إلى آخره - لاشك أنهم الغالبية العظمى من الشعوب ، وأنهم الأقدر على شغل الحياة بالموت .

انظر إلى مايكتبه (الكرام الكاتبون) فى خدمة الموت ، وتتبعْ إصدارات دور النشر - تجدْ الكتب الأكثر رواجا ، والأكثر ربحا ، هى الكتب التى تخدم الموت : بعثا وحشرا ، وأشراط الساعة ، وأهوالها ، والتداوى بالجن وبالسحر ،

والتداوى بالنصوص المقدسة ، وعذاب القبر ، وأهمية الحروب فى بناء الحضارات .

وانظر إلى تلك الشعوب التى تنفق أكثر الدخل القومى فى صناعة الأسلحة ، وفى شرائها ، وفى صناعة المخدرات ، وفى شرائها ، وفى إشعال الحروب الكيماوية والبيولوچية والنووية ، أو الاتجار فيها ، وفى احتكار أسلحة الدمار الشامل من أجل ترويج الدمار (العاقل) المقنن الذى لايصيب إلا الشعوب الأكثر إنجابا ، والأكثر غباء ، والأكثر فقرا .

إن خدمة الموت هم أعداء الحياة ، أعداء الحق والحرية والعدالة والخير والمحبة والمساواة ، أعداء كل القيم التى تجعل من الإنسان خليفة الله فى أرضه .

فإذا استطعتُ أن أكشف عن سراديب تتسردب من خلالها دعاوى إعلاء شأن الموت ، ودعاوى العدمية وعبثية الحياة ، ودعاوى الكفر بالخالق وبالمخلوق .

وإذا استطعت أن أدل على تلك الجرذان التى لاتزال تقرض الجذور الحضارية ، وتنشر الطاعون الأسود ، وتعيث فسادا (مقدسا) .

وإذا كان حسبى أن أدل على طريقة تفكير كثير من المذهبيين والفلاسفة وأدعياء (التنوير) أو (الاستنارة) - فعساى أكون قد وضعت شاهدا على الطريق . . وباللّه التوفيق .

العـــــراق

آفـــة التــــاريـــــخ

يكاد الأستاذ **طه باقر** أن يكون شيخ مؤرخي التاريخ العراقي القديم ، تَتَلمذَ عليه وعلى كتاباته أكثر المؤرخين العراقيين ، بل إن كتابه (مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة – مجلدان) يكاد يكون بمثابة المرجع الأول لدارسى التاريخ القديم ، والكتاب بحق يجمع من المعلومات – فى مجاله – مايعوز مصادر كثيرة ، لكن مايؤخذ عليه أنه خضع لمؤثرات خضع لمثلها كثير من المؤرخين العرب .

من هذه المؤثرات ارتباط الباحث بتاريخ بلاده ارتباطا عاطفيا ، على حساب الحقيقة العلمية أحيانا . . ومنها ثقة الباحث فى الكلمة المترجمة ، بحيث يُغفل وضعها على محكّ النقد ، والتقويم الصحيح .

وقد شاع بين دارسى الآثار القديمة (من المستشرفين) إشعار الآخرين بمدى الجهد الذى بذلوا ، وبالنتائج التى وصلوا إليها ، فكان أن أعلن المختصون بدراسة الآثار المصرية أن مصر (أم الدنيا) ، أو (فجر الضمير) ، وأنها حازت قصب السبق فى كل شئ ، وأعلن المختصون بآثار (وادى الرافدين) أن حضارة سومر وأكد أقدم الحضارات ، وأن قوانين حمورابى أقدم القوانين ، وأن رحلة جلجامش أسبق الملاحم .

ومن المؤثرات أيضًا وقوع الباحث فى أسْر ما أتيح له من مصادر ، ومن ثم تتحكم فيه كثرتها ، كما تتحكم فيه قلتها .

حين عرض الأستاذ **باقر** للمقارنة بين حضارتى مصر والعراق قال (ص٢١ مج ١) : تعد الحضارة السومرية (أقدم الحضارات البشرية ، وأول حضارة أصلية لم تشتق من حضارة سابقة لها ، وإنما نمت من الأطوار البدائية فى عصور ماقبل التاريخ فى العراق) .

والقول بالأولية قول غير علمى ، لأنه يقوم على التمايز العرقى ، وصرامة الحكم ، وإغلاق باب المراجعة ، وإذا صح أن الأعراق البشرية متكافئة ، وأن البيئات هى التى تشكل الإنسان ، وأن عوامل التحدى هى التى تحركه وتنشط

ملكاته ومواهبه ، فحيثما اتحدت البيئات أو تشاكلت ، وكلما اتحدت العوامل أو تشابهت - وجدت الحضارة . . وإذا تحقق اتصال حضارة بأخرى كانت القدرة على التطور بخطاً أوسع ، وهذا كله متمثل فى النباتات ، البيئات المتشابهة تخرج نباتات متشابهة ، وتطعيم النباتات أو تخليقها فى بيئة مزودة بمكونات جديدة يساعد على جودة ثمارها ، وكثرة إنتاجها .

ولم يكن هذا ليغيب عن الأستاذ **باقر** ، لكن (الحذر يؤخذ من مَأمَنه) كثيرا ، والطرق العريضة كثيرا ماتشغل عن المنحنيات والمزالق الجانبية .

* لهذا يقول الأستاذ المؤرخ (ص ٧٨ مج ١) : (إن فيضان النيل يحدث فى وقت يستفيد منه الناس للزرع . والواقع أن زراعة القوم تبدأ من بعد الفيضان ، أما الحال في دجلة والفرات فإن فيضانهما يقع فى الوقت الذى يتهيأ فيه البشر للحصاد وجَنْى الغلة ، هذا إلى عنف فيضانهما ، والحاجة للسيطرة عليهما إلى قوى وجهود بشرية عظمى) .

(ولقد أدى هذا الحال إلى أن تتصف الحضارة المصرية بالاعتداد والثقة بالنفس ، الاعتداد بإنجازاتها ، وشعورها بسيطرتها على القوى الطبيعية ، بحيث إنها جعلت رأس المجتمع الذى أنجز هذه السيطرة إلها ، أى أنها ألّهت ملوكها الفراعنة ، أما الملك فى حضارة الرافدين فلم يصر إلها ، بل كان بشرا اعتياديا ، يمتاز عن البشر الآخرين بأن الآلهة التى بيدها كل شئ فوّضته ليحكم البشر) .

هذا النص قد يتسم بسرعة الحكم ، أو بالخضوع لأحكام دارسى الآثار العراقية من المستشرقين . . وهذا النص كذلك يفنّد دعاوى السبق الحضارى للعراق ، لأن الحضارة تتبع الاستقرار ، ومادامت مصر أسبق سيطرة على مصدر حضارتها (النيل) ، فهى الأكثر استقرارا ، وهى الأسبق حضارة ، ثم إن النيل فى فيضانه لايوصف بالوداعة ، فهو شموس جموح ، لكن المصريين تعاونوا على ترويضه ، بتدعيم الجسور ، وإنشاء الترع والقنوات ، والسدود والخزانات ، والمقاييس ، وزرعوا الأرض على مدار العام ، فيما عدا مناطق كانت تروى برى الحياض ، وصورة (الشادوف) الذى ينضح المياه من أسفل إلى أعلى موجودة منذ فجر التاريخ . . وهذا هو السبق الحضارى الذى لاشك فيه ،

لأنه قام على أسس هندسية ورياضية وجغرافية ، وعلى إجادة مسح التربة ، ودراسة صلاحيتها للزراعة ، وكذلك على فن بناء السدود ، ونحت الأحجار ، ونقلها بواسطة هذا النهر العظيم ، وتبع هذا إجادة صناعة السفن ، وإجادة صناعــة أدوات البناء ، وأدوات الزراعة ، وأدوات المعــيــشــة ، بـل وبنـاء الأهرامات ، فى رأى من يذهب إلى أن من دواعى بناء الأهرامات فيضان النيل الجامح الذى يغطّى مساحة شاسعة تنْبهم معالمها ، وتذهب بالحدود الفاصلة ، فكان البناء الهندسى للأهرام الذى غُطِّيَت سطوحه بأحجار جيرية لامعة وسيلة لهداية السفن ، ووسيلة لإعادة تخطيط الأراضى ، ووسيلة فَلكية كذلك ، بل وسيلة دفاعية أيضا (انظر كتابى « كنانة الله يافرعون ») ، وتبع هذا التطور الحضارى تدوين آثاره بالرسوم والصور والحروف . . وهذا مايبينه قول الأستاذ **باقر** : إن الكتابة حين ظهرت فى مصر (دونت بها حوادث تاريخية ، ويكون ظهور الكتابة فى مصر مرادفا لمصطلح العصور التاريخية) - ص ١٤ مج ١ - لأنه وُجد الحافز للتدوين فكانت الكتابة ، أما أن يرى أنه (فى العراق ظهرت الكتابة قبل أن تدون بالكتابة أمور مهمة) ، ليصل إلى أن الكتابة ظهرت فى مصر بعد العراق ، بنحو (ثلاثة قرون) - ص ١٤ مج ١ - فهذا يعد قفزا بين الأشواك !!

ويمضى فى هذا الزعم فيقول : (ذهب كثير من ثقات الباحثين فى أصول الحضارة إلى استنتاج أمور هامة تتعلق بأصول الحضارة المصرية فى أطوادها الأولى ، واقتباسها التأثيرات والحوافز الأولى من حضارة العراق القديم ، كاقتباس فكرة الكتابة ، أو الحافز عليها ، كما أظهر البحوث حديثا) - ص ٥٤ مج ١ - مع أنه يعلم أن الذين يتحدثون عن العميان والفيل يرجعون بهذا المثل إلى أصول مختلفة ، عربية ويونانية ، وقد نجد ما يرجع به إلى أصول فارسية وهندية وصينية ، وهذا المثل ينطبق تمام الانطباق على الباحثين فى الحضارات القديمة ، فكل قبيل بما لديهم فرحون ، مُعالنون ، مستصرخون .

* أما عن التأليه فأمر يرجع إلى الزهو البشرى ، والرغبة فى مزيد من الاستعلاء ، وإلى طبيعة النفاق التي تدفع الضعيف وذا الحاجة إلى ممالأة القوى ومن بيده الصولجان ، وإلى المتسلقين من الكهنة وأحلاس السلطان واللائذين به ، وإذا أدخَيْت العنان للجواد جمح .

والأستاذ **باقر** نفسه يقول : (لايمكن إغفال أن قوة الملك لم تعتمد على انتمائه إلى أصل إلهى فحسب ، وإنما هو نفسه من الآلهة . . كان الحكام يعتبرون آلهة الحماية لبلادهم ، وتمارس طقوس معينة فى تأليههم ، وتنحر الذبائح قربانا لهم ، من خلال الإدارة الذاتية . . والجباية ، والواردات من التجارة كلها كانت تصب كثرة ضخمة فى قصور ملوك أور) .

والتاريخ المصرى سجل ثورات ومؤامرات ضد الفراعنة ، ولو أن المصريين ظنوا الألوهية بالفراعنة مابنوا لهم قبورا ، ومانبشوا هذه القبور وسرقوا محتوياتها ، فضلا عن توابيتها ومومياواتها .

وكيف يستطيع المصريون (السيطرة على القوى الطبيعية ، ويلجموا الإله حابى (النيل) ، ثم يؤلهون إنسانا نشأ بينهم ؟

إن هذه الطبيعة التى سيطروا عليها وصفوها بالألوهية ، لأن هذا الوصف لايعنى أكثر من الإكبار ، والاعتراف بالفضل ، (فقط لاغير) .

وعلى فرض أن لفظ (التأليه) جرى على ألسنة المصريين فى عهود الاستبداد ، فإنه لا يصور معتقدات ، بدليل أن المهندس (أمحوتب) الذى بنى هرم سقارة لم يؤله إلا بعد موته ، وكان التأليه مجرد إشادة بذكره ، واعتراف بنبوغه وتفوقه . . وقد حدث مثل هذا مع الملك سنوسرت الذى آلّهه تحتمس الثالث ، بسبب ما أقام من حصون جنوبى البلاد ، فى النوبة . . وهذا يعنى أن الألوهية اتسع مفهومها ، بحيث لم تعد مقصورة على القوة العُليا الخالقة المسيطرة ، أو أسيء نطق لفظها فى لغة (مصورة) .

يقول **جفرى بارندر** ، مؤلف (المعتقدات الدينية لدى الشعوب - ص ٢٨) : (الغالبية العظمى من نصوص بلاد مابين النهرين التى تروى عن دور الملك الرسمى فى العبادة ، تقول : إنه مثل الآلهة على الأرض ، أوإنه ينوب عنها ، وهى تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل ، وبلا محاباة) .

ويقول **كلنجل** فى كتابه (حمورابى ملك بابل وعصره - ص ١٠٣ / ١٣١) ، كان الملك ممثلا لرعيته أمام الآلهة . . بل إن (رام - سين) ملك أكد ،

وكذلك خلفاء (أور - نمو) ملك أور ، طالبوا بتأليه أنفسهم ، إذ وضعوا أسماءهم بعد أسماء الآلهة مباشرة ، وظهروا والتاج ذو القرنين على رؤوسهم ، مما يشير إلى الألوهية ، وشيدت لهم المعابد الصغيرة ، وقدمت لهم النذور . . وبعد انهيار سلالة أور الثالثة جاء عدد من صغار الحكام سيطروا على أقاليم صغيرة ، وظهروا أمام رعيتهم فى سمو إلهى تضاءل خلفه الارتباط بطقوس عبادة محلية . . ومثل هذا التأليه دل على مجرد إعلان عن النفوذ ، أو كان وسيلة لتثبيت النفوذ ، أو كان تغطية لضعف من كان يعوزهم النفوذ .

كانت السيطرة على الأنهار والقنوات فى يد الملك ، وكان عليه أن يؤكد ذلك الامتياز له على الدوام أمام مختلف التجمعات السكانية ، حتى صيد السمك أظله الامتياز الملكى بمظلته ، إذ تدل الوثائق على أنه كان تحت تصرف الملك فى (لارسا) كميات كبيرة من الأسماك ، بسبب احتكاره صيد البحر والنهر والقنوات .

وكان فى حوزة القصر قطعان كبيرة من الأغنام والماعز والأبقار ، وسيطرة على تجارة الأصواف .

ويتبين من رسائل حمورابى أنه كان ثمة (مزارع التموين) يشرف عليها موظفون من قبل القصر ، مسئولون مباشرة أمام الملك .

حتى (محكمة هيئة الشيوخ) لم تكن تستطيع العمل إلا من خلال توجيهاته ، وكانت صلاحيات المحاكم المحلية فى أضيق الحدود .

وهذا الأستاذ **باقر** يقول (مج ١ ص ٣٨٤ / ٣٩٥) : إن المآثر العراقية القديمة تنص على أن نظام الملوكية هبط من السماء ، من بعد الطوفان ، و (حين نزلت وظيفة الملوكية وشارات الملك من السماء إلى الأرض ، بحث الإله (إنليل) والإلهة (عشتار) عن راع للبشر ، إذ لم يكن فى الأرض ملك ، فنصّب الإله إنليل ملكا من البشر) .

وفى شرائع العراق القديم نجد الإله الأعلى ينتخب إله المدينة ، ثم ينتخب هذا ملك المدينة .

وظلت فكر الانتخاب (الإلهى) هذه أهم مبرر للوصول إلى الحكم ، إلى

زمن (قورش) الفارسى الذى برر حكمه لبلاد بابل بقوله : (لقد استعرض الإله مردوخ كل الأقطار ليبَحث عن ملك ، وفق رغبات قلبه . . . لقد سمّى اسمه «قورش» صاحب الشأن ، وجعله ملكا على الكون) .

وقد بلغ وكلاء الآلهة ونوابهم (الملوك) مكانة مقدسة ، واكتسبوا صفات الآلهة ، وكتبت أسماؤهم مسبوقة بعلامة التأليه التى تسبق عادة أسماء الآلهة .

كل هذا ويستدرك المؤرخ الكبير قائلا : (لكنهم لم يصيروا آلهة حقيقيين ، كما كان فراعنة مصر ، حيث صار الفراعنة آلهة أوأبناء بالمعنى الحرفى ، أما ملوك العراق فكانوا أبناء آلهة بالتبنى ، فقد يتبنى إله ملكا ، وقد تُعنى آلهة ببعض الملوك ، فترضعهم وتسميهم بأسمائهم ، ولذلك كانت وراثة العرش من الأمور المهمة المقدسة) . . ولما لم يكن سرجون الأكدى من صلب الملوك ، فإن الإلهة (عشتار) أحبته ، وقلّدته حكم البشر .

وهناك رسائل من ملوك آشور (إلى الإله آشور) بمثابة تقارير خاصة عن سير العمليات الحربية ، من مرءوس إلى رئيسه ، وكان الملك يتولى تفسير مايريده الإله ، ويمثل رعيته أمامه ، بالإضافة إلى إدارة المملكة . . ومع أن الكهنة والعرافين كانوا يعينون بأمر الملك ، فإنهم كانوا يتولّون تفسير إرادة الإله .

حتى المعابد لم تكن تبنى إلا بناء على رغبة الآلهة وتوجيهها .

نجد فى مسلة (أور – نمو) مشهد الملك يتسلم أوامر إلهه لبناء معبد القمر وزقورته فى أور ، ومشهد الملك يتسلم من الإله أدوات البناء ، مثل الخيط والشاقول والفأس .

وروى الملك **الأشورى** (أسر حدون) كيفية تعيينه لولاية العهد ، قائلا : (كنت أصغر إخوتى ، لكن والدى كرمنى فى مجلس إخوتى ، بأمر الآلهة آشور وشمش ومردوخ ونبوعشتار نينوى وعشتار أربيلا ، مُصرّحا بقوله : هذا هو خليفتى) .

* كانوا يعتقدون أن سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة ، ولهذا تتخذ إجراءات صارمة لضمان هذا .

ومن هنا ما يقوم به الملك طوال حياته من أعمال تحكمه طقوس دينية واحتفالات تضمن طهارته ، وتحرس شخصه . . وفى حالة ترقب نذير شؤم يوضع على العرش ملك بديل يتلقى الفأل السيئ ، أو الموت إذا كانت النبوءة بذلك .

وهذا كله - دون شك - من (ملاعيب) الكهنة والعرافين ، تقربا إلى الملك ، أوتسلّطا عليه ، لأنهم أوّلا وآخرا صُنّاع الآلهة ، وهم الوسطاء بين الملك والآلهة ، وبيدهم كسب رضا الآلهة ، وإشعال سخطها .

كان بوسع الكهنة - عن طريق هذه الآلهة (المزعومة) - أن يتحكموا فى كل القوى المهيمنة على اقتصاد البلاد ، وعلى مقدراتها ، بحيث كان المتعّبد الثرى (يستطيع بدلا من القيام بنفسه بالصلاة والنواح أن يودع المعبد شيئا مناسبا ، على سبيل الهدية ، تمثالأصغيرا ، بعض الأوانى النحاسية ، شاهدا أو حجرا تذكاريا ، خاتما ، قطعة من المجوهرات ، وتوضع هذه الأشياء قريبة من تمثال (الإله) ، لتذكره بصاحب الهدية ، ولتكون تعبيرا عن شكره على نعمه) .

ثم إن الآلهة كالبشر (تحتاج إلى مؤن منتظمة من الطعام والشراب ، توضع أمامها على الموائد ، فى الصباح والمساء ، واللحوم المفضلة عندها هى لحوم القرابين) .

(ولابد أن يصب الدم أولا فى فناجين ، ثم تختار الأجزاء الممتازة ، كالرئتين والكبد ، لمعرفة الطالع ، وتقدم إلى الآلهة الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن ، إلى جانب الأطعمة الرئيسية من خبز الشعير والبصل والبلح ، أما الزيت والخمور والبخور فتقدم بسخاء) .

(وكل شئ يسجله الكتبة بدقة شديدة ، ثم تودع تقاريرهم سجلات المعبد) .

(وتحظى التماثيل بزينات جديدة ، وزخارف حديثة ، فى العيد الخاص بها) .

ويلاحظ أن هذه (الملاعيب) لم تكن وقفا على كهنة (وادى الرافدين) ، فهى صناعة الكهنة فى كل مكان ، وفى كل زمان . (انظر ماكتبته فى «دراسة

فى التوراة والإنجيل» ، و «كنانة اله يافرعون» ، و«مسيحية بلا مسيح») .

* ثم إن التقدم الحضارى - على مستوى العالم - لم يُغْفل دعاوى الألوهية ، فالإسكندر الأكبر ادعى أنه ابن الإله ، أو ادعى لَه (الكهنة) والمستفيدون ، وقد حدث هذا مع كل من حتشبسوت ورمسيس الثانى ، كما حدث مع سرجون الأول الذى روى على لسانه (هأنذا سرجون الملك القوى ، ملك أكاديا ، كانت أمى فقيرة ، وماعرفتُ أبى قط ، وكان شقيق أبى يعيش بين الجبال ، وقد ولدتنى أمى الفقيرة سرا ، ووضعتنى فى سلة من القصب ، وأغلقت بابها بالقار ، ثم ألقتنى فى النهر ، فلم تبتلعنى لججه ، بل حملتنى مياهه ، حتى أوصلتنى إلى « أكىّ » الموكل بالرى ، وقد تلقانى «أكىّ» هذا فى طيب قلبه ، وربّانى «أكىّ» حتى أصبحت غلاما يافعا ، وجعلنى «أكىّ» بستانيا ، وأدخلت خدماتى السرور على قلب «عشتار» ، وأصبحت بذلك ملكا) - معالم التاريخ الإنسانى مج ٢ ص ٢٨٥ .

وسرجون الأكدى هذا - كما يقول الأستاذ **باقر** - هو الذى أدخل اسم الملك فى العقود مع أسماء الآلهة - مج ١ ص ١٢٤ .

وفى الدولة الرومانية ادعى أوكتافيوس الألوهية ، وكذلك نيرون وغيرهما من الأباطرة ، ورأى دقلديانوس أن سلطان الإمبراطور يكون أعظم كثيرا ، وتكون حياته أكثر أمنا ، لو أنه أصبح نصف إله ، وأضفى على ألوهيَّته مظاهر الصدق الخارجية ، بأن ادعى الانتساب إلى المشترى **Jupiter** ملك الآلهة ، وبذلك يسّر السبيل لدخوله إلى البانثيون الرومانى ، مثوى آلهة الرومان ، واتخذ مكسميان لنفسه جدا محبوبا من الناس ، وإن كان أقل قدرا ، هو هرقل ، وحاول قسطنطيوس ، قيصر الغرب ، أن يمزج عقيدته الميثرائية بعبادة الإمبراطور ، بأن أصبح سليل أبوللو إله الشمس - الحضارة البيزنطية ص١٧ / ١٨ .

وفى ظل السيطرة المسيحية كتب لاوون الإيسورى إلى البابا يقول : (إنى إمبراطور وقسيس) ، وادّعى أنه الوكيل (الذى أمره الله أن يطعم قطيعه ، كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه) ، ووافق البابا على ذلك ، مادام الإمبراطور

مقيما على مذهب السلف القويم ، أومادام هذا الإمبراطور لاينازع البابا سلطانه .

وحصل جستنيان الأول على حق الإمبراطور فى إصدار التصريحات المذهبية الدينية ، وكان من وظيفته أن يرأس مجالس الكنيسة ليثبت سلطانه الدينى والدنيوى . . ولهذا قال باسيليوس الأول لوريثه لاوون السادس ، (إنك حصلت على التاج من الله عن يدى) .

ومن هنا طمع البابوات فى فرض سلطانهم على الملوك ، وأشعلوا حروبا ضارية للاحتفاظ بحق تنصيب الملوك وتتويجهم ، ونافسوا الملوك فى إصدار القرارات الدنيوية .

ومازال الحال إلى اليوم تمتد السلطة المدنية لتمسك بزمام السلطة الدينية ، أو تمتد السلطة الدينية لتمسك بزمام السلطة المدنية ، لافرق بين أن يقول جيمس الأول ملك انجلترا : (لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على مايستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكا لايستطيع أن يفعل هذه أو تلك) ، وبين أن يقول لويس الرابع عشر ، ملك فرنسا : (أنا الدولة) ، أو أن يصدر أى حاكم دولة (مستجدية) ، القوانين التى تقدس ذاته ، ويعدّ الكفر بالله أهون من الكفر به ، لأن الكفر بالله تغفره التوبة ، أما الكفر بالحاكم فلا غفران له ، والكفر بالله مقصور إثمه على شخص الكافر ، أما الكفر بالحاكم فيمتد عقابه إلى الآباء والأبناء وذوى الأرحام ، طولا وعرضا .

إنه الطغيان الذى يؤله نفسه ، والاستخذاء والهوان الذى يؤله غيره !!

* يقول الأستاذ **باقر** : (فى درسنا لأساطير الخليقة ، فى كل من الحضارتين ، نجد نظام الخلق فى حضارة وادى النيل ، قد وجد منذ الأزل ، من جانب الآلهة ، بدون كفاح ، أما الخلق فى حضارة وادى الرافدين فلم يتم إلا بعد صراع واحتراب بين الآلهة التى تمثل قوى الكون المختلفة) – مج ١ ص ٧٩ .

وهذا مرده إلى طبيعة الشعبين ، شعب أسبق إلى التوحّد وامتصاص

العناصر الدّخيلة ، وشعب يموج بالسلالات التى تتحرك على أرضه ، مدا وجزرا ، من الشرق والغرب ، والجنوب والشمال ، ولايزال هذا الشعب - بسبب كثرة الأخلاط والعناصر فيه - لاتستقيم قناته ، إلا بسيف الحجاج أو صدّام ، (فاحتراب الآلهة) العراقية صورة من احتراب الملوك ، وتآلف الآلهة المصرية صورة من السلالات الملكية التى توارثت السلطان .

وفى هذا يقول الأستاذ : على حين كانت مصر (إقليما مقفولا تقريبا) ، فقد كان العراق (معّرضا إلى هجرات الأقوام العَنيفة ، وإلى غزواتها المتكررة ، واختلاط السكان والحضارات فيه إلى درجة كبيرة) - مج ١ ص ٧٩ .

ويقول : (كان الإنسان القديم يعتمد فى عيشه على جمع قوته ، ولم ينتجه بيده ، إذ لم يتعلم الزراعة ، ولا عرف تدجين الحيوان ، فكان يعيش على الأعشاب والحشائش البرية ، ويستخدم جذور النبات ويجنى أثمارها ، ويطارد الحيوان بآلاته الساذجة القليلة ، ولذلك يصح أن يُطلق على هذا الطور من العصور الحجرية اسم طور جمع القوت) - مج ١ ص ٣١ .

* وفى ص ٢٩ قال : (إن عصور ماقبل التاريخ شغلت أكثر من ٩٩٪ من حياة البشر) .

وهذا القول يستدعى أكثر من سؤال :

ألم يؤد الانتقاء العشبى إلى خبرة طبية ، بالإضافة إلى الخبرة بالنبات ، وكان هذا حسبه لتكثير النبات المفيد ، وكيف لنوح - عليه السلام - أن يهتدى إلى سفينة (ذات ألواح ودسُر) ، وكل من الألواح والدسر لايمكن الحصول عليه بدون أدوات متطورة ؟ أليس هذا دليلا على حضارات خلال زمن الـ ٩٩٪ ؟

ثم ماتلك الرسوم التى خلفها إنسان (العصر الحجرى) فى الكهوف والمغارات ، أليست دليلا على قدر من الحضارة اندثر ؟

وهل كانت رسوم الكهوف والمغارات إلا نماذج سجلها إنسان ماقبل الحضارة ، والأبنية (ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، كما يروى القرآن الكريم عن (إرم) قوم عاد الذين سكنوا حدود (الأحقاف) ذات الرمال الناعمة ؟ ليتنا

نقرأ ماكتب الطبرى والنويرى والمقدسى وماجاء فى كتاب « التيجان » من أساطير عن هذه الأبنية !!

ثم إن التاريخ القريب يحدث بلسان أفلاطون عن (قارة أتلانتيك) ذات التقدم الحضارى الباهر ، ثم اختفت ، وظن المؤرخون والعلماء بأفلاطون الظنون ، واليوم تجرى أبحاث جادة للكشف عنها ، وتحديد مكانها بالقرب من جزر الكاريبى ، و (تسجيل) أكثر من دليل على وجود آثارها . . فهل نستبعد اختفاء حضارات أخرى خلال التغيرات الجيولوجية التى لاتزال تفعل أفاعيلها بالقشرة الأرضية ؟

يقولون إن الحضارة بنت التحدى ، وإن الحاجة تفتق الحيلة ، فماذا كان والإنسان فى مواجهة أكبر التحديات ، حين كانت (الكرة الأرضية) تعانى من مخاضات التكوين ، ومحاولات الاستقرار برا وبحرا وجوا ؟

كيف لنا أن ننكر سبقا حضاريا زمن الـ ٩٩٪ ، والمؤرخ الكبير يعترف بأنه (وجدت فى جدران الكهوف التى التجأ إليها الانسان صور ورسوم ملونة تعد على نصيب كبير من دقة التعبير والحيوية ، وكان أغلب هذه الصور يمثل الحيوانات التى كان الإنسان يصطادها لأكلها ، لأنه كان مدفوعا فى فنه بدوافع السحر ، حيث اعتقد أنه يرسم الحيوانات على سقف الكهف الذى يعيش فيه ، ليتمكن من السيطرة عليها وهى حية ، ونشأت عند الإنسان فى هذا العصر بعض الأفكار عن الحياة والموت ، وظهرت أولى بذور الدين ، على هيئة اعتقادات ورسوم بدائية ، وممارسة للسحر ، كما يظهر ذلك فى الدافع الذى دفع الإنسان على عمل الرسوم والنقوش فى داخل الكهوف التى عاش فيها ، ويمكننا اعتبار السحر أول محاولة إنسانية فاشلة للسيطرة على الطبيعة بأعمال السحر) - مج ١ ص ٣٦ .

أليست الدقة فى التصوير والتلوين ، والاستعانة بالسحر ، وسائل حضارية ؟ ألأنّنا لم نعرف يحق لنا أن نُفْكر ؟ أليس الأخذ بفضيلة (لا أدرى) يجنب العثرات ؟

لماذا لم يتحدث المؤرخون عن رسوم خارج الكهوف ؟ طبعا لأن عوامل التعرية لم تُبق عليها ، مع أنها الأصل فى السيطرة على الطبيعة ، (فخيال المآتة)

يحمى النبات والثمار من الطيور ، ورسوم الحيوانات تجمع الحيوانات المُمَاثلة ، مما يسهل عملية الصيد والتدجين ، أما الرسوم داخل الكهوف فهى وسيلة تسلية فى فترة (الكمون) الجليدى ، وهى مجرد دغدغة لرغبة الامتلاء ، ولابد من الوقوف عند (الدقة فى الرسم وتلوينه) داخل ظلمة الكهف ، وفى مساحة سقفه ، لأن هذا يتطلب الحصول على إضاءة نقية (غير خانقة) ، ويتطلب أدوات (دافنشى) وهو يرسم أسقف الكنائس ، والتلوين الذى عاش آلاف السنين يحتاج إلى خبرة بخصائص المواد ، وهذا يشير إلى مرحلة حضارية أغفلها المؤرخون ، وليتنا نعترف أن كل الشعوب النامية وفى مقدمتها كل البلاد العربية تستورد الأحبار والألوان من الخارج ، وهى أحْبار وألوان لاتصل فى الجودة إلى ماكان يملكه قدماء المصريين !!

أما عن السحر فيبدأ بالمواجهة ، والاستعانة بالقوى الروحية للتأثير على مايراد إخضاعه ، ولاتكون محاولة التأثير فى حجرة مغلقة إلا إذا وثق الساحر من تجاربه ، فنقلها من العلن إلى الخفاء ، وهذه نقله فكرية أو (علمية) حضارية .

* ويقدم المؤرخ الكبير فى (مج ١ ص ٣٠) نماذج من آلات الصوان التى صنعها الإنسان موحّدة فى التاريخ البشرى القديم ، كأنه لا اختلاف فى البيئة ، ولا اختلاف فى طريقة (التصنيع الحجرية) ، مما يشير إلى أن حركة (الوعى) الإنسانى لاتقتصر على مكان دون آخر .

وإذا كنا اليوم نسمع عن طفل عمره ثلاث سنوات مؤهل لدخول الجامعة ، وآخر دخل الجامعة وعمره سبع سنوات ، وموسيقارآخر يحيى حفلات موسيقية وعمره لم يتجاوز السابعة - أفكان هذا النبوغ مقصورا على إنسان العصر الحديث الذى يجمع بين هذا النبوغ والحيوانية المتدنّية ؟

قد يقال إن البيئة المتحضرة ساعدت على النبوغ ، وقد يتحدثون عن الهندسة الوراثية والهرمونية . . لكن هذه البيئة المتحضرة لم تساعد الجميع على النبوغ ، فما تزال الفوارق الفردية والمكتسبة تباعد بين الإخوة ، وبين زملاء الدراسة .

وإذا كان عهد سومر يبدأ من ٣٠٠٠ ق . م (مج ١ ص ٢٦) فأين كان

الإنسان قبل ذلك ؟ أكان يعيش فى الكهوف والأحراج والمستنقعات ، حتى إذا كان (العهد السومرى) تحضر ؟!

* ويقول المؤرخ الكبير : (إن تدجين الحيوان ظهر بسبب الزراعة ، لانجذاب قطيع الحيوان إلى مزارع الإنسان ، المضمون فيها القوت) - مج١ ص ٤٥ - وفاته آن التدجين يمكن أن يتم عن طريق عثور الصياد على (أطفال) الحيوانات ، فيعود بها ، وتعمل امرأته على تنميتها لتؤكل ، أو لتستخدم فى وسائل أخرى ، وبخاصة أن من الحيوانات المدجنة ما لايأكل العشب ، كالكلاب ، وهى من أوائل المدجنات .

ويقول : (الثابت أن الزراعة وتدجين الحيوان قد نشأ بوجه مستقل فى مركزين من العالم ، وهما الصين ، حيث بدأت زراعة الرز ، فى حدود ٣٠٠٠ ق.م ، وفى أمريكا فى حدود ١٠٠٠ ق.م ، حيث بدأت زراعة الذرة) - مج ١ ص ٤٦ .

وهذا وهم لا أساس له ، لأن المعلول يتبع العلة ، وحيث وجدت المياه العذبة وجدت الزراعة ، سواء كانت هذه المياه ناشئة عن البحيرات والأنهار ، أو عن العيون والأمطار ، بل لانستثنى المياه الملحة حيث تكثر غابات النخيل التى تثمر التمور وجوز الهند والباباز والزيوت ، ثم ماعلة الأرز والذرة ؟ لم لايكون القمح والشعير ؟ ولم لا تكون البقول المختلفة ؟ ولم لا تكون الفواكه المتنوعة ؟ ولم لا تكون الأعشاب بوجه عام ؟!

ويزعم أن (البحث الحديث فى الموازنة بين حضارات الشرق الأدنى - كشف - عن وجود صلات حضارية قوية بين العراق ومصر ، فى أواخر الطور الحجرى المعدنى - ماقبل السلالات - وتتضمن هذه الصلات نواحى مهمة من مظاهر الحضارة ، كالآثار المادية والصناعات والاختراعات وبعض الأساليب والأطرزة الفنية ، وهى كلها خاصة بحضارة العراق ، واستمرت فيها) - مج ١ ص ٥٣ .

من أين جاءت هذه الخصوصية ، مع أن الصلات المشتركة تفيد تبادل المعرفة من قبل التواريخ التى سبق أن ذكرها مج ١ ص ٥٢ ؟ ثم إن أحدا لايستطيع أن

يقيم دليلا على سبق الحضارتين العراقية والمصرية ، قبل الصينية والهندية ، وحضارات المايا والأزتك ، بل وحضارات شمال البحر المتوسط وجُزره ، وإذا كان قد تم الوقوف عند كريت من دون بقية الجزر والشواطئ فإن هذا لايعنى الأسبقية الحضارية ، بل هو الجهل بغير ماسبق إليه العلم ، ولو أننا أخذنا فى الاعتبار عصور الجليد التى امتدت إلى الدلتا المصرية ، لكان لنا أن نحكم بسبق الحضارة الاستوائية ، وليست المصرية العراقية ، وبخاصة أن آخر ماوصل إليه العلم هو أن آدم نشأ فى وسط أفريقيا أو فى جنوبها ، مع التحرز من الوقوع فى إسار هذه التخرصات ، لأن الحديث عن الإنسان الأول تلجلج عند أصقاع كثيرة من العالم [1] .

(١) طلع علينا طالع فى جريدة الأهرام (أعداد السبت من نوفمبر ١٩٩٨) يعرض أقوال من يدعون أن مهبط آدم كان فى منطقة بحر قزوين التى كانت مغطاة بالجليد إلى ما قبل عشرة آلاف عام ، (وكان آدم عاريا) إلا مما يستر عورته ، ومن يدعون ويؤكدون أن مصر مهبط آدم ، فاعجبْ !!

آلهـــــة عـــلى حـــدود الرافـدين

وتحدث المؤرخ العراقى الكبير عن مآثر العراقيين القدماء بأنهم عرفوا صنع النحاس فى العهد المُسَمىّ (طور العبيد) ، فى حدود ٤٠٠٠ ق،م ، أى قبل أن تنشأ الحضارة السومرية بألف عام ، وعرفوا صناعة البرونز فى عهد (جمدة نصر) ، فى حدود ٣٢٠٠ ق.م ، أى قبل أن تنشأ الحضارة السومرية بمائتى عام . . وابتدعوا دولاب الخزاف ، وصنعوا الآجر ، والأختام الاسطوانية ، والعربة ذات العجلات ، والمحراث الذى حل محل قطعة الحجر التى كانت تستعمل لنبْش الأرض ، فى العصور الحجرية الحديثة ، واهتدى سكان العراق القدماء إلى صنع السفن الشراعية فى (عهد العبيد) . . وتُوجت هذه الوسائل كلها بابتداع وسيلة للتدوين ، أى الكتابة ، وقد تم ذلك فى العراق قبل غيره من أقطار الدنيا - مج ١ ص ٥٢ .

ولو أن المؤرخ الكبير حذف العبارة الأخيرة لكان عسى ، لأنه ليس من المعقول سبق العراق إلى صناعة السفن قبل سكان الجزر فى البحار والمحيطات ، وهناك جزر متقاربة محتاجة إلى تبادل السلع والمنافع ، وإلى الصراع على السلع والمنافع ، ولا وسيلة إلا صناعة السفن والتفوق فيها .

زرت سرنجار - فى مقاطعة كشمير - فوجدت تقدما فى صناعة السفن (الخشبية) لم أر مثله فى مكان آخر ، ولم يسعدنى الحظ برؤية مثله فى الأفلام السينمائية .

أما عن صناعة المحراث فالآثار المصرية ترجع به إلى ماقبل (جمدة نصر) بقرون عديدة ، ولايعقل أن الإنسان ظل يستعمل الحجر فى حرث الأرض ، حتى تم اكتشاف المحراث العراقى ، وتصديره إلى كافة الأنحاء الزراعية فى العالم ، ثم إن صناعة الآجر والخزف تفوقت فيها شعوب أخرى على العراق ، كما أن من العبث القول بسبق تصنيع الحديد والبرونز على المحراث الذى يمكن الاستعانة فى صناعته بوسائل أولية .

إنه مما لاشك فيه أن البيئة العراقية هيأت لظهور الحضارة السومرية ، منذ آلاف السنين ، لكن هناك بيئات أخرى لاتكاد تختلف عن البيئة العراقية قدرة

على (ابتداع) الحضارات ، فى مصر ، وفى حوض البحر المتوسط بعامة ، وفى وسط آسيا ووسط أوربا ، وفى أفريقيا وأمريكا ، فضلا عن الهند والصين .

وإذا كان العراق لايشكل عرقا واحدا ، إذ (لم يقتصر تاريخ الأقوام فى العراق - منذ أقدم العصور - على عرق واحد ، وإنما قطنه عدة أقوام ، أهمهم الساميون الذين طغوا على معظم أجزاء الشرق الأدنى ، وقد ثبت وجود هؤلاء منذ أقدم الأزمان ، وأنهم عاشوا مع السومريين) - مج ١ ص ٩١ - فإن هذا الاعتراف ينفى كل المزاعم عن تفوق العرق السومرى ، أو العراقى .

* إن نظرة سريعة إلى طبيعة التكوين الجيولوجى مابين البحر الأحمر وجبال سليمان من الهندوكوش ، ومابين بحر العرب وبحر قزوين وجبال البرز والبحر الأسود - تفيد أن هذه المنطقة الواسعة التى لعبت فيها إمبراطورية فارس أهم أدوارها ، إنما هى بيئة واحدة تموج بشعوب لاتكف عن الحركة إلى الشمال وإلى الجنوب ، وإلى الشرق وإلى الغرب ، حتى مصر التى زعم الأستاذ **باقر** أنها كانت فى عزلة لم تنج من حركة المد والجَزْر لتلك القبائل فى هذه الساحة الواسعة ، كما لم تنج مصر (المنعزلة) من الهجرات الأفريقية من جنوب ومن غرب .

يقول المؤرخ الكبير : (بدأت الهجرات من أزمان موغلة فى القدم ، وكان جزء كبير من المهاجرين قد حلّوا فى وادى الرافدين الأسفل ، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون العرب من الشرق والشمال فى إنشاء الحضارة السومرية) - مج ٢ ص ١٩٢ .

ويضيف الدكتور **الكسندر ستيبتشفيتش** (تاريخ الكتاب جـ ١ ص ١١) أنه لم يتوصل إلى أصل السومريين ، ولا إلى الجنس الذى ينتمون إليه ، وهناك من يفترض أنهم - فى الألف الخامسة قبل الميلاد - هبطوا من الشمال ، وربما من منطقة بحر قزوين ، واستوطنوا الجزء الجنوبى للسهول الخصبة بين دجلة والفرات ، وبعد عدة قرون من قدومهم أقاموا حضارة ممتازة ، ومن هذه الحضارة تشربت كل الحضارات الكبرى التى تطورت فى الشرق الأوسط .

وهذا الرجم بالظنون والفروض يعتمد على كثرة الهجرات التى تميزت

بها شعوب هذه الساحة لأسباب اقتصادية أو سياسية .

والمعروف تاريخيا أن الجزير العربية كانت مخزونا بشريا ، يتحرك مدّه المستمر - حتى اليوم - إلى أنحاء مختلفة من العالم ، حتى مصر (المنعزلة) أصابها حَظ موفور من هذا (المخزون) البشرى .

وقد قامت فى هذا الجنوب العربى حضارات قديمة ، مثل حضارة (إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، ولعل هناك حضارات أخرى أغفل القرآن الكريم ذكرها ، لأنها لم ترتبط بنبى أو رسول إلهى ، ثم ظهرت حضارات موفورة الصِّحّة والقوة ، مثل حضارة (معين) التى قال عنها الأستاذ **باقر** : فى حدود (١٢٠٠ أو ١٣٠٠ إلى ٦٠٠ أو ٧٠٠ ق . م) ازدهرت دولة معين فى جوف اليمن ، بين نجران وحضرموت ، وشملت فى عهد ازدهارها جميع جنوبى الجزيرة تقريبا ، وامتد نفوذها إلى أجزاء الجزيرة الأخرى ، ولا سيما فى الشمال الغربى ، وقد أثّر المعينيون فى هذا القسم ، كما تثبت ذلك النقوش الثمودية التى ترد فيها أسماء الآلهة المعينية ، وكما تشير إلى ذلك النقوش المعينية التى وجدت مع نقوش لحيانية فى منطقة العلا الآن (ريدان الواردة فى التوارة) ، وقد وجد الباحثون فى النقوش المعينية ٢٦ ملكا من ملوك معين - مج ٢ ص ١٩٧ .

وأقدم وأشهر آلهة معين (أثتار) ، و (ود) ، و (نكرح) ، وقد وجد حديثا معبد للإله ود (القمر) فى موضع يدعى حريضة فى حضرموت - مج ٢ ص١٩٨ .

وفى حدود (٩٥٠ - ١١٥ ق . م) قامت دولة سبأ ، فى جنوبى الجزيرة ، فى الزاوية الجنوبية الغربية منها ، وكانوا كالفينيقيين على معرفة تامة بطرق البحر العربى ومسالكه وموانئه ورياحه وتقلباته ، وقد طافوا سواحل الجزيرة ، ولصعوبة الإبحار فى البحر الأحمر التجأ السبئيون إلى طريق برى ، بين اليمن وسوريا ، عن طريق مكة إلى البتراء ، إلى غزة ، ويخرج من حضرموت طريق إلى مأرب ، عاصمة سبأ ، حيث يتصل بطريق الشام .

والملوك السبئيون عاصروا المتأخرين من ملوك معين ، وورثوا عنهم مملكتهم

وسلطانهم – مج ٢ ص ١٩٣ .

وعاصرت مملكتا قتبان وحضرموت مملكة سبأ ، وكانت عاصمة قتبان (تمنع) ، وعاصمة حضرموت (شبوه) .

وأهم آلهة قتبان (عم) ، وهو من الآلهة السامية الغربية ، ويدخل فى أسماء ملوك من السلالة الأمورية ، سلالة بابل الأولى التى اشتهرت بملكها السادس حمورابى ، مثل (عمى صادوقا) ، (عمى ديتانا) ، وحتى اسم حمورابى يدخل فيه اسم هذا الإله .

وقد انتهى أمر دولة سبأ بقيام دولة حمير (١١٥ ق.م – ٣٠٠ م) .

ومما يشير إلى نفوذ السبئيين فى القسم الشمالى من الجزيرة أن اسم مكة مشتق من صيغة سبئية تعنى المزار ، أو المعبد ، وهى (مكورابة ، أو مكرابة) ، وهذه الصيغة لها علاقة باسم ملوك السبئيين (مكرب) ، وقد جاء ذكر مكة بهذه الهيئة فى جغرافية بطلميوس – مج ٢ ص ٢٠٠ .

* ويبين الأستاذ **محمد عبد القادر** بافقيه فى (تاريخ اليمن القديم – ص٢١٢ / ٢١٧) أن الديانة اليمنية القديمة كانت ديانة فلكية ، تقوم على عبادة آلهة تجسّدها أجرام سماوية ، يمكن إدراجها تحت ثالوث الزهرة والشمس والقمر .

أما نجم الزهرة فقد ورد فى النقوش باسم عشتر ، ويعتقد أنه كان إلهًا أثيرًا لدى متعبديه .

وإله القمر عند المعينيين والأوسانيين هو (ود) ، وعند السبئيين (المقه) ، وعند القتبانيين (عم) ، وعند الحضارمة (سين) .

والشمس كانت عند المعينيين (نكرح) ، وهو اسم يصعب تعليله أو تفسيره ، وعند السبئيين (ذات حميم) ، ، و (ذات بعدن) ، و (ذات غضرن) ، و (ذات برن) ، وعند القتبانيين (ذات صخرن) ، و (ذات رحين) .

أما (إل) ، فإنه يرد بكثرة فى أسماء الأعلام العربية الجنوبية ، فى مثل (يدع إل) ، و (كرب إل) ، و (راب إل) ، ويقابله فى الشمال اسم إسماعيل

وإسرائيل وإسرافيل .

ويلاحظ أن النصب والصور التى تقام عادة للآلهة تكاد تكون مفقودة فى الديانة العربية القديمة ، وليس مايدل على تصوير الآلهة فى أشكال آدمية ، غير أنا نجد رموزا أخرى ذات دلالة دينية ، مثل رسم قرص الشمس والهلال ، وإلى جانب ذلك رسم بعض الحيوانات ، كالثور والوعل والنسر والأفعى .

وهناك نقش نص قديم فى (شبوه) على لوح نحاسى مَحْفوظ بالمتحف البريطانى ، يقول فيه مقدمه : إنه وهب (سين) ذهبا وبخورا ، ووضع فى رعاية الآلهة روحه وحواسه وأبناءه ومقتنياته .

وقد ارتبط قيام المعابد بقيام طبقة الكهان ذات النفوذ الواسع ، وشهدت العهود القديمة جمعا بين السلطتين الزمنية والروحية فى أشخاص الحكام الذين كانوا يدعون (المكربين) أى المقربين ، وكان الكاهن يؤدى أعمالا مدنية وعسكرية .

والقرابين كانت دموية ، كما يستدل من وفرة المذابح التى عَثُر عليها فى الحفريات ، بالإضافة إلى البخور ، وليس مايدل على تقديم قرابين بشرية .

وقد احتوت المدافن أوانى ومواد حياتية ، كما هو الحال فى الديانات القديمة بعامة .

ووجد اعتقاد بالأرواح الشريرة ، التى تتمثل فى السحر والحسد ، ولاتزال حتى اليوم تتخذ تمائم سّن الثعلب ، للأطفال ، ويعلق قرنا الوعل والمرّ بالمنازل ، ويشوه وجه الوليد بالمّر الأسود ، وتحرص النساء على حرق المّر كل صباح لطرد الشياطين . . وعثر على رسم كفوف آدمية بأصابعها الخمسة ، لعلها وسيلة أيضا لطرد الشياطين .

وكان الملوك يقتسمون غنائم الحروب - بما فيها الأسرى - مع الآلهة ، ويعمدون إلى محو نقوش آلهة العدو .

* وفى شمال بلاد الشام أسّس الفريجيون عاصمتهم فى موضع (أنقرة) ، واتخذوا لعبادتهم الآلهة المحلية التى وجدوها ، واشتهرت من بين آلهتهم الإلهة

(سبيله) ، ولعلها إلهة حثية تمثل الخصب ، مثل الإلهة البابلية عشتار ، وقد روت الأساطير اليونانية أن الفَريجيين مارسوا البغاء المقدس فى عبادة هذه الإلهة ، وقد اتخذ الرومان الإلهة (سبيله) بين آلهة الدولة الرسمية ، وكان لها زوج حبيب هو (أتيس) الذى وُلد من إلهة عذراء هى (نانا) ، وقد صار الرومان يقيمون المهرجانات الدينية المتّصفة بالخلاعة والتهتك فى الأعياد الخاصة بهذين الإلهين .

وقد أثبتت الآثار وجود الحوريين فى تل العطشانة ، فى سهل أنطاكية ، وهى وثائق مهمة يرجع بعضها إلى زمن حمورابى ، وبعضها من عهد العمارنة (القرن الرابع ق.م) ، وكان مركزهم فى العراق فى (توزى) ، قرب كركوك ، وفى كركوك أيضًا ، وكانت ثقافة الحوريين عنصراً مهمًا فى ثقافة الهكسوس المتأخرين فى سوريا .

وقامت دولة ميتانى فى الإقليم الذى تمركز فيه الحوريون ، شمالى مابين النهرين ، وكان سكانها فى الدرجة الأولى من الحوريين ، ولكن يؤخذ من أسماء ملوكها أن أصل الطبقة الحاكمة من الأقوام الهندية الأوربية ، وكان يدخل فى هذه المملكة جزء من شمالى سوريا وإقليم كركوك ، لكن ما لبث أن تقلصت حدودها حتى انحصرت فى شمالى مابين النهرين .

وكان الاسكيثيون يعيشون فى الشمال من بلاد الأرمن ، على طول سواحل البحر الأسود ، وهى قبائل متنقلة هائلة ، عرفت باسم **Scythian** ، ويرجح أن تكون خليطا من القبائل المغولية والقبائل الهندية الأوربية ، وقد اشتهرت هذه القبائل الشرسة القوية بغزواتها المدمرة لدول العالم القديم المتمدنة آنذاك .

وقد وصف هيرودوت هذه القبائل بأنها متوحشة ، يركب أبناؤها الخيول العارية الوحشية ، ويشربون دماء أعدائهم ، ويستعملون جماجمهم للشرب ، ولهم دور كبير مع كل من إيران والهند ، كما صار لهم دور كبير فى غزو أوربا فيما بعد (**طه باقر** مج ٢ ص ٣٥٩ / ٣٦٨) .

*** من ناحية الشرق كانت بلاد عيلام ، وهى بلاد السوس القديمة (خوزستان) التى تعد من الناحية الجغرافية امتدادا لسهل مابين النهرين الأسفل ، لأنها تتألف من الأرض الرسوبية التى كونها نهر كارون فى روافده الكثيرة ،**

وكان هذا الإقليم أقدم أجزاء إيران فى استيطان الإنسان له ، كما ظهرت فيه أقدم الأطوار الحضارية ، وهو إلى ذلك أصلح جزء ليكون مركزا لإدارة الدولة الإيرانية لمّا اتسعت عبر (زجروس) إلى مابين النهرين ، وإلى آسيا الصغرى ، وهناك سهل آخر فى محاذاة الجبال المتاخمة لبحر قزوين ، وهى جبال مهمة . من ناحية جذبها الرياح الممطرة الغزيرة . . وهذا السهل يكتسب خصوبة ، وتكثر فيه الغابات والغياض والأحراش ، وينمو الرز والقطن والشاى والتبغ وقصب السكر والبرتقال والليمون والتوت والتين والرمان ، وهو يزود البلاد بثلث قوت السكان .

وفى الإقليم المسمى إيرانويج Eranuij ، بين سيحون وجيحون ، فى إقليم خوارزم وسمرقند ، أقام الآريون الذين التحم تاريخهم بالتاريخ الإيرانى زمنا طويلا (**طه باقر** مج ٢ ص ٣٧٥ / ٣٨٩) .

* هذه هى الروابط الحميمة والحدود المشتركة التى أسهمت فى صناعة حضارة واحدة ، اختلفت مسمياتها باختلاف الدول التى قامت على أرضها . . يشهد بهذا قول الأستاذ **باقر** عن السومريين .

فلا غَرو إذا نظرنا إلى هذه المنطقة الشاسعة على أنها تتحرك فى إطار واحد ، وليس أدل على هذا من تلك الآلهة المتعددة التى فرضت سلطانها على تلك المنطقة الممتدة الأذرع ، أو التى وجدت استجابة لعبادتها - بصورة أو بأخرى - عند هذه القبائل التى أخذت تتبادل صحائف التاريخ ، حتى قيام الدولة الإسلامية ، وانتشار حضارة الإسلام .

آلهـــة وادى الرافـــدين

يقول الدكتور **فاضل عبد الواحد** فى كتابه (عشتار ومأساة تموز) : إن أبرز الآلهة السامية التى أدخلت عبادتها إلى وادى الرافدين ، فى عصر مبكر جدا ، هو (إيا : Ea) إله المياه الأزلية ، الذى يوازيه عند السومرين إنكى Enki إله الأرض ، ثم سن Sin إله القمر الذى يعرف فى السومرية باسم نانا Nanna ، ثم شمش Shamash إله الشمس الذى يرادفه الإله أوتو Utu عند السومريين . . على أن من أبرز الآلهة التى كتب لها أن تلعب دورا بارزا فى الآداب والفنون هى الإلهة عشتار التى سماها السومريون إنانا Inanna أى سيدة السماء ، وعرفت باسم (عشتار وعشتوريت) فى سوريا .

هذا بالإضافة إلى أدد ، وأيا Aia ، وألوم ، وأبسوم Apsum ، وإيلوم ، وإيشوم ، وناروم ، وباداان Padan ، وشيبى ، ومردوخ ، ونابو ، وصربانيتوم ، وآشور .

وحظيت عشتار بقسط وافر من الألقاب والصفات التى تشير إلى الأوجه المختلفة من نشاطها . . ومن أبرز تلك الصفات وأكثرها شهرة كونها إلهة الخصب ، بما فى ذلك من مدلولات من الجنس والحب والتكاثر ، وكونها أيضًا إلهة الحرب .

أما الإله السومرى دموزى فمن المستبعد – فى نظر بعض الباحثين – أن يكون فى الأصل شخصية تاريخية ، وبموجب القائمة السومرية للملوك يوجد ملكان حملا اسم دموزى .

وعن (إنانا) يقول الأستاذ **كريمر** : لقد جسد السومريون كل مايتعلق بضمان بقاء الإنسان وتكاثره ، من حب ورغبة جنسية ، فى إلهة جميلة ومغرية ، مرهفة وشيقة ، هى إلهة الحب (إنانا) ، التى مركز عبادتها فى الوركاء ، إحدى مدن سومر الرئيسية ، منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد . . وبعد ذلك توصل بعض المفكرين والمبدعين من الكهان وعلماء الدين إلى ابتداع فكرة مفرحة وضامنة لتكاثر الإنسان والحيوان ، ولزيادة الخصب والعطاء فى مظاهر الطبيعة ، وذلك

بجعل ملكهم حبيبا وزوجا لإلهتهم إنانا ، وبهذا أصبح يشاركها الخصب والنفوذ والقوة ، وكذلك الخلود الإلهى .

يقول **كريمر** : وعلى هذا النحو ظهرت إلى الوجود طقوس (الزواج المقدس) ، التى تدور حول الإله دموزى الذى ينبغى أن يكون واحدا من مشاهير ملوك الوركاء ، وحَوْل إنانا إلهة الجنس التى كانت تعبد فى هذه المدينة .

جاء فى ترينمية سومرية على لسان الإلهة إنانا :

(وأنعمت النظر فى الناس كلهم / فاخترت من بينهم دموزى لألوهية البلاد / إنه من تعتز به أمى دائما / ومن يحبه أبى)

وبالغت الأساطير فهبطت بإنانا إلى مستوى البشر ، أو ارتفعت بالبشر إلى مستوى الآلهة ، ومن ثم أحبت إنانا جلجامش ، لكن جلجامش أبى أن يرقّ لها ، أو أن يخاطبها خطاب إنسان لإله ، بل شمخ بأنفه ، وتطاول عليها ، فعيّرها بأزواج سابقين لم تحسن معاشرتهم :

بعد رجوع جلجامش ظافرا من معركة هواوا Huwawa العفريت الموكل بحراسة غابة الأرز ، خلع ملابسه واغتسل ، ثم ارتدى ثيابا نظيفة ، وتمنطق بالحزام ، ووضع التاج على رأسه ، وآنذاك نظرت إليه إنانا ، فسرها جماله ، وأدهشتها رجولته ، وأعجبت به أشد إعجاب ، ولذلك عرضت عليه أن يتزوجها قائلة :

(تعال ياجلجامش ، وكُنْ حبيبا لى / تعال وامنحنى من ثمرتك / تعال وكن زوجا لى ، وأكون زوجتك / إنى سأعدّ لك عربة من اللازورد والذهب / عجلاتها من الذهب ، وقرناها من البرنز / وستكون لك شياطين العاصفة لتشد عليها ، بدلا من البغال الضخمة / وستدخل بيتنا على نفحات الأرز / وعندما تدخل البيت ستقبل العتبة والدكّة قدميك ، وسيمثل الملوك والحكام والأمراء بين يديك / ليقدموا لك الجزية ، محاصيل الجبال والسهول / وستضعُ عنزاتك ثلاثا ثلاثا ، ونعاجك التوائم / وسيفوق حمارك فى الحمل بغلك / وستكسب خيول عربتك شهرة فى السبق / ولن يكون لثورك مثيل تحت النير) .

لكن جلجامش رفض هذه الإغراءات ، وأفرط فى السباب :

(ماذا علىّ أن أقدم لك لو تزوجتك ؟ / هل أقدم الزيت والكساء للجسد ؟ هل أقدم الخبز والطعام ؟) .

(أى حبيب بقيت على حبه إلى الأبد ؟ / وأى من رعاتك طاب لك على الدوام ؟ / تعالى أسّمى لك عشاقك) .

(أحببت الأسد الكامل فى القوة / ولكن حفرت له سبع حفر وسبعا / وأحببت الحصان المشهور فى المعركة / ولكن كتبت عليه السوط والمهْمَاز والجَلد / وكتبت عليه الجرى سبعة فراسخ مضاعفة ، وكتبت عليه شرب الماء العكر / وكتبت على أمه سيليلى Silili البكاء / ومن ثم أحببت راعى القطيع / الذى كان يكدس لك أرغفة الخبز المحمّصة / ويذبح لك الجداء كل يوم / لكنك ضربته ، ومسخته ذئبا / ولهذا صار رفاقه فى الرعى يطاردونه / وصارت كلابه تعض فخذيه) .

أرادت إنانا أن تقضى على جلجامش بالثور السماوى ، لكن جلجامش وصديقه أنكيدو تغلبا على الثور ، فلما رآت عشتار ماحل بثورها صاحت : (الويل لك ياجلجامش ، لأنك بالغت فى إهانتى بقتلك الثور السماوى) ، فلما سمع أنكيدو قولها قطع فخذ الثور ، وقذفه فى وجهها ، قائلا : (لو نالتك يداى لفعلت بك مافعلت به ، ولعلّقت أحشاءك بأطرافك) .

* وشأن العبادات القديمة جميعا - فيما عدا تلك (الواحات) التى شغلها بعض الأنبياء والرسل - كان تأليه الطبيعة فى شتى صورها .

كان معظم الآلهة فى وادى الرافدين تجسيداً لمظاهر الطبيعة المختلفة ، وبخاصة النجوم والكواكب ، إذْ اعتقد البابليون بأن الشمس تمثل الإله شَمَس ، والقمر الإله سِنْ ، وعطارد الإله نابو ، والزهرة الإلهة عشتار ، والمريخ الإله نركال ، والمشترَى الإله مردوخ ، وزحل الإله ننورتا . . وتميزت الإلهة عشتار فى المنحوتات والأختام برمز نجمة ثمانية ، إشارة إلى نجمة الزهرة ، ألمع النجوم . . ولأن عشتار ربة الخصب كانت ترسم جالسة على كومة من الحبوب ، أو تمسك

بالمحراث ، ولأنها ربة الجمال والجنس كانت ترسم شابة ممتلئة ، ذات صدر بارز ، وقوام جميل وعينين مشرقتين .

ويقال فى السومرية لمن هو مقبل على الزواج :

(عسى أن تمنحك إنانا - عشتار - زوجة دافئة الأطراف ، تضطجع لك ، وعسى أن تمنحك أولادا أقوياء السواعد ، وأن تجعل لك منزلاً سعيداً) .

وبمرور الزمن ، ونتيجة لامتزاج المفاهيم السومرية السامية الخاصة بالإلهة إنانا - عشتار - فقد أصبحت توصف تارة بأنها ربة الحب ، وتارة ربة الحرب ، ولذلك نجد أن (إلهة الحرب) أصبحت من الصفات التى لم يقتصر إطلاقها على عشتار فى النصوص الأكدية ، بل على إنانا فى النصوص السومرية أيضًا .

وقد ادعى الملك السومرى أوتو حيكال (٢١٢٠ / ٢١١٤ ق.م) - فى وثيقة حربه مع الكوتيين - أن الإلهة إنانا (لبؤة الحرب) هى التى أعطته السلاح لسحق الكوتيين وطردهم من البلاد .

أما الإله (إنكى) فيعرف بأنه مالك (النواميس الإلهية)المبدعة لأسباب الرخاء وفنون الحضارة .

وتتحدث أسطورة سومرية عن قيام هذا الإله برحلة حول العالم ، لنشر أسباب الرخاء والتمدن ، وقد كانت سومر أول بلد يباركه الإله . . وتذكر الأسطورة أنه بعد أن انتهى (إنكى) من رحلته بدأ فى تنظيم شئون الأرض والأنهار والبحار ، فملأ دجلة والفرات بالماء العذب وبالأسماك ، وأقام غابات القصب فى الأهوار ، ثم خلق المحراث ليفيد منه الناس فى الزراعة ، وإليه يعزى خلق الفأس والآجر ، ونمو الغابات فى الجبال ، وتكاثر الحيوانات . . وبموجب هذه الأسطورة يكون (إنكى) هو خالق كل ما هو خير .

ولما زارته (إنانا) ، وجلسا يتناولان الشراب ، أكثر إنكى من الشرب ، حتى لعبت الخمر بعقله ، وفى نشوة سكره أخذ يسرف فى تكريم ضيفته ، حتى أهداها كل مابحوزته من (فنون الحضارة) ، وقبل أن يحل الصباح كانت إنانا فى طريقها إلى مدينتها الوركاء ، على قارب محمل بفنون الحضارة ، وعندما أفاق إنكى

من سكرته أدرك جسامة الخطأ الذى وقع فيه ، إذ لم يبق بحوزته شئ من تلك النواميس .

* وثمة أسطورة تتعلق بخلق الإنسان من صلصال فوق البحر ، إذ تأخذ ، (ننماح) شيئا من الصلصال ، فتخلق ستة أنواع مختلفة من الشواذ ، يعطف عليهم إنكى فيعطيهم خبزاً يأكلون ، ويقرر مباشرة عملية الخلق بنفسه ، لكن عملية الخلق الأولى فشلت بسبب ضعف الجسم والروح ، فتصب ننماح اللعنة على إنكى .

لكن أسطورة أخرى تقول إن إنليل أهم معبودات المجمع الإلهى السومرى (أبا الآلهة) ، وملك السموات والأرض – هو الذى فتق السموات والأرض ، وأنبت (بذرة الأرض) من الأرض ، وكل مايحتاج إليه .

وكان إنليل – وفق أسطورة (الصيف والشتاء) – هو الذى أخرج كل الأشجار والحبوب ، وأنتج الوفرة والرفاهية فى الأرض ، وعيّن الشتاء – فلاح الأرض – حارسا على المياه المنتجة للحياة ، ولكل ما ينمو ، وكانت الآلهة جميعا حريصين على هذه البركة .

إن إنليل هذا هو إله الهواء الذى فصل السماء عن الأرض ، واحتمل الأرض لنفسه ، ثم اتحد بها ، وهيأ المسرح لتنظيم الكون – أساطير العالم القديم ص٧٧ / ٨٣ / ٣٤٢ .

* كان الإله العراقى هو سيد المدينة الحقيقى ، يسكنها مع زوجه وأولاده وخدمه وسدنته ، وكان المعبد مَسْكنه ، أفخم مساكن المدينة ، وكان للآلهة أملاك خاصة ، وصوامع للغلال ، وعبيد ، وجيوش ، ولم يكن الإله يديرشئون المملكة أو المدنية إلا من خلال ملك يعهد إليه برعاية شئون شعبه ، فكان الملك أو رجل الدين يستغل الشعب باسم إلهه المعبود ، وكثيرا ما كان الملك هو الكاهن الأعظم للإله ، حتى يستقل بكل الثمرات .

ولم يكن تمتع الإله بالزوجة والأولاد والخدم والسدنة إلا من قبيل زيادة أنصبته فى مال الشعب وخدماته ، ذلك لأنه إله الشعب المستقر ، والاستقرار

يساعد على كثرة الإنتاج ، وكثرة الإنتاة تستدعى كثرة المكوس ، أما آلهة الشعوب الرحّل - كما يقول **هـ. ج. ويلز** ج١ ص٢٠٥ - فلم يكن لديهم ميل إلى الزواج ، لأن الكهنة لم يكونوا ليطمعوا فى غير مطمع ، والشعوب الرحّل كانت مقاتلة ، والمقاتل طالب غير مطلوب .

وبما أن الكهنة كانوا يستأثرون بالعلوم والمعارف ، وهم من الدهاء بحيث لا يلقنون الناس منها إلا ما يخدم أهدافهم ، وكثيرا ما يقتصر التلقين على الأساطير التى تُحكم سيطرة الكهنة على عقول الناس ومشاعرهم - فقد كان من الغباء تكوين أسرة للإله فى قوم لا يملكون قوتهم إلا بقدر كبير من العناء والمشقة .

وكان الكهنة حريصين على الاستئثار بالملك حرصهم على الاستئثار بالإله ، من أجل أن تكون لهم سلطة التنفيذ والقهر .

كانت تلحق بمعظم الهياكل التى يبالغ فى كونها أعلى وأعظم مبانى المدنية ، لتكون أبلغ تأثرا فى النفوس - مدارس يعلم فيها البنون والبنات مبادئ الخط والحساب ، وتغرس فى نفوسهم الآداب الاجتماعية والوطنية ، وقد يُعّد بعضهم للمهنة العليا ، مهنة الكتابة ، وذلك ليكونوا الأداة الطيعة لاستغلال الجماهير ، كما هو شأن الاستعمار اليوم ، سواء أكان فى إطاره العسكرى القديم ، أو فى إطاره الاقتصادى والثقافى الجديد . . ولم تكن المعابد هى المراصد والمكاتب وعيادات المرضى فحسب ، بل كانت فوق ذلك متاحف ودورا للكنوز .

وكان فى الهياكل عدد من النساء ، هن خادمات ، وقد يعملن سرارى للآلهة ، أو لممثليهم على الأرض .

ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئا من العار أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وبخاصة إذا كانت تخرجت فى مدرسة الهيكل ، وكان الآباء يفخرون بأن بناتهم يهبن جمالهن وفتنتهن لتخفيف مايعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة ، وكان الأب يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرب القرابين فى هذا الاحتفال ، كما كان يقدم (بائنة) ابنته إلى المعبد الذى تدخله . . ولا شك فى أن (البغاء المقدس) كان تطورا لهذه الخدمات الخاصة .

كانت (الأنتو) - الكاهنة العظمى - تأتى فى المقدمة ، لأنها تعتبر - من الوجهة الدينية - زوجة الإله ، (السيدة الإلهية) ، أو السيدة الأولى ، والكاهنات من هذه الطبقة كن من بنات العائلات المالكة والنبلاء ، حيث جرت العادة أن يكرس الملوك والأمراء بناتهم وأخواتهم لخدمة الآلهة فى المعابد . . وخصّصت الشرائع القديمة مواد قانونية لتحديد حقوق والتزامات هذه الطبقة والطبقات الأخرى من كاهنات المعبد ، ففرضت عقوبات صارمة على كل من يأتى بتهمة باطلة ضد كاهنة ، وبالمثل ، ولأهمية مركز (الكاهنة العظمى) فى المعبد ، فإن المشرع البابلى فرض عليها عقوبة الموت حرقا فى حالة ترددها على حانة الخمارين ، التى كانت بمثابة الماخور أيضا ، كما أن اقتراف الكاهنة العظمى للزنى كان يعتبر نذير شؤم للمعبد وللبلاد ، على حد سواء . . وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الكاهنات من هذه المرتبة العليا لم يسلمن من الانحراف فى (طريق الهوى) ، وكانت أشهر حادثة من هذا النوع فى تاريخ المعبد ، فى وادى الرافدين ، مايذكره الملك سرجون الأكدى عن أمه ، وعن أصله غير الشرعى ، فيقول : (كانت أمى كاهنة - أنتو - وأنا لا أعرف أبى ، لقد حملتنى أمى الكاهنة ، ومن ثم ولدتنى سرا ، ووضعتنى فى سلة من قشّ ، ثم أحكمت غطائى بالقار ، وألقتنى فى النهر . . .) ، والمفروض فى الكاهنة العظمى أن تبقى عزبة ، لأنها كانت مكرسة أصلا للإله ، لكن يبدو من بعض المواد فى القانون البابلى أنه كان يسمح لها بالزواج فى ظروف معينة ، بشرط ألا تلد ، ولذلك فإن من المرجح أن السماح بالزواج كان يعطى لها عندما تتم سنوات الخدمة الطويلة فى المعبد ، إذ تكون الكاهنة - أنتو - قد بلغت سن اليأس ، أو عدم القدرة على الإنجاب ، وقد يكون ثمة سبب آخر خاص بالكاهن الأعظم !!

و (البناء المقدس) كان وثيق الصلة بالإلهة عشتار وبمعابدها ، ولا شك فى أن المعبد كان يحصل على نصيب من الأجر الذى كانت تتقاضاه النسوة المكرسات لهذه الممارسة .

يقول **هيرودوت** : (كانت عبادة مخجلة بين هؤلاء الناس - البابليين - إذ كان على كل امرأة من أهل البلد أن تذهب مرة فى حياتها لتجلس فى معبد أفروديت - عشتار - فتستسلم لرجل غريب ، غير أن كثيرا من النسوة الغنيات ،

من اللواتى يأنفن الاختلاط بعامة الناس ، كن يأتين إلى المعبد بعربات محجبة ، يتبعهم حشد من الخدم ، غير أن أغلب النسوة كن يجلسن فى ساحة المعبد ، وقد وضعت كل واحدة حول رأسها شريطا من خيوط مجدولة ، وكن حشدا كبيرا ، جالسات وقادمات وذاهبات ، ومن حولهن ممرات فى اتجاهات مختلفة يسير فيها الرجل ليختار من يشاء ، وعندما كانت المرأة تأخذ مكانها لا يسمح لها بالعودة إلى بيتها إلا بعد أن يلقى أحد الرجال قطعة نقد فى حجرها ، وكان على الرجل أن يقول : باسم الإلهة ماليتا - عشتار ، ولم تكن قيمة النقد ذات أهمية ، إنما حالما تلقى تصبح مقدسة ، ويمنع القانون رفضها ، ولم يكن للمرأة حق الاختيار ، إذ كان عليها أن تذهب مع أول رجل يلقى النقود ، وكان واجبها نحو الإله ينتهى عندما تضاجعه) .

ولا ريب فى أن (البغاء المقدس) يمثل أعنف وأعتى تسلط يفرضه الكهنة على شعب أصيب فى بصره وبصيرته ، وأسلم أمره لقيادة مريضة متآمرة (موتورة) !!

جاء فى (غزليّه) من إحدى الكاهنات إلى عريسها شو - سِنْ (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق.م) ، رابع ملوك سلالة أور الثالثة :

(أيها العريس العزيز على قلبى / ما ألذ وصالك ، حلو كالشهد / أيها الأسد العزيز على قلبى / ما ألذ وصالك ، حلو كالشهد / لقد أسرتنى ، فهأنا أقف مرتعشة أمامك / أيها العريس ، ليتك أخذتنى إلى غرفة النوم / لقد أسرتنى ، فهأنا أقف مرتعشة أمامك / أيها العريس ، دعنى أقبلك / فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد / وفى غرفة النوم المملوءة شهدا / دعنى اتمتع بجمالك اللطيف / أيها الأسد ، دعنى أقبلك / فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد / أيها العريس ، لقد نلتَ منى رغبتك / فأخبر أمى ، لكى تعطيك مالذ وطاب / وأخبر أبى ، لكى يقدم لك الهدايا / نفسك ، إنى أعرف كيف أدخل السرور إلى نفسك / قلبك ، إنى أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك / أيها الأسد ، تعال ونم فى بيتنا حتى الفجر / وأنت مادمت تحبنى / أتوسل إليك أن أقبلك / ياسيدى الإله ، ياسيدى الحافظ / ياشو - سنْ ، يامن يدخل السرور إلى قلب إنليل / أتوسل إليك أن أقبلك) - عشتار ومأساة تموز ص ١٥٠ .

فى التراث المصرى القديم غزليات أشد ضراوة ، لكن هذه الغزلية تربط ما بين الشهوة والعبادة ، وقد تفيد أن المرأة لاتبيع نفسها ، إنما تشترى رجلها ، كما تفيد أن هذا (العُرس) ليس إلا لقاء غير مقيد ، بمعنى أنه صورة من البغاء ، لكن صادف أن (وافق شَنّ طبقه) .

* جاء فى (قصة الحضارة مج١ جـ٢ ص ٢٩ / ٣١) أن العبادة السومرية ظلت مقصورة على المطالب الدنيوية ، فلم تتعلق بالحياة الآخرة ، ومن ثم لم تهتم ببناء القبور ، أو بالحفاظ على الأجساد ، انتظارا ليوم البعث والحساب والثواب أو العقاب ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان إلا طمعا فى النعم المادية الملموسة .

المفروض فى الميت أنه ينحدر من القبر إلى عالم الأموات لكن بعض المصادر المسمارية تشير إلى وجود بوابات فى الأرض تؤدى إلى هذا العالم ، وتَصوّر السومريون عالم الأموات بأنه عالم مخيف ، له سبع بوابات يحرسها آلهة معيّنة ، وأن لهذا العالم قواعد خاصة به ، فالذى يدخل إليه ينبغى أن يمر ببواباته السبع ، ولا يستطيع الخروج منه إلا بعد تقديم بديل عنه .

ويظهر من أسطورة جلجامش أن من الواجب على النازل إلى العالم السفلى عدم ارتداء الملابس النظيفة ، أو لبس النعلين ، أو استعمال العطور ، أو حمل السلاح . . وهناك إشارة فى إحدى الأساطير السومرية إلى نهر فى العالم السفلى يبتلع البشر ، وأن على الموتى عبوره فى قارب ينقلهم إلى مقرهم الأخير من عالم الأموات . . وفى هذا شبه كبير بالانتقال إلى العالم الآخر فى التراث المصرى القديم .

وقد حظيت بيوت الآلهة والكهنة بقدر كبير من الاهتمام ، للتأثير فى نفوس الجماهير ، فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية ، وكانت تزين بأعمدة وأفاريز من النحاس ، مطعمة بأحجار كريمة ، وكان هيكل (نانا) فى (أور) طرازاً تحتويه أو تتمثله سائر هياكل أرض الجزيرة ، كانت جدرانه مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت مكسوة بألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو ، تطعم بالرخام والمرمر والذهب

والعقيق الظفارى واليمانى ، وكان أعظم هيكل فى المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع ، وقد يصل إلى سبع ، يحيط به سلم لولبى ذو بسطة عند كل مقلب ، وكانت هذه الأبراج أعلى صروح فى المدينة ، أو فى المدائن السومرية ، وكان بوسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن طبيعى روحى ، يعصمها من الثوار أو الغزاة .

وكانت الهياكل تزين أحيانا بتماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان ، وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة فى صناعتها ، وإن كانت تمثل القدرة والعظمة ، لكن ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . . ومعظم مابقى منها يمثل الملك (جوديا) ، وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب ، نحتاً واضح المعارف ، لكنه فج ساذج .

وقد عثر فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ، لكنه لايزال يفيض حيوية .

وفى مدينة (أور) عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة ، فى قبر الملكة (شب – آد) ، وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى .

* وقد أدى إسراف الكهنة – فى ابتزاز أموال الناس – إلى أن ثار (أوروكاجينا) ، ملك لكش ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهمهم بالرشوة فى توزيع العدالة ، وبالإحجاف فيما يفرضون من ضرائب تستنفد ثمرة كد الزراع والصيادين والتجار ، وأفلح الملك – إلى حد ما – فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين ، وسنَّ قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تودَّى للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التى تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك . . وقد نص أحد المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب (ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ، ويأخذ منها الخشب ، أو يستولى على ضريبة من الفاكهة) ، كما حرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم مايقربه الناس للآلهة ، من أموال أو ماشية ، وكان الملك يباهى بأنه (وهب شعبه الحرية) .

واستعاد الكهنة سلطانهم ، بعد موت (أوروكاجينا) ، كما استعادوا

سلطانهم فى مصر بعد موت أخناتون ، ذلك أن الناس لايترددون فى أن يؤدوا أغلى الأثمان ، لكى يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم .

ولأن هذه الساحة الكبيرة تحرثها القبائل المهاجرة - جنوبًا وشمالاً ، وشرقًا وغربًا - فإن ماجاء فى الأساطير الكنعانية يدل على مانزل بالشعوب غير الكنعانية (فى تلك الساحة) من مطامع الكهنة ، وعنف إسرافهم وعنتهم ، تقول ترنيمة كنعانية : (اعلم يابعل / إنى آتيك بالبشائر / بيت لك سوف يبنى كإخوتك / بل وبلاط أقربائك / ادع . . . الى بيتك / . . . وسط قصرك / حتى تأتيك الجبال بالفضة الكثيرة / والتلال بأحْسن الذهب / وتبنى بيتا من الفضة والذهب / بيتا من واهر اللازورد) .

(فرح عليان بعل / لقد بنيت بيتى من الفضة / نعم ، صنعت قصرى من الذهب) - أساطير العالم القديم - ص ١٨٢ / ١٨٣ .

* حاول المؤرخون الكهنة فى هذه الأثناء أن يخلقوا ماضيا يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية ، فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسر المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢ ألف عام ، ولعل اليهود فى صناعة تاريخهم (التوراتى) استفادوا من هذا المنهج .

يقول الأستاذ **طه باقر** (مج ١ ص ١٠٥) : ذكرت (جداول الملوك) أسماء ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان ، فى خمس مدن قديمة ، منها (سبار) ، و (شروباك) ، وتعرف خرائبها اليوم بـ (أبو حبه) ، و (فاره) ، وقد خصص لهؤلاء الملوك عدد كبير من السنين لايقبله العقل ، وهو رقم ٢٤١ ألف سنة لمجموع حكمهم .

ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام ، هما تموز (دموزى) ، و (جلجامش) ، من القصص المؤثرة ماجعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة ، وترتبط بقصة جلجامش أسطورة تتحدث عن أن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم ، عقابا له على فعله ، فأهلك الناس كاملة . ولم ينج منهم إلا رجل واحد ، هو (تحتوج) الحائك ،

وقد خسر (تحتوج) هذا الحياة الخالدة التى تتناولها ملحمة جلجامش ، بديلا من الحياة الآخرة التى لم تعرفها السومرية .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق . م تروى السجلات الحكومية من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خَرَائب أور ، ولكش ، وأرك ، وما إليها ، وما أغرب ماتروى . . إنها شنشنة عرف بها المؤرخون فى عهود كثيرة .

* ولماأخضع (أور - أنجور) جميع بلاد آسيا الغربية ، ونشر فيها لواء السلام - أعلن فى جميع البلاد السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون فى تاريخ العالم ، وفى ذلك يقول : (لقد أخذت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شَمَش الصالحة العادلة) .

ومن قوانين (أور - أنجور) استمد حمورابى شريعته ذائعة الصيت .

والقانون السومرى يشمل العلاقات التجارية ، والعلاقات الزوجية والجنسية ، بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ، والتبنّى ، والوصية بكافة أنواعها ، (مما يوحى بقدر مستمد من شرائع سماوية سابقة) .

والعبارة (بين القوسين) تمثل وعيا من (ديورانت ، صاحب قصة الحضارة) ، لم يَحْظَ بمثله مؤرخون متدينون بديانات سماوية ، مع أن هودا كان رسول عاد ، جنوبى الدولة السومرية وكان صالح رسولاً إلى قوم ثمود فى الشمال الغربى ، فيما يسمى اليوم (ديار صالح) ، ومع أن إبراهيم - فيما بعد - كان ابن (أور) ، عاصمة سومر ، وكان لوط رسولا فى شمال غرب وادى الرافدين ، مما يؤكد أن حضارات هذه الساحة الكبيرة تنفست أنفاسا سماوية ، وإن بعد بها العهد .

وكانت المحاكم تعقد جلساتها فى المعابد ، وكان معظم قضاتها من رجال الدين .

وكل نزاع كان يعرض أولا على محكّم عام ، واجب أن يسوى بين المتخاصمين بطريقة ودية ، دون اللجوء إلى القضاء ، وهذا يعنى أن أفقا أرقى كان يتمتع به أبناء هذا الزمان .

ومن هذا الأفق الأرقى مايعبر عنه دعاء الملك (جوديا) للإلهة (بو) ، راعية لكَشْ ونصيرتها :

(أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكشْ / إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان / والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته / أنا ليس لى أم ، فأنت أمى / وليس لى أب ، فأنت أبى / أى إلهتى بو ، إن عندك علم الخير / وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة / وسأقيم فى كنفك أعظّمك وأمجدك / وأحتمى بحماك ياأماه) .

الحضـــارة الســـومـــرية

إن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هى تلك الرقُم الطينية الصغيرة التى نقشت عليها الكتابة التصويرية التى تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد ، وربما يكون السومريون قد بدءوا الكتابة قبل هذا التاريخ ، على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية ، وأن تكون هذه المواد قد تحللَّت وتلاشت . . ومن المحتمل ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة ، كوسيلة جديدة للتواصل ، أى أن يكونوا قد أخذوا هذا من شعب غير معروف كان يعيش قبلهم فى الجزء الجنوبى من بلاد الرافدين ، أو كانت لهم به صلات تجارية . . ويقال إن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب الذى كان على ضفاف نهر الدانوب ، ولكنهم قاموا بتطوير هذه الكتابة ، وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور فى سنة ١٩٦١م على الرقم الطينية التى تعود إلى العصر الحجرى فى منطقة (تارتاريا) برومانيا ، فالتشابه بين الإشارات الواردة فى هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التى خلفها السومريون واضح للغاية . . وقد أدت نتائج التحاليل الراديوكربونية لهذه الآثار الدانوبية إلى أنها أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية .

(وهناك حقيقة يمكن أن نؤكدها فورا ، ألا وهى أن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية ، ثم طوروها ، إلى أن حولوها إلى نظام كتابى تطغى عليه السمات الصوتية) - تاريخ الكتاب جـ١ ص ١٢ .

ولا أدرى كيف للبروفيسور اليوغسلافى **ستيبتشفيتش** أن (يؤكد فورا) مايناقض (التحاليل الراديوكربونية لهذه الآثار الدانوبية) ؟!

وفى الوقت نفسه كيف له يؤكد أن الأعمال الأدبية المصرية بقيت، تتردد على أفواه الناس مئات وآلاف السنين ، دون أن يَلْتفت إليها أحد الكتاب لتدوينها (جـ١ ص ٣٧) ، مع أن نصوص الأهرام ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ؟

وقد أكد جنترد ريد المدير المساعد لمعهد الآثار فى القاهرة أن الكتابة الهيروغليفية قد تكون أقدم كتابة ابتكرها البشر فى التاريخ ، وذلك استنادا إلى كتابات عثر عليها فريق ألمانى فى مصر مؤخرا . . وقال ريد فى تصريحات لوكالة

الأبناء الفرنسية أن علماء الآثار كانوا يعتقدون حتى الآن أن الكتابة الهيروغليفية ظهرت فى حوالى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، بعد ظهور الكتابة المسمارية ، فى بلاد ما بين النهرين ، إلا أن الدراسة الجديدة تعود بالكتابة إلى ١٥٠ عاما قبل ذلك التاريخ ، وهى متطورة بشكل كاف ، مما يؤكد بلاشك أن المصريين اخترعوا هذه الكتابة قبل ذلك التاريخ أيضًا .

وقال الباحث الألمانى ، إن الكتابة التى عثر عليها منقوشة على قطع فخارية ، وعلى أجزاء من العظام كانت فى قبر اكتشفه فريق ألمانى فى ١٩٨٩ فى أبيدوس ، حيث توجد أقدم مقبرة ملكية فى مصر ، وأشار إلى أنه عثر أيضًا ، فى قبر مجاور ، على كتابات يعتقد أنها سابقة على الكتابات التى عثر عليها حديثًا بمائة عام ، وأنه فى حالة ثبوت ذلك فإنه يعنى أن الكتابة الهيروغليفية كانت قبل التاريخ المعروف حتى الآن بـ ٢٥٠ عامًا ، ولكن ريد قال : إنه لايستطيع تأكيد ما إذا كانت هذه الاكتشافات ستؤدى إلى اعتبار الهيروغليفية أقدم كتابة فى التاريخ ، لأن التاريخ الدقيق لظهور المسمارية التى استخدمها السومريون فى العراق قديمًا لايزال موضع جدل ، وأضاف أن هناك أدلة تثبت وجود اتصالات بين الحضارتين القديمتين ، ولكن لايوجد بعُد مايؤكد أن إحداهما أدخلت الكتابة إلى الأخرى ، رغم وجود مايؤكد أن كلا منهما طورت كتابتها بشكل مستقل ، ولأسباب اقتصادية ، تتعلق بالتبادل التجارى والضرائب ، وليس لأسباب دينية ، على حد قوله - جريدة الأهرام فى ١٠ أكتوبر ١٩٩٥ .

والاختلاف حول الأقدمية ، مع التركيز على آثار نهر الدانوب ، يؤكد ماسبق أن أشرت إليه من عبث القول بالأقدمية ، وعبث القول باستقلال الحضارات ، وبخاصة فى المناطق المفتوحة ، مثل وادى الرافدين الذى نسب فيه السومريون إلى الهجرات من الجنوب ، وإلى الهجرات من الشمال ، وإلى الهجرات من الشرق .

* وقد كشفت الكتابة المسمارية على الرقم الطينية أن السومريين كان لهم أدب غنى ومتطور ، وكانوا يعرفون أسس الكثير من المعارف الطبية ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتمتعون بميثولوجيا غنية جدا ، وفى هذه الميثولوجيا يمكن أن نرى

الكثير من (الموتيفات) التى استحوذت عليها لاحقا كل الشعوب فى الشرق الأوسط ، والتى عايشت كل التغيرات التاريخية ، لتصل إلى وقتنا هذا .

وقد كشفت عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، بالولايات المتحدة - ماهو إلا فهرس لإحدى المكتبات ، وهذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدِّينى والثقافى للسومريين .

ومن نيبور لدينا رقم آخر محفوظ فى متحف اللوفر بباريس ، نجد فيه بعض عناوين الكتب التى دونت فى الرقم المحفوظ فى فيلادلفيا .

ولقد سادت الثقافة السومرية فى بلاد الرافدين فترة طويلة تزيد عن ١٥٠٠ سنة ، أى من منتصف الألف الرابع ق . م . إلى بداية الثانى ق . م . وخلال هذه الفترة الطويلة تمكن الكتاب السومريون من تدوين عدد كبير من النصوص ، فى موضوعات مختلفة ، وفى نسخ متعددة ، فبعض الحكايات الشائعة - كما هو الأمر مع البطل جلجامش - حفظت فى نسخ كثيرة ، وروايات متعددة .

وقد كان السومريون أول من نسخ هذه الحكاية ، ثم قام بتدوينها بعدهم الشعوب الكثيرة الأخرى التى توارثت أو توازت حضارتهم فى تلك المنطقة .

ودوّن السومريون أيضًا المعاجم والنصوص المتعلقة بالبيطرة والرياضيات .

وفى منتصف الألف الثالث ق . م . أخذ الأكديون الساميون ينتشرون فى بلاد الرافدين ، ويفرضون وجودهم ، وجاء الأموريون الساميون ليدمروا مقر دولتهم (أور) ، وليخضعوا أراضى السومريين لحكمهم - تاريخ الكتاب جـ ١ ص ١٤ / ١٦ .

* يقول الأستاذ **طه باقر** فى (ملحمة جلجامش ص ٨) : إن أروع وأعجب مايجده الفاحص لأدب وادى الرافدين هو أنه - مع إيغاله فى القدم ، وسبقه جميع الآداب العالمية - يتسم بالصفات الأساسية التى تميز الآداب العالمية الناضجة ، سواء أكان ذلك من ناحية الأساليب وطرق التعبير ، أم من ناحية الموضوع والمحتوى ، أم من ناحية الأخْيِلة والصور الفنية .

وعلى الرغم من أن معظم الألواح المدونة بالأدب السومرى والبابلى لايتجاوز عهد تدوينه ، أواخر الألف الثالث ، وبداية الألف الثانى قبل الميلاد - فإن هذه الآداب قد تم إبداعها ونضجها فى الألف الثالث ق . م ، وبهذا (تسبق جميع ما أنتجه الفكر البشرى) .

ومع التجاوز عن العبارة الأخيرة التى هى (شنشنة) المؤرخ العراقى الكبير ، فإن ملحمة جلجامش موضع التقدير على المستوى العالمى ، بدون وقوف عند الأولية أو الأفضلية التى تخضع للمذاهب الفردية والعصبية العرقية .

وجلجامش هذا - كما يقول المؤرخون - قد عاش فى الحقيقة والواقع ، على الرغم من تأليه الكهنوت السومرى له فى زمن مبكر ، شأنه فى ذلك شأن ملوك سومر الذين جمعوا بين السلطتين الدينية والزمنية .

يذكر ثبت الملوك السومريين المدون فى بداية الألف الثانى ق . م . أنه الملك الخامس فى ترتيب حكام مدينة (أوروك) التى كانت من أهم المدن السومرية التى (نزلت عليها نظم الملكية من السماء) بعد الطوفان ، آلت إليها السيادة على سائر المدن السومرية ، وقد نسب إليه بناء سورها العظيم التى أشادت به الملحمة فى بدايتها وخاتمتها .

وقد رجح العلماء - بعد فحص الأطلال الباقية من هذا السور ، والاطلاع على المأثور الفنى عن شخصية جلجامش - أنه قد عاش بين سنتى ٢٧٥٠ - ٢٦٠٠ ق . م تقريبا .

ويُعَزى هذا النص إلى شاعر موهوب عاش حوالى سنة ١٢٠٠ق . م ، أو إلى كاهن بابلى يدعى (سن ليكى) ، أو (نينى) ، حوالى سنة ١١٠٠ق . م .

ويضيف الدكتور **عبد الغفار مكاوى** إلى ما سبق أن هذه الملحمة أقدم ملحمة فى التاريخ ، جرت أساطيرها وحكايتها على ألسنة الناس منذ الألف الرابع ق . م ، وبدأ تدوينها فى العصر البابلى القديم ، على عهد حمورابى الذى حكم من ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠ ق . م - محاكمة جلجامش ص ٨ / ٥٠ .

ومن واجبنا ألا نقف عند اختلاف الأرقام التاريخية ، حتى لانفقد كثيراً من

أهمية أو حلاوة مذاق موروثاتنا الأدبية ، فما أكثر التواريخ التى أصابت هذه الملحمة تأليفًا وتدوينًا .

وقد أخذت هذه الملحمة طابع الروايات الشعبية المتوارثة ، فى صورة قصص سومرية متفرقة تدور حول مآثر جلجامش ملك الوركاء (أوروك) ، ومع أنها تدور حول شخص واحد فإنها لم تشكل تأليفًا واحدًا مترابطًا .

وجاء الساميون فجعلوا مما كان متداولاً ملحمة ذات طابع إنسانى ، مع المحافظة على الخطوط الهامة لما كان متداولاً - عشتار ومأساة تموز ص٧١ / ٧٢ .

وأحدث نسخ لنصوص الملحمة جاءتنا من القرن السابع ق.م . وهو العهد الذى يرجع إليه القسم الأعظم من نصوصها - ملحمة جلجامش ص ٣٨ .

وقد كان لهذه الملحمة - بحكم الهجرات ، وتبادل الاتصالات العسكرية والسياسية والثقافية - أثرها فى أنحاء مختلفة من العالم القديم ، وبخاصة فى العمل الملحمى اليونانى ، إذ إن أسس قصص هرقل تستند - فى الدرجة الأولى - إلى أصول مُسْتقاة من ملحمة جلجامش وصلت إلى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين ، فكلا البطلين من أصل إلهى ، وكلاهما اتخذ صاحبًا وصديقًا حميمًا ، أنكيدو بالنسبة إلى جلجامش ، ويوليوس بالنسبة إلى هرقل ، وكان السبب فى جلب الكوارث إلى كل منهما امرأة إلهة ، عشتار فى حالة جلجامش ، وهيرا فى حالة هرقل ، وكلاهما قتل الأسود وتغلب على الثور الإلهى المقدس ، وَوَجَد هرقل العشب السحرى للخلود ، كما فعل جلجامش ، وزار هرقل جزيرة الموت ، كما أبحر جلجامش عبر بَحْر الموت ، واكتسى كل منهما بجلود الأسود الضارية .

ويرى **روبرت جريفز** أن هوميروس استقى الكثير من حوادث ملحمة جلجامش ، حيث يضاهى صاحب أخيل بتروكلوس صاحب جلجامش أنكيدو ، وأم أخيل الإلهة ثيتس Thetis تضاهى الإلهة ننسون أم جلجامش - ملحمة جلجامش - ص ٢٧ .

ويتناول الروسيان **دياكونوف وترافيموف** (جمالية ملحمة جلجامش ص٦٨) ملحمة جلجامش من جانب رمزى ، إذْ إن الرحلة هى رحلة الشمس فى العالم السفلى ، ويجرى التأكيد دائمًا على أن (شَمَش) هو الوحيد الذى سار فى هذه الطريق ، فإذا كان شمش ملك السموات والأرضين فإن جلجامش - ميثولوجيا - ملك العالم السفلى ، ومن ثم فبراءة الإنسان الأول فى الحياة مع الحيوانات فى السهوب ، وتكون المعصية فى الطوفان ونزال الوحش الذى يحرس شجرة الحياة .

ويحاول الدكتور **عبد الغفار مكاوى** أن يصنع من الملحمة دروسًا تربوية - (محاكمة جلجامش ص٤٥) - إذ إنّ هناك تحولات من الأنا إلى النحن ، ومن التسلط إلى التطهر ، ومن الذعر مَن الموت إلى الإيمان باللحظة الراهنة ، لحظة الوعى الحر ، والعمل الخلاق من أجل الآخرين ، ومن ثم تصبح الملحمة - على نحو ما - لونا من ألوان الرواية التعليمية التى تتبع تطور البطل فى معرفته بنفسه وبالعالم وبالمجتمع ، وتحوله من الحلم المستحيل إلى واقع المشكلات التى تؤرق الناس فى حياتهم .

وهذا التناول ، أو الاستيحاء الحديث للأسطورة القديمة تساعد عليه أن الأساطير إنما تضع الخطوط العريضة فقط ، أو الهيكل العظمى ، بحيث يسهل على الآخرين ملء الفراغات ، على طريقة كراسات (ارسم ولون) . . ويمكن الإشارة إلى الطريقة (الحديثة) فى الدراسة والنقد التى تمنح كلا من الدارس والناقد رخصة تحويل النص إلى قفاز يضعه الدارس أو الناقد فى يديه ثم يمسك قلمه ليرسم مايشاء ، ويلون مايشاء ، وحسبه أن القفاز فى يديه ، وقد يجعل النص مجرد منظار يطل من خلاله على صور ورسوم من خياله . . (وربك يخلق مايشاء ويختار) !!

ملحمة جلجامش

ونص الملحمة – كما أورده الأستاذ **باقر** فى (ملحمة جلجامش) – يمكن اختصاره بلفظه فيما يأتى :

(هو الذى رأى كل شئ ، فغنِّى بذكره يابلادى / وهو الذى عرف جميع الأشياء ، وأفاد من عبرها / وهو الحكيم العارف بكل شئ / لقد أبصر الأسرار ، وكشف عن الخبايا / وجاء بأبناء ماقبل الطوفان / لقد سلك أسفارا بعيدة ، متقلبًا بين التعب والراحة / فنقش فى نصب من الحجر كل ماعاناه وخبره) .

(جعل الآلهة العظام صورة جلجامش كاملة تامة / كان طوله أحد عشر ذراعًا ، وعرض صدره تسعة أشبار / ثلثان منه إله ، وثلثه الآخر بشر / وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشى / وفَتْك سلاحه لايصده شئ / وعلى ضربات الطبل تستيقظ رعيته) .

يشير هذا إلى استدعاء جلجامش رعيته بضرب الطبل ، لاستخدامهم فى أعمال السخرة القَسْرية .

(لم يترك جلجامش عذراء طليقة لأمها / ولا ابنة المقاتل ، ولا خطيبة البطل) .

هذا ماكان من أمر جلجامش ، أما ماكان من أمر أنكيدو فتقول الملحمة : إن الناس ضجوا :

(دعوا « أرورو » – الإلهة – العظيمة ، وقالوا لها / يا أرورو ، أنت التى خلقت هذا الرجل / فاخلقى الآن غريمًا له يضارعه فى قوة اللب والعزم ، وليكونا فى صراع مستمر ، لتنال « أوروك » السلام والراحة) .

(حالما سمعت أرورو ذلك / تصورت فى لبها صورة لآنو / وغسلت أرورو يديها ، وأخذت قبضة من طين ، ورمتها فى البرية / وفى البرية خلقت «أنكيدو» الصنديد ، نسل جوهر « ننورتا » / القوى ، يكسو جسمه الشعر الكث ، وشعر رأسه كشعر المرأة / ونمت فروع شعر رأسه جدائل ، كشعر « نصابًا » – إلهة الحبوب / لايعرف الناس ولا البلاد ، ويلبس لباسًا مثل « سموقان » – إله

الماشية / ومع الظباء يأكل العشب / ويتدافع مع الوحش عند موارد الماء) .

رأى تتياد « أنكيدو » ، فرجع مذعوراً ، وأخبر أباه ، فقال أبوه :

(أذهب إلى أوروك ، وولّ وجهك شطرها / وأنْبئ جلجامش عن بأس هذا الرجل / وليعطك بغيًا مومسًا تصحبها معك أيها الصَياد / دعها تسيطر عليه وتروضه / وحينما يأتي ليستقى مع الحيوان من مورد الماء / دعها تَخلع ثيابها ، وتكشف عن عورتها ومفاتن جسمها / فحالما يراها فإنه سيقترب منها ، وينجذب إليها / وعندئذ ستنكره حيواناته التى ربيت معه فى البرية) .

(لبث أنكيدو يتصل بالبغى ستة أيام وسبع ليال / وبعد أن شبع من مفاتنها / وجه وجهه إلى إلفه من حيوان الصحراء / فما إن رأت الظباء أنكيدو حتى ولّت عنه هاربة / وهربت من قربه وحوش الصحراء) .

(ذعر أنكيدو ، ووهنت قواه / خذلته ركبتاه لما أراد اللِّحاق بحيواناته / أضحى أنكيدو خائر القوى ، لايطيق العدو ، كما كان يفعل من قبل / ولكنه تار فطنا واسع الحس والفهم) .

قالت البغى : (فعلام تجول فى الصحراء مع الحيوان ؟ / تعال آخذك إلى أوروك ذات الأسوار / إلى البيت المقدس ، مسكن آنو وعشتار / حيث يعيش جلجامش الكامل الحول والقوة / المتسلط على الناس كالثور الوحشى) .

ذهب معها أنكيدو ، (ولما وضعوا أمامه خبزاً تحير واضطرب / وصار يطيل النظر إليه / أجل ، لايعرف أنكيدو كيف يؤكل الخبز / لأنه شب على رضاع لبن حيوان البر / ولم يعلَّم كيف يشرب الشراب القوى / ففتحت البغى فاها ، وخاطبت أنكيدو / كلْ الطعامَ ياأنكيدو ، فإنه مادة الحياة / واشرب من الشراب القوى ، فهذه عادة البلاد / فأكل أنكيدو من الخبز حتى شبع / وشرب من الشراب القوى سبعة أقداح / فانطلقت روحه ، وانشرح صدره ، وطرب لبه ، ونوّر وجهه / نظّف جسده المشعر ، ومسحه بالزيت ، وأضحى إنسانًا ، لبس اللباس ، وصار كالعريس / أخذ سلاحه ، وانطلق يطارد الأسود ، ليريح الرعاة فى المساء / اصطاد الذئاب ، وقهر الأسود / فاستطاع الرعاة أن يَهْجَعُوا فى الليل

مطمئنين / صار أنكيدو حارسهم وناصرهم / إنه الرجل القوى ، والبطل الأوحد) .

(فرح الأبطال ، وهللوا قائلين / لقد ظهر بطل ند وكفء للبطل الجميل / أجل ، ظهر لجلجامش ، الشبيه بالإله ، نظيرُه / ولما هيئ الفراش « لأشخارا » - من آلهة الحب - / واقترب جلجامش ليتصل بالإلهة مساء / وقف أنكيدو فى الدرب يسدّ الطريق بوجهه) .

تصارع البطلان كثورين وحشيين ، ثم هدأت سورة غضب جلجامش ، فقال أنكيدو :

(إنك الرجل الأوحد ، أنت الذى ولدتك أمك . ولدتك أمك « ننسوتا » ، البقرة الوحشية المقدسة / ورفع إنليل رأسك عاليًا على الناس / وقدر لك الملوكية على البشر) .

* أراد جلجامش أن يرفه عن صديقه أنكيدو ، فصحبه فى أسفار بعيدة .

قال **جلجامش** : (يسكن فى الغابة « خُمبابًا » الرهيب / فلنقتله كلانا ، أنا وأنت / لكى نزيل الشر عن الأرض) .

قال **أنكيدو** : (إن الغابة تمتد مسافة عشرة آلاف ساعة فى كل جهة / فمن يجرؤ على الإيغال فى داخلها ؟ / وخمبابا زئيره عباب الطوفان / تنبعث من فمه النار ، ونَفَسه الموت الزؤام / فعلام ترغب فى القيام بهذا الأمر ؟) .

لام جلجامش صديقه على موقفه المتخاذل ، ثم :

(صدرت الأوامر إلى صانعى السلاح ، فاجتمعوا وتشاوروا / صنعوا أسلحة عظيمة ، سبكوا فئوسًا تزن كل منها ثلاث وزنات - الوزنة ٣٠ كج تقريبًا - / وسبكوا سيوفًا كبيرة نصل كل منها وزنتان ، وقبضاتها ثلاثون منّا / وسيوفًا أغمادها من ذهب ، يزن الواحد منها ثلاثين منّا / وتسلح جلجامش وأنكيدو بأسلحة زنتها عشر وزنات) .

(ثم سجد جلجامش للإله شَمَش ، ودعا قائلا / إننى ذاهب ياشمش ، وإليك أرفع يدى بالدعاء / أرجعنى سالمًا إلى ميناء أوروك / عسى أن تنال روحى

الخير والبركة / وانشر عليّ ظلك ، واشملني بحمايتك) .

(ثم انطلقا سائرين خمسين ساعة مضاعفة أثناء النهار / وقطعا مدى سفر شهر ونصف الشهر فى ثلاثة أيام) .

(وبعد أن قطعا تلك المسافة الطويلة شارفا مدخل الغابة / وكان مدخلاً عجيبًا ، بهرهما مشهده ، إنهما لم يصلا بعد إلى الغابة / ولكن أشجار الأرز فى المدخل كان منظرها عجيبًا / فكان علوها اثنتين وسبعين ذراعًا ، وعرض المدخل أربعًا وعشرين ذراعًا / ووجدا عنده عفريتًا عيّنه « خمبابا » ليحرسه / فشجع أنكيدو وصديقه جلجامش أن يتقدم / ليأسر الحارس قبل أن يأخذ سلاحه / فتشجع جلجامش ، وأسرع الصديقان ، وهجما عليه ، وقتلاه / ولكن ، لما أراد أنكيدو الدخول إلى الغابة شُلت قواه / بتأثير الباب المسحور ، فنادى جلجامش وحذّره من الدخول / ولكن جلجامش شجع صديقه قائلاً / أَبَعْد أن عانينا هذه الصعاب / وقطعنا هذا السفر البعيد نعود من حيث أتينا خائبين ؟) .

استطاع البطلان أن يجتازان مدخل الغابة ، ووصلا إلى قلبها ، فأبصرا الجبال الخضر ، وذهلا من مشهد غابة الأرز ، وسحر جمالها ، ثم تتبعا المسالك التى يسير فيها عفريت الغابة « خمبابا » ، وشاهدا جبل أرز خاص بالآلهة ، حيث أقيم عرش الإلهة أرنينى (عشتار) ، وحيث تتعالى أشجار الأرز أمام ذلك الجبل بظلالها الوارفة التى تبعث البهجة والسرور ، وعند غروب الشمس حفر جلجامش بئرًا ، وقرب منها ، وارتقى الجبل ، وسكب الماء المقدس ، وقرب الطعام ، ودعا الجبل أن يريه حلمًا يبشره بالفرح .

ودنت ساعة اللقاء الحاسمة لما بدأ جلجامش يقطع أشجار الأرز بفأسه ، إذ سمع « خمبابا » الصوت ، فغضب وهاج ، وزمجر صائحًا ، مَنْ الداخل المتطفل / الذى كدر صفو الغابة وأشجارها النامية فى جَبلى ؟ / ومن الذى قطع أشجار الأرز ؟ / وتهيأ « خمبابا » للهجوم على الصديقين اللذين استحوذ عليهما الرعب / وندما على هذه المغامرة ، ودخول غابة الأرز / وأخذا يتضرعان إلى الإله شَمَش ، ليعينهما على الخلاص من الهلاك / فاستجاب لهما الإله ، وانقلبت الآية / حيث أهاج شمش الرياح العاتية ، وساقها على « خمبابا » /

فمسكت به ، وشَلّت حركته ، فاستسلم لهما / وأخذ يتضرع لهما أن يُبقيا عليه ، ويأسراه ، فيكون خادمًا لجلجامش / ويجعل الغابة المسحورة وأشجارها ملك يديه / فرقّ قلب جلجامش ، وكاد أن يبقى عليه ، لكن صديقه أنكيدو / حرضه على قتله ، فقتلاه وقطعا رأسه) .

(ولما أن تكلّل جلجامش بتاجه / رفعت عشتار الجميلة عينيها / ورمقت جمال جلجامش ، فنادته / تعال ياجلجامش ، وكن عريسى الذى اخترت / امنحنى ثمرتك - بذرتك - أتمتع بها / ستكون أنت زوجى ، وأكون زوجك / سأعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب / عجلاتها من الذهب ، وقرونها من البرنز / وستربط لجرها شياطين الصاعقة ، بدلاً من البغال الضخمة / وفى بيتنا ستجد شذا الأرز يعبق فيه إذا مادخلته) .

* ذكّرها جلجامش بما فعلت بأزواجها السابقين ، قائلاً : (إذا أحببتنى فستجعلين مصيرى مثل هؤلاء) .

استشاطت عشتار غضبًا ، وشكت إلى أبيها آنو ، فى حضرة أمها آنتم ، قائلة : (اخلق لى ياأبت ثوراً سماويًا ، ليغلب جلجامش ويهلكه / وإذا لم تعطنى الثور السماوى / فلأحطمن باب العالم السفلى / وأفتحه على مصراعيه / وأدع الموتى يقومون فيأكلون كالأحياء / ويصبح الموتى أكثر عددًا من الأحياء) .

(هبط الثور السماوى . وأخذ ينشر الرعب والفزع / وقضى فى أول خُوار له على مائة رجل ، ثم مائتين ، وثلاثمائة / وقتل فى خواره الثانى مائة ، ومائتين ، وثلاثمائة / وفى خواره الثالث هجم على أنكيدو / لكن أنكيدو صد هجومه / فقفز أنكيدو ، وأمسك الثور السماوى من قرنيه / فرشق الثور السماوى وجهه بزبده ورغائه ، وقذفه بالروث بذيله) .

(وبعد أن أجهزا على الثور السماوى اقتلعا قلبه / وقرباه إلى الإله شَمَش ، وسجدا له) .

* مات أنكيدو ، فحزن عليه جلجامش أشد الحزن ، وصار يرثيه ويندبه ليل

نهار ، ثم قام برحلته البعيدة ، قاصدًا جده (أوتو - نبشتم) ، ليسأله عن الخلود .

(إلى أين النازلة التى نزلت بصاحبى تُقضّ مضجعى / آه ، لقد غدا صاحبى الذى أحببته ترابًا / وأنا سأضطجَع مثله ، فلا أقوم أبد الآبدين / فياصاحبة الحانة ، وأنا أنظر إلى وجهك / أيكون فى وسعى ألا أرى الموت الذى أخشاه وأرهبه ؟) .

قالت صاحبة الحانة :

(أين تسعى ياجلجامش ؟ / إن الحياة التى تبغى لن تجد / حينما خَلَقت الآلهةُ العظامُ البشر / قدّرت الموت على البشرية / واستأثرت هى بالحياة / أما أنت ياجلجامش ، فليكن كرشك مملوءا على الدوام / وكن فرحا مبتهجًا مساء / وأقم الأفراح فى كل يوم من أيامك / وارقص والعب مساء نهار / واجعل ثيابك نظيفة زاهية / واغسل رأسك ، واستحم فى الماء / ودلل الصغير الذى يمسك بيدك / وأفرح الزوجة التى بين أحضانك / وهذا نصيب البشرية) .

* لما وصل جلجامش إلى جده (أوتو - نبشتم) ، بعد طول معاناة ، قال له جده :

(لقد جئت ياجلجامش إلى هنا ، وقاسيت التعب / فما عساى أن أعطيك حتى تعود إلى بلادك ؟ / سأفتح لك ، ياجلجامش ، سرًا خفيًا / أجل ، سأكشف لك عن سر من أسرار الآلهة / يوجد نبات مثل الشوك ينبت فى المياه / وشوكه يَخزُ يديك ، كما يفعل الورد / فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحَياة الجديدة) .

حصل جلجامش على النبات :

(وأبصر جلجامش بئرًا باردة الماء / فوردها ليغتسل فى مائها / فشمت الحية شذى النبات / فَتَسَلّلت ، واختطفت النبات / ثم نزعت عنها غلاف جلدها) .

وعاد جلجامش صفر اليدين ، خائر العزم ، لايملك حتى الضياع !!

آلهة بابل واشور

لم تكن سلطة الملك فى بابل يقيدها القانون وحده ، ولا الأعيان وحدهم ، بل كان يقيدها الكهنة أيضًا ، ذلك أن الملك من الوجهة القانونية لم يكن إلا وكيلاً لإله المدينة ، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله ، وكانت تأخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل ، إما مباشرة ، وإما بشتى الوسائل والحيل .

ولم يكن الملك بحق - فى أعين الشعب - إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية ، أو أخذ بيد (بل) ، واخترق شوارع المدينة فى موكب مهيب ، ممسكًا صورة (مردوخ) . . وكان الملك فى هذه الاحتفالات يلبس زى كاهن .

حتى حمورابى نفسه تلقى قوانينه من الإله .

وقد ظلت بلاد بابل - في واقع الأمر - دولة دينية ، (خاضعة لأمر الكهنة ، على الدوام ، إلى يوم تتويج نُبوخَذ نَصّر) .

وزادت ثروة الهياكل جيلاً بعد جيل ، بفضل اقتسام الأثرياء (المذنبين) أرباحهم مع الآلهة ، وكان الملوك يشعرون بشدة الحاجة إلى غفران الآلهة ، حماية لهم ولسُلْطانهم ، فشادوا الهياكل ، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد ، ووقفوا عليها مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدى إليها فى كل عام ، فإذا غنم الجيش واقعة حربية كان أول سهم من الغنائم ومن الأسرى من نصيب الهياكل ، وإذا أصاب الملك مغنمًا قدمت الهدايا العظيمة للآلهة .

وكان يفرض على بعض الأراضى أن تؤدى للهياكل ضريبة سنوية من التمر والحبوب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نَزعت الهياكل ملكيتها ، وانتقلت للكهنة أنفسهم .

وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون للهياكل من مكاسبهم اليومية قدراً يتفق ومدى تقدير دور الآلهة .

وبذلك كله تكدست فى خزائن الهياكل مقادير هائلة من الذهب والفضة

والنحاس واللازورد والجواهر والأخشاب النفيسة والعطور والتوابل بالإضافة إلى مخازن الطعام .

ولما لم يكن فى مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها ، فقد حولوها إلى رأس مال مستثمر ، وأصبحوا بذلك أكبر القوّامين على الشئون الزراعية والصناعية والمالية ، على مستوى الدولة . . بل كانوا - بسبب كثرة العبيد التى تتبع الهياكل - أكثر قدرة على التحكم فى سوق المال والأعمال . . وبهذا اتسع نفوذهم ، وتحكموا فى مقدرات الدولة ، حكومة وأفرادًا .

وساعد على هذا أن الألهة كانوا يعيشون على الأرض ، فى الهياكل ، يأكلون بشهية الكهنة ، ويزورون الصالحات من النساء أثناء الليل ، فى ثياب الكهنة ، فيستولدوهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا لهم .

وكان الطعام والشراب أكثر مايقرب من القرابين ، وأكثر ماكان يختار بعناية من الضأن والفاكهة والشراب القوى .

ولقد وصلت إلينا رقية بابلية هى سابقة عجيبة لكبش الفداء عند اليهود والمسيحيين ، تقول : (الكبش فداء الإنسان ، الكبش الذى يفتدى به حياته) ، وهى صورة من الرقية السومرية ، والعلة واحدة .

وكان تقريب القرابين من الطقوس المعقدة التى تتطلب خدمات كاهن بشئونها .

ولئن كان أساس الكهانة الاعتقاد بأن مايحدث فى هذا العالم إنما هو مقدر من الآلهة - فقد بنى الكهنة على ذلك أنه لو عرف الإنسان إرادة الآلهة لاستطاع أن يقف على نتيجة أعماله ، وقد رأوا أن معرفة إرادة الآلهة أمر ممكن لمن يستطيع أن يقف على مشيئة الله فى الظواهر السماوية ، وفى حركات الأجرام السماوية ، وفى الرؤى والأحلام ، وفى المخلوقات الشاذة ، وفى الأمارات التى تظهر فى كبد الحيوان المضحى به . . الخ .

كان البابليون يعتقدون فى وجود علاقة بين الإله الذى يقرب إليه الحيوان

المضحى به والحيوان نفسه ، إذ عندما يضحى بالحيوان فإنه يكون جزءًا من الإله ، كما يكون جزءًا من أجسام الناس الذين يأكلونه ، فتكون روح الإله أو نفسه روح الذبيحة أو نفسها ، أو أن روح الحيوان تتمثل بروح الإله ، وعلى ذلك فمن الممكن للبشر أن يتطلعوا إلى روح الإله ، ومن ثم معرفة إرادته بدرس روح الذبيحة ، ولكن أين توجد الذبيحة التى تتمثل بروح الإله ؟ أو فى أى عضو من أعضاء الذبيحة يمكن ملاحظتها ؟ الجواب أن البابليين عدوا الكبد ذا علاقة وُثْقى بالروح والحياة ، لأنهم رأوا أن فى الدم الحياة نفسها ، والكبد مستودع الدم .

والإله شَمَش هو الذى يسطّر على كبد الذبيحة علامات التنبؤ وكشف الغيب .

وقد خلّف البابليون والآشوريون والحثيون ألواحًا من الطين فيها صور الكبد وأسماء أجزائه ، وتعاليم وإرشارات يتم بها التنبؤ .

وسمى البابليون أجزاء الكبد بأسماء متخيلّة ، مثل الإصبع والفم والطريق والباب والقصر والعرش . . الخ ، وبعد انتخاب الذبيحة الصالحة من الوجهة الدينية ، يتقدم العراف أمام صنم الإله ، ومعه موقد ومنضدة وقنان من الخمر وشئ من الخبز ومزيج من الزيد والعسل والملح ، ثم يأخذ بيد السائل المقرِّب ، ويتلو بعض التعاويذ والأدعية ، مخاطبًا الإله ، مستأذنًا منه فى تقريب الذبيحة إليه ، ثم تنحر الذبيحة ، ويخصص للإله أحسن أجزائها ، ثم يفحص العراف الكبد ، فيشاهد أجزاءه ، وما تظهر فيها من علامات ، كالفقاقيع والخطوط والتشققات ، ووضع القنوات التى تربط المرة الصفراء ، وفى أجزاء الكبد علامات صالحة وأخرى غير صالحة ، وقد تربو الصالحة على غير الصالحة ، فتكون هى المعتبرة ، وإذا تساوتا يعاد الفأل بفحص ثان وثالث .

* وكان أهم مايعمله البابلى التقى المتمسك بدينه أن يشترك فى المواكب الطويلة المهيبة ، كالمواكب التى كان الكهنة ينقلون فيها صورة (مردوك) من هيكل إلى هيكل ، ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة ، كما يفعل اليوم فى عراق (الحُسَيْن) ، إحياء لمعركة كربلاء ، ويبدو أن هذه التمثيليات كانت وسيلة تأثير على الجماهير ، وإذكاء لروح (التضحية) فى نفوسهم ، ومن أجل مزيد من

الاستيلاء على مايملكون من خيرات ، بدليل أن الأمر لم يقتصر على معابد دون أخرى ، أو ديانة دون أخرى ، وبدليل أن جميع الفنون - موسيقى وتمثيلاً ورقصًا ونحتًا وتصويرًا - استخدمت فى هذا المجال .

ولم يكن ملك يجرؤ على شنّ حرب ، أو الاشتبالك فى واقعة ، ولم يكن بابلى يجرؤ على البت فى أمر من الأمور ، أو الإقدام على مشروع خطير - إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ، ليقرأ له طالعه ، بطريقة من الطرق الخفية .

وترتب على هذه السيطرة توسع فى مفهوم (الخطيئة) التى تبيح للكهنة أكثر من نافذة للدخول إلى أعماق القلوب والعقول والجيوب ، ولم تعد مجرد حالة معنوية من حالات النفس ، بل صارت (مرضًا) ينشأ من سيطرة شيطان على الجسم ، فى مقدوره أن يهلكه ، وكانت الصلاة بمثابة رقية تخرج الروح الشرير الذى تلبّس به .

وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه ذلك الذى يأكل ماحرمه على إلهه أو آلهته ، وهو من يقول (لا) ، بدلاً من أن يقول (نعم) ، أو يقول (نعم) بدلاً من أن يقول (لا) ، وهو من يشير بإصبعه إلى مُواطن باتهام باطل ، وهو الذى يقول مالا يجوز ، وهو الذى يحتقر إلهه ، أو يسخر من آلهته ، وهو الذى ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق ، وهو الذى يظلم الضعيف ، ويباعد بين الابن وأبيه ، وبين الصديق وصديقه ، ولايعتق الأسير .

وكانوا يعتقدون أن الشياطين تترصد للناس فى كل مكان ، وكان من المستطاع اتقاء خطرها باستعمال التمائم والطلاسم وما إليها من صناعة الكهنة .

ومن الطقوس السحرية التى تخرج الشيطان من الجسم رشّه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة ، كدجلة والفرات ، أو عمل صورة للشيطان ، ووضعها فى قارب ، وإلقاؤها فى الماء ، بعد أن تتلى تعويذة خاصة .

وكانت أكثر الكتابات البابلية التى وجدت فى مكتبة آشور بانيبال هى الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين ، واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب .

ومن هذه الكتابات كتب فى التنجيم ، ومنها قوائم فى الفأل السماوى والأرضى ، وإرشادات تهدى إلى قراءتها ، وبحوث فى تفسير الأحلام لاتقل براعة عما وصلت إليه بحوث علم النفس الحديث .

وكان من أقوى التمائم أثرًا قلادة من حجارة صغيرة تسلك فى خيط أو سلك ، وتعلق فى العنق ، على أن تكون الحجارة من النوع الذى يجلب الحظ الحسن ، وأن يكون الخيط أبيض أو أسود أو أحمر ، حسب الغرض الذى يراد منه .

* يقول الأستاذ **العقاد** (اللّه ص ٩٠ / ٩٣) : الأرباب البابلية أوفر عديداً من أن يتنظمها اتفاق بين قومين مختلفين ، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف ، وقرنوا بها أنداداً لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد .

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها فى كبارها ، ثم فنائها جميعًا فى أكبر الأرباب المشرفة على الكون ، أو فى رب واحد ينفرد بهذا الإشراف .

لكن البابليين وقد ورثوا آلهة سومر وأكد استطاعوا أن يضيفوا إلى الآلهة الموروثة من الصفات الكمالية مالم يكن معروفًا أو محدودًا ، كما صنعوا بين بعض الآلهة علاقات ، وبخاصة بعد انتقال السلطة من المدينة إلى الدولة ، كما أضافوا آلهة لم تكن معروفة من قبل .

يقول الأستاذ **طه باقر** فى (مقدمته) - ج ١ ص ٢٤٧ / ٢٥٤ - إن :

آنو : نعتوه بأبى الآلهة ، وملك الآلهة ، ويقتسم هذا الإله - مع الإلهين إنليل وإيا - الكونَ فيما بينهم ، فيحكم آنو السماء ، وإنليل الهواء ، وإيا الأرض والماء . . وقد عُبد آنو فى جميع أنحاء العراق ، وفى جميع الأدوار التاريخية ، وخُصصت لعبادته مدن شيدت فيها معابده ، أهمها مدينة نفر وأور والوركاء .

إنليل : يلقب مثل آنو بأبى الآلهة ، ويلقب بسيد البلدان أو الأرضين ، وقد صار اسمه يعنى (الرب) أو (السَّيد) ، حتى إنهم اشتقوا من اسمه صفة الربوبية

والألوهية (إليلوتو) ، وقد فرض شريعته على جميع سكان العالم ، وله شبكة مقدسة يحبس فيها كل من يحلف زوراً أو يحنَث بقسمه ، وكانت أقضيته وأحكامه لامرد لها ، وهو الذى يعاقب الملوك على آثامهم وظلمهم ، ويوصف بوجه عام بقوته وشدته ، فهو الذى أحدث الطوفان بعد ما قررت الآلهة إفناء البشر ، كما جاء فى قصة جلجامش . . وقرنوا به إلهة مونثة هى **(ننليل)** ، وجعلوها زوجة له ، ومن أبنائه (ننجرسو) إله مدينة لجش ، وكذلك (نتورتا) إله الحرب والصيد . . ومن وظائف إنليل المهمة أنه عهد إليه بالمحافظة على ألواح القدر الذى يكون من يحوز عليها قادراً على التحكم فى مصير الأشياء .

إيا أو إنكى : إله الحكمة والمعرفة ، بيده أسرار السحر المقدس و (التعزيم) ، وهو الذى علم البشر الكتابة و (الصنائع) - كذا - والفنون وأصول العمران ، واشتهر بحبه البشر ، فهو الذى أفشى سر الآلهة حين عزمت على إفناء البشر بالطوفان . . ونسب البابليون إليه زوجة اشتقوا اسمها من اسمه ، وهى (نن كى) ، أى سيدة الأرض . . ويروى أن سنحاريب فى حملته على عيلام قدم إليه قارباً وسمكة من الذهب ، ورماهما فى ماء الخليج ، قرب البصرة ، حيث معبده الأصلى .

مردوخ : ابن إيا ، وهو إله بابل العظيم ، وكان فى أول الأمر إلها خاصًا ببابل ، ولكن عندما عظمت مكانة هذه المدينة - زمن حمورابى ، وأصبحت عاصمة الإمبراطورية البابلية • ارتفع شأن مردوخ ، وصار مقدسًا فى جميع البلاد .

نبو : ابن مردوخ البكر ، عدَّه البابليون إله الكتابة والقلم ، والمعرفة والحكمة ، وسكرتير الآلهة فى مجالسها المقدسة .

يأتى بعد الثالوث الأول المكون من الآلهة (آنو) و (إنليل) و (إيا) ثالوث آخر مكون من إله القمر وإله الشمس و (أدد) :

سين : إله القمر ، سماه عرب الجنوب (وَدّا) ، وهو عند الآراميين (شهر) ، وعند الأمهريين (ورخ) ، وشُيد له معبد فى (أور) منذ زمن قديم . . اشتهر بالحكمة . . وهو يشترك مع الإله (شمش) فى إدارة شئون العدالة ، وكان

خسوف القمر يتطير منه البابليون . . جاء فى الكتابة السحرية أن خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين ، أو أرواح شريرة عليه ، وكانوا يصلون عند الخسوف للإله ، ويقربوم القرابين ، حتى يتم قهر الشياطين [1] . . وخصّوه بزوجة عبدت معه فى معبده بأور ، وهى الإلهة (ننجال) .

وقد سجل **بريستيد** فى (فجر الضمير ص ٣٦٣ / ٣٦٤) أنشودة ، عزا فيها مؤلفها الكاهن إلى القمر إدارة الشئون البشرية ، وتأسيس كل النظم ، بما فى ذلك المدنية والدينية :

(مَنْ المعظم فى السماء ؟ / إنك أنت وحدك المعظم / ومن المعظم فوق الأرض ؟ / إنك أنت وحدك المعظم / وحينما يتردد صدى كلماتك فى السماء ، فإن آلهة العالم العلوى يسجدون لك / وحينما يتردد صدى كلماتك فوق الأرض ، فإن آلهة العالم الدنيوى يقبلون الأرض لك / وحينما ترتفع كلماتك إلى عليين كالهواء ، فإنها تجعل المراعى تنمو ، وعيون الماء تَغزر / وحينما تنزل كلماتك إلى الأرض ، فإن الكلأ يخرج شَطْأه / وكلماتك تصير الحظائر بما فيها من قطعان سمينة / وتنشر المخلوقات الحية / كلماتك يتولد منها الصدق والعدل / كلماتك السماء العليا ، والأرض المستورة التى لايخترق حجبها نظر / من يفهم كلماتك ؟ ومن يضارعها / اشمل بنظرك بيتك ، انظر إلى مدينتك ، انظر إلى أور) .

شمش : الإله الشمس ، هو عند البابليين والعبرانيين (شمش) ، وعند العرب (شمس) ، وعند الفينيقيين (شفش) ، وعند السومريين (أوتو = الضوء) ، و(يبار = النَّير) . . وكثيراً ما مثل برمز قرص ذى أربعة خطوط تنبعث منها حُزم الأشعة ، كما صور بهيئة ملك جالس على عرشه ، ويحمل فى يده اليمنى الصولجان والحلقة ، وهما رمز السلطة ، وتاجه مزين بأربعة أزواج من القرون ، زى لباس الرأس عند الألهة ، وله لحية طويلة كالإله القمر ، وتنبعث من كتفيه حزم الأشعة . . ولأنه ينير الظلمات فهو إله العدل والحق والشرائع ،

---

(١) إلى عهد قريب كان المصريون يخرجون ليلة الخسوف يدقون الطبول احتجاجًا على هذا الاعتداء ، وينشدون : (ياسيدنا ياعمر فكّ خنقة القمر ، ياسيدنا يابلال فكّ خنقة الهلال) .

وهو الذى أملى على حمورابى شريعته المقدسة ، وهو القاضى الأعظم ، وسيد الكهانة والعرافة ، قدسه الآشوريون ، وشيدوا له معابد ، وعبدت معه زوجته الإلهة (أى) . . وقد عثر على أنشودة سجلها **بريستيد** فى (فجر الضمير ص٣٦٦) تقول : (ياشمش ، أنت الذى لايفلت من شباكك شرير / ولا يفر من فخك خاطئ / أماّ من يحْنَث فى يمينه فإنك تعجل له العقاب / ومن لايحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرار منك / شباكك العريضة مطروحة لمن يقترف الشر / ولمن يرفع بصره إلى زوجة رفيقة / إذا أشهرت سلاحك عليه فا منجى له / فإذا وقف أمام المحكمة فليس فى استطاعة أحد مساعدته ، ولو كان والده / وليس هناك من يعارض كلمة القاضى ، حتى إخوته / فهو يحبس فى فخ نُحاسى لامناص له منه / وأما من يضمر شرا فإنك تحطم قرنه / ومن يتحيز إلى المسئ ، فإن الأرض التى تحْت قدميه تميد به) .

أدد : (إله خاص بالجو والمناخ ، ولاسيما الأمطار والرعود والفيضان . . قدسه كذلك الآشوريون وعبدوه .

وهناك ثالوث آخر له سمات خاصة :

عشتار : إلهة الحب والحرب ، تتمثل فى كوكب الزهرة ، وهى ابنة الإله القمر ، خصها الآشوريون بالتقديس ، لأنها عندهم إلهة الحرب والطعان ، سارت مع بعض ملوكهم فى طليعة الجيوش وأحرزت النصر ، وقد نعتت باللبؤة الضارية . . اتخذها (تموز) زوجة له ، لكن حبها قضى عليه ، ولذلك كانت تندبه ، وتمثَّل تموز فى خضرة الربيع .

نرجال : فى الأرض السفلى ، مقر أرواح الموتى ، يحكم الإله (نرجال) ، ومعه زوجته (إيرشكيجال) ، ويساعدهما مجموعة من الآلهة الصغيرة ، وعدد من الشياطين والعفاريت . . وقد شيّد له الملك سنحاريب معابد فى شمال العراق ، ووصلت عبادته إلى بعض المدن السورية .

آشور : خصه الآشوريون بالتعظيم ، إلى جوار عبادتهم الآلهة السومرية البابلية . . كان إله مدينة آشور ، ولما اتسع سلطان الآشوريين عظم شأنه ، وصار

على رأس الآلهة البابلية . . وهو يُمثَّل عادة بإنسان يطير بجناحين ، وبيده القوس والسهم ، والجناحان تنبعثان من قرص الشمس ، وأخذ الفرس الأخمينيون هذا الرمز للإله أهورا مزدا .

* كانت سياسة الكون - كما تخيلوها فى الأدوار الأولى - أشبه بالجمهورية ، بل المشيخة القبلية ، فكانوا يرون أن الأرباب تجمع كل سنة ، فى يوم الاعتدال الخريفى ، لتنظر مقادير السنة كلها ، وتكتبها فى لوح محفوظ لايمحى قبل نهاية العام .

ولم يؤثر عنهم - فى عهد الشمريين - إيمان بعالم آخر ، أو بيوم الحساب والجزاء ، فمن اجترأ على فعل محرم ، أو قصر فى الصلوات والقرابين ، فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض لايشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير ، وإن لم يكن الجزاء مرضاً فهو خسارة فى المال أو العيال أو ذوى القربى والأعزاء .

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب ، وترسل الآلهة على الأرض طوفانًا أو وباءً يأخذ البرئ بذنب المسئ ، لكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب ، وتلهم الكهان وحدهم تفسير هذا النذير .

ولم تكن الصلاة فى طلب ثواب الجنة ، بل في طلب متسع من الأرض يستثمره ، أو فى نجاح تجارى ، أو انتصار على عدو ، أو تجنب كارثة .

وقد خلّف سكان العراق الأقدمون مجاميع من الصلوات والأدعية والتراتيل الدينية ، كانوا يتلونها فى المعابد .

وأنواع الصلوات كثيرة ، منها مايقوم به الفرد بنفسه ، بدون وساطة الكهنة ، وكانوا إلى جانب الدعاء فى الصلوات يقومون ببعض الإشارات ، منها رفع اليد مع الدعاء . . وثمة صلاة للتوبة والاستغفار . . وقد مثّلت أوضاع بعض المصلين وهم بهيئة الركوع أمام التماثيل .

ومن المناسك مايقوم به الكهنة ، كذبح القرابين ، وما يتبع ذلك من رسوم وصلاة وتجمير البخور وسكب السوائل المقدسة .

* كان الموت عندهم من طبيعة الإنسان وتركيبه ، فالإنسان خلق ومعه حياته

وموته ، ولاتوجد أدلة كتابية تثبت اعتقاد البابليين برجوع الروح إلى الجسد فى القبر ، كما هو عند المصريين ، وإن انتشرت فى جميع عهود العراق عادةُ وضع مايحتاج إليه الميت فى قبره ، وهى ترجع فى أساسها إلى الأطوار الهمجية من حياة البشر ، فى العصور الحجرية القديمة .

وهذا تعليل من الأستاذ **باقر** (المقدمة مج ١ ص ٢٣٠ / ٢٣٤) يحتاج إلى تعليل ، وبخاصة أنه يتحدث عن عالم الأرواح بما يعنى خلود الروح ، إذ كانوا يعتقدون (أن راحة الروح فى عالم الأرواح تتوقف على العناية التى يبذلها الأحياء فى دفن الجسم . وفق الطرق والسنن الدينية ، وعلى مايودع فى القبر من زاد وأثاث) .

وقد وصفوا موطن الأرواح فى العالم السفلى بأنه عالم مخيف ، بهيئة مدينة مُسوّرة بسبعة أسوار ، يحرسها مردة الشياطين ، وسموه بأسماء مختلفة ، منها (كيجال) ، و (الأرض التى لارجعة منها) . . وتسكن هذه المدينة وتحكمها إلهة شديدة قاسية ، هى (إيرش كيجال) - ملكة العالم السفلى - تساعدها مجموعة من الآلهة والشياطين والكتّاب لتسجيل الموتى . . وهذا العالم يتساوى فيه الموتى ، ولا رجعة منه . . وجاء فى ملحمة جلجامش (اللوح الثانى عشر) أن بعض الموتى الذين خلفوا المآثر الصالحة ، أو ماتوا عن أولاد ذكور ، أو من قدمت لهم القرابين ، على الدوام - يعيشون فى هذا العالم إلى حد ما ، (إذ يمنحون الماء والطعام) .

ويضيف الأستاذ **باقر** أن عقائد العبرانيين فى موطن الأموات تشبه - من وجوه كثيرة - عقائد البابلين ، إذ يستنتج من التوراة أن عالم الأرواح ، أو عالم الموتى ، فى أعمق أجزاء الأرض السفلى ، تحت البحر ، وأن لهذا العالم مداخل وأبوابًا .

* ولقد استفاد البابليون من معارف السابقين ، أو من أساطيرهم ، عن (نشأة الكون) ، وعن الحياة الإنسانية الأولى ، فطوروا هذه المواريث حتى صارت الهيكل الرئيسى لكتابات التوراة فى الأسر البابلى .

قالوا : كان أول الأمر عماء (ففى الوقت الذى لم يكن فيه شئ عال يسمى

السماء ، ولم يكن شئ وطئ يسمى الأرض ، جاء « أبو المحيط » ، وكان أبا الأشياء أول الأمر ، و « تيامات » العماء ، التى ولدتها كلها ، وخلطا ماءهما معًا) .

وبدأت الأشياء تنمو على مهل ، وتتخذ لها أشكالاً ، لكن (تيامات) الإلهة الهُولة شرعت تبيد كل الآلهة الآخرين ، لتجعل نفسها - العماء - صاحبة المقام الأعلى ، وأعقبت هذا ثورة عنيفة اضطرب معها نظام الكون ، ثم جاء إله آخر ، هو (مردوك) ، وقتل تيامات ، بأن دفع فى فمها ريحًا عاصفة ، حين فتحته لتبتلعه ، ثم طعنها برمحه فى بطنها الذى انتفخ بما دخله من الريح ، فانفجرت إلهة العماء .

وعاد (مردوك) إلى هدوئه ، ثم قسم (تيامات) قسمين مستطيلين (كما يقسم الإنسان السمكة ليجففها) ، ورفع أحد النصفين إلى أعلى ، فكان هو السماء ، وبسط النصف الآخر تحت قدميه فكان الأرض .

ولما فتق (مردوك) السماء والأرض ، ووضعهما فى مكانيهما ، شرع يعجن الأرض بدمائه ، ويصنع الناس لخدمة الآلهة .

وتختلف القصص البابلية فى وصف الطريقة الدقيقة التى تم بها صنع الإنسان ، وإن كانت تتفق بوجه عام فى القول بأن الإنسان صنعه الإله من الطين ، وهى لاتصفه بأنه كان يعيش أولا فى جنة ، بل تقول إنه كان يعيش حياة حيوانية ، فى جهل وبساطة ، حتى جاء وحش مهول يدعى (أونِّس) ، نصفه سمكة ، ونصفه فيلسوف ، وعلمه - الإنسان - الفنون والعلوم وتخطيط المدن ومبادئ القانون ، ولما علمه إياها نزل إلى البحر ، وكتب كتابًا فى تاريخ الحضارة . . غير أن الآلهة لم تلبث أن غضبت على الناس الذين خلقتهم ، وأرسلت عليهم طوفانًا عارمًا لتهلكهم ، وتمحو سيئ أعمالهم .

أشفق (إى) إله الحكمة على البشر واعتزم أن ينجى منهم على الأقل رجلاً واحدًا (شمش - نبشتين) وزوجته ، (وظل الطوفان مهتاجًا ، وغُصّ البحر بالبشر كأنهم سرء السمك) .

ثم بكت الآلهة على حين غفلة ، وعضت بنان الندم على غفلتها وسوء

تدبيرها ، وتساءلت عمن سيقرب لها القربان المعتاد ، لكن (شمش - نبشتين) كان قد بنى فلكًا ، ونجا من الطوفان ، وحط على جبل نزير ، وأرسل يمامة تستطلع ، ثم قرر أن يقرب القربان للآلهة ، وقبلت الآلهة قربانه ، وهى مندهشة شاكرة ، (شمت الآلهة الرائحة الذكية ، واجتمعت كالذباب فوق القربان) .

* تأكد لدى البابليين أن مصير البشر والكون بيد الآلهة : إذ هى التى تدير شئون الكون ، وتقدر أقداره ، ولها حق الحفاظ عليه ، أو القضاء عليه ، وتأكد لدى البابليين أن فى الإمكان إرضاء الآلهة ، وكسب محبتهم ، وذلك بالعناية ببناء المعابد ، بحيث تكون أفخم الأبنية ، وبالعناية بتوفير أسباب سعادة الكهان ، والإغداق عليهم ، وبالعناية بانتقاء ما يقدمون من قرابين وتعاويذ وصلوات .

كان البابليون ينسبون إلى آلهتهم صفات البشر ، الروحية والمادية ، كالصورة أو الأعضاء ، والفكر ، والعواطف ، ونسبوا إلى الآلهة ألوانًا من النشاط السياسى ، فى صورة مجالس الشورى المقدسة ، وإعلان الحرب ، وإيثار السلام ، ومناصرة فريق من الناس دون فريق . . وكان لكل إله زوجة وسرارى وأولاد وحاشية ، فالآلهة تأكل وتمارس كل مايمارسه البشر ، ولاتكاد تتميز إلا بصفة الخلود .

وخوفًا من الآلهة ، وطمعًا فى حماهم ، صار لكل فرد إله خاص ، هو الحامى الشفيع ، عدا ولائه لبقية الآلهة ، وكذلك كان الشأن بين الملوك والآلهة .

ومن ثم كان حرص الملوك على إرضاء الآلهة ، حتى لايعرض الملك نفسه ومملكته للخراب ، وحتى لا تسلط عليه وعلى مملكته الشياطين والأرواح الخبيثة .

لذلك كان من الناس إذا نزلت به نازلة كتب إلى إلهه أو آلهته رسائل رجاء وتوسل ، بالإضافة إلى القرابين والصلوات . . جاء فى رسالة : (إلى الإله ، أبى ، قل : هكذا يقول « آبل - أدد » ، خادمك : لماذا أهملتنى هكذا ؟ من سيزودك شخصًا آخر يحل محلى ؟ اكتب إلى الإله «مردوخ» الذى يحبك ، لكى يزيل عنى علتى ، وعندئذ سأرى وجهك ، وأقبل قدميك ، راع أيضًا عائلتى ، الكبار والأطفال ، فارحمنى من أجلهم ، ودع عونك يصلنى) .

* ويقول جفرى بارندر (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٣/ ٣٤) :
كانت تقام احتفالات خاصة ، وتقدم القرابين فى الأيام المقدسة عند إله معين ، بالإضافة إلى الأعياد الشهرية المنتظمة ، فى اليوم الأول من الشهر القمرى ، وفى اليوم السابع ، وكذلك يوم اكتمال القمر ، ويوم اختفائه ، عدا أعياد الحصاد .

أما العيد الرئيسى فهو عيد السنة الجديدة Akita ، ويحتفل به فى بابل وأوروك ، وآشور ، بدعوة جميع آلهة المناطق المحيطة للحضور .

ويحدثنا الأستاذ طه باقر (المقدمة مج ١ ص ٢٥٧ / ٢٥٩) بأنه فى الأعياد العامة والمهرجانات الدينية كان موكب كبير الآلهة يمر بالشارع الرئيسى ببابل ، عابرًا باب عشتار ، وهو يعد أفخم مابقى من آثار بابل ، ومنه يسير إلى معبد قرب نهر الفرات ، كأنهم كانوا يمثلون قصة الخليقة البابلية ، التى نظمت لتمجيد الإله مردوك وتعظيم شأنه .

وفى الأيام الخمسة الأولى من عيد رأس السنة الجديدة تجرى التطهيرات الدينية فى معبد مردوك فى بابل كل صباح ، قبل شروق الشمس ، حيث يدخلهن الكاهن الأعلى بعد التطهير ، فيصلى لمردوك وللآلهة الأخرى ، وبعد ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المعتادة . . وفى مساء اليوم الرابع تتلى أسطورة الخليقة بكاملها فى المعبد ، لأن رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد . . وفى اليوم الخامس - وهو يوم توبة الملك أو الكفارة عنه - يقوم الملك بالدور الرئيسى من الطقوس ، ففى الصباح يصلى الكاهن الأعلى لمردوك ابتغاء مرضاته ، ثم يطهر المعبد ، وتقدم القرابين ، وتقرأ التعاويذ ، ويقوم النجارون بصنع منضدة للقرابين ، ومظلة من الذهب ، يقدمها ابن مردوك - الملك - هدية لأبيه ، وحينئذ يدخل الملك إلى مزار مردوك ومعه الكهنة ، وحين يصل إلى ساحة المعبد يتركه الكهنة ، فيظهر الكاهن الأعلى من حجرة الهيكل فى المعبد (وهى أقدس جزء فيه ، حيث تمثال الإله مردوك) ، فيأخذ من الملك شارات الملك : الصولجان ، والحلقة ، والقامة ، والتاج ، ويضعها على منضدة إزاء تمثال الإله ، ثم يعود إلى الملك ، فيلطمه على وجهه ، ويجعله يسجد أمام الإله ، ويعترف بما يأتى : (لم أذنب ياسيد الأقطار ، ولم أكُ مهملاً إزاء ألوهيتك ، لم

أخّـرب بابـل ، ولـم أسبـب لهـا الهـوان ، لـم أخـــرب أبسكالا ، ولـم أهمـل مناسكه . . الخ) ، فيجيبه الكاهن الأعلى : (لاتخف ، ولا تحزن ، إن مردوك سيسمع صلاتك ، وسيوسع من سلطانك ، ويعلي من شأن ملوكيتك ، وينصرك على أعـدائك ومناوئيك) . . ثم يُرجع الكاهن الأعلى شارات الملوكـيـة إلـى الملك ، بعد أن يلطمه مرة أخرى ، ويستحسن أن تكون لطمة شديدة ، بحيث تدمع عينا الملك ، فتكون علامة فأل حسن على السنة الجديدة وعلى رضا الإله .

و (عملية لَطْم الملك تذكير له بكونه إنسانًا كغيره من الناس ، وإعادة شارات المُلك تفويض من الإله للملك بالحكم) .

التشـــريــــع

من خلال سلطة الملوك والكهنة فرضت الآلهة على الناس - عدا العبادات والشعائر والطقوس - أن يتمسكوا بالشرائع المستمدة من أفق أعلى ، وحتى تكون للشرائع فى النفوس هيبتها واحترامها والالتزام بآدابها تظاهر الملوك والكهنة بتمسكهم بهذه الآداب ، وحرصهم على تطبيقها وتطبيعها . . ومن ثم تصور الكون على هيئة مملكة تحكم فيها الآلهة ، وتدير شئونها ، ويتجلى فيها مبدأ الطاعة والسير بموجب أنظمة المجتمع ، وتتدرج الطاعة وتتنوع من طاعة الأب إلى طاعة رئيس الدولة إلى طاعة الإله . . ومن فضيلة الطاعة تصوروا عهداً ذهبيا للبشرية .

جاء فى أحد التراتيل : (ستأتى أزمان لايهين فيها شخص شخصًا آخر ، والولد يبجل أباه ، أيام يسود فيها الاحترام والطاعة البلاد ، حين يمجد المتواضعون العظماء . . الخ) .

وصارت السلطة والحكومة من أسس المجتمع ، وبدونهما لايمكن تصور مجتمع ما ، وإليهما توجه الطاعة والخضوع .

وقد ورد فى الأمثال كثير مما يعكس نظرهم إلى أهمية الطاعة والخضوع فى قيام المجتمع : (الجنود بلا ملك خراف بلا راع) ، و (العمال بلا رئيس مياه بدون جدول ، ولا مراقب) و (الفلاحون بدون رئيس كحقل بلا حارث) .

وقد فرض على أفراد المجتمع أن يشعروا أن السلطة هى على الدوام على صواب ، مهما فعلت : (أوامر القصر مثل أمر آنو ، لايمكن أن ترد ، كلمة الملك هى الحق الصحيح ، كلمته مثل كلمة الإله لايمكن تحديها) .

وتوقفت علاقة الإله الحامى بالفرد ، وملازمته له ، على طاعة الفرد ، وكل ماتقتضيه قواعد السلوك والأخلاق ، وما ينتظره الفرد فى مقابل طاعته ليس من الحقوق الواجبة ، وحسب الفرد أن يكون فى طاعة الإله والسلطة .

ولكن بتطور المجتمع فى وادى الرافدين نشأت تساؤلات عن العدالة : هل

هى من حقوق الفرد على الدولة ؟ أو شئ تتفضل به السلطة ؟ وتبلورت الفكرة الأولى فى صورة تشريعات لاتزال فى تطور ، حتى كانت شريعة حمورابى .

وتشترك معظم الشرائع القديمة فى الاعتقاد بأنها مستمدة من الآلهة ، فالقوانين القديمة - سواء كانت صادرة عن العرف والعادة ، أم مبنية على الأحكام الصادرة من الملك أو الكهنة - إنما هى أحكام إلهية ، لأن الحاكم يمثل الإله فى الأرض ، فأحكامه موحى بها من الآلهة ، والاعتقاد بهذا المصدر السماوى جعل القوانين القديمة تتصف بالثبات والاستمرار ، والتزام الجميع بها فى جميع الأحوال .

وتمتاز شرائع العراق القديمة - كما يقول الأستاذ باقر (مج ١ ص٢٨١) - بأنها على قدر عظيم من النضج والرقى ، بالنسبة لجميع الشرائع القديمة ، وقد دونت بلغة قانونية دقيقة ، وبأسلوب علمى ، وهى قوانين دنيوية صرْفة ، مقتصرة على الشئون المدنية ، دونت بهيئة مواد متسلسلة ، لم تخل من قَدر من السذاجة والبداوة والشدة .

* وأقدم شريعة عراقية - كما يقول الأستاذ باقر (مج ١ ص١٣٢ / ١٤١) - هى شريعة (أور - نمو) ، حاكم مدينة (أور) الذى ثار وانتصر على الأمير السومرى (أوتو - حيكال) ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٥ - ١٩٩٨ ق . م) التى يعد زمنها آخر عهود السومريين ، وقد وجد حديثًا لمؤسس هذه السلالة نسخة من الشريعة التي وضعها ، وتعد أسبق من شريعة حمورابى بنحو ثلاثة قرون .

وفى (مج ١ ص ٢٨٦ / ٢٨٧) يقول الأستاذ باقر : إن ألواح الطين التى جاءتنا من عصر الوركاء - ٣٥٠٠ ق . م تقريبًا - ومن عصر (جمدة نصر) ، تحتوى على كثير من المعاملات التجارية والإدارية ، كسجلات الحقول والأراضى ، والمستندات التجارية ، وسجلات الواردات ، وتثبيت ملكية الأراضى . . وكثرت المصادر عن القوانين فى عصر فجر السلالات ، وهو عهد ازدهار الحضارة السومرية ونموها .

وكان (أورو كاجينا) ، أمير مدينة لجش ، أول مشرع فى تاريخ البشر ، وقد

جاءتنا منه مآثر تشير إلى إصلاحاته الاجتماعية ، وتنظيم أصول الإدارة ، وجَبْ الضرائب ، وإزالة الظلم عن الطبقات الفقيرة ، حتى مكن العدل فى البلاد .

وبتوحيد البلاد فى عهد السلالة الأكدية ، ونشوء الإمبراطورية ، كان نشوء القوانين الإدارية لإدارة المملكة المترامية الأطراف ، والأقاليم التابعة لها .

وبعد سلالة (أور - نمو) التى خلفت شريعة لم يبق منها سوى المقدمة وبضع مواد قانونية تأخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلاً من القصاص - جاءت سلالة (إيسنْ) البابلية التى حكمت زهاء ٢٢٥ عامًا (١٩٩٨ - ١٧٧٣ ق.م) .

وقد نشر الباحثون فى سنة ١٩٤٧م أجزاء من شريعة مدونة باللغة السومرية ، ثبت أن مقنّنها (لبت عشتا) خامس ملوك سلالة (إيسنّ) ، وهى تسبق شريعة حمورابى بأكثر من قرن ونصف القرن . . وقد نقشت على نصب ، أو مسلة ، مثل مسلة حمورابى ، وما وصل من هذه الشريعة يحتوى على ٣٥ مادة فقط . . وهى تتضمن - كما يقول كلنجل ص ٨٨ / ٨٩ - مقدمة ، وتشريعات فعلية ، وخاتمة .

ويقول الأستاذ باقر (مج ١ ص٢٨٨) : إذا صحت نسبة قانون (أشنونا) إلى (بلالاما) فإنه يعد أقدم شريعة كبيرة معروفة فى العالم ، بعد قانون (أور - نمو) ، وقد دون هذا القانون على لوحين من الطين باللغة البابلية (السامية) ، وهو بحاله الحاضرة يحتوى على نحو ٦١ مادة ، فيعادل بذلك نحو ربع شريعة حمورابى . . ويذكر القانون الأحكام التى تتعلق بالسرقات والاعتداءات والأضرار الواقعة على الأعضاء ، وديات الأعضاء ، والأضرار المسببة عن سقوط جدار متداع ، وجنايات الحيوانات ، والديون ، والبيع والشراء ، ومواد فى الأحوال الشخصية من زواج وإرث وطلاق وزنى وعقوبات . . وقد صيغ هذا القانون على طراز قانون حمورابى بهيئة فنية ، ورتب مواد بحسب الأحكام المختلفة ، مثل :

مادة ١٢ : إذا قبض على رجل فى حقل شخص من الطبقة الوسطى نهاراً ، فإنه يدفع عشرة شيقلات من الفضة غرامة ، ومن قبض عليه ليلاً فإنه يموت ولا يحيا .

مادة ١٥ : لايجوز للتاجر أو بائعة الخمر أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوبًا أو صوفًا أو زيتًا ، كرأس مال للمتاجرة ، لأن الرقّ - بحكم القانون - لايملّك شيئًا ، فالرقيق ، وما ملك لسيده .

مادة ٢٧ : إذا دخل رجل بابنة آخر ، بدون إذن أبيها وأمها ، ولم يعقد عقدًا بالزواج من أبيها وأمها ، لاتكون تلك المرأة زوجة شرعية ، حتى لو عاشت فى بيته سنة .

مادة ٢٩ : إذا فقد رجل فى حرب ، أو أخذ أسيرًا ، وبقى فى الغربة زمنًا طويلاً ، فأخذ رجل آخر زوجته ، أى تزوجها ، وولدت له طفلاً ، ثم رجع الزوج الأول ، حقّ له استرجاع زوجته .

مادة ٣٠ : إذا كره رجل مدينته وملكه ، وهرب ، ثم أخذ رجل آخر زوجته ، فإذا رجع الهارب لايحق له استرداد زوجته .

أما بخصوص القوانين المفقودة فلم يبق محفوظًا إلا خُمس النصوص الأصلية . . وقد وجدت مدونة على أربعة ألواح من الطين ، وهى متطابقة فى نصوصها ، مما يدل على أنها نسخت عن أصول أقدم ، وتحتوى على نحو ٢٦ مادة ، وهى تعالج إيجار السفن ومسئوليها ، وضمان البساتين ، والسرقة من البساتين .

وهناك فقرات أخرى تعالج منح المستعبَد الحرية ، والاتهام الكاذب ، ومسائل متعلقة بحقوق الإرث والزواج ، وواجب التعويض لمستأجِر بقرة ، إذا حدث لها مكروه .

ويلاحظ أن هذه القوانين - مع كثرتها وتنوع موادها - لم تكن مطبقة تمامًا ، ولم تكفل حقوق الضعفاء ، إنما كانت نوعًا من الالتزام التقليدى فحسب .

وتعدد هذه الشرائع وتتابعها يفيد أنه مامن حكومة تقوم بدون شريعة ، بل مامن قبيلة بدون شريعة ، كتبت أو لم تكتب ، وقد تسمى عرفًا أو تقليدًا ، إذ لابد لكل تجمع بشرى من قواعد تحكم هذا التجمع ، وتنظم علاقاته ، وتُؤَطِّر سلوكه ، وإلا كانت الفوضى .

* وجاء حمورابى . . كان يخضع لسيادة ملك آشور ، بعد أن سيطر سنة ١٧٩٢ ق . م على بعض المدن ، إذ لم تكن دائرة نفوذه يتعدى محيطها ٨٠كم حول بابل ، طيلة الفترة التى كان يحكم فى الدول المجاورة ملوك من ذوى الشأن مثل شامش - أدد ، وريم - سين ، إذ لم تسنح للملك الشاب الفرصة لتوسيع مملكته البابلية الصغيرة . . وبالاشتراك مع ريم - سين ، ملك لارسا ، قام بحملات ضد المتمردين ، وكان شامش - أدد أثناء فترة حكم حمورابى الأولى يقيم فى المنطقة الحدودية لشمال بابل ، وربما كان حمورابى يفضل الدخول فى حلف مع الحاكم القوى المجاور له . . وهكذا عهد إليه شنّ حملة ضد (أشنونا) المجاورة ، وكان هذا فى مصلحة كل من آشور وبابل .

وقد تخلى حمورابى عن المطالبة بتأليهه ، كما كان لايزال يفعل ريم - سين ، فمسلّة حمورابى لم تعرض القلنسوة ذات القرون ، رمز الألوهية ، الذى ظل قائمًا إلى تلك الفترة ، حين كان الثور أهم ماكان يعبد إلى جانب الإلهة الأم . . لم يفرض وجوب اقتران اسمه بالآلهة فى المخطُوطات ، ولم يكن معلومًا ما إذا كان يمتلك محرابًا أو معبدًا لعبادة شخصه ، غير أن الملك كان يعتبر ممثلاً لقطاعه الذى يحكمه أمام الآلهة ، فكان مدعّوا من قبلهم إلى ذلك ، ومنح سلطته الشرعية بهذه الدعوة ، وكان من اقترف بحقه ذنبًا فكأنه أذنب فى حق الآلهة .

كان الملك فوق المعابد ، لأنها تخضع لسيطرته ، وإن كان مسئولاً عن تمويلها ، وتمويل العتبات المقدسة من خلال تمويل القرابين والعطايا والهدايا . . بنى دور العبادة ، وأعاد بناء ما استحق منها ، وتبرع بتجهيز المعابد ، أو أمر بتجديدها ، واهتم بشئون العبادة .

كتب (سين - أدينام) رسائل تتعلق بتحميل تماثيل للآلهة إلى بابل ، وكان الناس فى إنتظار الآلهة المعنية بفارغ الصبر ، فأمر الملك أن تكون رحلة التماثيل بالسفينة ، وأن تقلع بالسرعة الممكنة .

* وبعد انهيار سلالة أور الثالثة تغيرت تدريجيًا وظيفة المعابد ، فلم تعد المكان الذى يكوّن وحدة مع المدينة ، حيث تحولت من بيت الآلهة إلى قصر الآلهة ، وانضوت تحت السيادة الملكية تمامًا ، حتى صارت تشكل دعمًا

للحكم ، وتنص الكتابات السومرية عن بناء المعبد فى لارسا على أنه (من أجل شماش ، سيد السماء والأرض ، من أجل مليكه ، كان حمورابى المختار - من قبل آنو ، وخادم إنليل ، وحبيب شماش - الراعى الذى أدخل السرور إلى قلب مردوك ، الملك القوى ، ملك سومر وأكد ، ملك شواطئ العالم الأربعة ، الملك الذى جدد العتبات المقدسة للآلهة) .

وبمناسبة إكمال بناء سور مدينة سيبار ، تقول مخطوطة : (تطلع شماش ، السيد الكبير للسماء والأرض ، بمحيّاه اللامع إلىّ بفرح ، إلّى أنا حمورابى ، أميره المحبب ، ومنحنى ملوكية دائمة ، وحكومة طويلة الأمد ، وثبّت البلاد التى ولأنى حكمها ، وأمرنى بكلمته الطاهرة التى لامبدل لها ، وأسكن الهدوء شعب سيبار وبابل ، وعهد إلىّ بجلال بتجديد سور سيبار وتعليته) - حمورابى ملك بابل وعصره - ص ١٣٥ / ١٣٧ .

* ومن أفقه الواسع أقام حمورابى لشريعته مسلة ، تتكون من ثلاثة أحجار من النوع النادر ، تنتصب مخروطياً بارتفاع يصل إلى مترين وربع المتر ، وهى من الأمام تعرض مجّسداً لرجل عليه رداء طويل ، وعلى رأسه قلنسوة تشبه الشال (الملفح) ، وقد رفع ذراعه اليمنى ، متحدّثا بإجلال إلى إله على عرش ، يرمز إليه بتاج متعدد القرون ، ترتفع من كتفيه أشعة الشمس ، رمزا للإله شماش . . وبقية المسلة محاطة دائريًا بكتابة ، علاماتها القديمة موزعة فيما بينها إلى سطور مفصولة فى كل مرة بخط عمودى ، وتشير فى اتجاه اليسار إلى شكل وطريقة فى الكتابة ، استخدمت فقط فى النصب التذكارية الرسمية ، فى حين كانت الكتابة فى الأعمال اليومية من اليسار إلى اليمين فى سطور أفقية .

وقد تم اكتشاف هذه المسلة فى شتاء ١٩٠١ / ١٩٠٢ م ، وفى هذه الأثناء نشرت رسائل كثيرة لحمورابى ، وترجمت منقوشات على البناء ، ونظمت الأخبار السنوية لثلاثة وأربعين عامًا من حكمه ، فى الفترة بين ١٧٩٢ و ١٧٥٠ ق.م .

ويتوزع نص المسلة على ثلاثة مقاطع رئيسية : المقدمة ، ثم الشرائع ، ثم الخاتمة .

ويبدو أن (المقدمة) كانت تقليداً سبق إليه المشرعون ، مثل (أور - نمو) ، و (ليت - عشتار) .

وكان للخاتمة كذلك سابقة فى أدب الرافدين ، قدم فيها حمورابى نفسه بقوله :

(حمورابى الملك الكامل أنا ، من أجل البشر الذين منحهم إياى الرب إنليل ، وولانى رعايتهم الرب مردوك ، لم أكسل ، ولم أقعد مكتوف اليدين ، بحثت لهم عن مواقع الخير ، فرجت الضيق عنهم ، نشرت النور فوقهم ، بالسلاح الذى أعارنى إياه الإله « ذابابا » ، والإلهة عشتار ، وبالبصيرة التى حبانى بها الرب إيا - Ea ، كنصيب دحرت الأعداء هنا وهناك ، وقضيت على المقاومة من أجل أمن البلاد ، أسكنت الناس فى بيوت محمية ، لم أسمح لأحد بطردهم ، الآلهة الكبار كلفتنى بذلك ، وهأنذا الراعى أحرس جيداً وعصاى مستقيمة ، ظلى المديد يظلل مدينتى ، وسع حجْرى البشر من بلاد سومر وأكد ، بإله الحماية الذى أحتمى ، وهو أخ للبلاد ، أؤمّن لهم العيش بسلام ، وأطمئن عليهم فى أعماق معرفتى ، لا أسمح للقوىّ يسلب حق الضعيف ، أضمن حق الأرامل واليتامى ، فى بابل التى رفع كل من الإله آنو وإنليل رأسها عالياً فى إسانجيلا ، البيت الأزلى ثابت الأركان مثل السماء والأرض ، من أجل تثبيت حقوق البلاد وتقرير مصيرها ، وإعادة الحق إلى أهله ، كتبت كلماتى العذبة هذه أمام صورتى كملك يقيم العدل ، الملك الشامخ بين الملوك ! !) .

وبيّن مضمون هذه الشريعة فى تعليمات مفصلة لترجمة الحق إلى تطبيق عملى : (الرجل المظلوم الذى سُلب حقه ، ودخل فى قضية قضائية ، يقف أمام صورتى كملك العدل ، ثم ليقرأ وليسمع كلماتى الطيبة ، حجر الذكرى العائد لى يوضح قضيته ، وله أن يجد وجه العدل ، ويتنفس من الأعماق الصعداء) .

ويتوجه حمورابى - بوجه خاص - إلى ورثة عرشه فى بابل (إلى آخر الأيام ، إلى الأبد ، على الملك الذى سيكون فى هذه البلاد أن يحفظ كلمات العدل التى كتبتها فى مسلتى ، حق البلاد الذى أعطيته ، قرارات البلاد التى

أصدرتها لايحسن أن يدعها جانبًا ، مادوّن من قبَلى لايحق له الاستهانة به ، إذا كان هذا الرجل رشيدًا ، ويريد حكم البلاد بالعدل ، فعليه احترام الكلمات التى كتبتها على مسلتى ، المسيرة والطريق وحق البلاد الذى أعطيته ، وقرارات البلاد التى أصدرتها ، ترشده إليها هذه المسلة) – حمورابى ملك بابل وعصره ص ١١ و ص ١٤١ / ١٤٦ .

والمسلة تتألف من ٤٤ حقلاً أو عمودًا ، تضم ٢٨٢ مادة قانونية ، ومن أهم هذه المواد .

مادة ٥ : إذا قضى قاض فى حكم ، وأصدر بذلك وثيقة ، ثم رجع بعد ذلك عن حكمه وبدّله ، يحاكم ذلك القاضى فى الدعوى التى حكم فيها ، ويدان ، ويغرّم غرامة تعادل ١٢ مثلاً مما فى تلك الدعوى ، ويطرد من منصبه ، ولايجلس مجلس قضاء أبدًا .

مادة ٨ : إذا سرق رجل بقرة أو غنمة أو حمارًا أو خنزيرًا أو قاربًا ، فإنه يعطى ثلاثين مرة قيمة المسروق ، إذا كان يعود إلى الإله أو إلى القصر ، ويعطى عشرة أمثاله إذا كان المسروق يعود إلى الطبقة المتوسطة ، وإذا لم يكن عند السارق مال للتعويض فإنه يقتل .

مادة ٤٨ : إذا كان على شخص دين ، ثم أغرق الإله (أدد) حقله ، وأتلف محاصيله ، أو لم ينتج الحقل غلة لانتفاء الماء – يعفى ذلك الشخص فى تلك السنة من تسليم حبوب إلى صاحب الدين ، ويغير عقده .

مادة ٥٣ : إذا أهمل شخص تقوية جسوره ، فانفتحت ثغرة فيها ، فأتلف الماء حقلاً مجاورًا ، يعوض الجار عن التلف الذى أصاب غلته ، وإذا لم يستطع التعويض يباع هو ومايملكه ، ويقتسم الفلاحون الثمن ، كل بقدر ماتلف من زراعته .

مادة ١٢٧ : إذا رفع شخص إصبعه ، فأشار بسوء إلى كاهنة ، أو إلى امرأة رجل ، بدون أن يثبت التهمة – يجلد هذا الرجل أمام القضاة ، وتجز ناصيته ، أى يوسم عبدًا .

مادة ١٢٩ : إذا قبض على زوجة رجل مضاجعة رجلاً آخر ، يكبلونها ، ويرمونها فى النهر ، إلا إذا عفا عنها زوجها .

مادة ٢١٨ : إذا عالج طبيب رجلاً ، وأجرى له عملية بمبضع برونز ، ومات الرجل ، أو تلفت عينه ، تقطع يد الطبيب .

يقول الأستاذ طه باقر : تشبه شريعة حمورابى الشريعتين العبرانية والإسلامية فى الأخذ بمبدأ القصاص ، (السن بالسن ، والعين بالعين) ، ومع هذا ففى شريعة حمورابى جملة متناقضات ، وبخاصة فى مجال الطب ، إذ لو طبقت الأحكام حرفيًا لفقد جميع الأطباء أيديهم .

ومن العقوبات العجيبة أن الذى يشارك فى إخماد حريق ، ويسرق شيئًا من أثاث البيت ، يرمى فى نار الحريق نفسها ، (وهذا العقاب بالحرق موجود فى التوارة – سفر اللاويين – فى حالة الجمع فى الزواج بين الأم وابنتها ، إذ تحرق المرأتان ، وفى حالة أن صارت ابنة الكاهن بغيًا) ، وفرضت عقوبة الحرق على الزانى بالمحرمات ، ولاسيما مع الأم بعد موت الأب ، كما وجدت عقوبة الوضع على الخازوق ، فى حالة قتل الزوجة زوجها من أجل رجل آخر ، وقتل ابن المعمار الذى يبنى بيتًا فيسقط ويقتل ابن صاحب البيت ، وينفى الزانى بابنته ، ولايحرم الابن من الميراث إلا بعد محاكمته وإدانته بالاعتداء على أبيه – مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة مج ١ ص ٢٩٣ / ٣٠٦ .

ويتبين التطرف فى (عقوبة الإعدام على من اتهم آخر بالسرقة ، ولم يستطع إثبات صحة الاتهام) ، وفى ما (إذا اتهم أحد شخصًا بالسحر ، ولم يثبت اتهامه ، فعلى المتهم بالسحر الذهاب إلى إله النهر ، والغوص فيه ، فإذا أغرقه النهر يأخذ من اتهمه بالسحر بيته ، ومايملك ، أما إذا برأ النهر ذلك الرجل وبقى سالمًا ، يقتل من اتهمه بالسحر ، ويأخذ ذلك الذى غاص فى النهر مايملك الرجل الذى اتهمه بالسحر) .

و (إذا أعطى رجل طفلاً إلى مرضعة ، ومات الطفل بين يديها ، وتولت المرضعة بلا علم أبويه رضاعة آخر ، يجب قطع ثدى المرضعة ، لأنها – دون أن تُعلم أبوى الطفل الميت – أرضعت طفلاً آخر) .

و (إذا ما أصيب شخص بأضرار نجمت عن سقوط دار ، كان على البناء تحمل الأضرار ، فإذا توفى صاحب الدار من سقوط البناء ، يجب موت البنّاء ، أما إذا مات ابن صاحب الدار فيجب موت أحد أبناء البناء) .

* وقد اهتمت الشريعة بالعلاقات الزراعية ، إذ يتأيد استئجار الأرض بكثير من وثائق العصر البابلى القديم ، وتطورت إمكانيات مختلفة فى عقود الإيجار ، تشبه إلى حد ما بيانات العقود اليوم : اسم المؤجَّر ، مزرعة ، بستان نخيل ، أرض بور ، وما إلى ذلك . . ثم تذكر مساحة الأرض المؤجرة ، وموقعها ، واسم المؤجِّر . . وبعد ذلك يسجل الإيجار فى أكثر الأحوال ، ويذكر الغرض من الايجار ، مثلاً الزراعة ، أو الرَّعْى . . ثم يتفق على قيمة الإيجار التى تدفع ، عينية أو فضية . . وتحديد كمية المنتج الزراعى موضع الاتفاق .

(وإذا استأجر رجل حقلاً لزرعه ، ولم يحصل من الحقل على الحبوب ، يجب تقديم الدليل على أنه لم ينجز عملاً فى الحقل ، عندئذ عليه أن يقدم إلى صاحب الحقل حبوبًا تعادل مافى حقل جاره) .

(وإذا استأجر رجل أرضًا لغرض إعدادها للزراعة ، ثم تقاعس عن العمل ، ولم يجعل الحقل خصبًا لثلاث سنوات ، عليه فى السنة الرابعة أن يزرع الأرض ، ويثيرها بالخرماشة - الفأس أو المحراث - ويفتت أحجارها ، ويمهد الأرض ، ويعيدها إلى صاحب الأرض) - حمورابى ملك بابل وعصره - ص١٥٨ - ١٦٠ .

* لم تكن ثمة شريعة دينية وأخرى دنيوية ، لأن الكهنة كانوا مسيطرين على القضاء ، بحكم أنهم المثقفون الذين بيدهم أسرار المعرفة ، وبحكم أنهم الواسطة بين اللّه والبشر ، وأن القوانين من عند اللّه ، وبحكم أن المصالح بينهم وبين الملك وحاشيته متبادلة ، وأن الملك والكهان يتبادلون الأنخاب فى غيبة الآخريْن .

وكان باستطاعة الملك أن يقوم بدور القاضى ، فيعالج شئون المجرمين إدارياً ، ويصدر بحقهم العقاب . . لكن المعتاد أن الملك كان يفضل إحالة قضايا المحاكمة إلى ولاته ، أو إلى محكمة خاصة ، وكانت قرارات الملك ، أو قرارات من ينيبهم عنه قطعية . . ومع ذلك كان بإمكان الناس تقديم التماس إلى الملك ،

للنظر فى شكاواهم ، ولاسيما فى حالة انعدام العدالة ، ورفض المحاكمة .

وقد أوجد - من قبل - سرجون ، مؤسس السلالة الأكدية ، محكمة للاستئناف ، بصورة عملية ، على رأسها الملك - مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة مج ١ ص ٣٠١/ ٣٠٢ .

آداب

أخذ البابليون كل ما خلفه السومريون فى المجال الروحى ،
الحضارة المادية ، ولكى يفهموا النصوص السومرية وضعوا القواميس
النصوص .

وقد ورث البابليون عن السومرين موهبة الكتابة . . وفى ع
حمورابى ، فى القرن الثامن عشر ق . م . توصل البابليون إلى إ
ضخم ، وبالتنقيب فى بابل العاصمة عثر على أكثر من ٦٠٠ ألف
تتضمن مختلف الموضوعات .

وتم اكتشاف مكتبة فى تل مرديخ الذى يقع على بعد ٥٥ كم ج
مدينة حلب ، حيث كانت تقوم قديمًا المدينة القوية الغنية (إيبلاً) ، و
بقايا القصر الملكى الكبير الذى كان يحتوى على قسمين خاصين بالكت
هنا أخرج العلماء ١٧ ألف رقم طينى ، مدونة بالحروف المسمارية ، و
الإيبلية .

كان هذا القصر قد تهدم نتيجة حريق شب خلال هجوم المل
(نارام سين) ، فالتهمت النيران الرفوف الخشبية التى كانت تحمل الرق
مما سبب تساقط الرقم وتحطم كثير منها . . وقد تبين أن هذه الرقم ك
على نسق البطاقات المفهرسة فى المكتبات العامة ، وكانت الرقم الك
بشئون الإدارة والدولة ، وفيها سجلات كثيرة للبضائع التجارية التى
إيبلا ، وأوامر ملكية مختلفة ، واتفاقيات تجارية مع المدن والدول
الخ . . كما نجد رسائل تاريخية وأناشيد وأعمالاً أدبية ، بالإضافة إ
الإيبلية - السومرية ، والحكايات الميثولوجية والأمثال ، وغيرها .

وفى مدينة أوجاريت التى كانت تقع فى مفترق الطرق التجارية
الحضارية للعالم فى ذلك الوقت - كان التجار والدبلوماسيون والكه
من أصحاب (المصالح) ، من مصر وبلاد الحثيين والبابليين وا
والقبارصة والكريتيين قد أوجدوا تجمعًا شرقيًا ، وحضورًا متميزًا فى
المدينة .

وكان التجار ورجال الأعمال والأوجاريتيون قد بسَّطوا الحروف المسمارية إلى حد كبير ، حتى وصل عددها إلى ثلاثين فقط ، وبهذا وضعوا واحدة من أقدم الكتابات الصوتية فى العالم ، أى تلك الأبجدية التى تعود إلى القرن الخامس عشر ق . م .

وفى بوغازكوى التى تبعد حوالى ١٥٠ كم عن شرق أنقرة الحالية فى تركيا - تم اكتشاف آلاف الرقم الطينية التى تحتوى على كتابات حثية بالحروف المسمارية البابلية ، والتى دونت خلال القرنين ١٤ و ١٣ ق . م .

وبعد اكتشاف بقايا قصر الملك المثقف آشور بانيبال الذى حكم خلال (٦٦٩ - ٦٢٧ ق . م) - تم العثور على مكتبته التى تحوى أكثر من عشرين ألف رقم طينى .

وقد أثارت قراءة تلك الرقم التى انتقلت إلى المتحف البريطانى فى لندن ضجةً كبرى ، سواء فى وسط الخبراء ، أو المهتمين بالثقافات القديمة .

كان هذا الملك الذى عرف بحملاته الدموية أول من توصل إلى جمع ما أبدعته الأجيال السابقة فى الشرق الأوسط فى حقل الأدب والمعرفة ، وهى بادرة لامثيل لها فى التاريخ .

ومن خلال هذه الرقم نعرف أن جيشًا كاملاً من الكتّاب قد كلّف بأن ينسخ كل نص يتم الحصول عليه عدة مرات ، وكان الملك يشرف بنفسه أحيانًا على عملية الجمع والنسخ والترتيب ، وفى إحدى رسائله إلى مسئول ببابل يقول : (ابحثوا عن الرقم القيمة التى لايوجد منها نسخ فى بلاد آشور ، وأرسلوها إلىّ ، لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ، ومحافظ المدينة فى « بورشيبا » عنك ، وعليك الآن يا « شادان » أن تحفظ الرقم فى مقرك ، بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئًا ، وحينما تجد أى نص شعائرى يمكن أن يناسب قصرى فخذه ، وأرسله إلى هنا) .

وكانت المكتبة على شبه كبير بمكتبة الإسكندرية فى العصر الهيلينى .

ومن قبل كانت مكتبة تجلاّت بلاصَّر الثالث فى القرن الثامن ق . م ، فى

مدينة أوروك ، تحتوى على ترجمات من الأكادية إلى الآرامية والآشورية ، وعلى كتب كثيرة للقواعد ، ومعاجم أيضًا . . ووجد رقم دونت عليه ملحمة جلجامش ، وآخر تضمن حكاية الفيضان الكبير الذى أغرق كل العالم ، وهو الرقم الذى طلبه الملك آشور بانيبال ، لكى ينسخ ويحفظ فى مكتبة نينوى - تاريخ الكتاب جـ ١ ص ١٧ / ٢٨ .

* ومن أدبيات هذا العهد نجد نصًا يخاطب فيه نُبوخذ نصر الإله مردوك بقوله :

(إذا لم تكن أنت ربى ، فماذا تكون / للملك الذى تحبه ، وتنادى باسمه ؟ / وستبارك لقبه حسب مشيئتك / وتهديه صراطًا مستقيمًا / أنا الأمير الطائع لك / باق ، كما صنعتنى يداك / إنك أنت خالقى . وأنت الذى حكمتنى فى جيوش العباد / وبمقتضى رحمتك ، يامولاى / بدِّل قوتك الرهيبة حبًا ورحمة / وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك / وهبنى ماترى فيه الخير لى) .

ويصف ول ديورانت ترنيمة أخرى لنبوخذ نصر بقوله : (من يدرى ، لعل هذه كانت مثالاً احتذته تلك المزامير التوراتية ، المتعددة النغمات) . . ومن هذه الترنيمة :

(أنا خادمك ، أضرع إليك ، وقلبى مفعم بالحسرات / إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب / إنك لتنظر إلى الرجل ، فيعيش ذلك الرجل / فانظر إلىّ بعطف حميم ، وتقبل دعائى) .

(لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه / ومَنْ من الأحياء كلهم يعرف شيئًا ؟ / إنهم لايعرفون أخَيْرًا يفعلون أم شرًا / أى إلهى ، لاتنبذ خادمك / لقد ألقى فى الوحل ، فخذ بيَده / والذنب الذى أذنبته بدله رحمة / والظلم الذى ارتكبته مُرْ الريح أن تحمله / واخلع عنى ذنوبى الكثيرة ، كما يخلع المرء ثيابه) .

ويضيف ول ديورانت : (لعل الأغرب فى هذه الترانيم والأناشيد أنها - ككل الآداب الدينية العالمية - كتبت باللغة السومرية القديمة ، وكان شأن هذه اللغة فى

الديانتين البابلية والآشورية شأن اللغة الّلاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية) .

(وكما أن صيغة الترانيم وطقوسها مهدت لمزامير اليهود ، وطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فإن موضوعاتها تنذر بالترانيم اليهودية والمسيحية الأولى) . . ومن ذلك :

(رب ، إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة . . إنى أرزح تحت أثقال العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إنى أتوجه إلى إلهى الرحيم ، أناديه ، وأنا أتوجع وأتألم ، رب ، لاتردّ عنك خادمك) - قصة الحضارة مح١ جـ٢ ص ٢٢٣ / ٢٢٥ .

ويورد الأستاذ طه باقر فى مقدمته (جـ١ ص ٢٤٢ / ٢٤٤) نصًا تحت عنوان (أيوب البابلى) ، جاء فيه : عبد صالح أطاع الآلهة ، وسار بموجب سننها ، وأطاع السلطة ، فلم يذنب ، كما يعتقد :

(لم أعرف سوى الصلاة والعبادة ، وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور قلبى ، والأيام التى أسير فيها فى مواكب الآلهة أيام نصرى وكسبى فى الحياة ، وكان تمجيد الملك سرورًا لقلبى ، والموسيقى التى تعزف له مصدر سرورى وغبطتى ، أوصيت أهلى وتبعى أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها ، وعلّمت الجند ليطيعوا القصر ، عارفًا بذلك أن هذه الأشياء مما تسّر الآلهة . . . الخ) .

ومع ذلك يجد المصائب والشرور قد حلت بساحته :

(لقد أتى مرض « آنو » على جسمى ، وغطّاه كالرماد ، وأصبح النوم كالشبكة التى تصطادنى . . أذناى مفتوحتان ، لكنهما لاتسمعان ، لقد استولى على جسمى الضعف ، وأصبح السوط الواقع علىّ يرعبنى . . يطاردنى معذبى فى النهار ، فلا يترك لى الراحة فى الليل . . لقد خذلنى الإله ، لم يأت إلهٌ لمساعدتى ، ولم تعطف علىّ آلهتى فتخلصنى من مصائبى) .

وقد حسبه الجميع ميتًا ، فأخذ ذووه يعدون لدفنه ، وتورّثه :

(كأن القبر مفتوح حين نهبوا كنوزى ، وحينما لم أكن قد متّ فإنهم انقطعوا عن البكاء ، وفرح حسّادى ومبغضىّ) .

إن مؤلف هذه المأساة ينكر إمكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على أعمال الآلهة ، فالإنسان ضئيل حقير ، قاصر النظر ، لايستطيع استكناه الحكمة فى أعمال الآلهة وتصرفاتها ، فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصرة .

جاء على لسان هذا المعذب الصالح :

(إن مايبدو صحيحًا يستحق الثناء بعين المرء قد يكون محتقراً بأعين الآلهة ، وما قد يتراءى للمرء أنه قبيح ردئ قد يكون حسنًا بعين إله المرء ، فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق السماء ؟ إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سَبْر غورها ؟ وكيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام أن يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟) .

ثم تبين أن مانزل بهذا العبد الصالح (بلوى وامتحان من جانب الآلهة التى ترفع عن المعذب عذابه بعد حين ، وتعيده إلى سابق عهده) .

* وبعد أن دمرت العاصمة الرائعة (أور) من قبل العيلاميين والقبائل الجبلية المتحالفة معهم - كان لما نزل بهذه المدينة من تخريب صدى عميق فى قصيدة رثاء بابلية ، تقول :

(فى هذا اليوم خبا نور المدينة / تحولت المدينة إلى خراب / أيها الإله نانا / لقد تحولت المدينة إلى أطلال / فى هذا اليوم خبا نور المدينة / وناح الشعب / وبكى الناس / السكان لا الأنقاض / ملأت جثثهم المدينة / جثثهم ملقاة هناك / فى الأسواق / حيث كان الناس يحتفلون / انتشرت جثث البشر هنا وهناك/ وفى المحلات ، حيث اعتاد الناس إقامة الحفلات / تنتشر جثث الناس أكوامًا / لقد هُدر دم البلاد وسال / كأنه نحاس وقصدير فى المصبات / وظلت الجثث مطروحة تحت الشمس وذابت / وكأنها دهن الخراف) - حمورابى ملك بابل وعصره - ص ٣٣ .

نهـاية مرحـلة

فى شـمال وادى الرافـدين نشـأت دولـة الآشـوريين ، بعـد أن اسـتولى على السلطة الزعيم العمورى (شامشى أدد) الأول - ١٨١٥ / ١٧٨٢ ق . م - الذى كان أجداده - حسب قائمة أخبار ملوك الآشوريين - قد سكنوا الخيام ، وكانوا يعيشون بيئة أقرب إلى البداوة ، سيطروا على مدينة آشور عند نهر دجلة ، وكانت آشور - منذ الألف الثالث ق . م - ذات دور تجارى هام ، لاسيما تجارة القصدير . . وفى بداية الألف الثانى كانت تمتلك محطات تجارية وصلت حتى بلاد الأناضول .

وقد ورثت آشور - إلى حد ما - الكيان البابلى ، كما ورثت تركة مثقلة بالأعباء والفتن الداخلية والخارجية ، ومن ثم لم يحدث تطوير للحضارة البابلية .

من هنا كان العمل الجوهرى الذى تؤديه الديانة الآشورية هو تدريب مُواطن المستقبل على الطاعة التى تتطلبها وطنيته ، وأن تعلمه مداهنة الآلهة ، لكسب ودهم ورضاهم ، بضروب السحر والقرابين .

وقد قضى سَنْحَريب بن سرجون الثانى على الفتن التى ثار عجاجها فى الولايات المجاورة للخليج الفارسى ، وهاجم أورشليم ومصر ، دون أن يلقى نجاحًا .

وتعزو الرواية المصرية نجاة مصر إلى فعل جماعة من جرذان الحقول قرضت كنائن الجيش الآشورى المعسكر أمام بلوزيوم ، كما قرضت أوتار القسى ، ورابطة الدروع ، فاستطاع المصريون الانتصار دون عناء .

وهذا الزعم لايقوم على آساس ، لأن نوع الأسلحة فى الجانبين واحد تقريبًا ، ولم تكن الجرذان من الوطنية بحيث تفرق بين أسلحة المصريين وأسلحة الأعداء ، إنما هو خبر (الصبغة الشعبية) التى اتصف بها المصريون أيام المحن ، والمقصود هو السخرية من الحاكم المصرى الذى غفل عن العدو حتى دخل حدوده ، والسخرية من العدو الذى فر هاربًا .

وقد ابتلى الآشوريون بالسكوذيين ، وهم سكان شمال أرمينيا ، على ضفاف البحر الأسود .

كان السكوذيون عشائر حربية ، تتألف من خليط المغول والسلاف والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحون ، يقيمون فى عربات ، ويبقون نساءهم فى عزلة شديدة ، يركبون الخيول البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، يشربون دماء أعدائهم ، ويتخذون جلودهم كنائن ، وجماجمهم كئوسًا .

أضعفوا آشور بغاراتهم الدائمة ، واجتاحوا غربى آسيا حوالى ٦٣٠ / ٦١٠ ق.م .

أخذوا يدمرون فى طريقهم كل شئ ، ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى دلتا النيل ، ثم فشا فيهم وباء الطاعون ، بفضل كثرة الجرذان ، فغلبهم الميديون ، وردوهم على أعقابهم من حيث أتوا .

يقول أبقراط : إن (نساءهم - طالما كن عذارى - يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحراب ، وهن على ظهور الخيل ، ويحاربن الأعداء ، ولا يسمحن بفضّ بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من الأعداء . . والمرأة التى تتخذ لها زوجًا لاتقاتل بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت عليه ، فى حملة عامة مشتركة) .

وقد حكمت دولة آشور (سمورامات) ، أم الملك (سلمانصر) ثلاث سنين ، وكان حكمها هو الأساس التاريخى لأسطورة (سميراميس) اليونانية ، التى تجعل منها نصف إله ونصف ملكة ، وقائدة باسلة ، ومهندسة بارعة ، وحاكمة محنكة .

* وكان الدين هو القوة المؤثرة التى يعتمد عليها الملك ، لكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأغلى الأثمان ، فقد كان إيمان القوم منعقداً على أن رأس الدولة - من الوجهة الرسمية - هو الإله آشور ، وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه ، وكل القوانين والقرارات تمليها إرادته الإلهية ، وكل الضرائب تجمع لخزانته ، وكل الحروب تشنّ لتأتى له بالمغانم والمجد .

وقد أخذ الآشوريون دينهم عن سومر وبابل ، كما أخذوا عنهما العلوم والفنون .

وأقدم القوانين الآشورية التى بقيت إلى هذه الأيام قانون مؤلف من تسعين مادة مكتوبة على ثلاثة ألواح ، وجدت فى خرائب آشور ، ويرجع عهدها إلى حوالى سنة ١٣٠٥ ق . م - قصة الحضارة مج١ جـ٢ ص ٢٦٧ / ٣٠٣ .

* وكان للفينيقيين آلهة كثيرة ، شأنهم شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية ، أو هى فى مهب هذه التيارات ، فكان لكل مدينة (بعل) ، أى سيد ، أو إله خاص ، وهو فى اعتقاد أهلها جَدّ ملوكها ، ومخصب أرضها .

كانت الحبوب والخمور والفاكهة والكتان كلها من عمل (بعل) المقدس ، وكانت عشتروت - أستارتى - الاسم الفينيقى لعشتار ، ومن خصائصها أنها كانت تعبد فى بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفى أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونانيون فى هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت .

وكان خصب التربة يرمز له فى سوريا - كما كان يرمز له فى بلاد آسيا الغربية كلها - بأم عظيمة ، أو إلهة ، اتصالها الجنسى بعشيقها هو الذى يوحى إلى جميع قوى الطبيعة بعملياتها الإنتاجية .

ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتروت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إيحاء قويًا لاتستطيع مقاومته ، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشًا للدماء من عشتروت ، نعم إن الكهنة يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ، ويسمونه (إلى) أو (إلو) ، كإلوهيم اليهود . . كما كانوا يوحدون بين عشتروت والقمر ، وكانوا إذا حَزَ بهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قربانًا له ، كما كان الفينيقيون يفعلون . . على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان الكهنة

يضربون أنفسهم حتى تلطخ المذبحَ دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بغُرْلته .

لقد حرم على اليهود (أن يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار) ، لكنهم كانوا - رغم هذا - يفعلون هذه الفعلة ، ولم يكن إبراهيم - وهو يوشك أن يضحى بإسحق (!!) أو أجاممنون وهو يضحى بإفجينيا - إلا متبعًا سنة قديمة ، كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ، وقد ضحى ميشا - ميخا - ملك يواب بابنه الأكبر ، فحرقه بالنار ، ليفكّ عن مدينته الحصار ، ولما أجاب ربه دعاءه ، وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكراً لله على نعمته - قصة الحضارة مج١ جـ٢ ص ٣١٥ / ٣١٩ .

فـــــــارس

المجـــوس

يقـول متـرجم (المعتقـدات الدينية لـدى الشعـوب هـ ص ١٣١) : المجوس Magi كلمة يونانية الأصل Magos ، أطلقـها اليونـانيون على كـهنة زارادشت ، عندمـا دخلوا فـارس بقـيادة الإسكندر الأكـبر ، ومعناها العظيم ، أو الهـائل ، وذلك لأنهم برعوا فى السحر Magic ، ولهذا اشتقت الكلمة الأوربية التى تعنى السحر من اسمهم .

هذا على حين يرى صـاحب (مـقـدمـة فى تـاريخ الحضـارات القـديمة جـ٢ ص٤٢٣ / ٤٢٥) أن المجوس مـجهولو الأصل ، ولا يعلم عن ديانتهـم التى لم تكن فارسية فى أصلها إلا أشياء قليلة ، وهم كطائفة يؤلفون جماعة لايدخل فيها أحد ، وتبيح الزواج بالأقارب المقربين ، وكانوا يرون فى عقائدهـم عن الكون مبدأين ، مبدأ الخير ، ومبدأ الشر ، والواقع أنه لايوجد فى العبادة المجوسية آلهة حقيقيون ، وإنما هناك عدد غفير من الشياطين الشريرة ، وعلى رأسها الروح الشرير الأعظم .

ويستطيع المجـوس بالسـحـر والتـعاويذ دفع الشـرور عن البـشـر ، وقـمع الشياطين الشريرة الكامنة فى أجسام الموتى ، ولذلك كانوا يبعدون أجسام الموتى فى أعلى المواضع حتى تأكلها الوحوش والطيور الجارحة ، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع فى صندوق صغير مثقوب ، ليستطيع الميت رؤية الشمس .

ويضيف صاحب (المقدمة) أن الفرس كانوا وثنيين مشركين ، مثل القبائل الهندو أوربيـة الأخـرى ، ويعـبـدون قـوى الطـبـيـعـة المختلفـة التى جسـمـوها وشخصوها على هيئة آلهة ، فعبدوا الشمس بهيئة إله ، سموه (مثْرا) ، والقمر باسم (ماه Mah) ، والأرض باسم (زام Zam) ، والنار باسمَ (أتار Atar) ، والماء باسم (أفـام نفت Apam Napat) ، والريح باسم (واهيـو Vahyu) . . ومع أن دارا والملكين اللذين أعقباه لايذكرون فى كتاباتهم اسم أى إله آخر مع أهورامزدا ، فإن ما ندرسه من كتابات هؤلاء الملوك إنما هو ديانة الدولة الرسمية ،

وليس ديانة الجماهير التى ظلت محتفظة بعبادة الآلهة القديمة . . وقد أضيفت إلى أهورامزدا أسماء آلهة أخرى ، منذ زمن أرتحششتا الثانى ، ولاسيما الإله الشمس (مثرا) المقرون بأنه إله العدل والخلاص ، وهو من الألهة الإيرانية القديمة ، والإلهة الشهيرة (أناهيتا Anahita) إلهة الحياة والخصب والإنتاج ، وعبادتها وصفاتها من عناصر غير إيرانية ، وقد استمرت عبادتها واشتهرت معابدها فى العهد الساسانى .

أما شيخ مؤرخى الفكر الدينى ، أبو الفتح عبد الكريم الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ) فيقف فى كتابه (الملل والنحل) عند الأصول الأسطورية للديانة المجوسية (مح١ جـ٢ ص ٧٣ / ٧٦ هامش الفصل) ، ليقول :

تفصيل مذهب ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين : إحداهما بيان بسبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ ، والخلاص معاداً .

فالمجوس أثبتوا أصلين ، والمجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لايجوز أن يكونا قديمين أزليين ، بل النور أزلى ، والظلمة محدثة . . ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها ، أمن النور حدثت ، والنور لايحدث شراً جزئيًا ، فكيف يحدث أصل الشر ، أم شئ آخر ، ولا شئ يشترك مع النور فى الحداثة والقدم ، وبهذا يظهر خَبْط المجوس ، وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول من الأشخاص كيومرث ، وربما يقولون زروان الكبير ، والنبى الآخر زارادشت .

والكيومرثية يقولن : كيومرث هو آدم عليه السلام ، وقد ورد فى تواريخ الهند والعجم (كيومرث آدم)

وقالوا : يزدان أزلى قديم ، وأهرمن محدث مخلوق ، ويزدان فكر فى نفسه أنه لو كان لى منازع كيف يكون ، وهذه الفكرة رَديئة غير مناسبة لطبيعة النور ، فحدث الظلام من هذه الفكرة ، وسمى أهرمن ، وكان مطبوعًا على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار ، فخرج على النور ، وخالفه طبيعة وقولاً ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على

أن يكون العالم السفلى خالصًا لأهرمن لفترة سبعة آلاف سنة ، ثم يُخَلّيِّ العالم ، ويسلمه إلى النور ، والذين كانوا فى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، ثم بدأ برجل يقال له كيومرث ، وحيوان يقال له ثور ، فقتلهما ، فنبت من سَقَط ذلك الرجل (ريباس) ، وخرج من أصل ريباس رجل سمى (ميشة) ، وامرأة اسمها (ميشانة) ، وهما أَبَوَا البشر ، ونبت من سَقَط الثور الأنعام وسائر الحيوانات .

وزعموا أن النور خيّر الناس - وهم أرواح بلا أجساد - بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن ، وبين أن تلبسهم الأجساد ، ليحاربوا أهرمن ، فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن ، على أن تكون لهم النصرة من عند النور ، والظفرة بُجنود أهرمن ، وحسن العاقبة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة ، فذلك سبب الامتزاج .

وقالوا : إن النور أبدع أشخاصًا من نور ، كلها روحانية نورانية ربانية ، لكن الشخص الأعظم الذى اسمه زروان شك فى شئ من الأشياء ، فحدث أهرمن الشيطان من ذلك الشك .

ونقل الشهرستانى عن أبى حامد الزوزنى أن المجوس زعمت أن إبليس كان لم يزل فى الظلمة والجو والخلاء ، بمعزل عن سلطان اللّه ، ثم لم يزل يزحف ويقرُب بحيله ، حتى رأى النور ، فوثب وثبة فصار فى سلطان اللّه ، فى النور ، وأدخل معه هذه الآفات والشرور ، فخلق اللّه سبحانه وتعالى هذا العالم شبكة له ، فوقع فيها وصار متعلقًا بها ، لايمكنه الرجوع إلى سلطانه ، فهو محبوس فى هذا العالم ، مضطرب فى الحبس ، يرى بالآفات والمحن والفتن إلى خلق اللّه ، فمن أحياه اللّه رماه بالموت ، ومن أصحَّه رماه بالسقم ، ومن سَرّه رماه بالحزن ، فلايزال كذلك إلى يوم القيامة ، وكل يوم ينقص سلطانه حتى لاتبقى له قوة ، فإذا كانت القيامة ذهب سلطانه ، وخمدت نيرانه ، وزالت قوته ، واضمحلت قدرته ، فيطرحه اللّه فى الجو ، والجو ظلمة ليس له حد ولا منتهى ، ثم يجمع اللّه سبحانه وتعالى أهل الأديان ليحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه .

وجاء الأستاذ العقاد (لله ص١٠٧ / ١٠٨) ، فاستصفى من وراء هذه (التهويمات) ، مستعينًا بأثر البيئة الإسلامية ، كما فعل صاحب الشاهنامة ، ليقول :

إن أبناء الديانة المجوسية أخذوا بعقيدة التوحيد ، بعد احتكاكهم بالمسلمين ، وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالبارسيين يؤمنون بإله واحد ، هو إله الخير (يزدان) ، ولا يشركون معه أهرمن ، كما فعل أسلافهم الأقدمون ، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقى ، وإنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء .

وقبل أن يسمع البارسيون بأوربا والمسيحية وجد فيهم من فسّر أسطورة (تامورات) الذى امتطى أهرمن ثلاثين سنة ، كما يمتطى الحصان ، بأنها تعنى أن ذلك الملك قد كبح شهواته ، وزجر نوازع الشر التى تحيط بسريرة الإنسان .

ويقول هـ.ج. ويلز (معالم التاريخ الإنسانية جـ٣ ص ٧٥٠) : والفرسيس Parsees الهنود ، وهم آخر من بقى من الزارادشتيين إلى يومنا هذا ، يلقون موتاهم داخل أبراج مفتوحة ، هى (أبراج الصمت والخشوع) ، لتأكلها العقبان .

وكانت هذه الديانة الرسمية - إيان حكم بنى ساسان ، منذ أردشير حتى سنة ٢٢٧م - ورئيسها هو ثانى رجل فى الدولة بعد الملك . . وطبقًا لأدق مقتضيات العرف القديم كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسى ، أو شبه قدسى ، وله علاقة مودة صحيحة مع هرمزد .

* هذه أقوال مؤرخين كبار تتهم الحقيقة التاريخية ، أو تتهم طريقة التأريخ ، وكأنها تذكر بقصة العميان والفيل ، وقد يكون لهم عذر فى أن المصادر التاريخية موضع اتهام أوْ ريبة ، ومن ثم يظل القول الأخير فى حاجة إلى إعادة العرض والمناقشة ، وليس هذا الأمر مقصوراً على ماخلّفت الآثار القديمة ، لأن الأحداث التاريخية المعاصر ة ذات أوجه ، أو ذات مرايا مختلفة ، وربما كان استخدام وسائل الإعلام الحديثة من أهم وسائل التمويه والتضليل والتشويه . . ومن ثم يكون التحرك من داخل سراديب أقرب إلى بيوت الجرذان والثعالب . . وحسبى أنى أضع بين يدى القارئ ماأظنه الصواب ، لا ما أطمئن إلى صوابه .

مثـرا

مثـرا Mithras أكبر الآلهة فى الدين السابق على الدين الزارادشتى ، إنه إله الشمس ، ومع هذا فكل المعالم الخاصة بولادة السيد المسيح – حتى تاريخ ميلاده فى ٢٥ ديسمبر – نسبت إلى (مثرا) ، ثم أعاد التاريخ نسبتها إلى زارادشت ، مع قدر من الاجتهاد فى التطور الفكرى .

يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب – ص ١٢٥ / ١٢٦) : كان هذا الإلـه الآرى الأصـل يعبـد فى إيـران كإله للعقود والاتفاقيات ، (وكلمة مثرا تعنى العقد أو الإتفاق) ، وهو يحفظ الحق والنظام ، ويقضى على القوى المفرقة ، قوى الشر والغضب والجشع والتكبر والمماطلة ، وجميع الأشرار من الآلهـة والبشـر ، وهو يوصف بأنه محـارب قـوى جبـار ، وهو الذى يتعبـد له المحاربون – وهم على ظهور جيادهم – قبل الذهاب إلى المعركة .

وبوصفه حارسًا للحقيقة ، فهو قاضى الأرواح بعد الموت ، وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود ، فهو الذى يحدد متى تنتهى فترة حكم الشيطان ، وينتظر قدومه (وسط مظاهر الخنوع والذل) فى أيام النصر .

وتتنبأ عرّافة مثرا بمقدم الإله فى نهاية العالم ، لتدمير الأشرار بالنار ، ولإنقاذ الأبرار .

بهذا لم يعد مثرا إلهًا للعقود فقط ، بل صار إلهًا مطلقًا ، إلهًا فى الدنيا وفى الآخرة ، ويقوم بدور (المسيا) فى الديانة اليهودية ، والمسيح العائد فى المسيحية ، والمهدى عند الشيعة المسلمين .

وتضيف (أساطير العالم القديم ص ٣٠٦) أنه ذو الأحاسيس الألف ، الذى يحكم كسلطان عليم بكل شئ ، له ألف أذن ، وعشرة آلاف عين ، لاينام ، يقظ دائمًا ، القوى ، ذو الجواسيس العشرة الآلاف ، أول إله يقترب بين يدى الشمس الخالدة ذات الحصان السريع ، فلا سبيل إلى تسويته بالشمس .

إنه فى (الأساطير) الإله القادر العليم الخبير الحى القيوم ، وإن كانت هذه الصفات قد لبست ثوبًا خياليًا .

وقد هبط فى الديانة الزارادشتية - كما يقول الأستاذ العقاد (اللّه - ص٨٦) - إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين ، ولكنهم جعلوه فى الديانة المثرية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل ، ولا يسبقه فى الوجود شئ غير (الأبد) ، أو (الزمان) أبى الأرباب عندهم وأبى الوجود .

ويمثلون مثرا - حين تجسد على الأرض - مولودًا من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة أُلهِمُوا معرفته ، فتقدموا إليه بالهدايا والقرابين ، ومضى بعد مولده فستَر عريَه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع .

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ، ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح ، فأرسل مثرا على الأرض طوفانًا أغرقها ، ولم ينج معه إلا رجل واحد حمل آله وأنعامه فى زورق صغير ، وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان ، ثم طهّر الأرض بالنار ، وتناول مع الملائكة طعام الوداع ، وصعد إلى السماء حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ، ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان .

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس ، أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده فى الخامس والعشرين من ديسمبر ، لأنه موعد انتقال الشمس ، وتطاول ساعات النهار ، ويقيمون له عيداً سنويًا فى اليوم السادس عشر من الشهر السابع فى تقويم الفرس القديم .

* التصور العام قد يصل إلى فكر سماوى ، طال به العهد فلبس ثيابًا أرضية تآكلت مع الزمن وكثر ترقيعها ، مع إغفال الحقيقة الأولى ، وكان أن أُضيف إلى الإله الواحد الأحد آلهة ، كبيرة وصغيرة ، سياسية واجتماعيةَ ، مدنية وعسكرية ، على مستوى المدينة ، أو على مستوى الدولة ، وكان للإلهة أناهيتا حَظ موفور ، فهى إلهة المياه المقدسة ، تتخذ سكناها بين النجوم ، تتقدم على عجلة ذات أربعة جياد ، وتسحق المردة الطغاة ، وكل الكائنات المؤذية . . وكان أهورا مزدا قد عهد إليها بالإشراف على الخلق ، فضمنت خصب الطبيعة ، ومدت حمايتها إلى القطعان والمراعى .

ومع هذا النشاط الجم والمسئوليات الجسيمة فهى فتاة نحيلة نبيلة ، تلبس ثيابًا مطرزة بالنجوم ، على مثال حلم العاشقين الذين انقطعت بهم السبل فضاعوا فى غياهب الحرمان . . لبست أناهيتا ذات الخصر الدقيق ، والصدر الوافر ، والذراعين البضّتين ، قلادةً وأقراطًا وأساور ذهبية ، وكان لها نعلان ذهبيان ، وعباءة من جلد مطرز بالذهب .

إن لفظ أناهيتا يشبه لفظ أنايتيس Anaitis الإغريقية ، وقد يكون تعديلاً لها ، وهى إلهة كانت تعبد فى آسيا الصغرى ، على أن اسمها لايظهر فى نقوش الملوك الأخايمينيين ، حتى النصف الأول من القرن الرابع ق . م . حتى يذكرها أرتكسركسيس مينمون (٤٠٥ - ٣٥٩ ق . م) وذلك فى الجملة التى تقول : (باسم أوهرمزد وكل الآلهة وأناهيت السيدة) - أساطير العالم القديم ص٣١٠/ ٣١١ .

وهذا الوصف لأناهيتا لايكاد يغادر أرض الواقع المعيش ، فالعالم الذى يتسع لمثرا يتسع لأناهيتا ، لأن لكل دورًا فى الحياة السماوية ، كما أن لكل من الرجل والمرأة دورًا فى الحياة الدنيا ، وهذا التصور لم يكن وقفًا على الفكر الفارسى ، بل كان مسبوقًا فى الفكر المصرى والهندى واليونانى ، وفى الفكر السومرى والبابلى كذلك .

ولأن أناهيتا أنثى جميلة فهى تعتنى بمظهرها ، وتحس بأحاسيس الأنثى .

وقد خلق هذا (الحس) الإنسانى الخالص إلهًا للخصب والنماء ، هو (أنينا) ، الذى تولدت عنه الحاجة إلى الثور المقدس (هَوْما) الذى يمثل (الفحولة) والقوة الجسدية ، وارتبطت عبادته بشرب عصير (الهوما) المسكر ، وهو شراب مستخرج من عشب ينمو على سفوح الجبال . . وبفضل شراب (الهَوْما) وقفت الأساطير طويلاً عند الإله (زورفان) الذى ظل ألف عام يقدم الأضاحى (لمن ؟!) عسى أن يكون له ولد يكون اسمه (أهورامزدا) يخلق السماء والأرض وكل مافيهما ، وبعد أن ضحى هكذا ألف سنة بدأ يفكر : هل هذه الأضاحى التى أتقدم بها ذات فائدة ؟ وهل يكون لى ولد ، أم أنى أحاول عبثًا ؟ وحين كان يفكر حبل بكل من أهورامزدا وأهرمن ، (إذ كان يعتبر

ذا طبيعة مزدوجة - خنثى) ، فأصدر يمينًا من يخرج إلى محضره أوّ لا يتقلد الملك منه ، فمزق أهرمن الرحم ، وتقدم إلى أبيه ، وقال : إننى ابنك أهورامزدا ، لكن زورفان أنكره ، لأنه كان ينتمى إلى الظلام ، يفوح بالرائحة الكريهة ، ويحب الأذى ، وبينما كان يتحدث إلى أهرمن ولد أهورامزدا ناصبًا ، طيب الرائحة ، فعرف زورفان أنه أهورامزدا ، فاقترب أهرمن من أبيه ، وذكّره بيمينه : (انتبه ، ألم تحلف بذلك اليمين لأول من يأتى سوف أعطى الملك ؟) ، فأجاب زورفان (اغرب أيها الشيطان ، لقد جعلتك ملكًا تسعة آلاف سنة ، وجعلت أهورامزدا يحكم فوقك ، وبعد آلاف السنين التسعة سوف يملك أهورامزدا ، ويأتمر كل شئ بإرادته) .

قصة رمزية تمثل شراسة الشر وتوقحه ، ثم انتصار الخير وسيادته ، لكن إلى جانب هذا الرمز إشارة إلى أن وراء الخير والشر إلهًا ، هو (الخالق) ، وهو الذى يريد انتصار الخير ويؤيده ، لكنه يفسح للشر مجالاً حتى يختبر البشرية ، وتَتَحَقّق حرية الاختيار .

وعلى أساس هذا (الاختيار) كانت (الدار الآخرة) التى عبر عنها التراث الإيرانى بمثل (الوجود الأحسن) ، و (دار الحمد) ، و (دار الجائزة) ، يقصد (الجنة) ، وكان الظن أن موضعها فوق جبل (هارا) ، أول ماخلق اللّه من الجبال .

ويتحدث نص بهلوى عن حساب الموتى ، فيقول : (تجلس الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال جانب وسادة الجسد ، وفى فجر اليوم الرابع تصل الروح إلى البرزخ الرفيع المخيف - جسر تشينفات - حيث يتحتم أن يذهب كل إنسان تنقذ روحه ، وكل إنسان تلعن روحه . . وسوف تخضع الحاجات لوزن أعماله على يد «راشن» ، وحين تمضى روح المستنقذ على هذا البرزخ إذا بعرض هذا البرزخ يبدو كأنه عرض فرسخ ، وتأتى أعماله الصالحة للقائه فى هيئة فتاة أجمل وأنصع من أى فتاة فى الأرض ، ثم إذا هو بخطوته الأولى يبلغ السماء بالأفكار الطيبة ، وبالثانية بالكلمات الطيبة ، وبالثالثة بالأعمال الطيبة ، وبخطوته الرابعة يصل إلى النور اللانهائى الذى هو النعيم كله . . ويسكن إلى الأبد مع الآلهة الروحانيين فى النعيم إلى غير نهاية . . أما فى حالة روح الملعون ، فإن جسده بعد ثلاثة أيام

وثلاث ليال يحمل ويجر إلى « جسر تشينْفَات » على يد مارد ، ومن ثم إلى الجحيم ، وتتلقاه فتاة ليس فيها شبه بفتاة ، فيمر فى جهنمات ثلاث ، وهى الأفكار الشريرة ، والكلمات الشريرة ، والأفعال الشريرة ، وينتهى بخطوته الرابعة إلى حضرة أهرمن والمردة الأخرى) - أساطير العالم القديم ص٣١٣ / ٣١٥ .

نص مستقى من أصول سماوية قديمة ، أشبه بتلك التى استقى منها تراث المصريين القدماء ، دون حاجة إلى أن يأخذ أحد التراثين عن الآخر ، وإن كان الاتصال بين الحضارتين والثقافتين لم ينقطع ، ثم إن هذا (النص) يلبس مسوح الخطب المنبرية التى تشيع حتى اليوم فى ألسنة كثير من الخطباء والدعاة ، مما يؤكد قرب العهد به .

* ثم إن التراث الإيرانى لم يقف عند حدود ماحفلت به هذه الأساطير ، فقد ورثت الدولة الفارسية المساحة الواسعة التى شغلها السومريون والأكديون والبابليون والآشوريون والفينيقيون والسكوذيون واليهود ، ونجحت نجاحًا باهرًا ، وبخاصة على يد قورش الذى وصفه اليهود بأنه المخلص (المسيا) ، بعد أن حررهم من الأسر البابلى ، وأعادهم إلى أورشليم ، وأعانهم على إعادة بنائها ، ورد إليها كثيراً مما نهبه الآشوريون ، ووصفه باحثون مسلمون بأنه ذو القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .

وظلت هذه الدولة القوة الأولى فى العالم زمنًا طويلاً ، وقاسمت اليونان والرومان تدبير شئون العالم ، والتأثير فى تحركاته وتياراته العسكرية والسياسية ، حتى قيام الدولة الإسلامية .

ولم يكن يوجد فى هذه الدولة قانون غير إرادة الملك المؤيدة بقوة الجيش ، ولم تكن فيها حُقوق مقدسة لغير هذه السلطة المستبدة .

كان الاعتقاد أن قرارات الملك وأحكامه من وحى الإله (أهورامزدا) نفسه ، وكان أى خروج على هذه القرارات ، خروجًا على إرادة اللّه ومشيئته .

كان الملك صاحب السلطة القضائية العليا ، لكنه كان فى العادة يعهد بهذا

العمل إلى أحد العلماء الشيوخ (الكهان) من أتباعه ، ثم تأتى من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة ، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة فى أنحاء المملكة .

وكان الكهنة هم الذين يضَعُون القوانين ، بتوجيه من الملك ، وبمقتضى مشيئته ، وظلوا زمنًا طويلاً ينظرون فى المظالم ، وفى عهود متأخرة كان ينظر فى المظالم رجال ونساء من غير رجال الدين ونسائه .

وكانت الكفالة تقبل من المتهم فى جميع القضايا ، إلا ما كان منها خطير الشأن ، وكانوا يتبعون فى المحاكمات إجراءات منتظمة .

ولما تكاثرت السوابق القانونية ، وتعقدت القوانين ، نشأت طائفة من الناس يسمون (المتحدثين فى القانون) ، كانوا يعرضون على المتخاصمين أن يفسروا لهم القانون ، ويساعدوهم على السير فى التقاضى .

وقد وجدت نقوش على قبر (دارا) الأكبر تحدد المثل الأعلى للسلوك ، والرغبة فى أن تسود العدالة :

(لقد أحْبَبْت الصواب ، وأما الخطأ فلم أحبه / وكانت إرادتى عدم ارتكاب أى ظلم ضد أية أرملة أو يتيم / ولم تكن إرادتى أن يحيق ظلم باليتامى أو الأرامل / ولقد عاقبت الكاذب عقابًا صارمًا ، وأما الذى يكد فإنى كافأته مكافأة حسنة) .

وجاء **قمبيز** فعمل على ضمان نزاهة القضاء بأن أمر بسلخ جلد القاضى الظالم حيًا ، وأن يستخدم هذا الجلد فى تنجيد مقاعد القضاة ، ثم يعين ابن القاضى (السَّليخ) مكانه .

وكانت الجرائم الصغرى يعاقب عليها بالجلد ، من خمس جلدات إلى مائتين ، بسوط من سياط الخيل .

وكان عقاب من يسمم كلبَ راع مائتى جلدة ، ومن يقتل خطأ عقابه تسعون جلدة .

وكانت الدولة تحصل على المال اللازم للشئون القضائية من استبدال الغرامة بالجلد ، باحتساب ست روبيات للجلدة الواحدة .

أما الجرائم التي هي أشد فكان يعاقب عليها بالوسم بالنار ، أو بتشويه الأعضاء ، أو ببتر بعض الأطراف ، أو سَمْل العين ، أو السجن ، أو الإعدام .

وكان نص القانون يحرم على أي إنسان ، حتى الملك نفسه ، أن يحكم على إنسان بالقتل عقابًا على جريمة صغرى ، لكنه يحل القتل عقابًا على خيانة الوطن ، أو هتك العرض ، أو اللواط ، أو القتل ، أو الاستمناء ، أو حرق الموتى ، أو دفنهم سرًا ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي ، أو الاتصال بإحدى جواريه ، أو الجلوس مصادفة على عرشه ، أو الإساءة إلى أحد أفراد البيت المالك .

وكان المذنب في هذه الحالات يعدم ، إما بإرغامه على تجرّع السم ، أوْ خَزقه ، أو صلبه ، أو شقه نصفين ، و (كان المجرم يشق من رأسه عادة إلى أسفل) ، أو رجمه بالحجارة ، أو دفن الجسم إلى مادون الرأس ، أو تهشيم رأسه بين حجرين ، أو يوضع حيًا في قارب طبق عليه قارب آخر ، ولا يخرج من جسمه سوى رأسه ويديه ورجليه ، ويترك للطبيعة تقضي فيه .

* ونتيجة هذا الحكم الاستبدادي أيضًا توقف الفكر الديني عند حدود سلطة الملك ، فلم يسمح حتى باستيراد الفكر الديني من البلاد المحيطة ، مصر ، أو الهند ، أو اليونان ، أو الرومان ، وكانت للأكاسرة بهذه الدول علاقات عسكرية وسياسية واقتصادية ، كما أن اليهودية والمَسيحية نشأتا على حدود الدولة ، ودخلت اليهودية مع آلاف (السبي البابلي) ، وأقامت سنوات طويلة ، لكن الدولة كانت تنظر إليها من خلال القوة العسكرية ، وإن استطاعت اليهودية أن تتسلل بوسائلها الخاصة إلى البلاط الحاكم ، سواء في عهد الحكم البابلي الآشوري ، أو الحكم الفارسي ، كما تروي التوراة ، وكما يروي من اهتدوا بهديها .

ولما هاجر النساطرة أقاموا مدارس في جنديسابور ونصيبين والرها ، ونقلوا المعارف اليونانية الرومانية التي أخذت تشعّ فيما حولها أفكارًا جديدة ، واجتهادات في معامل ومختبرات .

ويرجع الفضل في نشاط النساطرة إلى كسرى أنو شروان الذي أفسح لهم ،

وشجع على ترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وعلى تدريس هذه الكتب في جنديسابور ، بل قرأها هو بنفسه . . وكان يُعين العلماء على متابعة الدروس بالهبات الطيّبة . . وفى عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية جنديسابور التى أنشئت فى القرن الرابع أو الخامس للميلاد (أعظم المراكز الثقافية فى ذلك العهد) ، يُهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم ، وكان أتباع الأفلاطونية الجديدة يترددون عليها ، وقد بذروا بذور العقائد الصوفية .

ومع الاهتمام بدراسة الطب وطرق العلاج العلمية كانت الجماهير تعتمد على الرقَى فى علاج المرضى أكثر من الاعتماد على العقاقير الطبية ، بحجة أن الرقى - إن لم تشف - لاتقتل المريض ، مع أنها - إن لم تشف - لن توقف انتشار المرض أو زيادة آلامه .

وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة بدون أجر ، وهذا يستتبع الإهمال فى العلاج ، والإهمال فى التنافس علَى المعرفة وعلى التفوق .

ولم يتوقف العلاج على الكهنة ، حتى إذا كان عهد أرتحشتر الثانى تكونت فى البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم ، كما حددها قانون حمورابى ، وفقًا لمنزلة المريض الاجتماعية .

وقد نص القانون الفارسى على أن يبدأ الطبيب الناشئ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب ، إذ يقضى الطبيب الناشئ سنة أو سنتين فى المرانة على أجسام المهاجرين والفقراء .

زارادشت

كما سبق القول ، ورثت الدولة الفارسية عن ديانة سومر وبابل وآشور آلهة أخذت سمات فارسية ، بحيث تعبر عن طموحات هذه الدولة العسكرية النشطة ، وعن طبيعة الأرض التى تزود هذه الدولة بالطاقات الفاعلة .

لكن (مثرا) هو الذى استطاع أن يرتحل مع الجيوش الفارسية واليونانية والرومانية ، وانتشر فى أوربا فى القرن الأول قبل الميلاد ، بعد حملات بومبى فى الشرق ، وأيده القياصرة ، لأنه كان يرفع سلطان الملوك ، ويقول : إن الشمس تشع عليهم قبسًا من نورها ، وهالة من بركتها ، فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش اللّه فى عليين .

ولقد دخلت المثرية روما لأول مرة سنة ٦٠ للميلاد ، وفى القرن الثانى الميلادى انتشرت داخل الإمبراطورية حتى بريطانيا .

وقد مال الجنود والعامة إلى المثرية ميلاً كبيرًا ، لأنها قصرت أتباعها على الذكور دون الإناث ، وجعلت لهم درجات سبعًا يرتقون فيها إلى العارفين الواصلين ، رمزا إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت ، من سماء إلى سماء ، حتى تستقر فى النهاية عند حظيرة الأبرار ، حيث يكون الاستشراف الصوفى .

وكان هذا المعتقد يدغدغ مشاعر الجنود بخاصة ، لأن الموت يترصدهم حيثما كانوا ، ومن ثم وجدوا فى هذا (المرتقى) إشباعًا روحيًا وعزاء عما فقدوه فى الحياة الدنيا .

ومن هنا ظلت المثرية – حتى عهد قسطنطين الكبير – منافسة خطيرة للنصرانية ، وبخاصة أن مثرا ، إله النور ، الذى يصدر عن أهورامزدا ، وقد ولد بنفس الطريقة التى يَصدُر بها الأقنوم الثالث – فى الثالوث المسيحى – عن الأول – معالم التاريخ الإنسانية مح ٢ ص ٧٥١ .

ومن طقوس هذه العبادة التضحية بثور ، حتى يعطى مثرا الناس إكسير الحياة ، ويمكن تذوق هذه الهبة الإلهية مقدمًا عن طريق المشاركة فى التناول المنظم

لوجبة الخبز والخمر التى يمثل فيها الكاهن الإله مثرا ، كما هو الشأن فى طقس التناول أو العشاء الربانى فى المسيحية .

ثم إن هذه العبادة تهتم بالتعميد ، وهو من أهم الطقوس المسيحية ، وفيه يخضع العضو لاختبارات بدنية وروحية معًا ، إذ يعلن ارتداده عن جميع الآلهة ، ماعدا مثرا ، ويعلن إخلاصه لدستور أخلاقى دقيق ، حتى يشارك فى البعث والقيامة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٢٧ - بل إن المريد أو من يظفر بالعماد ينتقل من درجة إلى درجة مع كل وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ، ويمسح بالماء الطهور ، ثم يترقى فى معرفة السر الأعظم ، إلى أن يعرف حكمة اللّٰه الخالقة فى مقام العارفين الواصلين ، وفى هذا الترقى يكون تطهر المشاعر والأحلام ، ويكون سلام النفوس المعانية المقهورة ومرضاتها .

ويبدو أن هذا التعميد كان (طقسًا) شائعًا ورد فى ديانة الصابئة ، كما ينسبونه إلى أتباع الإلهة سيبيل Cybele (الإلهة الأم العظيمة) فى آسيا الصغرى ، إذ كان الدخول فى جماعتها يتم عن طريق التعميد بدم الثور الذى اعتقد بعضهم أنه يجلب الحياة الأبدية . . هذا الثور الذى عبده الفرس ، لأنه بموته وبعثه يهب الجنس البشرى دمه شرابًا يسبغ نعمة الخلود .

* ولما ظهر زارادشت حرص على أن يطهر الأرض من الديانة السابقة ، لترويج ديانته ، فندد بهذه الآلهة البدائية ، وبهذه الطقوس التى تتخذ من الخمور ، أو من شراب (الهَوْما) ، وسيلة غيبوبة وفقدان للوعى ، مما يباعد بينها وبين الحقيقة ، أو مما يدفع بها إلى تزييف الحقيقة ، وإلى ممارسة الشرور . . وثار على (المجوس) الكهنة الذين ارتبطوا بهذه الآلهة ، وقربوا لها القرابين ، وأعلن فى شجاعة لاتقل عن شجاعة معاصريْه (عاموس) و (إشعيا) ، أن لَيْسَ فى العالم إلا إله واحد ، هو أهورامزدا ، إله النور والسماء ، وأن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له ، وصفات من صفاته .

لكن مثرا ظل يتخذ له مسارب ، ويهجر أرض زارادشت إلى أماكن أخرى . . وبينما انحصرت الزارادشتية فى بلاد الفرس تقريباً ، وبينما لم يطل مقامها على الأرض ، وانحصرت فى عدة آلاف بالهند - فإن المثرية ظلت تتحرك بعدها زمنًا طويلاً .

* قيل عن زارادشت أن أمه حملت به حملاً إلهيّا قدسيًا ، على طريقة عيسى عليه السلام ، ذلك أن الملاك الذى كان يرعاه - وهو فى عالم الغيب - تسرب إلى نبات (الهَوْما) ، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن ، حين كان يقرب القرابين المقدسة ، وفى ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسبة ، سامقة فى الشرف ، وتزوج الكاهن بالفتاة ، وامتزج الحبيسان : الملاك والشعاع ، فنشأ زارادشت من هذا المزيج ، فلما ولد قهقه عاليًا ، فانهزمت من حوله الأرواح الشريرة والشياطين المنتشرة فى الحياة .

وهذه الرواية تجعل لمثرا فضلاً عليه ، بسبب الكاهن ، وبسبب شراب (الهَوْما) ، ومع هذا فقد حمل على الكهنة وحرم الشراب ، وإن كان ثمة أكثر من مبرر لموقفه .

وقيل إن نور زارادشت نزل من فَلك النجوم إلى معبد نار أسرة (فراهيم) ، ثم استمربيت نار فراهيم يشتعل بضياء ساطع ، من غير أن يحتاج إلى خشب أوحطب ، وفراهيم هذا كان جداً لزارادشت ، وربما كان فراهيم هذا هو إبراهيم عليه السلام ، وقصد بالانتساب إليه تأكيد صلة زارادشت بالسماء .

* عندما بلغ زارا السابعة من عمره أرسل بعيداً ليدرس مع (بورزين - كوروس) الذى امتدت شهرته بالحكمة فى جميع أنحاء إيران ، وظل زارا ثمانية أعوام مع الحكيم بورزين ، حيث لم تقتصر دراسته معه على العقيدة ، بل تعدتها إلى الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى .

وفى أعقاب الحرب التى نشبت بين الفرس والتورانيين - وقد تطوع فيها **زارا** ، وهو بعد فى الخامسة عشرة ، لمعالجة المرضى والجرحى من الجنود - انتشرت المجاعة ، واشتد المرض ، وازدادت الفاقة فى جميع أنحاء فارس ، فتطوع زارا فى خدمة المرضى والفقراء من أبناء وطنه ، وقضى فى ذلك نحو خمسة أعوام . . ثم عاد إلى وطنه ، وتزوج - بناء على رغبة أبيه - من (هافريه) الحسناء ، ورفض رغبة أبيه فى أن يستقر ويعمل معه فلاحًا ومربى ماشيه ، وواصل عمله فى تخفيف آلام الآخرين .

واستحودت فكرة معرفة مصدر الخير والشر على عقل زارا ، فلم يعد يطيق البقاء مع زوجته وبناته ، وقرَّر اعتزال الناس ناسكًا زاهدًا .

وهناك فى جبل (سابلان) انقدحت فى ذهنه فكرة ابتهج لها ، واعتقد أنه وقف على مصدر الخير والشر ، وأحاط علمًا بسر الحكمة .

وحدث - بينما هو واقف على الجبل يفكر - أن أحس بنشوة روحانية ، تجلى فيها كبير الملائكة (فاهومانا) ، واصطحبه فى رحلة سماوية ، مثل فيها أمام رب السماء نفسه ، وتلقى منه كلمات الحق والحقيقة ، وتعلم أسرار الوحى ، وأمر النبوة .

نزل بعد ذلك من الجبل ليصدع بأمر ربّه ، فأنكر تعدد الآلهة ، وعبادة الأصنام ، وجعل الخير المحض من صفات اللّه ، وبشر بالثواب ، وأنذر بالعقاب ، وقال إن خلق الروح سابق على الجسد - عن الديانات القديمة لسعدون الساموك ص ١٠٧ / ١٠٩ .

* لم يصغ أهل فارس لتعاليمه ، ومرت عشرة أعوام بأمل فى أن يجد من يؤمن بمايبشر به ، دون جدوى ، قال ابن عمه (ميتبوماه) : إن تعاليمك شاقة جدا على فهم الناس ، فابدأ بدعوة المتعلمين الذين ألفوا الأفكار الصعبة .

قصد زارا مدينة (بلخ) حيث الملك كشتاسب ، وحين مثل بين يديه ، قال : (أنا زارادشت سبتاما ، نبى الإله الواحد الحكيم ، جئت إليك أيها الملك ، لأحول قلبك عن الأصنام الشريرة التافهة ، إلى مجْد إله حق خالد) .

جمع الملك حكماء وكهنة دولته لمناقشة ماجاء به زارا ، فتغلب عليهم ، كما استطاع أن يشفى جواد الملك بعد أن عجز عن علاجه أطباء البلاط وكهنته ، فاعتنق الملك تعاليم زارا وآمن بالإله الواحد الحكيم ، وأعلن أن زارا هو النبى الحق لهذه العقيدة الجديدة ، وأصدر أمرا بكتابة تعاليمه بحروف من ذهب ، وسميت (أفستا) ، وعين زارا كبيرا للكهنة فى بلاطه ، وبهذا انتشرت الديانة فى أنحاء المملكة ، ثم أرسل الملك رسلا مبشرين بالديانة الجديدة خارج البلاد ، حتى وصلت توران والهند واليونان .

وتضيف (الشاهنامة جـ ١ ص ٣٢٤) أنه يعد أن آمن به كشتاسب وجميع من كان بحضرته من الملوك والأمراء وسائر الموابذة والهرابذة ، وبنى للنار بيوتًا كثيرة ، وجعل لها قبابًا رفيعة - غرس على باب بيت النار شجرة سرو ، وكتب على ساقها : (إن كشتاسب قبل دين الحق ، وأشهد على نفسه هذا السرو) ، وكتب إلى الملوك يأمرهم بالمصير إلى خدمة هذا السرو ، وباستماع مواعظ زارادشت ، والدخول فى دينه : وترك عبادة الأصنام والأديان ، فأجابه الناس إلى ذلك ودخلوا فى دينه طوعًا وكرهًا .

يقول توينبى (مختصر دراسة للتاريخ جـ ٣ ص٣٠) : من أجل أن عقيدته التوحيد فى جوهرها كان عمر رضى اللّه عنه يساوى بها معاملة المسلمين ، بين أتباعها والذميين من اليهود والنصارى .

وقد روى عن أمير المؤمنين على ، رضى الله عنه أنه قال ، إنى أعلم ماعليه المجوس ، عندهم شريعة يعملون بها ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب) .

وكان البيرونى يفرق بين الدين الزارادشتى والمجوسية .

وذكر شهاب الدين السهروردى (القتيل) ، فى كتابه (حكمة الإشراق) : أن زارادشت كان نبيًا ، بل وصل بين زارادشت والمذهب الأفلاطونى الجديد ، ووافقه فى قوله شارح (حكمة الإشراق) قطب الدين الشيرازى .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) :

* وقد ذكر الشهرستانى (الملك والنحل مج١ جـ٢ ص ٧٨ هامش الفصل) أن دينه كان عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث . . وذكر أن البارى تعالى خالق النور والظلمة ، ومبدعهما ، وهو واحد لاشريك له ، ولاضد ولاند ، ولايجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة ، كما قالت الزروانية ، لكن الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، والخير والشر ، ثم يتخلص

الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص .

ويبنى على هذا العلامة أبو الكلام آزاد – فى معرض بيان أن قورش هو ذو القرنين – إن كان ذو القرنين يدين بدين (مزدستا) ، أو بالدين الزارادشتى ، ويثبت له القرآن الإيمان باللَّه واليوم الآخر ، وليس هذا فحسب ، بل يجعله من الملهمين من عند اللَّه – أفلا يلزم من هذا أن دين زارادشت كان دينًا صحيحًا إلهيًا ؟

إنه قد ثبت الآن أن دين زارادشت كان دين التوحيد الذى يحرم الشرك باللَّه وعبادة الأصنام .

وقد أبطل زارادشت جميع معتقدات (موغوش) ، أى المجوس القدماء ، قائلاً : ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير ، ولاعفاريت كثيرة للشر ، إنما هو إله واحد ، اسمه (أهورامزدا) الذى ليس كمثله شئ ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس ، الصمد ، وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شئ ، وإن القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورامزدا .

وكذلك صرح زارادشت بأنه ليس للشر إله ، بل الذى يأمر بالشر هو الشيطان (انغرامى ينوش) الذى حُرِّف إلى (أهرمن) .

وإن من العناصر الأساسية للدين الزارادشتى الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو يقول : لاتنتهى حياة الإنسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، ، فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزارادشتى الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى ويلاقى جزاءه .

وأهم مافى الدين الزارادشتى قانونه الأخلاقى الذى يتلخَّص فى صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل .

وجرى على هذا صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص١٢٦) بقوله :

الإله عند زارادشت هو السيد المهيب الحكيم (أهورامزدا) ، خالق السموات والأرض ، وهو الأول والآخر ، ومع ذلك فهو الصديق الذى رعاه من البداية ، ولايمكن أن تكون للّه علاقة بالبشر ، فروحه المقدسة هى التى تقيم الحياة ، وتخلق الرجال والنساء ، وتعارض الروح الشريرة ، أو القوة المدمّرة التى تتسم بالنوايا الشريرة ، والتكبر ، والكذب ، وعلى البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين ، أو بين التوأمين من الآلهة ، فإن سلكوا طريق الشر فسوف تمتلئ حياتهم بالأفكار الشريرة ، والكلمات الشريرة ، والأعمال الشريرة ، وإن سلكوا طريق الحق فسوف يشاركون فى العقل الخير ، ويبلغون الكمال ، والخلود ، والورع ، وملكوت السموات ، وكلها جوانب من الطبيعة الإلهية .

والوقوف عند لفظ (التوأمين) - إذا لم يكن من صياغة المترجم - يوحى بالخضوع للأسطورة التى سبقت الإشارة إليها عن الإله (زورفان) الذى ولّد (ذاتيًا) الإلهين أهورا مزدا وأهرمن ، مما يشكك فى نسبة هذا القول إلى زارادشت الذى يصفه كثيرون بالنبوة .

وقد فصل القول فى المذهب صاحب (التاريخ وكيف يفسرونه ص٧٨ / ٨١) فقال :

يوصف أهورا مزدا بأنه الكامل ، والأبدى ، والكلى السيطرة ، والمطلع على كل شئ ، والكلى الخير ، وما العالم الفيزيائى والكائنات البشرية إلا خليقته ، بيده العون للناس ، والحكم عليهم ، وهو الموجود على الدوام فى تاريخ البشر .

وهو يقيم الأرض والقبة الزرقاء ، ويقيهما شر السقوط ، وبأمره يزداد القمر ويذوى ، وتُحدّد مسالك الشمس والنجوم ، وهو الذى يدفع الريح فتجرى ، ويكسو جنبات السماء بما يملؤها من الضياء ، وهو الذى خلق لنا ماتقرّ به عينا من الأنعام والنبّات والماء ، وهو خالق البشر ، وبارئ أرواحهم وأجسامهم وواهبهم حرية الإرادة ، وهو الذى أوقد جذوة المحبة بين الأب وابنه ، ومنح الناس النوم واليقظة ، وغير ذلك من النعم الكثيرة .

إن الثقات من علماء الزارادشتية السلفية الصحيحة يرفضون (ثنائية الخير

والشـر) ، ويرون أن لفظة الروح - حين تطبق على الشر - إنما يراد لهـا فى ثنايا استخدامها الإشارة إلى نزعة عقلية .

والزارادشتيـون قـامـوا بتشـجـيع الزواج وإنجـاب الأطفـال ، ونعتـوهـما بالفضيلة ، وذهبوا إلى أن الصوم يؤدى إلى الضعف ، فيقلل من قدرة المرء على صراع الشرور ، وعلى فعل الخيرات ، كما أنه لايعين على التمتع بما يسَّر اللَّه من نعم . . والكيـان الروحى عندهـم أهم وأفـضل من الطيبـات الدنيـوية ، على أن السعى فى سبيل الثراء له قيمته .

وكـان من تعـاليم زارادشت أن للناس حرية الاختيـار ، والكفاح فى سبيل الخير ، أو الخضوع لمغريات الشـر ، وأهميـة تواريخهم ترتكن من ناحيـة على استخدامهم لحريتهم تلك .

وقد شاع مذهب الجبرية بينهم نتيجة للكوارث السياسية التى قاساها الفرس من ناحية ، ونتيجة لانتشار التنجيم من ناحية أخرى ، وفى هذا يقولون : (القدر هو الغالب لكل شئ ، والمسيطر على كل فرد) .

وحين أدلى الأسـتـاذ العـقاد بدلوه (اللَّه ص٧٩ / ٨٠) جمع بين هـذا كله فى طبق واحـد ، فذكر أن زارادشت أنكر الوثنية ، (وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع مايفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه) .

وأضـاف أن (المجـوسـية) ليست كلهـا من تعـاليم زارادشـت ، أو تعليم كـاهن واحـد من كـهـان الأمـة الفـارسيـة ، وفـسـر زورفـان ، أو (زروان) بأنه كناية عن الزمـن ، ومع هـذا فـهـو يحكى أسطورة الولادة ، والنـذر ، وأسـبـقـيـة خـروج أهرمن ، والاحتيال لسيطرة أهورامزدا .

ثم قال : وزعمـوا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق فى مملكته يخلق عـناصر الخير والرحـمة ، وأهرمن غـافل عنه فى قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيـه (التوأم) راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه ، فـأشفق على نفسه من العـاقبة ، وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض ، فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضمن فيه البقاء ، فثار ، وثارت

معه خلائق الظلام ، وهى شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعى هرمز ، وملأت الكون بالخبائث والأرْزَاء .

وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة زارادشت - أو كان ميلاده - فكان البشير بانتهاء زمان ، وابتداء زمان ، لكنه لم يختم الصراع بين العدوين اللدودين ، بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف ، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور ، وسيدوم هذا الصراع اثنى عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زارادشت ، فيعزز جحافل هرمز ، ويُوقع الفشل فى جحافل أهرمن ، فتنقضى (المدة) ، وينكص أهرمن على عقبيه ، مخلداً فى أسفل سافلين ، لافكاك له أبد الآبدين عن هاوية الظلمات ، وسجن المذلة والهوان .

يزيد الشهرستانى الفقرة الأخيرة من كلمات العقاد وضوحًا بقوله (الملل والنحل ص ٨٠ مج١ جـ٢) : ومما أخبر به زارادشت فى زندوستا أنه سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه أشيذريكا ، ومعناه (الرجل العالم) يزين العالم بالدين والعدل ، ثم يظهر فى زمانه (بتْياره) ، فيوقع الآفة فى أمره ومُلكه عشرين سنة ، ثم يظهر بعد ذلك أشيذريكا عَلى أهل العالم ، ويحيى العدل ، ويميت الجور ، ويرد السنن المغيّرة إلى أوضاعها الأولى ، فينقاد له الملوك ، وتتيسر له الأمور ، وينصر الدين الحق ، ويحصل فى زمانه الأمن والدعة ، وسكون الفتن ، وزوال المحن .

وقول الشهرستانى أشبه بما حفلت به كتب المهدية عن المسيخ الدجال والمهدى المنتظر ، وهو قول أشبعتُ فيه البيان عن هذا الحلم الإنسانى الذى يطالع البشرية حين تشتد بها المعاناة ويسود الأفق ، (انظر كتابى : الساعة الخامسة والعشرون) ، وقد سُبق الفكر الإسلامى فى هذا بالحلم اليهودى والحلم المسيحى .

ويضيف الدكتور محمد غلاب فى (الفلسفة الشرقية) أن (أهورا) أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا ، وهو لهذا يدفعه فى حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع مايستطيع ، وبأمره أن يصدع بأوامر ربه ، وبأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى

القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط ، ليؤدى الحساب عن نفسه وعن جميع أتباعه الذين سيموتون بعده .

فلما مات (زارادشت) ولم تتحقق نهاية العالم أعلن أتباعه أنه لم يمت ، كما رأى الناس فى الظاهر ، وإنما نزلت بذرته الخصبة فى البحيرة المقدسة ، وستظل فيها تغْدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم ، فإذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة لتغتسل فيها ، وإذذاك تتغلغل هذه البذرة إلى رحم العذراء ، فتحمل لساعتها بمَنَجِّى العالم ، وعلى يديه ستكون نهايته ، فإذا ولد وشب أخذ يدعو إلى دينه ، واصطفى من التلاميذ خمسة عشر رجلاً وخمس عشرة امرأة ليعاونوه على تأدية رسالته ، إلى أن ينتهى أجله المحدد بسبع وخمسين سنة ، فينتهى بانتهائه الكون .

وثمة من يقول إن نهاية الكون تتم باصطدام كوكب نارى بالأرض ، فتخر الجبال هدا ، وتذوب العناصر وتتفجر الحمم التى تقضى على أهرمن وشيعته ، ويجد الصالحون فيها بردًا وسلامًا !!

الأبستــاق

من خلال العرض السابق يخيل للناظر أن من قال بنبوة زارادشت استوحى ترانيمه ، والترانيم عادة توحى بما يعتمل فى نفوس قرائها أو منشديها ، وهو ماحدث مع ترانيم أخناتون ، مع أن ماجاءت به الوقائع التاريخية تكذب القول بنبوة أخناتون ، بل تدينه (انظر كتابى : كنانة اللّٰه يافرعون) .

أما من مالوا بزارادشت إلى الأسطورة فقد نقلوا (شيئًا) عن الأفستا ، أو نقلوا عمن نقلوا عنه .

والأبستاق Avesta تم تدوينه – على الأرجح – قبل القرن الخامس الميلادى ، وإن كانت مادّته قد تمتد إلى ماقبل غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ ق . م ، وكان أن فقدت جميع نسخه ، وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التى كانت تشتمل على شئ منه ، ثم بدأ ملوك فارس فى تدوينه منذ القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس ، أى أنه أصيب بما أصاب (العهد القديم) من التراث اليهودى ، فكانت إعادة التدوين من الذاكرة ، ومن الثقافات المحيطة ، ومن الأساطير الشائعة .

وكل مانستطيع أن نستخلصه من هذا كله أنه كان (وعى) للخير وأهميته فى مسيرة الحياة ، وأن الشر يهدد هذه المسيرة بالصراعات التى تستنزف القوى ، وتأكل الثمار الطيبة ، وتنشر الخراب . . ومن ثم كان (هو – را – مزدا التى تعنى أنا – الوجود – خالق) ، تعبيراً عن دور (الخير) فى المحافظة على الحياة ، أو فى نشوئها .

ولاشك فى أن زارادشت كان له دور كبير فى إعلاء قيم الخير والحق ، سواء كان هذا الدور بتكليف خاص من السماء ، أو من وحى مشاعره الخاصة وفهمه لما تهجس به النفوس ، وما تتنازعه الرغبات ، وإن كانت ترانيمه ، أو الترانيم التى تنسب إليه – كما سيأتى – ترجح أنه كان على مثال (بوذا) ، وعيًا ومنهاجًا ، وقدرة على التمثل والامتثال .

ومن هنا نسب إليه أنه حرم عبادة الأصنام والأوثان ، وقدس النار على أنها أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لاعلى أنها الخالق المعبود ، وقال : إن الخلائق

العلوية كلها كانت أرواحًا صافية لاتشاب بالتجسيد فخيّرها اللّه بين أن يقصيها عن منال أهرمن ، أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه ، والصمود فى قتاله ، لأن عناصر الفساد لاتحارب بغير أجساد ، فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمزد وأخيه ، فاختارت التجسد ، لتؤدى واجب الجهاد فى ذلك الصراع .

ويتخيل زارادشت هرمز ، أو أهورامزدا ، أو يزدان - على اختلاف اللهجات فى نطقه - مستويًا على عرش النور ، محفوفًا بستة من الملائكة الأبرار ، وتدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية ، كالحق ، والخلود ، والملك ، والنظام ، والصلاح ، والسلامة ، ثم استعيرت لها سمات (الذوات) ، بعد تداول الأسماء ، أو تداول الأنباء عما تفعله ، وماتؤمر به ، وماتتلقاه من وحى اللّه .

وتفيض أقوال زارادشت باليقين من رسالته ، واصطفاء اللّه إياه للتبشير بالدين الصحيح ، والقضاء على عبادة الأوثان - **اللّه للعقاد** ص ٨٢ / ٨٣ .

ويلاحظ أنه مامن صاحب دعوى أو مذهب أو حزب إلا وأعلن أنه على الحق ، ولاشئ غير الحق ، وأن من سواه على باطل ، أو على وهم خادع .

وتتحدث (الأساطير الإيرانية القديمة ص٢٣ / ٢٦) عن (الملائكة الستة الأبرار) بأنهم أرباب خلقهم هرمزد ، ليكونوا عونًا له وسندًا فى المحافظة على العالم ، والنضال ضد أهرمن الخبيث الذى لايستقر له قرار لخبث سريرته ، وسوء سيرته . . وحتى لاتمتد يده يومًا إلى عالم النور ، ويلوثه بقبح وجوده ، أخذ يدبر لذلك عالم السماء ، عالم الفضيلة الذى ليس فيه أثر من الماء والتراب والجلود واللحوم والمواد والأجساد . . كان هذا العالم من الروح والفكر ، لا أثر فيه للحركة ، كل مافيه روح وسكينة وسلام .

لم يكن لأهرمن علم بهذا العالم ، حتى خرج ذات يوم من درك الظلام ، وانبهر لمشاهدة نور جمال عالم هومزد ، فالتهبت أحقاده ، وعقد العزم على تقويض أركانه ، لكنه خاف هرمزد ، وأيقن أنه المنتصر فى النهاية ، فارتد خائفًا وجلا ، وانغمر فى أعماق الظلام ، لكنه مالبث أن كوّن جنودًا مجندة من

العفاريت والجن والشياطين ، للقضاء على عالم هرمزد ، ولما نصحه هرمزد بالابتعاد عن عالمه ، حتى لايكون سببًا فى هلاكه ، لأن الفضيلة لابد أن تنتصر - ظن الخبيث أن هرمزد صار عاجزًا ، وأنه لذلك يطلب الصلح ، فقال : كلا ، أنا لا أُعين خلقك ، ولا أسالمك ، ولا أثنى عليك ، بل سوف أوذى خلقك إلى أبد الآبدين ، وسوف أبعدهم عن عبادتك ، وأستدرجهم لعبادتى .

قال هرمزد : ياأهرمن ، إنك لست قويًا ، كما تزعم ، ولاتستطيع أن تغيّر خلقى ، وأن تغضبهم منى ، وتستحوذ عليهم .

كان هرمزد يعلم أن أهرمن سيبقى عاجزًا حيران فى كبد الظلام ثلاثة آلاف عام ، وأنه - هرمزد - سيحكم العالم منفردًا خمسة آلاف عام .

وحين أخذ هرمزد فى تلاوة النشيد المقدس احدودب ظهر أهرمن ، ثم ركع على ركبتيه لعجزه ، ثم خارت قواه ، وسقط ذاهلاً فى دياجير الظلام ثلاثة آلاف عام .

وفى هذه الفترة عمد هرمزد إلى خلق (الأرباب الستة) ، وإكمال (دنيا الفضيلة) ، حتى يكون هذا العالم سدًا منيعًا تجاه أهرمن ، إذا هو فكر فى الهجوم عليه .

وتقول (الأساطير الإيرانية القديمة ص٢٧ / ٤٥) : إن أهرمن خلق ستة من العفاريت الهائلة الخبيثة ، على رأس جيش من الأشرار ، لكن هرمزد لم يعبأ به ، وأخذ فى خلق العالم من (النور الإلهى) ، وخلق النار من ذلك النور ، ووضع الضياء والشعاع فيها .

خلق قبة السماء من الفولاذ المنصهر ، وجعله سياج العالم ، ودرعًا يرتديه فى صراعه مع أهرمن .

ثم أبدع هرمز السموات السبع ، ووضع القمر والشمس والكواكب الثابتة والسيارة بين الأرض والسماء ، وأعدها جميعًا للنضال والكفاح .

ثم أبدع موجودات العالم من ماء وريح ونار وأرض وعشب وحيوان .

وبرأ الإنسان الأول (كيومرث) الذى كان شمسًا ساطعة ، على الضفة اليمنى من نهر جيحون الجارى فى مركز الأرض ، بينما استقرت البقرة البيضاء على الضفة اليسرى ، وكان كيومرث بصيرًا ناطقًا سميعًا ، وجاء نسله على شاكلته .

وعن كيومرث يقول الشهرستانى (المِلَل والنحل مج١ جـ٢ ص ٧٧ هامش الفصل) : أول من ملك الأرض ، وكان مَقامه بإصطخر ، وبعده أُو شهنج بن فراول ، ونزل أرض الهند ، وكانت له دعوة ثمة ، (أى كان بمثابة نبى) ، وبعده طهمورث ، وظهرت الصابئة فى أول سنة من ملكه ، وبعده أخوه جم الملك ، ثم بعده أنبياء وملوك ، منهم منوجهر ، ونزل بابل وأقام بها ، وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر فى زمانه ، حتى انتهى الملك إلى كشتاسف بن لهراسب ، وظهر فى زمانه زارادشت الحكيم .

لكن الأستاذ العقاد يشرح تناسل كيومرث ، فيقول : إنه نبت من دمه حين قتل فى فتنة الخير والشر ذكر يسمى (ميشه) ، وأنثى تسمى (ميشانة) ، فتزوجا وتناسلا ، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين .

وقصة ميشه وميشانة نقلها الأستاذ العقاد عن الشهرستانى ، وجانبه الصواب فى تعليل زواج الأخوين ، لأنه يعلم أن هذا الزواج حدث فى مصر القديمة وفى غيرها من الحضارات القديمة ، بسبب من مفاهيم استعلائية أو اقتصادية أو سياسية ، وليس بسبب من تقليد (ميشه وميشانة) .

* لمهم أن هرمزد جعل أمر الدنيا لمساعديه الستة ، لكنه احتفظ لنفسه بالإشراف على شئون الناس ولما هاجم أهرمن مخلوقات هرمزد بدأ بالماء ، وترك فيه آفة الملوحة والمجاجة ، ولوث الأرض بالحشرات والحيوانات المؤذية والعقارب والضفادع واليرابيع ، فضاقت الأرض بكثرة الحيوانات الضارة ، وخص الإنسان بالألم والمرض والعوز والعطش والجوع ، ومزج النار بالدخان والظلام ، وخلق نجوم النحس .

وحين انتصر هرمزد وقضى على العفاريت قضاء مبرمًا ، بقيت آفات أهرمن فى العالم .

وتقول الأساطير الإيرانية إنه بعد أن خلق الإله هرمزد العالم ، وفرغ من خلق السماء والجبال والبحار والنبات والحيوان والبشر - أبدع شريعة كى يتعلمها الناس ، ويتبعون الصدق والإحسان ، ويتجنبون القبائح والآثام ، ثم حاول أن يختار لشريعته إنسانًا يحافظ عليها ، ويعين الناس على العمل بها ، وكان جمشيد أعلم الناس وأجلّهم شأنًا ، إذ كانت له قطعان كثيرة ، ووجه مشرق جميل .

ويلاحظ أن (النبوة) لاتقوم على كثرة القطعان وجمال الوجه ، لكن (الأفستا) اختارت لجمشيد هاتين الصفتين ، وجعلته (الحارس الأول للعالم الذى أبدعه هرمزد) ، وقالت إنه فى زمنه (لم يكن للمرض والموت والشيخوخة وجود) ، هذا مع أن الشاهنامة تذكر أن جمشيد بن طهورث ابن أوشنج الذى (علمته الجن الخط والكتابة على ثلاثين نوعًا من الألسنة المختلفة) . . وتزيد بأن طهمورث أول من ركب الخيل ، ووضع الأحمال على الدواب ، وأن فى عهده اجتاج الناس وباء عظيم ، فصوروا من هلكوا ، ثم عبدوا الصور . . وتضيف بأن الضحاك العربى اليمنى هو الذى قتل جمشيد ، وأن حفيد جمشيد المسمى أفريدون هو الذى قتل الضحاك ، وهو أيضًا نوح صاحب الطوفان ، بينما تذكر الأفستا أن جمشيد هو نوح ، وهو صاحب الشريعة الذى قال لهرمزد : أيها القدسى العادل ، إننى سأكون حارسًا لعالمك ، سأبارك خَلقك ، وسأمنحهم القوة ، وأصونهم من الآفات والأضرار ، ولن تهب فى فلكى الرياح الباردة والرياح الحارة ، ولن يكون هناك غمّ ولا مرض ولاموت ، ولن يبلغ أحد فى ساحة حكمى سنّ الشيخوخة والهرم ، وسوف يتراءى الوالد والولد كلاهما فى سن الخامسة عشرة للأنظار .

ومر ثلاثمائة عام على حكم جمشيد ، فازدَادَ العمران ، وامتلأ وجه البسيطة من الناس والدواب الصغيرة والكبيرة والطيور والكلاب ، ولهيب النار الحمراء .

ضاق المكان فى وجه مخلوقات هرمزد ، لكن الأرض (اتسعت وتمددت ، وزادت ثلثا على ماكانت عليه) ، ثم امتلأت بالمخلوقات ، ثم اتسعت ، ثم ضاقت ، وأخيراً كان لابد من الطوفان ، ليخفف من كثافة السكان .

قال هرمزد : (يا جمشيد اللطيف ، سيحل شتاء قارص جدًا ، وسيأتى برد من ورائه لايستطاع احتماله ، وستهطل الثلوج من قمم الجبال ، حتى بطون الأنهار ، وستهلك الحيوانات ، سواء ماكان منها على الجبال أو فى الحظائر ، وبعد حدوث الطوفان تجرى السيول ، وتغرق الرياض والمروج ، ولن يرى بعدَ ذلك ظلف على وجه الأرض) .

(ياجَمشيد اللطيف ، شيد حصنًا منيعًا ، يكون طوله من أى جهة مسيرة ميدان ، وخذ إلى هذا الحصن نماذج من الحيوانات الصغيرة والكلاب والطيور ، ولهيب النار الأحمر ، وابن للناس مساكن ، واصنع للدواب حظائر ، وأجر أنهار الماء ، وهيئ مروجًا خضراء . . وأدخل معك فى الحصن أفضل الرجال والنساء ، وأحسنهم وأجملهم وأحسن الحيوانات وأجلها وأفضلها . . أعدد زوجًا من كل ماذكر ، وامنع أن يلج الحصن كل ما كان ناقصًا ، أو مصابًا بآفة شيطانية) .

* لاحظ أن الطوفان يتردد كثيرًا فى تراث هذه الساحة الواسعة التى حكمتها الإمبراطورية الفارسية ، ولعل ذلك بسبب ذوبان الثلوج الكثيفة التى كانت تسيطر على قمم الجبال ، داخل الإمبراطورية وحولها .

فلما كان تدوين الأبستاق (الأفستا) من الذاكرة ، بعد فقدها بعدة قرون ، دخلت كل الأساطير وروايات المؤرخين وغير المؤرخين (المدّاحين) التى تناقلوها شفاها ، والأوهام التى ارتبطت بأمجاد ، أوبأحلام الأمجاد - فى نسبج مانسب إلى زارادشت ، فكان معظم ملوك البيشداديّين والكيانيين يذكرون فى الأبستاق محاطين بكثير من الأساطير الدينية ، كما أن معظم الملوك من كيومرث إلى كيخسرو يذكرون فى الأساطير الهندية ، لأنهم بقايا من الأساطير الآرية التى حفظها الهنود والفرس على خلاف فيها .

وقد حفظت الأبستاق أسماء أبطال كانوا من قوى الخير والشر فى الدين الآرى القديم الذى قام على عبادة الطبيعة ، ولهذا قيل إن الأبستاق مأخوذة من كتب الفيدا التى تبلغ اليوم مائة مجلد ، يدل على هذا ماهو مشترك من آلهة وأمراء ، ومن كلمات وتراكيب ، وهذا يدل على أن حالة من (الاسترخاء) -

بعد التوسع العسكرى الكبير - فتحت أبواب الدولة الفارسية ، لتدخل منها الرياح الطيبة من الحضارات التى تجّذرت فى الدول المحيطة بها ، وإن كان ثمة احتمال أن يكون الأصل الآرى هو المصدر الأساسى لما جاء فى كل من الڤيدا والأفستا . . أمّا ما هو من أصل بابلى قديم كالفقرات التى تصف خلق الكون على ست مراحل : (السماء ، فالماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان) ، وتسلسل الناس من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على الأرض ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفانًا يهلكهم جميعًا إلا قلة قليلة - فهذا من (الميراث) الذى فرضته الأرض المشتركة ، والحضارة المتطورة .

وقيل إن الكتب الزارادشتية القديمة كانت تتضمن فصولاً خصصت للشريعة والقانون ، وتحتوى على فصل فى الجرائم التى ترتكب ضد الملك ، وضد الدولة ، وضد الجار . . الخ ، وكان الامتحان لإظهار البيّنة Ordeal والتعذيب أمرين مألوفين فى أصول التقاضى عند الساميين .

وبعد زوال الكيانيين بحروب الإسكندر المقدونى ، وضياع ماكان من ذكريات الملوك القدماء - فى القرون الخمسة التى مضت بين الإسكندر وأردشير مؤسس الدولة الساسانية - نهض أردشير بإحياء ذكرى هؤلاء الملوك ، وأحيا دين زارادشت ، وترجم الأبستاق إلى الفهلوية ، وخلطها بالبقية القليلة التى علقت بالذاكرة عن هؤلاء الملوك ، وبما عرف من تاريخ الأشكانيين ، وأضيف إلى هذا ماعرفه الفرس عن حروب الآشوريين والعرب والتورانيين ، من أساطير قديمة ، أو وقائع حديثة ، ردوها إلى عهد قديم ، وزيد على هذا وذاك مااخترعته خيالات الجماهير ، فصار هذا كله قصة حماسية ، احتفظ بها الدهاقين ، وحدّثوا بها وأنشدها الناس فى محافلهم وأعيادهم .

* ذكر المسعودى فى (مروج الذهب) أن (الأبستاق) كتب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد وأمر ونهى ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات ، فلم تزل الملوك تعمل بهذا الكتاب إلى عهد الإسكندر ، وماكان من قتله دارابن دارا ، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب ، ثم صارا المُلك بعد

الطوائف إلى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها أسناد ، فالفرس فى هذا الوقت لايقرءون غير هذا الكتاب .

وجاء بالشاهنامة أن فصول الأبستاق البالغ عددها ألفا ومائتى فصل كانت مكتوبة على ألواح من الذهب .

وأضاف الدكتور أمين عبد المجيد فى (القصة فى الأدب الفارسى ص٣٣ / ٣٨) أن الأبستاق يتكون من خمسة أجزاء ، هى : يسنا ، ويسپرد ،ونديداد ، ويشتها ، وخرده أفستا .

يسنا Yasna : أهم الأجزاء ، ومعنى (يسنا) العبادة والتسبيح والصلاة والعيد ، ويُتلى من اليسنا وقت إجراء المراسم المذهبية .

يسپرد : معناه كل السراة ، وهو من ملحقات اليسنا ، ولايتلى فى المراسم المذهبية .

نديداد : معناه قانون ضد الشياطين ، وهو لا يتلى فى المراسم الدينية ، وعدد فصوله ٢٢ فصلاً الفصل الأول فى خلق الأرض وماعليها ، والثالث فى الصحة والمرض ، وأغلب الفصول حتى الحادى والعشرين فى القوانين المذهبية والأحكام الدينية ، أما الفصل الثانى والعشرون فعن جلب أهرمن ٩٩٩٩٩ مرضًا ، وإيجاد الرسول الإلهى (بيك إزدى) ٩٩٩٩٩ علاجًا لها .

يشتها : معنى كلمة (يشت) العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح ، فهى تسابيح للخالق وملائكته .

خرده أفستا : أى الأبستاق الصغرى ، أو مختصر الأبستاق ، وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكل وقت من اليوم ، والأيام المباركة من الشهر ، والأعياد الدينية فى العالم ، وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة .

أما (**الزند**) فهو الشرح الأول للأبستاق ، ويعتقد الزارادشتيون أن كلا من الزند والأبستاق نزل من السماء .

و (**البازند**) تفسير الزند ، و (**الإياردة**) شرح البازند .

ومع أن ملوك الفرس أخذوا فى تدوين مابقى فى الذاكرة من الأبستاق خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، ثم أعادوا المحاولة فى القرن الخامس ، فإن كل مابقى منه (ترنيمات زارادشت) ، ونصوص الطقوس الدينية الرئيسية ، وترنيمات أخرى وصلوات . . وفى القرن التاسع تم تدوين عدد من الكتب الزارادشتية تدافع عن (ديانة الخير) ضد الدعاية المسيحية والإسلامية ، وتقرب أفكار المذهب من رجل الشارع .

* كتب الأبستاق بلغة قديمة ، هى اللغة التى كانت شائعة فى شرق إيران ، وقد رتل زارادشت تراتيله بهذه اللغة - الأساطير الإيرانية القديمة ص ١٣ .

ولاهتمام الأبستاق بالملوك السابقين ، ولأن جستاسب ومن جاء بعده من الملوك اهتموا بنشر الزارادشتية - فقد اهتم الأبستاق بإعلاء شأن الملك الذى (منحته الآلهة السلطة لكى يحكم نيابة عنها ، وهى تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل ، وبلا محاباة ، بحيث يدافع عن الضعيف أمام القوى ، وأن يكون نصيراً لليتامى والأرامل) ، وكان عليه أن يوجه الشعب لإرضاء الآلهة حتى يمكن الحصول على بركاتها ، وتجنب لعناتها .

ومايقوم به الملك طوال حياته تحكمه طقوس دينية ، واحتفالات تضمن طهارته ، وتحرس شخصه ، وفى ترقب نذير شؤم يوضع على العرش ملك بديل يتلقى مايمكن حدوثه من سوء ، حتى الموت إذا كانت النبوءة تنذر به .

ويستطيع المتعبد الثرى - حتى يعفى نفسه من أعباء العبادة - أن يودع المعبد شيئًا مناسبًا ، على سبيل الهدية ، (تمثالاً ثمينًا ، بعض الأوانى النحاسية أو الفضية ، شاهداً أو حجراً تذكاريًا ، خاتمًا ، قطعة ذهبية) ، وتوضع هذه الهدايا إلى جوار تمثال الإله ، لتذكر بطلب (عبده) ، أو لتشكره على نعمته ، وقد تكتب صلوات على هيئة رسائل تكتب عادة - فى شئ من التفصيل - عارضة الشكوى أو الالتماس ، أو الاحتجاج ، أو طالبة النصرة على الأعداء . . والكاتب طبعًا ليس إلا الكاهن الذى يزداد أجره كلما طالت الرسالة ، أو حسب نوع الحاجة التى يطلب قضاءها .

وكانت الصلاة ركوعًا وسجودًا ، ورفعًا لليدين معًا إلى أعلى لتلقى البركات ، أو وضع يد أمام الفم والأخرى تجاه الوجه ، كأنه يفّوض الأمر إلى اللّه .

وقد اهتم الكهنة كل الاهتمام بإرضاء الآلهة ، وبخاصة أن الكهنة أو الآلهة تحتاج إلى مؤن منتظمة من الطعام الجيد والشراب اللذيذ ، توضع أمامها على الموائد صباح مساء ، واللحوم المفضلة عند الآلهة هى لحوم القرابين ، حتى لايفكر أحد فى شراء لحوم من السوق ، ويسوى بين الآلهة ومن يشترون هذه اللحوم من البشر ، وكان الدم يصب فى فناجين لشربها أو لاستخدامها فى أحد الطقوس ، ثم تختار الأجزاء الممتازة ، كالرئتين والكبد ، لمعرفة الطالع . . وتقدم إلى الآلهة كذلك الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن ، إلى جانب الأطعمة الرئيسية ، كخبز الشعير والبصل والتمر ، أما الزيت والخمور فتقدم بسخاء . . (وكل شئ يسجله الكتبة بدقة) ، ثم تودع تقاريرهم سجلات المعبد (الأرشيف) . . وتحظى التماثيل بزينات جديدة فى أعيادها . . وهذا كله من موروثات ماقبل زارادشت .

* ومع أن الشاهنامة دونت فى ظل الدولة الإسلامية وانطبعت بطابعها فإن النزعة الفارسية كانت المسيطرة على قلم الفردوسى ، وهو يدون التراث الإيرانى ، من خلال الأساطير المتداولة ، مستعينًا فى الدرجة الأولى بما جاء فى الأبستاق . . وبما أن الأبستاق منسوب إلى زارادشت ، أو إلى الزارادشتية على الأصح ، فإن التقاليد والعادات والعقائد التى وردت فى الشاهنامة لاتكاد تبعد عن مخلفات الزارادشتية ، وعن آثارها فى وجدان الشعوب التى شغلت ساحة الإمبراطورية الفارسية .

وقد أجمل الدكتور أمين عبد المجيد هذه التقاليد والعادات والعقائد فى (جولة فى شاهنامة الفردوسى ص٥٧ / ٦١) بقوله : يؤمن الناس فى الشاهنامة بإله واحد ، وقَدَر غالب لاراد له ، ولايختلفون فى عبادتهم لهذا الإله إلا من حيث الصورة ، ونراهم يلجئون إليه وقت الشدة ، ويشكرونه بعد زوال الكربة ، وهم إزاء القضاء والقدر عاجزون لاتغنى عنهم حيلة ولاتدبير ، ويحيلون عليه فى كل الأمور مستسلمين .

والنبوءات ليست مقصورة على المنجمين ، بل يشاركهم فيها الملوك والعلماء والموابذة والأبطال .

وأبطال الشاهنامة يتطيرون ويتشاءمون ، وهناك مايشعر بإيمان القوم بالبعث والدار الآخرة .

وقد نظمت العبادات الزارادشتية بموجب عقائد شديدة ، فقد حرمت الضحايا والقرابين ، كما حرم شراب (الهَوْما) المسكر الذى كان يستعمله المجوس فى الطقوس الدينية ، ويعتبرون عصير ذلك النبات بمثابة دم الإله الفحل المسمى (هوما) .

واتخذ مبدأ عدم دفن الموتى ، أو حرقهم ، أو غسلهم ، مخافة تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة : (التراب ، والنار ، والماء) ، فكانت أجسام الموتى تعرض فى أماكن مرتفعة فى الجبال ، أو على أبراج تبنى لهذا الغرض ، وبعد تخليص العظام من اللحم ، بواسطة الجوارح والوحوش ، تجمع العظام فى صندوق وتقبر .

والإيمان بالحساب فى الآخرة لايعفى من الحساب فى الدنيا ، إن لم يكن الحساب فى الدنيا من وحى الحساب فى الآخرة ، أو هو تمهيد له ، وباعتبار الملوك ، ومن يعملون فى تنفيذ أحكامهم ، إنما يحققون إرادة الإله ، ويفرضون شريعته ، فقد أصبح العنف فى تنفيذ الأحكام طاعة للمعبود ، ورحمة بالعابد .

* هذا جملة ما وصلتُ إليه عن المذهب الزارادشتى ، وهو يعبر بوضوح عن أن الدراسات التى نشأت عن التراث الزارادشتى لم تميز بين الأصيل والدخيل ، وتم خلط كبير بين ماقبل زارادشت ومابعده ، ذلك لما أصاب الأصول الزارادشتية الأولى ، وما ران عليها من مخلفات الحضارات ، على نحو ما أصاب اليهودية والمسيحية ، إذ عملت الأحداث العسكرية والسياسية ، والاضطرابات الاجتماعية والنفسية التابعة لهذه الأحداث – على توجهات واجتهادات شخصية وعنصرية ، وعلى عدم الدقة فى التدوين ، وعدم الورع فى التقرير والتبرير . . ثم الخضوع للنقول دون متابعة ومراجعة .

عبادات وطقوس

لما انتقل الدين – فى الأيام الأخيرة – من الأنبياء إلى الساسة ، صُوِّر الإله الأعظم فى صورة ملك ضخم ذى جلال مهيب ، وكان بوصفه خالق الكون وحاكمه يستعين بطائفة من الأرباب الصغار التى تمثلت فى قوى الطبيعة ، كالنار ، والماء ، والشمس ، والقمر ، والريح ، والمطر .

وكان لأهورامزدا – كما وصفه زارادشت – سبعة مظاهر ، أو سبع صفات ، هى : النور ، والعقل ، والطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود .

واللّه لايمكن أن يكون مسئولاً عن الشر ، لأن الشر جوهر ، مثله مثل الخير ، وكل منهما يرجع إلى سبب أول هو اللّه (أهورامزدا) ، والشيطان (أهرمن) .

وإذا ماانسحب المرء من العالم – كما يفعل الناسك – فإنه بذلك ينبذ عالم اللّه ، ومن هنا كان الزهد خطيئة كبرى ، مثله مثل الانغماس فى الشهوات ، وعلى الرجال واجب دينى يفرض عليهم أن تكون لهم زوجة وأولاد ، حتى يزيدوا من أتباع ديانة الخير ، وليكونوا من المؤمنين بالأفعال المقدسة . . كذلك حرث الأرض وفلاحتها ورعى الماشية . . ولما كانت الصحة هبة من اللّه ، فإن على جميع البشر أن يعملوا على التمتع بها ، ويكونوا أقدر على القيام بالأعمال الصالحة ، فالعمل ملح الحياة . . وإلى جانب العمل لابد من الفكر ، حتى يمكن قهر الشكوك والرغبات السيئة ، (يقهر الجشع بالرضا ، والغضب بالسكينة ، والحسد بالإحسان ، والحاجة باليقظة ، والنزاع بالسلام ، والكذب بالصدق) .

ومادام ميلاد الطفل يمكن أن يجلب الموت بسهولة – والموت من عمل الشيطان – فلابد من إحاطته بالوصفات الطبية ، والحرمات .

ولابد للمرء أن يمر بطقوس التطهر قبل أن يقوم بأى عمل رئيسى من أعمال العبادة .

وكثيراً مايتم الاعتراف بالخطايا التى ارتكبت عن طريق التفكير أوالكلام أو العمل .

وظلت العادة الآرية القديمة ، عادة تقديم عصير (الهوما) المسكر قربانًا إلى الآلهة ، بعد انتشار الزارادشتية بزمن طول ، بالرغم مما أثر عن زارادشت من تحريمه . . كان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون مابقى على من يحضرون الصلاة ، فإذا حال الفقر دون تقديم هذه القرابين الشهية كانت الزلغى إلى الآلهة بالصلوات والأدعية وتلاوة الترانيم .

* وكان من العقائد الثابتة أن (أستواد) إله الموت لايفلت من قبضته أحد ، أينما كان مقره ، ومن وراء الموت - وهو أشد الخفايا رهبة - كان جحيم ، وأعراف ، وجَنّة ، وكان لابد لأرواح الموتى جميعًا أن تجتاز قنطرة (الصراط) ، لاتمر بها فى أمان إلا الروح الطيبة ، فتصل إلى (مسكن الفَناء) ، حيث تلقاها وترحب بها (فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد ملىء) ، وهناك تعيش الأرواح الطيبة مع أهورامزدا سعيدة منعمة أبد الدهر . . وجنة زارادشت موقعها أقصى شرق جبال البرز ، إذ ترتفع الجبال متجاوزة النجوم ، إلى عالم النور اللانهائى ، حيث لاليل ، ولابرد ، ولا مرض . . أما الروح الخبيثة فلا تستطيع اجتياز القنطرة ، وتتردى فى درك الجحيم الذى يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب . . والجحيم هاوية مظلمة رهيبة ، تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين . . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته قاسَى عذابًا مؤقتًا يطهره من الذنوب . . وإذا كان قد ارتكب كثيرًا من الخطايا ، لكنه فعل بعض الخير ، لايلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام ، يرفع بعدها إلى السماء .

* تفردت الزارادشتية بهذا التفصيل الذى يشبه - إلى حد ما - ماجاء به الفكر الإسلامى ، وخلت منه التوراة والإنجيل ، وإن وردت فى أسفار الأنبياء المتأخرين إشارة (عرضية) إلى الآخرة ، إذ يقول سفر دانيال - صح ١٢ - (كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الازدراء الأبدى) . . حتى هذه الإشارة لاتستقيم رالمفاهيم الدينية ، إذ إن لفظ (كثيرون) يعنى أن القيامة خاصة لا عامة ، ثم إن لفظىْ (الأبدية) عن النعيم ، و (العار) عن الجحيم ، لفظان غيرمعبرين عن حقيقة كل من الثواب والعقاب . . والأناجيل كذلك لم تهتم بما بعد الموت أدنى اهتمام ، مادامت

* يقول الأبستاق : إن على الإنسان واجبات ثلاثة : (أن يجعل العدو صديقًا ، وأن يجعل الخبيث طيبًا ، وأن يجعل الجاهل عالمًا) ، وذلك بالفكر الطيب ، والكلم الطيب ، والعمل الطيب .

إن أعظم الفضائل التقوى ، ويأتى بعدها مباشرة الشرف والأمانة ، قولاً وعملاً .

وحرّم أخذ الربا من الفرس ، وجعل الوفاء بالدين واجبًا يكاد يكون مقدسًا ، لأن الدائن فى الغالب إقطاعى أو رأسمالى ، ورأس الخطايا الكفر ، وعقاب المرتد الإعدام فوراً .

ويقول هيرودوت : إن الفرس (يرون أنهم خير الناس جميعًا ، من جميع الوجوه) ، وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال ، بقدر مايقرب موقعها الجغرافى من بلاد فارس ، وأن شر الناس أبعدهم عنها .

ولم تك فارس الزارادشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام ، بل كانوا ينشئون المذابح المقدسة على قمم الجبال ، وفى القصور ، أو فى قلب المدن ، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريمًا لأهورامزدا ، أو لغيره من صغار الآلهة .

وكانوا يتخذون النار نفسها إلهًا يعبدونه ، ويسمونها (أنار) ، ويعتقدون أنها ابن إله النور ، وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها ، وتعمل على أن تظل نار بيتها متقدة لاتنطفئ أبدًا .

وكانت الشمس – نار السموات الخالدة – تعبد بوصفها أقصى مايتمثل فيها أهورامزدا ، أو مثرا ، كما عبدها أخناتون فى مصر .

وكانوا يقربون إلى الشمس وإلى النار ، وإلى أهورامزدا ، القرابين من الأزهار ، والخبز ، والفاكهة ، والعطور ، والثيران ، والضأن ، والجمال ، والخيل ، والحمير ، وذكور الوعول . . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها ، أما الكهنة والمتعبدون فهم المستفيدون الحقيقيون ، لأن الآلهة – على حد قول الكهنة – ليست فى حاجة إلى أكثر من روح القربان .

وظلت العادة الآرية القديمة ، عادة تقديم عصير (الهوما) المسكر قربانًا إلى الآلهة ، بعد انتشار الزارادشتية بزمن طول ، بالرغم مما أثر عن زارادشت من تحريمه . . كان الكهنة يحتسون بعض هذا العصير المقدس ، ويوزعون مابقى على من يحضرون الصلاة ، فإذا حال الفقر دون تقديم هذه القرابين الشهية كانت الزلغى إلى الآلهة بالصلوات والأدعية وتلاوة الترانيم .

* وكان من العقائد الثابتة أن (أستواد) إله الموت لايفلت من قبضته أحد ، أينما كان مقره ، ومن وراء الموت - وهو أشد الخفايا رهبة - كان جحيم ، وأعراف ، وجَنّة ، وكان لابد لأرواح الموتى جميعًا أن تجتاز قنطرة (الصراط) ، لاتمر بها فى أمان إلا الروح الطيبة ، فتصل إلى (مسكن الفَناء) ، حيث تلقاها وترحب بها (فتاة عذراء ذات قوة وبهاء ، وصدر ناهد ملئ) ، وهناك تعيش الأرواح الطيبة مع أهورامزدا سعيدة منعمة أبد الدهر . . وجنة زارادشت موقعها أقصى شرق جبال البرز ، إذ ترتفع الجبال متجاوزة النجوم ، إلى عالم النور اللانهائى ، حيث لاليل ، ولابرد ، ولا مرض . . أما الروح الخبيثة فلا تستطيع اجتياز القنطرة ، وتتردى فى درك الجحيم الذى يتناسب عمقه مع ما اقترفت من ذنوب . . والجحيم هاوية مظلمة رهيبة ، تعذب فيها الأرواح المذنبة أبد الآبدين . . فإذا كانت حسنات الإنسان ترجح سيئاته قاسَى عذابًا مؤقتًا يطهره من الذنوب . . وإذا كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا ، لكنه فعل بعض الخير ، لايلبث فى العذاب إلا اثنى عشر ألف عام ، يرفع بعدها إلى السماء .

* تفردت الزارادشتية بهذا التفصيل الذى يشبه - إلى حد ما - ماجاء به الفكر الإسلامى ، وخلت منه التوراة والإنجيل ، وإن وردت فى أسفار الأنبياء المتأخرين إشارة (عرضية) إلى الآخرة ، إذ يقول سفر دانيال - صح ١٢ - (كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الازدراء الأبدى) . . حتى هذه الإشارة لاتستقيم والمفاهيم الدينية ، إذ إن لفظ (كثيرون) يعنى أن القيامة خاصة لا عامة ، ثم إن لفظىْ (الأبدية) عن النعيم ، و (العار) عن الجحيم ، لفظان غيرمعبرين عن حقيقة كل من الثواب والعقاب . . والأناجيل كذلك لم تهتم بما بعد الموت أدنى اهتمام ، مادامت

الخطايا تكفَّل يسوع (الإله) بحملها على كتفيه ، حين عذب وصلب . . إشارة واحدة عارضة قالت : (إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت اللّه) ، فلفظ (ملكوت اللّه) لفظ شاعرى يتسع لكل شئ ، ويضيق حتى يقف عند مرضاة اللّه . . ولم يرو الحديث عن الجنة والنار والمطهر إلا بقرارات المجامع المقدسة ، وقرارات البابوية التى أصدرت معها صكوك الغفران .

من هنا يتبين أن الزارادشتية كان لها أصول سماوية أقرب - فى هذا الجانب - من الأصول المدوَّنة فى اليهودية ، إذ إنها تعتقد بالبعث ، والثواب والعقاب ، والصراط ، والجنة والنار ، والأعراف ، وخلود الروح .

لكن بريستيد (فجر الضمير ص٣٧٠) وقف بهذه الأفكار عند الديانة المصرية القديمة ، إذ يقول : (إن ظهور فكرة الحساب فى الآخرة - وهو شئ لم يعرف فى آسيا الغربية قبل زروستر - قد أوجد نظرية قوية أن زروستر قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة) .

(وكل زائر دخل قصر قورش الأكبر كان يشاهده لابسًا تاج «أوزير» ، إله الحساب المصرى فى عالم الآخرة عند قدماء المصريين) .

(وقد أخذ الفرس الكثير - فى العمارة والفن - عن المصريين القدماء) .

ويضيف الأستاذ العقاد (اللّه - ص٧٨) أنهم جمعوا بين عقيدة الهند فى نهاية العالم وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء .

وإذا كانت اليهودية قد تحدثت عن المخلص (الماشيح) ، والمسيحية تحدثت عن عودة المسيح ، وأن كلاً من المخلص والمسيح سيقيم حياة العدالة والمحبة لمدة ألف عام ، ثم تكون النهاية - فإن الزارادشتية قالت إنه يخرج من صلب زارادشت - فى فترات مختلفة ، خلال ثلاثة آلاف عام - ثلاثة من البنين ، ينشرون تعاليمه فى أطراف العالم ، ثم يحل يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة (أهورامزدا) ، ويهلك (أهرمن) هو وجميع قوى الشر ، وتبدأ الأرواح الطيبة

حياة خالية من الشرور والآلام ، ويخلو العالم المادى من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال - قصة الحضارة مج١ جـ٢ ص ٤١٨ / ٤٣٦ .

ومن ثمار الصراع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية المسيحية كان اهتمام الملوك الساسانيين بالدين الزارادشتى - كعنصر قوة - فى مواجهة الدين المسيحى ، فأعادوا إلى هذا الدين ماكان له من سلطان وتقدير . . وهَبوا له الأراضى والعشور ، وتأسس نظام الحكم على أساس الدين ، كما فعل قسطنطين ومن جاءوا بعده ، وعيّن كاهن أكبر ذو سلطان ، لايفوقه سلطان الملك نفسه ، رئيسًا لطائفة الكهنة المجوس الوراثية ، التى كانت تشرف على جميع النواحى المذهبية فى الحياة الفارسية تقريبًا ، وكانت تنذر من تحدثه نفسه بالإثم ، أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم فى الجحيم .

وقد بلغ من ثراء هذه الطائفة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالاً طائلة من خزائن الهياكل . . وقد تبادل الملوك والكهنة الأنخاب ، ففى مقابل ما أباحه الملوك للمجوس من سلطات وتجاوزات أضفى عليهم الكهنة من القداسة ماجعل الملك (ملك الملوك ، ابن الآلهة ، سيد الكون) ، وكان على الذين يدخلون على الملك أن يخرّوا له سجّدًا ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يرفعوا رءوسهم عن الأرض إلا إذا أمرهم الملك بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وعلى فم كل منهم منديل ، حتى لاتُعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه .

ويبدو أن الملوك الساسانيين صدقوا ماخدعهم به الكهنة ، ليزيدوا من عزلتهم عن الشعب ، وليقوى تأثيرهم عليهم وعلى الشعب - فصاروا يعاملون ملوك الدول الأخرى على أساس من هذا الوهم الكبير ، أو لعلهم وجدوا فى هذا (الانتفاخ) الأخرق مايزيد من هيبتهم ، ويوقع الرعب فى قلوب الآخرين .

جاء فى رسالة أبرويز إلى هرقل : (من كسرى أعظم الآلهة ، وسيد الأرض كلها ، إلى هرقل ، عبده الغبى الذليل ، إنك تقول إنك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدى ؟!) .

كان أبرويز قد نهبت جيوشه أورشليم سنة ٦١٤م ، وقتلت ٩٠ ألفًا من

المسيحيين ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ، ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذت (الصليب الحق) ، وهو أعز أثر على المسيحيين .

وهذا لايعد انتصاراً عسكريًا خطيراً ، لأن فلسطين أقرب إلى حضن الدولة الفارسية ، ومن السهل احتواؤها ، ومن النذالة أن يفتك بآلاف من سكانها الذين لاحول لهم ولا طول ، لكنها شريعة الحروب فى ذلك الزمان ، ولم يكن الروم ليرحموا أحداً ، أو يتركوا أثرًا للحياة فى أرض فارسية أو غير فارسية تقع فى أيديهم ، إذ كان أسلوب (يوشع) فى الإبادة الكاملة المثل الأعلى فى الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل إن هذا كان شعار الدولتين اليونانية والرومانية من قبل قراءة سفر يوشع .

ولم يكن مافعله أبرويز أول جريمة فارسية شنعاء ضد المسيحية ، إذ إنه لما اشترك القساوسة فى الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثانى - كما حدث عن نصيبين سنة ٣٣٨م - شرع ملوك الفرس يضطهدون المسيحية ، وأخذ المسيحيون فى فارس يجهرون بآمالهم فى انتصار الدولة البيزنطية ، فأمر شابور سنة ٣٤١م بذبح جميع المسيحين الساكنين فى الإمبراطورية ، ولما رأى أن قرى كاملة من القرى المسيحية أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين والرهبان ، حتى هلك ١٦ ألف مسيحى ، نتيجة هذا الاضطهاد الذى دام حتى موت شابور سنة ٣٧٩م .

ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ - ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢م قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين اليونانية والرومانية - قصة الحضارة مج٤ جـ١ ص ٢٩٥ .

* والزارادشتيون (البارسيون) اليوم - حيث يصل عددهم فى الهند إلى مائتى ألف - يكونون أكثر الأقليات نشاطًا واستنارة وقدرة على العمل ، منهم المهندسون والموظفون ورجال البنوك ومديرو مصانع الغزل وشركات السكك الحديدية ، وهم يمتازون بحب الإنسانية ، وقد أقاموا عديداً من المؤسسات الخيرية : مستشفيات ، ودور رعاية للأيتام ، ومدارس .

ويمكن مقارنتهم بالبيوريتان الإنجليز الذين فروا فى القرن السابع عشر من الاضطهاد الدينى إلى أمريكا ، حيث يحتل أحفادهم اليوم أرقى المناصب - ترانيم زارادشت ص ١٥٦ .

والبارسيون يعبدون النار ، ويقدسون عناصر الطبيعة ، ويحرصون على عدم تدنيس هذه العناصر : الأرض والنار والماء ، ومن ثم لايدفنون موتاهم فى باطن الأرض ، أو يلقونها فى البحر أو يحرقونها كالهندوك ، بل يضعون الميت بعد تكفينه على سطح برج عال (برج الصمت) ، لتكون طعامًا للكواسر ، فلا يبقى إلا الهيكل العظمى الذى يمكن حرقه بعد جفافه ، ويمكن دفن عظامه .

وهم لايتقيدون بطعام معين ، ولايميزون بين الطبقات ، وعند الزواج يشرب العروسان بول الثور تيمنًا وتبركًا - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص١٢٤ / ١٢٦ .

ترانيم زارادشت

ترانيم زارادشت هى (هذه الترانيم التى يتفق العلماء على نسبتها إلى زارادشت نفسه ، دون غيرها من الأناشيد التى يحتويها كتاب الأفستا المقدس لدى الزارادشتيين) .

وهى من حيث كونها ترانيم لاتقيم فلسفة ، وإن تناولت قضايا كونية ، أو (ميتافيزيقية) ، ذلك لأن لُحمة الترنيمة مشاعر وانفعالات وكلمات مجنحة ، وسُداها النغم والإيقاع والمعاناة الحالمة ، على حين تنشأ الفلسفة من تأملات واجتهادات فكرية أشبه بالإبحار فى المجهول دون الوقوف عند مرافئ محددة .

لهذا أعجب لقول سيمون بترمان ، مؤلفة رسالتين عن الثنوية : (لا أدرى لماذا يتحاشى الأساتذة بنوع من الرعب تصوير زارادشت كفيلسوف ، أو له علاقة ولو ضئيلة بالفلسفة ، رغم هذا ، إن كانت هناك عقيدة فلسفية مجردة فهى عقيدته ، لماذا لا يرغب أحد فى إدراك هذا ؟ ألأنها بالغة القدم ؟ كل شئ أكثر قدمًا مما يظن المرء حتى - بوجه خاص - الفلسفة) -ترانيم زارادشت ص ٩ .

المعيار فى الفلسفة وغيرها ليس القدم أو الحداثة ، ولا الموضوعات المتناولة ، إنما هو المنهج والأسلوب ، فإذا اعتبرنا زارادشت من أصحاب الرسالات وقفنا عند حدود قيم ومبادئ ، لأن المعيار سلوكى أخلاقى اعتقادى ، وهذا يباعد بين الرسالة والفلسفة ، لأن الفلسفة أقرب إلى التجارب المنطقية ، والاجتهادات العقلية ، ولهذا لايكاد يلتقى فيلسوفان إلا ليختلفا ، ولو أننا وقفنا عند حصيلة الفلسفة لمازادت عن مجرد نشاط ذهنى وكدّ منطقى ، على عكس الرسالة التى تتحرك بحركة الجماهير ، وقد تقيم دولة وتهدم أخرى .

أما عن الترانيم فمن التجاوز أن تدخل تحت أى مسمى فلسفى ، وإن كانت نشاطًا دينيًا له أثره فى نشر الرسالات ، فهى لاتقيم رسالة ، وإنما تعين عليها ، وتشع بإشعاعها . . ولهذا إذا صح أن مابقى من زارادشت هى ترانيمه ، فإن من الخطأ أن نقيس رسالته بها ، وإن صح أن تكون دالة عليها .

ترنيمة ٥٠ / ٦ [١] قال زارادشت : (لى أنا - زارادشت - النبى والصديق الحميم للحق / رافعًا صوتى بابتهال / : أيها الحكيم / عسى أن تكشف خالق قوة العقل ، كعقل خير / وصاياه / علّها تكون درب لسانى) .

ترنيمة ٤٨/ ١٢ : (هؤلاء هم المخلصون المقبلون للناس / الذين يناضلون بأفعالهم ، بتعضيد « العقل الخير » / لينفذوا الحكم الذى به قضيت / أيها الرب الحكيم كحق / لهؤلاء الذين خلقوا الشرور) .

ترنيمة ٣٤/ ٦ : (لأنك بالحقيقة هكذا ، أيها الرب الحكيم ، مع الحق والعقل الخير / امنحنى هذه العلامة ، التحديد الكلى لهذا الوجود / حينئذ يكون فرحى العظيم فى عبادتك وتسبيحك) .

ترنيمة ٣٤/ ١٥ : (علمنى ، أيها الرب الحكيم ، أفضل الكلمات والأفعال / و «كعقل خير» و «حق» صلاة التسبيح من خلال هيمنة ملكوتك / أنت من تجعل الوجود مجددًا حقًا طبقًا لمشيئتك) .

ترنيمة ٣٣/ ١ : (بالنسبة للشرير والرجل المستقيم / وهو الذى يجمع بين الخطأ والصواب / ستكون المحاكمة بالنظام القائم / تبعًا لقوانين هذا الوجود) .

ترنيمة ٣٣/ ٨ : (التفتّ إلى شئونى التى أتبعها عن طريق «العقل الخير» / عبادتى لك أيها «الرب الحكيم» / وكلمات التسبيح التى أوجهها إليك «كحق» / لتضمن لى نعمتك ، أيها «الكمال» ، و «الخلود» إلى الأبد) .

ترنيمة ٣٣/ ١٢ : (أسرع إلى ، أيها الرب / كتقوى . . امنحنى الجلَد / كروح مقدس عظيم ، أيها الرب الحكيم ، امنحنى العطاء السخى / كحق . . امنحنى القوة على التصدى / كعقل خير ، اضمن لى ينبوع السعادة) .

تســـــاؤلات :

ترنيمة ٤٤/ ١٠ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبنى بالصواب / «العقيدة» التى هى أفضل ما فى الوجود من أشياء / هل يكفى ، أيها الرب

---

(١) الترانيم مسبوقة بأرقام غير متتابعة - ترانيم زارادشت - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣ .

الحكيم ، لهؤلاء الذين يشتاقون / إلى وعودك المعلنة فى تعاليمى / أن يراعوها جيداً فى أعمال وكلمات التقوى ؟ / عسى أنها - مع الحق - تجعل كل مايمتّ لى / مزدهراً) .

ترنيمة ٤٤/ ١١ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبنى بالصواب / هل ستمتد التقوى إلى هؤلاد الذين سيعلنون / عقيدتك ؟ / منذ البدء قد اخترتُ لأجل هذا منك / وسوف أنظر لجميع الآخرين بروح العداء) .

ترنيمة ٤٤/ ١٣ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبنى بالصواب / كيف نتخلص من الشر ؟ / أنلقيه وراءنا على هؤلاء العصاة / الذين لايلقون بالاً إلى اتباع « الحق » / ولا يكلّفون أنفسهم بالتشاور مع « العقل الخير » ؟) .

ترنيمة ٤٤/ ١٤ : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبنى بالصواب / كيف سأسلّم الشرير إلى أيدى « الحق » / عسى أن يسحقه طبقًا لقواعد تعاليمك / عسى أن يسبب شقاقًا عظيمًا بين الأشرار / ليصيبهم عمى الحروب والعداوات) .

ترنيمة ٤٤/ ١٦ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبنى بالصواب / من الذى سيكون ظافراً ويحمى الأحياء بتعاليمك ؟ / عسى أن تمنح لى الشواهد الملموسة / بمعرفة المخلّص الذى سيداوى الوجود / وعسى أن تمنح طاعته بواسطة «العقل الخير» / إلى جميع هؤلاء الذين يبحثون عنه ، أيها الرب الحكيم) .

ترنيمة ٤٤/ ١٨ : (هذا ما أسألك عنه أيها الرب ، أجبنى بالصواب / هل سأتلقى أجراً بواسطة «الحق» / عشرة أفراس مع حصان وجمل / التى وعدتنى بها أيها الحكيم / مع هبة الكمال والخلود ؟) .

تعليق بقلم (المؤلف) : (هذا ما أسألك عنه ، أيها الرب ، أجبنى بالصواب) صيغة لاتنفرد بها أشعار أو ترانيم زارادشت ، بل توجد فى كثير من النصوص ذات الأصل الآرى ، كنصوص الإدّا Edda الإسكندنافية - ص ٧٣ .

ترنيمة ٤٦/ ١١ : (الذين يقدمون التضحيات ، ، والأمراء المشعوذون / قد أخضعوا البشر لنير سيادتهم / ليدمروا الوجود بواسطة أعمال الشّر / سوف

يلقون العذاب بأرواحهم وضمائرهم / عندما يأتون إلى البرزخ / وإلى الأبد سينزلون فى مقر الشر) .

ترنيمة ٤٦/ ١٥ : (لأجلك ، «سبتاما» ، سليل « هيكاتسبا » / أعلن أنك ستميَّز طاهراً من بين المدنَّسين / بهذه الأفعال التى تتفق مع التعاليم الأولى للرب / لقد أمَّنت نفسك «بالحق») .

تعليق بقلم (مؤلف) «ترانيم زارادشت» البلچيكى جاك جيلمان ص٦٦ :

(سبتاما) لقب من ألقاب زارادشت ، يعنى الروح الخيرة ، فهو الذى يعلم المقاصد الإلهية ، وهو الذى سيعلنها أمام الناس ، وعلاوة على هذا سيمنح حلاوة أو عذوبة الحديث ، وربما يكون المقصود أيضًا بلاغة الدعوة .

ترنيمة ٤٦/ ١٨ : (ومن كان صادقًا معى بواسطة « العقل الخير » / إليه أقدم الوعد / الذى أشتاق إليه ، أنا نفسى ، كل الاشتياق / لكن القهر سيكون نصيب الذى يسعى إلى اضطهادى / أيها الرب الحكيم ، إنى أناضل لألبى رغبتك ، من خلال « الحق » / هذا هو قرارى بإرادتى وعقلى) .

ترنيمة ٤٦/ ١٩ : (وهذا الذى يكون معى ، الذى مع زارادشت / طبقًا للحق ، سوف يعبر / إلى ماهو البعث الأعظم ، بمشيئة «الرب» / وعندما سيكتسب الحياة الآتية ستقدم له مكافأة / بقرتان ولودتان وثور ، وكل مايشتهى عقله / هذا ما كشفته لى ، أيها «الرب الحكيم» ، وأنت خير من يعلم) .

تعليق : عبارة (بقرتان ولودتان وثور ، وكل مايشتهى العقل) تؤكد أن هذا النعيم الأخروى ليس سوى صورة خالدة من النعيم الأرضى ، كما يتصوره زارادشت ، وكما يمكن أن يتصوره أتباعه - ص٨٥ .

ترنيمة ٢٨/ ٤ : (أنا الذى يكافح من أجل صحوة «الروح» «المتحدة» «بالعقل الخير» / والذى يعرف مجازاة «الرب الحكيم» على أعمالنا / حيث يمكننى ، وحيثما أستطيع / سوف أبشّر بالبحث عن «الحق») .

ترنيمة ٢٨/ ٥ : (عالمًا أنك «الحق» ، وأنك مع «العقل الخير» / هكذا أراك ، وأرى أيضًا / أن «الرب الحكيم» بالغ العظمة ، له العرش و القصاص / بهذا

القول من أفواهنا / ستحول البشر من فرائس للشر إلى كائنات عظيمة) .

ترنيمة ٧/٢٨ : زارادشت («كحق» ، عضّد نجاحات «العقل الخير» / بما هو مقضى «مقدّر» / «كتقوى» ، امنح القوة «لفشتاسبا» ولى / تكفّل بهذا أيها «الرب الحكيم» / وأعط القوة إلى « نبيك » ، كى يصير مسموع الكلمة) .

تعليق : (إن وظيفة القصاص بلا جدال هى درع المارقين) - ص ٩٠ (فشتاسبا وفراسوا سترا من المحامين عنه) - ص ٩١ .

ترنيمة ١/٤٥ : (إنى سأتحدث ، استمعوا ، وأصغوا . يامن أنتم فى الجوار ، أو من بعيد ، أتيتم للإرشاد / اجعلوا جميعًا فهمكم له ، لأنه جلى / عسى ألا يدمر المعلم الزائف الوجود الثانى / هذا الذى يعد آثما ، لخياره الشرير ، وقد أتم بلسانه) .

ترنيمة ٢/٤٥ : (أنا سأتحدث عن الروحين : قال المقدس منهما للمهلك فى بداية الوجود / لاتتفق أفكارنا ، ولا مذاهبنا ، ولا قوى عقولنا / ولا خياراتنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا / ولا ضمائرنا ، ولا أرواحنا) .

ترنيمة ٣/٤٥ : (سوف أتحدث عن بداية هذا الوجود / عن الأشياء التى أخبرنى بها الرب الحكيم ، العارف / إن الذين لم يحملوا الكلمة / كما سأفكر وأنطق بها / سوف تكون نهاية الوجود لهم ، ياويلتاه) .

ترنيمة ٥/٤٥ : (سوف أتحدث بالكلمة التى أخبرنى بها / الرب الحكيم الأقدس ، كأفضل مايسمعه البشر / هؤلاء الذين سيُولون انتباههم لى ، وطاعتهم له / سوف يحصلون على الكمال والخلود بواسطة / أفعال العقل الخير) .

ترنيمة ٧/٤٥ : (هو الذى يمنح الخلاص أو الهلاك الأبدى / إلى الأحياء ، أو من كانوا ، أو من سيكونون / روح الصالح تجازى بالخلود / العذاب الأبدى لروح الشرير / عذابات جعلها الرب الحكيم الخالق ، من خلال سيادته) .

ترنيمة ٩/٤٥ : (ليتحدث عن رضاه لنا بالعقل الخير / هو الذى يمنحنا الحظ السعيد والعاثر وفقًا للمشيئة / لعل الرب الحكيم بواسطة سيادته على

القريـة / ومـن خـلال اتحـاد العقل الخير بالحـق / ينجـح قطيعنـا ورجالنـا) .

ترنيـمة ٤٥/ ١١ : يتـحـدث عن (الآلهـة المزيفة) فى صـورة الجـمـع ، بينمـا يتـحـدث عن الإله الحق بلفظ الواحـد . فيقـول : (من سيـحـمل منذ الآن بغض «الآلهـه المزيفـة» / وهؤلاء الذين لن يحـملوا المعـصـية للمـخلص / لهم سيـقف الضـمير المقدس للمـخلّص الآتى / سيـد منزلـه / بـدلاً مـن الصـديـق الحـمـيم ، والأخ ، والوالد / أيها الرب الحكيم) .

ترنيمة ٤٧/ ٣ : (إنك أنت الأب المقدس لهذه الروح / التى خلقت لنا ، أيها الرب الحكيـم ، قطعـان الماشيـة / مـصـدر الثـروة الطيـبة / وكـى تمنحنا السـلام ، خلقـت التقوى / لرعاية الماشية / عندما تأخذ بمشورة العقل الخير) .

ترنيمة ٣٠/ ٣ : (منذ البدء أعلن الروحـان التوأمـان عن طبيـعتـهـمـا / الطيب والشـرير / بالفكر ، والكلمـة ، والفـعل / بينمـا يخـتـار الرجل الحكيم جيـداً ، ولا يفعل هكذا الأحمق) .

ترنيمة ٣٠/ ٤ : (عندمـا أتى هذان الروحان معًا / فى البـدء أقاما الحياة واللا حـياة / وفى النهاية سـوف يكون الوجـود الأسوأ للشرير / بينمـا للتـقى العـقل الطيب) .

ترنيمة ٣٠/ ٥ : (من بين هذين الروحين ، اختار الشرير فعل الأشياء السيئة / لكن الروح المقدس الأعظم ، المكتسى بالسمـوات الراسـخة / انضـم إلى الحق / وهكذا يفعل أولئك الذين يبتهجون بإرضاء الرب الحكيم / بالأعمال الشريفة) .

ترنيمة ٣٠/ ٦ : (بين الاثنين ، أخطأت الآلهـة المزيفة الاخـتيـار / لم يتفكروا للحظة بأن الخطأ أحدق بهم / هـكذا اختاروا العقل الردئ / ثـم هرعـوا لينضـمـوا إلى روح السوء / حتى يمكنهم به أن يفسدوا وجود الإنسان) .

ترنيـمة ٣١/ ٨ : (بواسطة العـقل ، أيهـا الرب الحكيم ، عـرفتك كـمـبتـدى ومنتهى / كوالد للعقل الخير / عندما عـاينتك بعينى كخالق حق / للحق / كسيد فى أفعال الوجود) .

ترنيمة ٣١/ ١١ : (حيث إنـك / أيهـا الحكيم ، خلقت لنا منذ البـدء بعقـلك /

الكينونة ، والضمائر ، والإرادات / حيث إنك قد أعطيته جسداً لروح الحياة / حيث إنك خلقت الأعمال والكلمات ، كى يقرر / الإنسان بحرية) .

ترنيمة ٣١/ ٢٠ : (الذى يساند الرجل التقى ، سيظهر / له المجد المقبل . ويأيها الأشرار لكم الظلام المخيم المقيم / والطعام الردئ ، والعويل / لمثل هذا الوجود ستقودكم ضمائركم / التى تملى أعمالكم) .

ترنيمة ٣١/ ٢٢ : (تلك الأشياء واضحة للرجل ذى البصيرة / إن الذى يعرف سيادة الحق / من خلال العقل الخير / والذى يدعمه بالكلمة والفعل / سيكون ، أيها الرب الحكيم ، ضَيفَكَ المكرم) .

مـانـى

مانى Mani من أسرة بارثية ملكية ، قضى شبابه فى بلاد مابين النهرين التى كانت بوتقة تنصهر فيها كثرة من الديانات الرئيسية .

ومعنى كلمة مانى فى الفارسية الفريد ، النادر .

كان والده (فاتك) من رجال همدان ، هاجر إلى بابل حيث ولد ابنه بمدينة إكباتانًا ، العاصمة الميدية القديمة ، سنة ٢١٦م ، وتلقى تعليمه فى طيسفون .

وكان والده (فاتك) ناسكًا ، ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فتربى (مانى) فى جو من البحث والدراسات الدينية ، وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية .

وبعد أن اطلع (مانى) على الأديان الأخرى ادعى النبوة ، وهو فى سنّ العشرين ، وسمى نفسه (فارقليط) الذى أخبر عنه المسيح ، عليه السلام .

(كان يتمتع بعذوبة البيان ، وحلاوة الكلام ، يخلب القلوب ، ويسحر العيون) .

ولما كانت له حرية الدخول إلى البلاط الملكى ، فقد استطاع أن يقنع عددًا من القادة المؤثرِّين بالدخول فى دينه ، وأن ينال حُظوة لدى الملك الساسانى شابور الأول (ت ٢٧٢م) الذى رافقه فى حروبه مع الدولة الرومانية . . وتجددت الحُظوة مع الملك بهرام الأول حتى أيامه الأخيرة .

أعلن (مانى) أنه هو الذى جاء ليتم عمل زارادشت وبوذا والمسيح ، فهؤلاء جميعًا شذرات من الحقيقة ، وإن كانت هذه الشذرات قد فسدت بفساد الأتباع ، (والآن أرسلنى الله لنشر دين الحق . . أرسلنى اللّه من بابل حتى تصل دعوتى إلى العالم أجمع) .

كان مما يتسق وخصائص تفكير الناس فى تلك الأيام أن تحتوى تعاليمه على ضرب من مَزّج الأديان والآلهة (الثيوكرازيا) ، حتى يحدث لون من (المصالحة الفكرية) بين الطوائف الدينية التى تعج بها الإمبراطورية الفارسية ، وهى فى

حالة حرب مدمرة مع الإمبراطورية الرومانية ، فلم تكن الإمبراطورية الفارسية قادرة على الصمود في وجه الرومان ، وهي في حالة تمزق فكري وولاء ضائع بين المثرية والبوذية والزارادشتية والصابئة المندائية واليهودية والمسيحية . . ومن ثم دعا إلى دين يجمع بين الأديان جميعًا ، فقد رأى أن مؤسس الأديان من قبله كانوا جميعًا على صواب ، كان بوذا وزارادشت وموسى ويسوع المسيح أنبياء صادقين ، بيد أنه وُكل إليه أن يوضح تعاليمهم التي أصابها الأتباع بالنقض والاضطراب ، وكان عليه أن يتوجها جميعًا بروح من زارادشت وأسلوبه ، وأن يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة ، بين أهورا مزدا الإله وأهرمن الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من النور إلى الظلام ؟ وكيف يمكن تحريره من الأغلال ، وإنقاذه من الظلام ؟ ثم ماهو الدور الذي يقوم به (الفارقليط) في هذا الخليط العجيب من الديانات ؟

وحّد ماني آلهته - بوصفه (رسول النور) - مع آلهة المستمعين إليه ، فإذا ماوجه خطابه إلى المسيحين كان المخلّص يسوع ، وإلى الزارادشتيين كان الكائن الأول أهورامزدا . . أما إله العهد القديم (يهوه) فكان ماني يبغضه لعنفه وشدة بطشه وكثرة جرائمه .

ولقد مكنت هذه (المرونةُ) المصطنعة ، أو (الشعوذة) ، المانويين - في عصور الاضطهاد - من أن يلبسوا لكل حالة لبوسها ، فهم مسيحيون أو يهود ، بوذيون أو زارادشتيون ، مادام هذا (التحول) أو (المسخ) يفسحُ لهم طريق النجاة .

كانت (الثنائية) محور تعاليم ماني ، فالله ، أبو العظمة ، (زروان) ، والد أهورامزدا ، يعارضه أمير الظلام أهرمن ، والاثنان عنصران أوليّان ، والعالم مخلوق من أجساد حكام الظلام ، أمّا ما سُجن داخل المادة الإنسانية فومضات من نور اللّه ، أو شذرات من الإنسان الأول أهورامزدا ، الذي سجنته الشياطين ، وتسعى الروح - في العالم الأرضي المؤلف من عناصر مختلفة - إلى الفرار من هذا السجن ، من الموت ، عدوها الذي يشبه النسر الكاسر الذي فصلها عن موطنها الحقيقي ، النور ، ويتحقق الانعتاق بواسطة الزهد ، ومعرفة الطبيعة

الحقيقية للنفس ، وعندما تنعتق الروح من المادة ، من سجن الشيطان ، فإنها تصعد إلى الفردوس الذى يحكمه الإنسان الأول ، أهورامزدا ، الذى أعانه والده (زروان) على الانعتاق ، وعندما تتحرر كل ومضات النور التى سجنت فى المادة - فى نهاية العالم - تعود الأجساد إلى جنة الخلد . . وأثناء ذلك يتعرض أولئك الذين لم يتمكنوا من تحقيق الانعتاق فى هذه الدنيا للميلاد من جديد .

وبهذا لفّق مانى دينا زوده بالطقوس والآداب الدينية ، وحرم الأوثان . . وفرض على أصحابه - كما يقول الشهرستانى (الملَل والنحل مج١ جـ٢ ص٨٥) - (العشْر فى الأموال ، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة ، والدعاء إلى الله الحق ، وترك الكذب ، والقتل ، والسرقة ، والزنى ، والبخل ، والسحر ، وأن يأتى على ذى روح مايكره أن يؤتى إليه بمثله) .

وكان (اعتقاده فى الشرائع والأنبياء أن أول من بعثه اللّه بالعلم والحكمة أدم أبوالبشر ، ثم شيثًا بعده ، ثم نوحًا بعده ، ثم إبراهيم بعده ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند ، وزارادشت إلى أرض فارس ، والمسيح كلمة اللّه وروحه إلى الروم والمغرب ، وبولس بعد المسيح إليهم ، ثم يأتى خاتم النبيين إلى أرض العرب) . . وهذا النص (فيه نظر) .

وزعم أنه يؤمن بالقيمة التربوية للفن ، فقرر تجليد الكتب تجليداً فاخراً ، وأن تزين بالرسوم ، وأن تصاحب الطقوس تراتيل وموسيقى جميلة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٢٩ / ١٣٠ .

يقول صاحب (مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة جـ٢ ص ٥١٧ / ٥١٨) : الذى عليه البحث الحديث أن الطقوس والعبادات التى فرضها (مانى) مشتقة - بالدرجة الأولى - من عبادات بابل وإيران القديمة ، ومن ثم ترمى التعاليم المانوية إلى تحرير الروح أو النفس من الجسد ، وحين تتحرر كل النفوس المحبوسة بالمادة تصعد إلى الشمس ، وعندئذ تتحطم الأرض والسماء ، وتدوم إلى الأبد مملكة النور .

وأتباع هذه الديانة ينقسمون إلى طائفتين : المقربين المصطفين ، والسامعين المطيعين ، ويدخل فى الطائفة الأولى الكهنة الذين فرضت عليهم العزوبة ،

وحرم عليهم أكل الحيوان ، وطهرت نفوسهم من الغل والحسد والكذب ، أما السامعون فقد سمح لهم بالزواج .

ومارست المانوية مايشبه بعض الأسرار المسيحية ، كالتعميد ، والتوبة ، والقداس الإلهى ، والغفران من الذنوب عند الاحتضار . . وتأثرت بالغنوصية فى العقائد الميتافيزيقية ، فى بدء الكون وأصل الأشياء . . واشتقت أسماء الملائكة من المصادر السريانية . . وتأثرت بالبوذية فى الاعتقاد بتقمص الأرواح للأجساد وتناسخها . . كما تأثرت بالمبادئ الزارادشتية .

* ولعل أهم مايثير الاهتمام من الناحية التاريخية (معالم تاريخ الإنسانية – مج٣ ص ٧٥٢) أن مانى لم يكتف بالطواف فى إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التى بدت له مقنعة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان ، وهبط إلى الهند ، وعبر الممرات الصينية .

وقد انتشرت أفكاره شرقًا وغربًا فى سرعة مثيرة ، وظلت تمد العالم المسيحى بأسره بالهرطقات طوال ما يقارب ألف سنة .

وعاد مانى إلى طيسفون حوالى سنة ٢٧٠م ، وانضم إليه أنصار كثيرون ، ونتيجة هذا النجاح ، ولأنه خالف الزارادشتية بزعمه عن الإنسان الأول – تآمر عليه كهنة زارادشت ، وضيقوا عليه الخناق ، حتى إن الملك أحضر الموابذة – كما تقول الشاهنامة جـ٢ ص ٧١ – وقال : (انظروا فى أمر هذا المصور ، فإنى قد وقعت من شأنه فى شك ، فناظروه وباحثوه ، فانقطع المصور المزور ، وظهر للملك أنه من حلية الصدق عاطل ، وأن كلامه زور وباطل) .

وفى سنة ٢٧٧م أمر به الملك بهرام فصلب وسلخ ، وعانى أتباعه أعنف الاضطهاد ، ومع ذلك صمدت المانوية فى فارس عدة قرون .

مــزدك

فى حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى تغير نظام الطبقات تغيراً تامًا ، فاتحد الزراع والصناع والتجار ، ونشأت طبقة ثالثة ، هى طبقة العمال المدنيين التى شغل رؤساؤها مكانًا إلى جانب العرش الملكى ، مع الرؤساء الروحانيين ورؤساء الأرستقراطية العسكرية .

وفى عهد قباذ الأول (٤٨٨ - ٥٣١) نشب نزاع حاد بين جماهير الشعوب والطبقات النبيلة ، وقد اتبعت الجماهير حركة دينية اجتماعية غريبة تدعو إلى التساوى العادل فى توزيع الملكية ، واقتسام أموال الأغنياء ، والمشاركة فى النساء ، وتنسب هذه (الحركة) إلى مزدك .

جاء فى (الملل والنحل مج١ جـ ٢ ص ٨٦ / ٨٧) ، حكى الوراق أن قول المزدكية (كقول كثير من المانوية فى الكونين والأصلين ، إلا أن مزدك كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار ، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس ، والظلام جاهل أمى ، وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط ، لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار .

وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحلّ النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها . كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .

وحكى أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة .

وروى عنه أن معبوده قاعد على كرسيه فى العالم الأعلى ، على هيئة قعود خسرو فى العالم الأسفل ، وبين يديه أربع قوى ، قوى التمييز والفهم والحفظ والسرور ، كما بين يدى خسرو أربعة موبذان : موبذ والهربذ الأكبر ، والأصبهبد ، والرامشكر ، وتلك الأربع تدير شئون العالمين بسبعة من الوزراء ، سالار ، وبيشكار ، وبالون ، وبروان ، وكاردان ، ودستور ، وكودك ، وهذه السبعة تدور فى اثنى عشر روحانيا ، وكل إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع والسبعة الوزراء والاثنى عشر روحانيًا صار ربانيًا فى العالم السفلى ، وارتفع عنه التكليف) .

والمزدكية مستقاة من تعاليم (مانى) ، ولها قواعد خاصة بالسلوك ، إذ كانت تتطلب من أتباعها الامتناع التام عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب على جمع المال ، ولأنها تناهض سطوة الأغنياء والنبلاء ، فقد أيدها قباذ ليخضد شوكة هؤلاء الذين كانوا ينازعونه سلطانه ، وأدخل عدة تشريعات يتعلق بعضها بمكانة النساء ، فنشبت ثورة خلعته عن العرش وحاكمته وسجنته ، ونُصّب أخوه (جماسب) ، لكن قباذ هرب من سجنه ، ولجأ إلى الإفثلاطيين (الهون البيبض ، قبائل طورانية وتركية ، وراء جيحُون) ، وعاد فى سنة ٤٩٩ مع جيش منهم ، فخلع أخاه ، واستعاد عرشه .

وتحكى (الشاهنامة جـ ٢ ص ١١٨) عن علاقته بمزدك ، فتقول :

اتصل بقباذ رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ، ذو رأى وعقل ، يسمى مزدك ، فقبله قباذ ، وأقبل عليه ، حتى اتخذه دستوراً وخازنا ، فاتفق أن أصاب الناس فى ذلك العهد لَزْبة شديدة ، احتبس فيها القطر ، وهلك الزرع ، فاجتمع أكابر إيران على باب قباذ ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات ، فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ، ويحقق طلبتكم ، ودخل على الملك وقال : إنى سائلك عن مسألة ، فأجبنى عنها ، فقال : هاتها ، قال : ماذا تقول فى رجل معه جملة من الترياق المجرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية ، وهو على شرف الموت ، وصاحب الترياق يمنعه عنه ، ويضن به عليه ، ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك : إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللديغ ، وينبغى أن يقتل به ، فقام مزدك وخرج ، وقال للمتظلمين : إنى فاوضت الملك فى أمركم ، فانصرفوا الآن ، وعاودوا الدركاء غداً ، فانصرفوا وعادوا بكرة ، فدخل مزدك على الملك ، ودعا له ، وأثنى عليه ، ثم قال : لقد أجبتنى أمس عن مسألتى ، وأريد الآن أن تُجيبَنى على مسألة أخرى ، فقال : سل ، قال مزدك : ماذا تقول فى من حبس رَجلاً ، وقيدّه ، ومنعه الطعام والشراب ، حتى مات ؟ قال : هذا المسكين متقلدُ دم يسفكه ، فخرج مزدك ، وقال لمن حضر بالباب من المتظلمين : إن الملك قد أباحكم ما فى الأهراء من الغلات ، فابسطوا أيديكم ، وأينما وجدتم منها شيئًا فاستبيحوه ، ففعلوا ذلك ، وطنّت المدينة ، وماجت بالعامة الذين أخرجتهم المجاعة ، وانتهت غلات الملك وغيره .

وبلغ الملك ماحدث ، وأن مزدك هو الذى رخص فى ذلك ، فاسحضره ، وسأله عما حمله على ذلك ، فقال : إن الجائع هو اللديغ ، والطعام هو الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق ، إذا لم يتدارك حشاشة اللديغ المشرف على الموت ، وقد رأيت الناس يموتون جوعًا ، ولاخير عند أرباب الغلات المدّخرة ، فأبحتهم إياها ، على مقتضى حكم الملك وقوله ، فسكت قباذ .

استعلى أمر مزدك ، وطالت ذراعه ، واتسع باعه ، وكثرت أشياعه وأتباعه ، وخالف الأنبياء فى مللهم ، وباين العلماء فى طرقهم ، وكان يقول : ينبغى أن تكون أمور العالم على السواء ، ولايقع تفاوت فى نعم اللّه بين الأغنياء والفقراء ، ويكون الغنى كالسَّدى ، والفقير كاللُّحمة ، فشرع مذهب الإباحة على هذه الصفة ، ولم يزل أمره يقوى إلى أن آمن به قباذ ، ودخل فى دينه ، وشاع هذا المذهب فى أطراف الدنيا ، وصار بحيث لايتجاسر أحد على مخالفته .

واتفق أن دخل على الملك ، وقال له : إن على الباب جماعة من أهل ديننا ، ومتبّعى ملتنا ، فأذن لهم قباذ فى الدخول ، فقال مزدك : إن هذا المكان ضيق لايسعهم ، فإن رأى الملك خرج لأجلهم إلى الصحراء ، فأمر بإخراج تخته إلى الصحراء ، وخرج ، فاجتمع عليه نحو مائة ألف نفس من المزدكية ، فقال مزدك لقباذ : اعلم أن ابنك كسرى ليس على ديننا ، ولاينبغى أن يخالف مذهب الحق ، والرأى أن نأخذ خطه بمتابعتنا ، وترك ماهو عليه من الضلالة والجهالة ، ثم قال : والذى يمنع الناس عن سلوك طريق السداد منحصر فى خمسة أشياء لاغير ، وهى الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر ، وإذا قمعت هذه الأخلاق الشيطانية استقام لك طريق الحق ، ومنشؤها كلها من شيئين : المال والنساء ، فينبغى أن يجعلا على الإباحة من الخلق أجمعين ، حتى نأمن من الآفات الخمس ، فأمر قباذ ابنه كسرى بالدخول فى دينه ، فاستمهله خمسة أشهر ، على أنه إذا لم يظهر بطلان دينه فى هذه المدة يدين معه ، فرضى منه قباذ ذلك ، وتفرق الناس عن ذلك المجمع ، فنفَّذ كسرى كتبه إلى بلاد فارس يستدعى العلماء ، فجاءه موبذ من أرض أردشيرخُرّه ، يسمى مِهرادز ، فى

ثلاثين موبذا ، وتفاوضوا عند كسرى فى حديث مزدك ، وما جاء به من الملة المدخولة ، فكثرت بينهم المباحث والمناظرات ، حتى اتضح لهم بطلان دينه ، وتقرر بينهم إدحاض حجته ، وأوضحوا ذلك لكسرى ، فدخل على أبيه ، وقال : إن ظهرت حقيقة دين مزدك ، وبطلان دين زارادشت تبعتك ، وإن ظهر بطلانه ينبغى لك أن تتبرأ منه ، وتمكننى منه ومن أتباعه ، حتى أرى فيهم رأيى ، وأنفذ فيهم حكمى ، فوافقه قباذ على ذلك ، فأشهد به على نفسه زرمهر وجميع من حضر من العلماء والموابذة ، فقام كسرى إلى إيوانه ، ولما أصبح ركب ومعه الموابذة ، ودخل على أبيه قباذ ، وحضر مزدك ، واحتفلوا للمناظرة ، فتصدى موبذ ، وقال : أيها الرجل ، قد أتيت بدين جديد ، أبحت فيه النساء والأموال ، ويلزم من ذلك ألا يعرف الوالد ولده ، ولا الولد والده ، وإذا مات الإنسان لايدرى من يرث طارفه وتليده ، وإذا اختلط الناس فمن أين يعرف الكبير من الصغير والوضيع من الشريف ؟ وإذا استووا فمن يتعين للرياسة ويترشح للسياسة ؟

وأخذوا فى المناظرة والمباحثة حتى انقطع مزدك ، وظهر لقباذ أنه عن حلية الدين عاطل ، وأن كلامه باطل ، ليس وراءه طائل ، فرجع عن دينه ، وندم على تقديمه ، فسَلّمه إلى كسرى ، وسلطه عليه وعلى أصحابه ، وقال له : إن على الباب ثلاثة آلاف نفس من رؤساء المزدكية ، فنكّل بهم أولاً ، ثم افعل ماشئت بمزدك ثانيًا ، فقبض كسرى عليهم أجمعين ، وطمرت رؤوسهم إلى خصورهم فى التراب ، وتركت أرجلهم منتصبة بادية للأبصار ، كأنهم غرسوا غرس الأشجار ، ثم استحضر مزدك ، وقال له : ادخل إلى البستان ، وانظر فيه إلى شجر لم ير مثله ذو بصر ، فدخل البستان ولما شاهد ذلك غُشى عليه ، فأمر به فصلب ، ورشق بالسهام حتى مات ، بل نفق ، وتبدد شمل دينه بعدما اتسق .[1]

---

(١) هناك من يزعم أن مزدك طلب من قباذ أن يبعث بامرأته ليتمتع بها المزدكيون ، فكان هذا سبب القضاء عليهم – الديانات القديمة ص ١٢٤ – وهو قول لاينبغى الوقوف عنده .

الهــــند

مــــن قبـــــل

القول بأن العالم صار قرية كبيرة ، بسبب من سرعة الاتصال ، وتبادل المعلومات ، لايعنى أن العالم القديم كان جزراً معزولة ، ذلك لأن ماتفرضه الحياة المعيشية كان من أقوى الدواعى إلى الهجرات الجماعية ، وقد كانت فى الغالب هجرات استيطانية ، ماطاب العيش ، أو ما كانت الغلبة ، وتبع هذه الهجرات تبادل الثقافات ، وتمازج الحضارات ، وتناسخ المعالم والسمات .

ولأن هذه الهجرات الاستيطانية ضاربة فى القدم ، غير مقتصرة على أرض دون أرض ، أو على قبيل دون قبيل - فإن الحديث عن الحدود المكانية لايعنى أكثر من خطوط عامة لاتمثل سدوداً وموانع صارمة ، مهما كانت جبالاً شامخة ، وبحاراً عميقة ، وغابات كثيفة .

فإذا وضعنا فى الاعتبار طموحات بعض الملوك فى مد سلطان بلاده إلى بلاد مجاورة ، فقد أصبحت هذه الحدود أقرب إلى مجرد صُوى على الطريق قابلة للإزالة ، أو لإعادة التخطيط .

من هنا يكون وقوفنا على حدود الهند من الشمال عند سلسلة جبال الهملايا ، ومن الغرب عند جبال الهندكوش وسليمان ، حيث تقع أفغانستان وإيران ، وتمتد إلى الجنوب فى شبه جزيرة يقع بحر العرب فى غربها ، وخليج البنغال فى شرقها وسيلان فى طرفها الجنوبى ، ويتجه الإقليم الشمالى منها إلى الشرق ، حتى جبال آسام .

وفى الهند أنهار عظيمة ، بعضها ينبع من الشمال ، حيث الهملايا ، ويصب

فى بحر العرب ، مثل نهر السند ، أو نهر الإندوس ، وفى مجراه الأعلى تمده روافد ، لاسيما التى تجرى فى البنجاب ، أخصب بلاد الهند ، وأكثرها عمرانًا ، وبعض الروافد ينبع من كشمير ، ويعتبر نهر السند من أطول أنهار الدنيا ، إذ يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ ك . م ، ومنها نهر (الكنج) ، وهو النهر المقدس لدى الهندوس الذين يغتسلون فى مياهه ، ليتطهروا من ذنوبهم ، ويتدفق من جبال الهملايا ، من ارتفاع أربعة آلاف متر ، ويعد الصعود إلى هذا المكان من أعظم القربات عند الهندوس ، ومنها نهر (جمنا) ، وهو ينبع من الهملايا أيضًا ، ونهر (براهما پترا) الذى يأتى من الشمال الشرقى ، حيث جبال الهملايا وآسام ، ويجرى فى البنغال .

وثمة أنهار أخرى فى الوسط والجنوب تصب فى خليج البنغال ، أو فى بحر العرب - تاريخ الإسلام فى الهند ص ٢ / ٦ .

وماعدا هذه الأنهار فإن البلاد غنية بالأمطار والمياه الجوفية ، مما يساعد - مع سعتها ، وكثرة سكانها ، وتنوع تضاريسها - على تكوين حضارى غنى بمعارفه وعقائده وإنجازاته المادية والروحية .

وقد نشأت حضارة وادى السند فى الألف الثالث قبل الميلاد ، على وجه التقريب ، وبحلول الألف الثانى قبل الميلاد احتلت مساحة تقدر بنحو ثلث مساحة الهند ، حيث امتدت شمالاً إلى جبال الهملايا ، وجنوبًا إلى مشارف بومباى ، تقريبًا ، ومن الساحل الغربى باتجاه الشرق إلى دلهى .

وتكشف مدينة موهنجودارو جانبًا من تراثها ، فقد بلغ سكان هذه المدينة عام ٢٠٠٠ ق . م نحو أربعين ألف نسمة ، وقد صممت شوارعها المرصوفة بالأحجار ، وفق تخطيط مركزى على شكل شبكة مستطيلة ، وشكلت مناطق إنتاج القمح الوفيرة مستودعًا مناسبًا لطعام الناس والماشية ، وكان ثمة أنظمة خاصة بالمياه الجوفية المزودة بالألواح الخزفية ، وأنظمة صرفها ، تمثل إنجازًا هندسيًا رائعًا ، كما تمثل كفاءة التخطيط والإدارة ، وتحقُّق تنظيم اجتماعى وسياسى على مستوى عال .

ومن الطبيعى افتراض أن الجوانب المادية المتطورة فى حضارة السند ، كانت تجد مايعادلها فى نسق متطور من الفكر الاجتماعى والدينى ، كما كانت تجد مايعادلها أو قريبًا منها فى أنحاء أخرى من الهند ، وبخاصة فى البنغال شرقًا ، وفى الجنوب الذى كان ملتقى قديمًا لحضارة جنوبى الجزيرة العربية ، ولجميع البلدان والجزر المطلة على الخلجان الممتدة من المحيط الهادى والهندى .

وتشير الدلائل المادية التى عثر عليها فى مئات المواقع إلى أن الدين قد قام بدور كبير فى هذه الثقافة . . كانت لأصغر البلدان والقرى مبان لإقامة الطقوس ، كما عثر على أقنعة حديدية تشير إلى وجود كهنوت ، كما تشير التماثيل الأنثوية الصغيرة التى تؤكد أهمية الحمل والرضاعة إلى عبادة آلهة آمرة ، كما تشير تماثيل الثيران وحيوانات ذكورية أخرى إلى اهتمام بالخصوبة ، وتشير تسهيلات الاستحمام المتطورة إلى العناية بالتطهر الدينى ، وتشير أشكال اليوجا الموجودة على الأختام إلى جذور هذه الحضارة المبكرة ، وتؤيد الافتراض القائل بأن الثقافة الدينية هى مزيج من الثقافتين الهندية والآرية – الفكر الشرقى القديم ص ٤٥ / ٤٦ .

ويضيف صاحب (الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ٩ / ١٠) أن الحفائر الحديثة فى السنوات الأخيرة كشفت عن مدينتين كبيرتين – فى وادى الإندوس (الباكستان) منذ حوالى ٢٥٠٠ ق . م – هما (هارابا) و (موهنجودارو) ، ومحيط كل منهما حوالى خمسة كيلو مترات ، تخترقها الشوارع والساحات المربعة ، وبها نظام دقيق لتوزيع المياه ، وتصريف المجارى ، وحمامات عمومية ، وتحصينات محكمة ، ومنازلها ذات طابقين بالطوب المحروق الذى لم يُبله الزمن ، وتتوسطها أفنية متسعة كطراز حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد كشفت شعوب حوض نهر الإندوس عن كثير من المهارات الفنية المتقدمة فى نسيج القطن ، وصَهْر وطَرْق النحاس والبرونز .

ومن الواضح أن مدينتى (هاربا) و (موهنجودارو) كانتا عاصمتين لدولة ذات نظام سياسى متقدم ، دام مايقرب من تسعمائة عام ، وهى أطول حقبة متصلة فى تاريخ الإمبراطوريات الهندية المتتالية .

* ثم قدم الآريون ليغَذّوا (الشعوب) الهندية بدماء جديدة ، وبأفكار جديدة .

كان الآريون ينتمون إلى شعوب أوربية ، وهم قبائل من المحاربين ، يرتحلون بقطعانهم من الأبقار والضأن إلى الجنوب ، تحت وطأة الجليد والجفاف ، ويقاتلون فوق عربات تجرها الجياد ، فإذا طاب لهم العيش أقاموا ، ونسجوا علاقات مع الشعوب التى ينزلون بها ، وإلا واصلوا مسيرتهم ، أو عادوا من حيث أتوا ، بعد أن يذوب الجليد ، ويشرق وجه الشمس بالنبات .

كانت لُغَتهم السنسكريتية المرتبطة باللغات اللاتينية والجرمانية والسلافية ، وبها صُنِّفَت مؤلفات دينية وفيرة ، كانت تنتقل شفاها لعدة قرون ، قبل أن تأخذ صيغتها المكتوبة .

وقد أهمل الآريون عبادة الإخصاب التى كانت تتميز بها حضارة الإندوس ، إذ كانت دياناتهم تدور حول عبادة القوى الطبيعية العظمى .

وبفضل أناشيدهم الدينية نشأت (الڤيدا) التى صيغت بين ١٥٠٠ ق.م و ١٠٠٠م ، وأحدثت تطوراً كبيراً فى الفكر الهندى ، وفى العاطفة الدينية التى تستشعرها النزعة التأملية الهندوكية .

وكان أن صارت السنسكرتيية لغة الفكر الدينى الهندوكى ، مضافة إلى ٢٤٠ لغة ، ونحو ٣٠٠ لهجة ، ماعدا الفارسية والبهلوية والصينية ، ثم الإنجليزية والأوردية .

واحتفظت السنسكرتيية – دون غيرها من اللغات الهندية – بتلاوة الطقوس والترانيم فى المعابد الهندوكية ، لأنها لغة الكتب المقدسة التى لايعرفها إلا قلة من البراهمة ، فصارت مثل القبطية فى الكنائس المصرية ، واللاتينية فى الكنائس الكاثوليكية ، والآرامية فى بعض المعابد اليهودية .

كما أصبحت الأوردية لغة رسمية للباكستان ، وإن طغت عليها الإنجليزية .

وهذا التنوع اللغوى أكسب الهند خصوبة فكرية ، وتنوعًا فى الموارد الثقافية ، كما يسر عليها الاتصال بالحضارات المحيطة .

ينقل الدكتور النمر (تاريخ الإسلام فى الهند ص ١٩) عن الأستاذ بوذا بركاش سنة ١٩٥٠ أن الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزو الإسكندر ، عن طريق فارس ، إذ كانت الأقاليم الغربية لنهر السند تكوّن جزءًا من الإمبراطورية الفارسية فى عهد دارا ، ثم فى عهد ابنه ، كما اشترك الهنود فى الجيش الذى قاده ابن دارا إلى اليونان .

(ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الإغريق والهنود على التفات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الإغريقى إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التى سمعها فى البلاط الفارسى ، فقد شرع الهنود يهتمون بالإغريق) .

ويحدثنا أرسطو عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاورة سقراط ومناقشته فى المشاكل الفلسفية التى يعالجها المفكر اليونانى . . وقد اتسعت هذه الصلة بعد غزو الإسكندر .

وهناك دلائل تثبت أن (تشاندرا جويتامورا) ، أحد ملوك الهند ، زوج ابنته من الإسكندر الأكبر توددًا وتحالفا ، ويقال إن سلوكس الذى خلف الإسكندر على سوريا ، زوج ابنته من (تشاندرا جويتامورا) طمعًا فى مساعدته وعونه .

* وفى أواخر القرن الخامس الميلادى غزت الهند قبائل من (الهون) ، ولكن بعد فترة من عدم الاستقرار ظهر الملك العظيم (هارشا) ، وأعاد لهذه الإمبراطورية مجدها السالف ، خلال حكمه الطويل (٦٠٦ - ٦٤٧م) ، وبوفاته تعاقبت على الهند من جديد موجات من هجرات شعوب مختلفة ، ومنازعات بين الممالك المتنافسة فى أراضيها .

ويعّد عصر (الجوبتا) وامتداده تحت حكم الملك (هارشا) العصر الذهبى فى تاريخ الهند القديم ، وقد تميز بازدهار الفنون والآداب والعلوم ، وشبهه المؤرخون بعصر النهضة الإيطالية .

وفى هذا العصر اخترع مجهول هندى علامات مكتوبة ترمز إلى الصفر ،

وإلى الأرقام من (١ - ٩) ، وهى نفس العلامات التى نقلها العرب فيما بعد إلى الغرب ، كما كان الجراحون الهنود يُجرون عمليات التجميل على الوجوه المشوهة .

* هذه هى البلاد التى زعم هـ.ج. ويلز - معالم التاريخ الإنسانية مج٢ ص٤٧٢ - (أنها لم تقم بها حياة بحرية ، ولا أغار عليها مغيرون من القراصنة ، ولاتجار غرباء ، فإن المرء يستطيع أن يسطر تاريخًا كاملاً للهند يصل إلى ماقبل يومنا هذا بأربعمائة عام ، ولايكاد يذكر شيئًا عن البحر) .

وفاته أن العلاقات بين كل من الهند والصين والدولة الإسلامية - فى عهدى عمر وعثمان - تمت عن طريق البحر والبر ، كما أنه كان للتجار العرب - من حضرموت وعمان - أسواق تجارية ومواطن إقامة فى كل من كلكتا وساحل ماليبار بالهند ، وكانتون وماكاو بالصين ، ثم هل يمكن عزل الهند عن جزر المحيط الهندى وخلجانه ؟!

القيدا ..

قلنا إن الغزو الآرى حمل معه أناشيد دينية ، أطلق عليها لفظ (القيدا) أى المعرفة ، ولاريب فى أن الهنود لم يكونوا بدون (قيدا) ، حتى أتى هؤلاء الآريون (الرحّل) ، فالحضارة بنت الاستقرار ، والاستقرار يكون مع الزراعة ، والزراعة تنشأ فى أودية الأنهار ، وما أكثر أنهار الهند ، وما أوسع أوديتها .

لهذا يُرجع بعضهم (القيدا) إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، أو إلى أبعد من ذلك ، فمن غير المعقول أن تظل الحضارة الهندية بدون زاد دينى حتى يأتيها الآريون بأناشيدهم . . ولا شك فى أن كثرة الترحل لا تعين على عمق التأمل ، والطمع - دون وازع - فيما يملك الآخرون ، والجرأة فى سفك الدماء ، ونهب المال والغلال - لايمكن أن يكون سبيلاً إلى تأصيل الفكر الدينى ، وإن كان ثمة مكتسبات عقائدية - خلال الترحل - فهى لاتعدو أن تكون أصداء روحية تَنْضَحُ بها ترانيم العشيات ، حين يضرب الجفاف والتوّق صدور المحصورين بين شقوق الأرض ، ورعود السماء ، وهتافات الغيلان والسعالى .

ولعل أهم ما أضافه الآريون إلى القيدا ذكريات المعاناة الطويلة ، خلال ترحل لا يتوقف ، وقتال لاينتهى ، وصراع مع الحياة والموت ، ومع الأحياء والأموات ، على السواء ، بل هو صراع مع الأرواح والأشباح ، ومع النور والظلام ، ثم هو صراع بين الإخوة فى الأرض الجديدة (شمالى الهند) . . ولعل هذا الصراع الأخوى كان عامل صهر للأخلاط والأوشاب الإنسانية التى لحقت بهذه القوافل المهاجرة ، لتصنع منها الكيان القادر على السيطرة فى أرض الاستقرار ، ولتساعد على امتزاج الفكر الحضارى بترانيم الغزاة فى تراث إنسانى

طبعه (الزمن) بطابع القداسة ، بالرغم من غلبة الأسطورة ، وانبساط الخيال ، ودغدغة المشاعر الدنيا .

وقد وصل إلينا هذا التراث - كما ذكر صاحب (القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٨) - فى أربعة أسفار ضخمة ، أقدمها رج ڤيدا Rig Veda ، أى معرفة الترانيم ، ويقال إنه ألف قبل ميلاد المسيح بأكثر من ألف وخمسمائة عام ، وقد يرجع بعضهم بتأليفه إلى ٣٠٠٠ ق . م ، وهو الذى يصف الحياة الاجتماعية الأولى لطائفة الآريين الهنود ، وحياتهم البدوية ، وآرائهم البسيطة فى اللّه ، وفى الكون والإنسان . . وثانيها ياجور ڤيدا Yagur Veda ، أي معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين ، وهو يصور الحياة المتطورة للآريين ، بعد نضوجهم الفكرى ، وبعد أن حدثت تغيرات شتى فى حياتهم البسيطة . . وثالثها ساما ڤيدا Sama Veda ، أي معرفة الأنغام ، وقد ألف لأداء المراسيم الدينية ، وفيه نجد أغانى كثيرة تؤدى بنغمات مختلفة ، كذلك نجد فيه إشارات إلى أهمية الرقص ، ورابعها أثرا ڤيدا Athra Veda ، أى معرفة الرقى السحرية ، وفيه نلمس بين الحين والحين العناصر اللازمة للمسرحية ، مثل الغناء والموسيقى والرقص .

وهذه الأسفار تحوى طائفة كبيرة من الأساطير والأغانى والترانيم ، حملها آريو الهند من موطنهم الأول ، وأضافوا إليها ذكريات الحروب التى خاضوها مع سكان البلاد لبناء الوطن الجديد .

واكتسبت الڤيدا بتقادم العهد قداسة عند الهنود ، فصاروا يعتقدون أنها وحى منزل من السماء ، وتبناها البراهمة ، وآلوا على أنفسهم صيانتها وسدانتها .

وقد سلمت أسفار الڤيدا الأربعة من الأحداث التى أوردت بالجزء الأكبر من الأبستاق فيما بعد ، ولكنها بمرور الأيام أصابها ما أصاب هذه من الغموض ، واستعصى فهمها على الأجيال المتأخرة ، فحررت الشروح على المتن ، واتسعت دائرتها ، وتعددت وتباينت ، فجمعها البراهمة فى كتاب أسموه (براهمانًا) ، أى قواعد الطقوس والدعاء والرقى ، ثم ذيلوه عام ٥٠٠ ق . م باليوبانشاد ، أى المحاورات السرية ، وهو كتاب يتضمن تأملات لاهوتية سادت ذلك العصر ، وفيه نزعات صوفية ترمى إلى طهارة القلب وصفاء النفس والتحرر من قيود

العالم المادى ، عن طريق المعرفة ، ومع كونه ناسخًا لشعائر (البراهمانًا) يلحق به ، ويعتبر متممًا له ، وهو إلى جانب هذا ذخيرة ثمينة من الشعر والقصص .

* وفى الڤيدا تتعدد الآلهة ، وتتنوع اختصاصاتها وأعمالها ، ولكن هذا التعدد يرتقى فى (اليوبانشاد) إلى نزعه توحيدية واضحة ، تصل إلى ذروتها فى سفر (الڤيدانتا Vedanta) ، أى خاتمة الڤيدا ، وفى هذا الكتاب تتبلور فكرة التوحيد فى أن اللّه والنفس الإنسانية شئ واحد .

وقد لخص چوستاف لوبون المعتقدات الواردة فى هذه الكتب ، كما يأتى :

١ - عبادة القوى الطبيعية . ٢- تشخيص هذه القوى بأسماء الآلهة . ٣- اعتقاد خلود الروح (على أساس التناسخ) . ٤- عبادة الأجداد . ٥- الميل إلى إخضاع الناس والطبيعة والآلهة لإله واحد أقوى منها ، وهو الإله إندرا Indra . ٦- تنحصر حقيقة الدين فى تناول القرابين ، وتقديم الفواكه ، باليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

ويقول : (إنك لاتبصر حضارة تساوت هى وحضارتهم فى النشوء ، فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى ، وإنك إذا قارنت بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مثل دورًا كبيرًا فى العالم وجدت ذلك أعلى من هذا ، ففى تاريخ بنى إسرائيل ترى مالا ترى له أثرًا فى كتب الآريين من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخرافية الضارية) - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٢٦ .

وفى المرحلة الڤيدية التى تمتد من ١٥٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م تم تأليف رسائل عن العدالة والاستقامة الأخلاقية - نصوص الدارماشاسترا - وقد دارت هذه الرسائل فى الدرجة الأولى حول تنظيم حياة الفرد والمجتمع ، على أساس من قواعد محددة للسلوك .

وفى المرحلة الملحمية (٨٠٠ ق . م - ٢٠٠ م) ظهرت المهابهارتا ، وهى ملحمة طويلة (تضم ترجمتها الإنجليزية ثلاثة عشر مجلدًا) ، تحكى غزو أرض الهند ، وتقدم تعليمات بشأن القواعد المختلفة للحياة ، وتقوم مرشدًا لأبعاد

الحياة كافة ، بما فى ذلك الدين والفلسفة والاجتماع والسياسة والطب أيضًا .

كما ظهرت الراميانا ، قصيدة فى أربعة مجلدات ، تقدم المثل الأعلى للأنوثة والرجولة مجسدة فى شخص (ستيا) وزوجها (راما) ، وحياتهما ، وتشير إلى نظام مثالى للمجتمع بأسره ، وإلى تنظيم مثالى لحياة الفرد - الفكر الشرقى القديم ص ٣٨ / ٣٩ .

آلهــــة الڤـــيدا ..

تحدثنا الڤيدا أن إنشاد أشعارها والتغنى بها يمكّن الخلق جميعًا من المشاركة فى حكمة الواقع الإلهى ، ذلك أنها موجهة إلى الآلهة والآلهات ، ووظيفتها تأدية الطقوس ، وتقديم رؤى عميقة ودقيقة للواقع .

إن آلهة الڤيدا تمثل القوى التى تخلق الحياة وتدمرها ، وتسيطر على فيض الوجود وغَيّضه ، فكلمة آجنى Agni تعنى النار ، والإله آجنى رمز لقوة النار الرهيبة التى تدمر المنازل والغابات ، وتقتل البشر والحيوان ، لكنها تحت السيطرة تنضج اللحوم والخضراوات ، وتزودنا بالطاقة الضرورية للحياة ، ومن ثم كان آجنى رمز التضحية وتجدد الحياة .

ويأتى إندرا Indra الأكثر شبهًا بالبشر بين آلهة الڤيدا ، ليكون سيد الصاعقة ، يهزم الأعداء ، ويحمى شعبه ، ويسيطر على قوى العماء والظلمة الكونية ، وبهذا يكون رمز القوة والشجاعة ،

أما ڤاك Vac إلهة الاتصال ، فهى على هيئة سيدة جميلة تتحلى بالوعى المتألق والكلمات الجميلة .

وعلى الرغم من أن الآلهة الڤيدية ترمز لقوى الوجود ، فإنه لاينظر إليها على أنها خالقة الوجود ، لأن العقل ومادة الكون ينظر إليهما على أنهما متضمنان فى الوجود ذاته ، ولافصل بينهما - الفكر الشرقى القديم ص٤٧ / ٤٨ .

جاء فى (قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٣١ / ٣٤) أن آلهة الڤيدا تتمثل فى

قوى الطبيعة : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والريح والماء والجنس .

السماء أب ، ويسمى (ڤارونا) ، والأرض أم ، وتسمى (پريثيقى) ، والنبات ثمرة التقائهما بواسطة المطر ، والمطر هو الإله (بارجانيا) ، والنار (آجنى) ، والريح (ڤايو) ، وإن كانت الريح مهلكة فهى (رودرا) ، والعاصفة (إندرا) ، والفجْر (أوشاس) ، ومجرى المحراث فى الحقل (سيتا) ، والشمس (سوديا) أو (مترا) أو (ڤشنو) ، والنبات المقدس (سوما) ، وكان عصيره مقدسًا ومسكرًا للآلهة ، والناس جميعًا ، كما هو حال (هَوْما) عند الفرس .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة هى : أىّ هؤلاء خلق العالم ؟ هل هو آجنى ؟ أو إندرا ؟ أو سوما ؟ أو (براچاپاتى) ؟ وفى أحد أسفار (يوبانشاد) يُعْزَى خلق العالم إلى خالق أول قهار :

(حقًا إنه لم يشعر بالسرور ، فواحد وحده لايشعر بالسرور ، فتطلّب ثانيًا ، كان فى الحق كبير الحجم ، حتى ليعدل جسمه رجلاً وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة . . . وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ، وضاجع زوجته ، وبهذا أنسل البشر ، وسألت الزوجة نفسها قائلة : كيف استطاع مضاجعتى بعد أن أخرجنى من نفسه ؟ فلأختف ، واختفت فى صورة البقرة ، فانقلب هو ثورًا ، وزاوجها ، وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ، فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت حمارة ، فصار حمارًا ، وزاوجها ، فولدت ذوات الأظلاف ، وانقلبت عنزًا ، فانقلب تَيْسا ، وانقلبت نعجة ، فانقلب كبشًا ، وزواجها ، فولدت الماعز والخراف ، وهكذا كان حقًا خالق كل شئ ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ فى التدرج أسفله ، إلى حيث النمال ، وقد أدرك هو حقيقة الأمر ، قائلاً : « حقًا ، إنى أنا هذا الخلق نفسه ، لأنى أخرجته من نفسى ») .

فى هذه الفقرة الفريدة نلمس بذرة وحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ، فالخالق شئ واحد ، وكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى . .

يقول سفر (كاثا) من أسفار (يوبانشاد) : (يفنى الفانى كما تفنى الغلال ، ويعود إلى الحياة فى ولادة جديدة ، كما تعود الغلال) .

ومع هذا ، فإن هذه العبارات قد لا تتجاوز تأملات من يجلس على شاطئ بحر من الرمال الناعمة ، لا هو بقادر على أن يحفظ توازنه ويعود من حيث أتى ، ولا هو بقادر على أن يسير خطوة إلى الأمام ، مع أنه لايعلم من أمر هذه الرمال ، فقط هى هواجس ، تحسب له ، وقد تحسب عليه ، لا هو راض عنها ، ولا هو ضائق بها ، إنه يفكر فقط ، أما عن صحة مايفكر فيه ، أو عن خطئه ، فهذا أمر آخر ، بدليل أنا نجد نصًّا آخر - فى الرج فيدا - يتحدث عن بداية الخلق ، فإذا المياه الكونية محتبسة أصلاً فى محارة ، لكن الإله الخالق (تفاستر) خلق السماء والأرض اللتين أنجبتا بدورهما إندرا ، ولما شرب إندرا السوما قوى ، وفصل بين السماء والأرض ، وملأ بنفسه الفضاء بينهما ، حيث شق كذلك الغطاء الذى تقع بداخله المياه الكونية ، بحيث ينبثق خارجه - أساطير العالم القديم ص ٣٤٢ .

ومع أن هذا التصور يمسك بشئ من (الفكر الحضارى المشترك) الذى قد يكون له جذر سماوى ، فإن هذا الشئ تغيم معالمه حتى يدخل فى إطار (الرمال الناعمة) كذلك .

وثمة ترنيمة أوردها صاحب (الفكر الشرقى القديم ص ٤٦ / ٥٠) تقول :

(١- فى البدء لم يكن هناك وجود ولاعدم / لا وجود للعالم ، ولا للسماء فيما وراءه / ما الذى أسدل الستار عليه ؟ أين ؟ من الذى منحه الحماية ؟ / أكان هناك ماء عميق لايسبر له غور ؟

٢- آنذاك لم يكن هناك موت ولاخلود / وما من أثر لليل أو نهار / لم يكن هناك سوى الواحد الذى يتنفس دونما نفس ، بدافع من ذاته .

٣- فى ذلك الواحد الذى حجبه الخفاء / كُشف النقاب عنه من خلال قوة الحرارة - الطاقة .

٤- فى البدء كان الحب / الذى كان البذرة الأولى للعقل .

٥- من الذى يعرف حقًّا ؟ من ذا الذى يمكنه أن يقول هنا ؟ / متى ولد هذا الخلق ؟

ومن أين جاء ؟ لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم / فمن ذا الذى يعرف من أين جاء ؟) .

إنها ترنيمة أقرب إلى الفكر الفلسفى ، ولعلها من صناعة زمان متأخر ، بعد أن خرج الفكر الهندى من صَدفة الأسطورة الغائمة إلى الشعور بالعجز الميتافيزيقى ، وهذا الشعور يمثل نوعًا من النُّضْج الذى يعترف بحاجز الغيب وعدم القدرة على تخطيه .

* وفى كتب (بيورانا) - القصص القديمة - وفى أمثالها من تراث الهند فى عصورها الوسطى ، نقرأ نظرية عن الكون ، هى بعَيْنها النظرية التى تشيع فى العصر الحديث ، بأنه ليس هناك تكوُّن بعد عدم ، إنَما هو كون يعقبه فناء الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ، كهذا الذى تراه فى كل نبات وفى كل حيوان ، ويظل يحفظ مراحل هذه (السيرة) ، فلا تقف دورتها .

ويقولون إن (براهما) هو القوة القادرة على فعل ذلك ، لكن كيف بدأ العالم ، إن كان للعالم بداية ؟

يقول ول ديورانت : يجوز أن يكون (براهما) - كما تذهب كتب (بيورانا) - قد جعل بداية العالم بيضة ، ثم احتضنها حتى أفرخت ، ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة ، أو لعبة رأى فيها قدراً من التسلية .

وحدث إبّان عصور طويلة أن تحولت ملايين الأنفس من نوع إلى نوع ، ومن جسم إلى جسم ، ومن حياة إلى حياة ، فى دورات من التناسخ لاتَفْتأ تتكرر .

ويهذا يكون الإنسان جزءًا من الطبيعة ، وليس مركزها أو سيدها .

وبعد رحلة طويلة من التناسخ والعقاب الدنيوى - من خلال هذا التناسخ - يجوز أن ترسل (الروح) ، بعد موت جسدها ، إلى الجحيم ، لتلقى عقابها على جرم اقترفته ، أو ترسل إلى الجنة لتنعم بجزاء سريع على فضيلة صنعتها ، لكن يستحيل على روح أن تقيم فى الجحيم ، وقليل من الأرواح هى التى يسمح لها بالإقامة فى الجنة إلى الأبد ، وذلك لأن الروح لابد لها من فترة

تقضيها فى الجنة أو الجحيم ، ثم تعود إلى الأرض من جديد ، لتنفّذ - فى دورة حياة جديدة - مايقضى به عليها (مارما) ، أى العمل .

ويعقّب ديورانت على هذا بقوله : كان هذا المذهب صادقًا من الوجهة البيولوچية إلى حد كبير ، فلا ريب فى أننا حقًا تجسُّد لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فنتجسد من جديد فى أبنائنا ، وعيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما ، ولو أنها لاتهبط بالمقدار الذى يفرضه الجامدون الخيرون ، حتى ولو بعد أجيال كثيرة - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٢١٦ .

قد يكون (السلم الوراثى) ما اعتمد عليه تعليق ديورانت ، لكن السلم الوراثى - بيولوچيا - لايتسع لأى صورة من صور التناسخ ، إذ يقوم التناسخ على تجديد ملابس الروح ، أو تجسيدها ، لاَ أنّ الروح ذاتها هى التى تتجدد ، ثم إن الروح الواحدة لاتتقمص غير جسد واحد ، فكيف بمن أنجب عدة أبناء !! مهما يكن من شئ ، فالتشابه الملاحظ فى الأجيال قد يتدخل فيه أكثر من عامل ، بحيث يجتمع الخير والشر فى النطفة الواحدة ، كما هو الشأن فى بعض التوائم ، فقد يخرج دكتور چيكل ومستر هايد من رحم واحد ، وقد يتميز الأسرع بالخروج ببعض الفضائل ، والتوراة نفسها تتحدث عن عيسو ويعقوب ، وكل منهما يتمتع بصفات غير صفات الآخر ، بل إن الشخص الواحد قد تعتريه حالات متناقضة ، يحار فيها علماء النفس والاجتماع ، وقد تجد شعبًا بكامله ، أو قبيلة ذات بطون ، وأفخاذ ، تشترك فى صفات جسمية ونفسية .

وكل ما يمكن قوله عما ورد فى (البيورانا) أنها ملاحظات عامة ، على طريقة (العرق يمد لسابع جد) ، ثم صبت هذه الملاحظات فى قالب رمزى أسطورى ، يتلاءم مع الخيال الدينى الهندى ، المطبوع بطابع بيئة مضمخة بتوابل تصوف (الفقراء) الذين يدربون أجسامهم على تحمل أقسى الآلام ، وأعنف صور التعذيب ، وهذه التدريبات كثيراً ما تمد الروح ، أو تستمد طاقات روحية ، تزود العقل بإرهاصات أقرب إلى أن تكون (إلهامات) ، لا هى من العالم ، ولا هى غريبة عليه .

* جاء فى سفر (رج) - ترانيم الثناء - من (الڤيدا) ، مايفيد وحدانية اللّه ،

أو وجدانية القدرة الخالقة ، وذلك فى صورة شعرية راقية ، هى صورة من أناشيد أخناتون ، ومن بعدُ المزامير ، مما يوحى بأن صفاء النفس الإنسانية يستلهم حقيقة الألوهية ، وأن ماتجاوز هذه الحقيقة إنما هو من كدورة النفس وأخلاطها .

تقول ترنيمة (رج) : (« الواحد الأحد » لم يكن هناك سواه / كانت هناك ظلمة ، وكان كل شئ فى البداية تحت ستار / من ظلام عميق ، محيط بكل ضياء / والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء / برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور / ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ، وهو الينبوع الجديد / للعقل ، نعم ، إن الشعراء فى أعماقهم يدركون / - إذ هم يتأملون - هذه الرابطة بين ماخلق اللّٰه / وما لم يخلق ، فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض / تتخلل كل شئ ، وتشمل كل شئ ، أم جاءت من السماء ؟ / ثم بذرت الحبوب ، ونهضت جبابرة القوى / فالطبيعة فى أسفل ، والقوة والإرادة أعلى / من ذا يعلم السر الدفين ؟ من ذا أعلنه هاهنا ؟ / من أين ؟ من أين جاءت متأخرة فى مراحل الوجود ؟ / من ذا يعلم أنَّى جاء فى هذا الوجود ؟ / إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم/ سواء خلقه بإرادته ، أو صدر عنه وهو ساكن / إنه هو ربنا الأعلى فى السموات العلى) .

ويورد الأستاذ العقاد ترنيمة كان يتغنى بها النساك قبل (جوتاما) بمئات السنين ، تقول :

(حينذاك لم يكن ماوجد ، أو ما لم يوجد ، ولم يكن ماتثبته أو تنفيه .

لا أجواء ، ولا سماء وراء الأجواء .

وماذا عساها تنطوى عليه ؟ أين كانت ، وأين قرارها ؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار ؟

لم يكن موت ، فلم يكن خلود .

لم يكن مايموت ، فلم يكن ما ليس يموت .

ولم يكن ثمة نهار ولا ليل ، لم يكن إلا « الأحد » يتنفس حيث لا أنفاس ، ولا شئ سواه .

وكان البدء فى ظلام . عيلم بلا ضياء .

ومن البذرة فى تلك القشرة قام «الأحد» بحرارة الحياة .

وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدى ، وناجى الشعراء قلوبهم ، فتبينوا بالحكمة ماهو مما ليس هو ، فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك . . فماذا نظروا فوق « الأحد » ، وماذا نظروا دونه ؟ كل ماهنالك حملة لبذور ، قُوى ، قوة من أدنى ، ومشيئة من أعلى ، ولا أحد يدرى ، ولا من يعلم من أين جاء ما جاء ، فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك ، فمن إذن يعلم ماجرى ؟ أهو الذى حدثت منه الخليقة ؟ لعل الذى يعرفه « أحد » واحد فى أعلى عليين ، ولعله لايدرى كذلك) - اللّه ص ٦٦ .

والترنيمتان كلتاهما تتحدث عن فكر سماوى صنعت له أغلفة الزمان شرانق مالبثت أن انبثقت منها تجليات وتهويمات إنسانية ، ، وطموحات وتفسيرات أسطورية ، هى مزيج من الحلم البعيد والإشراقة الغائمة والسقوط فى مهاوى المعاناة الحياتية و الضغوط السياسية .

ولهذا يقول ماكس موللر الثقة الحُجَّة فى اللغات الآرية : (أيا كان العصر الذى تم فيه جمع الأناشيد المسطورة فى « الرج ڤيدا » ، فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون باللّه الأحد الذى لا هو بذكر ولا بأنثى ، ولا تحده أحوال التشخيص ، وقيود الطبيعة الإنسانية ، وارتفع شعراء الڤيدا فى الواقع إلى أوج فى إدراكهم لكنْه الربوبية ، لم يترقَّه إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق هذا لايزال أعلى وأرفع مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين) - اللّه ص ٦٤ .

وقد ذكر البيرونى أن اعتقاد الهند فى اللّه سبحانه أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر ، الحكيم ، الحى ، المحيى ، المدبر ، الباقى ، الفرد فى ملكوته ، لايشبه شيئًا ، ولا يشبهه شئ .

وقد رجع البيرونى فى هذا إلى حوار دوّنه كتاب (پاتنجل) :

قال السائل : من هذا المعبود الذى يُنال التوفيق بعبادته ؟

قال المجيب : هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تُؤمَّل أو تُرتَجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرئ عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً ، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت أو حال .

قال السائل : فهل له من الصفات غير ماذكرت ؟

قال المجيب : له العلو التام فى القدر لا المكان ، فإنه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل .

وهو إن غاب عن الحواس فلم تدركه ، عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته .

وأورد البيرونى عن باسديو ، بلسان اللّه : (إنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ، ومُنْتَهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ، ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ، فقد أعطيت كلاً من خلق حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة ، وتشبَّه فى إبعاد الطمع عن العمل ، انحلّ وثاقه ، وسهل عتاقه وخلاصه) .

ونقل البيرونى عن أحد الحكماء على لسان براهمن :

(إن اللّه هو الذى لا أول له ولا آخر ، لم يتولد عن شئ ، ولم يولّد شيئا إلا ما يمكن أن يقال إنه هو ، ولا يمكن أن يقال إنه غيره ، وهل يمكن إدراك معرفته حتى يبعد حق عبادته إلا بالاشتغال به عن الدنيا بالكلية ، وإدامة الفكر فيه) .

* قد يكون ماكس موللر مأخوذا بالشخصية الهندية ، وماتنسجه حولها الأساطير ، فضلاً عن واقع يعيشه (فقراء) الهنود ، و (نُسَّاكها) ، و (سحرتها) ، و (حواتها) ، بالإضافة إلى تلك العادات الغريبة والفنون المثيرة ، وبخاصة الموسيقى والرقص ، وتلك الطقوس التى تلف النفوس فى غلالات وهالات وألوان من العطور المتبلة ، والمجامر المضمخة بتكوينات من الأبخرة والأدخنة ، بحيث تشكل صوراً شتى من المصابيح السحرية التى تتحدث بها الأساطير .

أما ما أورده البيرونى فيحتمل خضوعه للفكر الإسلامى ، ذلك لأن الترجمة

تمر كثيراً بثقافة المترجم ، وتتداخل معها ، وبخاصة إذا كان المترجم متعاطفًا مع مايترجمه ، أو كان المترجم غير عليم برموز اللغة وإيحاءاتها .

وهذا ما جعل ول ديوارنت يقطع بأن الفكر الدينى (الهندى) - تبعًا للمناخ الاجتماعى والاقتصادى والطقسِى - كان أعمق وأوسع من أى فكر إنسانى فى مراحله الأولى .

ولعل ماتمتع به الهندى من صبر طويل على الحرمان ، وعلى تحمل ألوان من النكبات (الطبيعية) والإنسانية - كان أعون على (استنبات) المعرفة (الذاتية) ، أو كما يقول المتصوفة عن المعرفة (اللدنية) ، وإن كان المتصوّفة يعنون أنها من لدن اللّـه ، لكن ثمة عبارة صوفية أخرى تقول : (احفر فى قلبك تتفجر ينابيع المعرفة) ، بمعنى أن التأمل الطويل - إذا صادف صفاء واستشرافًا - حقق مايمكن أن يسمى (وحيًا) ، أو (إلهامًا) .

ولو أننا استثنينا ما خلفه لنا (بتاح حتب) ، الحكيم المصرى ، فى الأخلاق ، مع أنه شذرات . . ولو أننا تجاوزنا ملحمة جلجامش والنشاط القانونى البابلى - كانت أسفار (اليوبانشاد) أقدم أثر فلسفى ونفسى دوّنه إنسان .

إننا نجد فى هذه الأسفار مجهوداً دقيقًا دَءُوبًا مثيراً ، فى محاولة معرفة ماهية العقل ، وماهية العالم ، ومابينهما من علاقات .

(فكما تتلاشى الأنهار المتدفقة فى البحر ، وتفقد أسماءها وأشكالها ، كذلك الرجل الحكيم - إذا ما تحرر من اسمه وشكله - يفنى فى الشخص القدسى الذى هو فوق الجميع) .

إن ما انتهى إليه أمر الأفلاطونية الحديثة (الهيلينية) ، الإشراقية (الإسلامية) ، لم يتجاوز هذا القدر من (فناء) الجزء فى الكل ، ومن تلاشئ العَرَض ، و (بقاء) الجوهر .

ومهما شغلتنا كثرة الآلهة الهندية ، فإن أمرها لايعدو أن تكون (وسائط) أو (رموزًا) ، تمثل تنوع قدرات الواحد الأحد ، وتنوع آلائه . . ولهذا غلبت (العبارة الشعرية) على تصوير مشاعر الامتنان ، والإعظام لهذه

النعم الجليلة فى الأرض والسماء والجبال والأنهار والحيوان والشجر والجماد .

* إن آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التى يمثلون بها - على نحو غامض - قدرتهم الخارقة فى العلم والنشاط والقدرة على الفعل .

(براهما) الجديد ، أو (براهمان Brahman) القوة العظمى التى تمنح الكون طاقته ، وهو والطاقة الروحية للذات (أتمان Atman) شئ واحد . . هذا البراهما كان له أربعة وجوه ، ولعل المقصود بهذه الوجوه الأربعة عناصر الوجود : الماء والنار والهواء والتراب ، أو الجهات الأربع : الشمال والجنوب والشرق والغرب ، أو الأبعاد الأربعة : الطول والعرض والارتفاع والزمان . . أى الوجوه التى تمثل السيطرة الكاملة على الكون ، ولهذا جعلوا له أربع أذرع لتكتمل له القدرة ، إذ هو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة ، وعدم الميل إلى الهوى ، (على الرغم من أنه مهمل فى شعائر العبادة إهمال الملك الدستورى فى أوربا الحديثة) ، كما يقول ول ديورانت .

وفى تطور فكرى يرى شانكارا أن البراهمان هو الواقع الذى يتيح وجود المظاهر التى تشكل العالم التجريبى ، لكنه متجاوز لهذه المظاهر ، لأن البراهمان ، يتجاوز العالم . . وينظر شانكارا إلى العالم باعتباره مظهراً ، وليس واقعًا ، والإدراك الحسى وهم ، وليس معرفة ، والنفس الفردية ذات خالصة ، أو (أتمان) وهى لاتختلف عن البراهمان . . ومن ثم فالبراهمان هو وحده الحقيقى ، وإن كان العالم مجرد ظاهر .

هذا على حين يرى رامانوجا (أن براهمان الأسمى هو نفس الكل ، والكيانات الواعية وغير الواعية تشكل جسمه ، والجسم كيان ، وليس له وجود إلا بفضل كونه إهابَ الروح ، أو شكله الذى هو جسم له ، والجسم والنفس يتميزان بخواص مختلفة لا يختلط أحدهما بالآخرة . . ومن هذا كله ينبع التعليم المحورى القائل بأن براهمان - بكل الكيانات الواعية وغير الواعية التى تتجلى كأشكال له - هو المطلق) .

فالعالم عند رامانوجا حقيقى ، لكنه ليس مختلفًا عن براهمان .

أما راداكرشنان فيرى أن البراهمان هو الواقع المطلق الذى يتيح الأساس لكل وجود ، ويضفى الوحدة على الكون ، فكل الأشياء تتحد فى براهمان ، الذى يُعدّ منبع كل وجود وأساسه ، وهو بذلك إيجابى دائمًا .

والنفس هى الموضع الذى يحل فيه براهمان ، بوصفه الروح المطلق ، ذلك أن الشخص يجمع بين الروح والبدن .

وقد أدرك هؤلاء الفلاسفة أن البراهمان - باعتباره (الواقع المطلق) ليس بالإمكان تعريفه بطريقة حرفية ، ومن الممكن الاقتراب منه تصوّريا بوصفه من خلال أكثر خصائصه المتصورة كمالاً . . وبما أن براهمان يتجاوز التصور فإنه يتعين إنكار هذه الخصائص السامية ، الوجود والمعرفة والقداسة ، ويكون التعريف عن طريق (السلب) [1] - الفكر الشرقى القديم ص١٣٠ / ١٥٠ و١٧٧ / ١٧٩ .

* أما شيقا فله ثلاثة أعين ، بحيث يرى السر وأخفى ، وهو (إله ملغز ، يتسم بالمفارقة ، فهو سيد الموت والخلق ، الراقص الكونى ، واليوجى الساكن ، يرمز له بعضو تناسل الذكر ، مع أنه لايمارس الجنس حتى مع زوجته) وقد رمز لزوجته بعضو الأنثى التناسلى :

وتقول (أساطير العالم القديم ص ٢٦٨) : هناك على جبل كايلاسا يعيش هو وزوجته (بارفاتى) فى سعادة زوجية قصوى .

وهو (يؤدى وظائف كل الآلهة الأخرى ، لأنه الوعى الأصلى الماثل فى الوجود بأسره ، وكيانه فى تماس مع الوجود ، ومن صورته يبدو سيداً للرقص ، فهو يرقص داخل حلقة النار ، وإيقاع رقصه ، وطاقة حركاته ، يحولان الطاقة الأصلية إلى حياة ، والكون بأسره هو النتيجة المترتبة على رقص

---

(١) جاء فى كتاب (العقائد والأديان ص ١٢٠ عن براهما ، كما أوردت اليوبانشادة سفتسفترا : (اللّه الواحد الكامل فى كل الأشياء / كلى الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء / مراقب الأفعال ، قائم فى كل الأشياء / الشاهد ، الحكيم ، الأوحد ، العارى من الصفات / المحرك الوحيد للساكنات الكثيرة / الذى يجعل الحبة الواحدة متكاثرة / الحكماء من يرونه قائماً فى ذات المرء / أولئك - لا غيرهم - ذوو سعادة أبدية) .

شيفا الخالد ، الذى يخلق العالم ويدمره ، فى عملية لا تنتهى) - الفكر الشرقى القديم - ص ١٦٢ / ١٦٣ .

وتذكر (أساطير العالم القديم ص ٢٦٨) أن المارد (**موياﻻكا**) هاجمه ، فضغط شيفا على إصبع رجله فكسره ، ثم رقص - وهو تحت قدميه - الرقصة الكونية للخلق ، والمحافظة ، والتدمير . . ولذلك صور المثالون الهنود أذرعته الأربع ، وأقدامه ، بحيث تمثل ذلك الفيض الدورى ، فيما يعتبر واحداً من أعظم تصورات فن النحت ، وهو الأساس التناسلى فى الكون ، والذكر الهائل الذى حاول براهما فى صعوده إلى أعلى ، وفشنو فى هبوطه إلى أسفل ، بَحْثا عن طرفه وأصله أن يقيساه دون جدوى .

وذكر أنه عاقب الإله براهما على الزواج المحرم بابنته .

ويقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٦٨) إنه قد يسمى رودرا **Rudra** ، (له القدرة على التحكم فى المرض ، وفى الأعشاب الشافية ، وهو إله مرعب صاخب ، وقد اتّسعت دائرة اختصاصه ، فشملت الغابات واللصوص والمنبوذين ، يعبده المرء لكى يتحاشاه ، وحتى يتفادى أوبئة قطيع الماشية فإنه يقدم ثوراً قرباناً خارج حدود القرية ، مصحوباً بكل علامات شعيرة النحس)[(١)]

* **وأما إندرا Indra** فله ألف عين ، تعبيراً عن سعة علمه وإحاطته بكل شئ ، إنه إله الفيدا الأصيل ، وهو بصفة رئيسية إله الحرب ، وملك الآلهة ، وقائدهم فى المعارك ، هو الذى يدمر المدن الحصينة ، مستعيداً خبرة المقاتلين الآريين ، إبان غزوهم البنجاب .

---

(١) جاء فى كتاب (العقائد والأديان ص ١٠٠ / ١٠٢) من الأناشيد التى تمجده :
(فى المجد أنت خير من ولد / محكم السياسة يارودرا ، أقوى الأقوياء / فى النائبات جُزْ بنا إلى النجاة / ادفع عنا كل فتكات السوء) .
(أين يدك المنعمة يارودرا / التى هى لنا معالجة ومهدئة / حامل الأذى عنا الموقّع من الآلهة / كن لى أيها العجل رحيماً وحامياً) .
(أنت عن جدارة أعظم حامل للقوس والنشاب / ولك العقد الحبيب ذو كل الألوان / أنت عن جدارة أعظم سائس لكل هذا الخوف / لاشئ أقوى منك يارودرا) .

غير أن نسبه إلى أبوين غير مؤكد - كما تقول (أساطير العالم القديم ص٢٥٠) - ولعله ابن السماء والأرض ، حيث حُمل به وولد أيام كان هذان يعيشان معًا ، أو كان لهما بيت مشترك ، وكانت الولادة معجزة ، ويبدو أنها كانت من جانب أمه ، كما كانت ولادة بوذا فى زمن لاحق ، ولما ولد إندرا ظل محجوبًا ، لكنه بعد قليل شرب شرابًا قويًا - هو (سوما) ، وجده على صدر أمه ، أو حمله إليه نسر ، وقد أدى به الشراب إلى أن ينتفخ إلى حجم هائل مخيف ، بحيث طارت السماء والأرض منفصلتين ، ليظلا كذلك إلى الأبد ، حيث ملأ هو الفضاء بينهما .

والبراهمة - بوصفهم القيمين على تقديم الأضاحى والقرابين - مغرمون بالنار ، لكنهم مغرمون أكثر بشراب السّوما - الهوما الإيرانية - الذى يستخرج من نبات القنب الهندى ، يعصر باليد أو يطحن بحجر ، ثم تجتمع العصارة فى قنينة ، ثم تخمر - وهو أرقى ألوان الشراب المسكر ، ويستلزم إعداده طقوسًا معقدة . . وقد توحّد إله السّوما - فيما بعد - مع إله القمر ، ونال حق الإشراف على نمو المحاصيل وصحة الأجنة .

ويهتم إندرا بالطعام الجيد والشراب القوى ، ولذلك هو يحب المشاكسة ، يركب السماء على رأس جيش من الماروث Maruts ، آلهة العاصفة الأقل شأنًا ، وهو مرتبط بالبرق ، سلاحه الذى مزق به بطن التنين **ڤريترا** Vritra ، عندما أعاق هطول الأمطار التى تبعث الحياة .

* وأما **ڤشنو** Vishnu إله الحفظ والحب والجمال ، فله خواص الشمس ، وهو فى الڤيدا قزم صغير ، عَبر الكون فى ثلاث خطوات عملاقة ، ففرحت الآلهة ، وغيظت الشياطين ، وقد يحل فى كل عظيم وبطل من الإنسان والحيوان .

وله فى التراث الهندوسى عشرة تجليات رئيسية وكل تجل **لڤشنو** هو تجل لبراهمان الواقع المطلق ، أو الحقيقة النهائية . والتجلى الأول **لڤشنو** يكون فى سمكة هائلة ، لإنقاذ مانو (**نوح**) جد البشرية ، خلال الفيضان العظيم ، والتجلى العاشر فى صورة (**كالكين**) على جواده الأبيض ، ليكون (المخلّص)

الذى يأتى فى نهاية الزمان ، ليعاقب الأشرار ، ويكافئ الأخيار ، مطلقا العنان لعهد من القداسة والنعيم .

ويضاف **ڤشنو** إلى قائمة معبودات لاتنتهى ، إذ إن قدرته المغناطيسية على جذب شخوص إليه قدرة ممتلئة حيوية . . وفى أنحاء الهند كلها محاريب للأرباب المحلية الصغيرة التى يتخيلها العبّاد بعض مظاهر **ڤشنو** .

وكان فى مطلع القرن الحالى هندوس ، بل مسيحيون ، يخشون أن المسيحية فى الهند قد تمتصها الهندوسية عن طريق توحيد المسيح بإحدى تجسيدات **ڤشنو** العشرة (تجلياته) ، وقيل إن بوذا التاريخى هو تاسع تجلياته الكبرى . . أما أحب مظاهر **ڤشنو** إلى الناس فهو سابع التجليات وثامنها ، مثل راماتشاندرا و كرشنا .

وذكر **أبو الريحان البيرونى** أن باسيديو ذكر أن جميع الأشياء إلهية ، لأن **ڤشنو** جعل نفسه أرضًا ليستقر الحيوان عليها ، وجعلها ماء ليغذيهم ، وجعلها نارًا - وربما ريحًا - لينميهم وينشئهم ، وجعلها قلبًا لكل واحد منهم ، وإن كل معانى الخير والسمو من فيضه ، وكل الحكماء والصالحين يقومون بالعدل والصلاح والفضيلة ، وينصرون الأخيار على الأشرار بفضل **ڤشنو** .

وكل من براهما و شيڤا و **ڤشنو** أقانيم ثلاثة لإله واحد في زعمهم ، والإله الواحد هو الروح الأعظم ، واسمه بلغتهم (**أتمان**) .

ووفقًا للتعاليم الواردة فى نصوص اليوبانيشاد ، فإن الأتمان ينظر إليه باعتباره القوة الكامنة وراء قوى الكون ، والقوة المطلقة للنفس ، وهاتان القوتان ليستا إلا شيئًا واحدًا . . واتفاقًا مع هذا التصور للطبيعة البشرية ، ينظر إلى الكمال المطلق للشخص ، باعتباره يكمن فى تحقيق الذات ، وفى توحّد المرء مع المصدر المطلق ، ومع قوة الواقع .

ولهذا يقول **البيرونى** : اعتقاد الهند فى اللّه سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلى ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله ، القادر الحكيم المحيى المدبر ، المنفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لايشبهه شئ .

* وأما أجنى Agni إله النار ، أو المحور الذى يربط عالم الناس وعالم

الآلهة ، وهو الذى يحمل القرابين المحترقة إلى الآلهة ، ويعيش مختبئًا فى أماكن عدة ، مزودًا الفلاسفة بموضوع تأملاتهم النظرية ، فهو يختبئ فى مياه السماء ، ويظهر فى صورة البرق ، وفى عيدان النار ، وفى أماكن أخرى .

وثمة آلهة أخرى (كالى) التى ولدت من صلب رب الغضب ، وهى تفوق قوة الأرباب أنفسهم و يعتمدون عليها فى مواصلة البقاء ، وفى حماية قوى الخير . . وقد تدعى (شاكتى) التى تعنى الطاقة أو القوة . . وكثير من الهندوك المثقفين يتعبدون للإلهة (كالى) التي تتطلب منهم تضحيات دموية ، وبخاصة من المعيز . . و كالى إلهة مطاعة، صورتها تبث الرعب فى القلوب بأنيابها الطويلة المدببة ، وشعرها المنفوش ، وعقدها المنظوم من الجماجم البشرية .

ومن الآلهة الشعبية التى يعبدها الهندوك ، ولعله أشهرها (**الجانيش** ، أو **جانياتى**) ، وهو إله الحكمة ، ومزيل العقبات ، وابن الإلهة **شيڤا** ، له رأس فيل على جسم إنسان ، وتبرز من جنبه عدة أذرع .

* ومع تعدد الآلهة وتنوعها فهى لاتبعد عن ثلاث صور رئيسية ، تمثل فى الخلق ، والاحتفاظ بالمخلوق ، ثم الفناء ، فهى **براهما** الخالق ، و **ڤشنو** الواقى الحافظ ، و **شيڤا** المدمر .

تلك هى (**الأشكال الثلاثة**) التى يقدسها الهنود ، ماعدا الجانتيين منهم ، بالرغم من كون الآلهة قد يصل عددها إلى عدة ملايين ، تزدحم بها مقابر العظماء .

وذكر أن تعدد الآلهة استدعى الاختلاف فى القوة ، وفى وسائلها ، وفى رغبات الآلهة ونزواتهم أيضًا ، ومن ثم يشكلون مجتمعًا إلهيًا فى السماء موازيًا المجتمع الإنسانى فى الأرض .

والفلاحون الهندوك يعلمون أن كل فرد من أفراد الطبقات المثقفة إنما يوقّر على انفراد عددًا كبيرًا من الآلهة ، وذلك فى الوقت الذى يتركز إيمانهم فى مجموعة محدودة من الآلهة المحلية .

وهم فى الحقيقة لايعبدون أو يبجلون هذه الآلهة ، بل يهابونها

ويخشونها ، فجميع الشعائر والاحتفالات ، وممارسة الخرافات التى يكرسونها لها ، إنما تجنب غضبها ، واكتفاء شرها .

كما يوجد اعتقاد راسخ – فى كل أنحاء شبه القارة الهندية – فى آلهة بدائية للأنوثة ، تتبدل أسماؤها ، وتختلف طقوسها من مكان إلى آخر ، ولكنهم يجمعون على وجوب تقديم الذبائح لها ، وموائد ذبائحها أقرب إلى قطع صغيرة من الحجارة منها إلى المذابح .

ويعتقد الفلاحون أن لهذه الآلهة القدرة على تقمص أجسادهم فى صورة روح شريرة ، فإذا دخلتها ركبهم الشيطان .

* وإلى جوار ملايين الآلهة تعزّزت فى الهند عبادة (الطواطم) بعقيدتهم فى وحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ، كما تعززت بعقيدة الحلول ، فعبدوا الحيوان باعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ، ثم للقبيلة ، ثم تخلّفت عبادة الحيوان ، حين آمنوا بأن اللّه يتجلى فى كل موجود ، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه ، فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً ، أو صديقاً عائداً إلى الحياة فى محنة التكفير والتطهير ، فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور ، كما عاشت فى عصور الهمجية ، بسبب هذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم ، لكنهم خلصوا – كما خلص غيرهم – من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه ، فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد ، فهم قد بدءوا بإبطال جميع المظاهر ، فنسبوا إليها التعدد والاختلاف ، لأنها تتكرر وتزول ، وتستتر من ورائها الحقيقة الأبدية التى لاتتكرر ولاتزُول ، وتلك هى حقيقة القضاء والقدر التى تقدر للآلهة ، وتقضى عليهم ، كما يقدر لسائر الموجودات ، وتقضى عليها فى أجلها المحدود . . وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين ، فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد – اللّه للعقاد ص ٦٣ .

* والبقرة أكثر الحيوانات قدسية عند الهندى . . ولعل السياسة الحكيمة – فيما مضى – هى التى رسمت هذا التحريم ، احتفاظاً للزراعة بحيوان الجر ،

حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون ، ثم مالبثت هذه السياسة أن تحولت إلى عقيدة ، وأخذت الأبقار صورة مقدسة عند البراهمة ، بحيث لايجوز ذبحها ، ويجب أن تترك وشأنها تجوب شوارع المدن ، وتعطل حركة المرور .

والطوائف التى يشتبه اشتراكها فى قتل وتسميم البقر والماشية - وبخاصة دباغى الجلود - أبغض الناس إلى الهندوكى ، مع أنه مصرح لهم رسميًا القيام بهذا العمل الحيوى .

والمخاطرة بحياة الفرد فى سبيل إنقاذ حياة بقرة ، يعد خطوة فى سبيل بلوغه إلى أعلى الطبقات ، ولمسها مطهر ، ولِبَوْلها وروثها القدرة على إزالة الدنس المادى والخلقى .

وذبحها يثير فيهم الرعب والفزع أكثر مما يثيرهم ذبح إنسان .

وللأبقار والثيران حرية تامة فى جميع أنحاء الهند ، أما فى المدينة المقدسة (بنارس) - بصفة خاصة - فهى تسد الشوارع والأزقة ، وتعترض حركة المرور ، ومن فكر فى التعرض لها أو إيذائها كان جزاؤه الموت .

وما تعنيه البقرة للإله شيڤا يعنيه القرد للإله ڤشنو ، فتجد قطعان القرود وهى تتجمع حول معابده ، يعتنون بها ويوقرونها .

والثعبان كذلك من الحيوانات المقدسة ، وهناك معابد كثيرة تعج بها ، لاتؤذى أحدًا ، ولايوذيها أحد .

ويظهر الجميع استياءهم من قتل الثعابين ، بالرغم من ضحاياها الذين يعدون بمئات الألوف سنويًا ، ويقدمون لها الذبائح .

وتمتعت الحشرات كذلك بهذا التحريم ، بحيث لايجوز إيذاؤها ، على حين يوجبون حرق أرامل النساء أحيانًا ، وحظى النمر كذلك بقدر من القداسة ، بسبب من قدرته على إيذاء الإنسان والحيوان .

الهندوســـــــــية ..

أسلوب فى الحياة أكثر مما هى مجموعة عقائد ، وليست لها صيغ محددة المعالم ، ولذا تشمل من العقائد مايهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار ، ومايرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة .

وقد انتشرت الهندوسية - خلال ثلاثمائة عام تقريبًا - من إقليم صغير شمالى الهند إلى مساحات شاسعة تحتوى الآن مئات الملايين من البشر .

وطريقة التكاثر والانتشار تقوم على أن يبدأ زعماء بعض المناطق القبلية من الروحانيين عابدى (الطبيعة) فى تقليد بعض العادات الهندوسية ، مثل الامتناع عن أكل اللحوم ، وخاصة لحم البقر ، أو رفض ذبح البقر ، أو الامتناع عن تناول المسكرات ، أو التخلى عن عادات لاتقرها الهندوسية ، مثل الزواج من خارج العشيرة ، وتحريم زواج بناتهم من رجال طبقة دون طبقتهم ، ووضع القيود على الاتصال واللمس والجلوس على المائدة ، وإكراه الأرامل على حياة العزوبة ، وتزويج البنات قبل بلوغ سنّ الرشد ، وتقديم الضحايا للأسلاف ، وإعادة تعميد آلهتهم الوطنية بأسماء آلهة وآلهات هندوسية صميمة .

هذا فى الوقت الذى يُزعم أن الهندوسية ديانة مغلقة ، كاليهودية ، بحيث لايعد هندوسيًا إلا من كان أبواه هندوسيين .

ولعل هذا يرجع إلى مابين الهندوسية البدائية والهندوسية الجديدة من فروق ، فالهندوسية البدائية التى يطلق عليها عادة (البرهمية) مشتقة من ديانة الآريين البيض الذين غزوا الهند حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م ، ثم ضَمت بعد ذلك

تدريجيًا عناصر مختلفة من الديانة التى كانت سائدة فى وادى الإندوس ، مثل عبادة عضو التناسل (اللنجام) ، أى عبادة الإخصاب ، وعبادة الأشجار المقدسة . . وفى هذه الأثناء كانت البرهمية مقصورة على الطبقة الأرستقراطية حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، أى فى الوقت الذى نهض فيه البوذيون لمقاومة الطبقة السّامية (الأرستقراطية) .

وظهرت بعد ذلك هندوسية - خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد - أعطت الأفضلية لنصوص الفيدا ، لكنها كانت أكثر تسامحًا من البرهمية القديمة ، فقد أبقت على جانب كبير من الديانات الشعبية ، كما أجازت القيام بالشعائر المحلية المتوارثة .

* وللهندوسية آلهة كثيرة تحتويها الهياكل المقدسة ، لكن ليس لكل إله معبد خاص ، حتى الإله (براهما) الخالق يندر أن يوجد له معبد ، مع أنه و ڤشنو وشيڤا يكونون الثالوث الهندوسى المقدس .

ويوضع فى معبد ڤشنو تماثيل للآلهة ، منها ما هو من صوره المختلفة ، وما هو من تجسيداته الأرضية .

وهناك معابد لزوجات كل من ڤشنو وشيڤا .

والمعبد الهندوسى فريد فى نوعه ، يتكون من حجرة صغيرة ، تقابل محراب المسجد وقدس الأقداس فى الكنيسة ، وهى غرفة صغيرة مظلمة بها الإله الرئيسى ، وتسمى (حجرة الرحم) ، وتعلو هذه الحجرة البرج الرئيسى للمعبد ، وباب الحجرة يتجه دائمًا نحو الشرق ، وهناك حجرة متوسطة الحجم ذات أعمدة ، يجتمع فيها المصلون للعبادة ، يطلقون عليها (مانديا) ، وتعلو جميع الغرف أبراج فى الارتفاع حتى تصل إلى الباب الرئيسى الذى يعلوه أقصر الأبراج ، ويدور حول حرم المعبد طريق يستعمله المتعبدون للطواف .

وإذا كان المعبد للإله شيڤا ، نجد هنا حيوانًا في مواجهة البوابة الرئيسية يُكرّس مطية للإله ، وهو الثور (ناندى) ، وبين حيوان الثور (ناندى) والبوابة الرئيسية يثبتون صاريًا طويلاً للعلم ، وهو رمز سلطة الإله .

وللمعبد وظائف اجتماعية وثقافية واقتصادية ، إذ يقوم بتلقى الهدايا من الملوك والتجار والعامة ، كما يقوم بإقراض الفلاحين ، وهو مصدر عمل الكاهن والموسيقى والراقصة والمدرس والبستانى والطرزى والكاتب والمحاسب وغيرهم .

ولقد سيطر على الفكر الدينى الاهتمام ببناء المعابد الضخمة ، مع أن الشعائر الهندوسية لاتقام جماعة ، بل هى عملية فردية شخصية بحتة ، يقوم فيها المتعبد حيثما وحينما يشاء ، وكما يحلو له .

* ويبدو أن الديانة الڤيدية – فى أولى مراحلها – لم تكن لها معابد وأصنام ، بل كانت مذابح القرابين تنصب من جديد لكل قربان يراد تقديمه ، كما هو الحال فى ڤارس الزارادشتية ، وكان يناط بالنار المقدسة أن ترفع القربان إلى السماء ، وفى هذه المرحلة تظهر آثار ضئيلة من التضحية بالإنسان .

يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ١٤٠ / ١٤١) : يوجد فى البيت الآرى نار مقدسة تشتعل منذ بداية إنشائه ، أعنى خلال حفل الزواج ، وهى ليست ناراً عادية ، فينبغى ألا تستخدم فى إعداد الطعام ، أو الأغراض المنزلية الأخرى ، وكذلك ينبغى إشعالها بأنواع خاصة من الخشب ، وبطريقة معينة ، هى حكّ العصىّ بعضها ببعض ، وينبغى ألا تترك حتى تخمد ، ولابد أن يتقدم رب الأسرَة يوَميًا لهذه النار بقرابين للآلهة ، بل إنه ملزم بالقيام ثلاث مرات فى اليوم بما يسمى (التضحيات الخمس الكبرى) : عبادة براهمان ، روح العالم ، وقوامها تعليم الڤيدا أو تلاوتها . . وعبادة الآباء ، بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم . . وعبادة الآلهة ، بإحراق القرابين . . وعبادة (بهوتاس Bhutas) – الموجودات الحية ، أو الأرواح – بنثر الحبوب فى الجهات الأربع ، والمركز ، وفى الهواء ، وعلى أوانى المنزل ، ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات ، وعبادة الرجال ، عن طريق تقديم الضيافة للآرى ، ويفضل البرهمى العليم بالڤيدا .

وفى (ص١٥١) يقول : وعندما يتم إنجاز التضحية على نحو مناسب ، تهبط الآلهة متخفية فى ميدان التضحية ، وتجلس فوق القش المقدس ، وتشترك فى

مأدبة التضحية ، كضيوف شرف ، وتتغذى بالقرابين التى أحرقها الإله أجْنى .

أما قرابين الذنوب وقرابين الشكر ، وقرابين الاسترضاء والاستعطاف ، فهى ألوان من التقريب نادرة ، ولا مكان فى أدب الڤيدا - إلا نادرًا - للصلاة التلقائية المباشرة .

وأهم الواجبات التى يلتزم بها رب الأسرة واجباته نحو الآباء أو الأسلاف ، فهو ليس ملزمًا فقط بأن يقدم القرابين من الطعام والماء يوميًا إليهم ، وإلى روح الميت الذى تسكن الركن الشمالى الشرقى من المنزل ، بل إن عليه أيضًا أن يقدم لهم (البِنْدا Pinda) ، أى كرة الأرز Rice Ball ، فى يوم ظهور القمر من كل شهر .

وتسمى العناصر الرئيسية في هذا الاحتفال (شراذا Shradha) ، وهى كما يأتى :

يجلس فقهاء البراهمة - الذين هم على خلق لايرقى إليه الشك - فى مكان مكشوف ، على مقاعد منسوجة من القش المقدس ، ويفتتح رب الأسرة الاحتفال ويُنهيه بحرق قرابين الآلهة فى النار المقدسة . . والحدث الرئيسى فى التقريب للآباء أن يصنع ثلاث كرات من الأرز ، ويضعها فوق سجادة منسوجة بالعشب المقدس ، بعد رشّ المكان بالماء ، وتذهب هذه (الكرات) إلى الموتى من أسلافه : الأب والجد وأبى الجد . . ثم يمسح الأرز العالق بيده فى العشب ، ثم يسكب ماء مباركًا على الأرض ، بالقرب من (البندا) ، ومن شأن ذلك أن يرضى الأسلاف الأكثر بعدا ، ثم يقسم (البندا) على ضيوفه من البراهمة الذين يأكلونها ، وما تبقى من (شراذا) يصبح الوجبة الأساسية للضيوف .

وهكذا تكون (شراذا) همزة الوصل بين الأحياء والأموات ، وهى التعبير عن التعاون المتبادل بينهم ، غير أن هذه العلاقة يمكن أن تنقلب رأسًا على عقب ، إذا لم تؤد الطقوس الجنازية المناسبة للميت ، فما لم تستقر أرواح الموتى فى عالم الآباء تظل معرضة لأن تصب البلاء على رءوس نسلها الذين لم يقوموا بإطعامها عن طريق القرابين ، أو ضمان انتقالها إلى عالمها المناسب .

وهكذا تحمل الجثة - بعد الوفاة بقليل - إلى أرض المحرقة ، فى موكب من الأقارب ، يتقدمه الابن الأكبر الذى يسير على رأس المحْزونين ، ويخلف المرحوم كرب للبيت ، وتحرق الجثة بينما يطوف أهل البيت حول المحرقة ، لا فى اتجاه عقارب الساعة الذى يبشر بالسعادة ، وإنما فى عكس الاتجاه ، وبعد ذلك يغتسلون ويعودون إلى البيت ، فى موكب يتقدمه هذه المرة أصغر الأبناء سنًا ، وفى اليوم الثالث من حرق الجثة تلقى العظام فى النهر ، ويفضل أن يكون نهر الكنج ، حيث لايزال يوجد على ضفتيه أدراج (الجوط Ghat) - درج يهبط عليه الناس إلى النهر - التى تيسر الهبوط إلى النهر ، كما فعلت منذ آلاف السنين . . ولمدة عشرة أيام يواصلون سكب الماء ، وتقديم القرابين من كرات الأرز ، وقوارير اللبن ، للمرحوم .

وإذا تخلصت الروح من الجسم ، وكانت تستحق بعملها الصعود إلى الملأ الأعلى ، فقد أراحت واستراحت ، وإلاّ حلّت فى جسم إنسانى آخر لتكسب عمل خير ، ولتجتنب عمل شر ، حتى لاتهبط إلى جهنم .

ولكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم ، فالمدعون على غيرهم حقوقًا كاذبة ، وشهود الزور ، لهم جهنم خاصة ، وسافك الدماء ، وغاصبُ الحقوق ، والمغير على الآخرين ، وقاتل البقر ، لهم جهنم خاصة ، والذى يَرد قول أستاذه ولايرضاه ، ويستخف بالناس ويستهين بالكتب المقدسة ، أو يتكسب بها فى الأسواق ، له جهنم خاصة ، وهكذا تتفاوت الذنوب ، وتتفاوت صور العقاب .

وبعد مرور عام على الوفاة ، يتم القيام بما يسمى (السبندكرانا Sapindkarana) التى تجعل الميت يتناول أقراص الأرز مع أسلافه أو أسلافها ، وهم يعتقدون أن الروح تكتسب بذلك بدنًا رقيقًا يمكّنها من القيام بالرحلة فى (عالم الآباء) ، أو يمكنها - طبقًا لأفكار لاحقة - من الميلاد من جديد .

* والترسيم واحد من سلسلة الطقوس التى تسمى (سامسكارا Samskara) ، أو طقوس المراحل الحاسمة فى الحياة ، وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة ، لتحقيق الحمل ، وإنجاب طفل ذكر ، وضمان صحة

الجنين ، وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته تراعى الأم والطفل طقوسًا تستمر عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة ، والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها (السامسكارا) هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعامًا جافًا (غير سائل) . . وإذا كان ذكراً فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه ، فيما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس تبقى طول حياته .

ويعد الترسيم الخطوة الأولى فى (السامسكارا) ، وهو يتم عامة عندما يكون الطفل بين الثامنة والثانية عشرة ، ولب الاحتفال أن يرتدى المرشح زىّ الناسك ، ويمسك فى يده صولجانا مع خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه اليمنى ، ثم يتلو الكاهن الرسمى أبياتًا من (الرج ڤيدا) اعتاد الهندوسى تلاوتها فى جميع طقوسهم وهى : (فلنفكر فى روعة وجلال / الإله سافترى / حتى يلهمنا عقولنا) .

وعلى العضو المرشح فى هذه الحالة أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقّه فى الدين ، ليصبح معلمه الروحى ، يعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة ، لاسيما الڤيدا ، وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع ، بل أعظم مما يظهر لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة فإن المعلم – من خلال معرفته الدينية – يهبه الخلود .

وعلى المحْتفل بترسيمه أن يظل عَزَبًا ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يُخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر الدراسى الذى قد يستغرق عند البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر ، وعلامة انتهائه الاغتسال طبقًا للشعائر ، وعندئذ يتوقع أن يتزوج الآرى فى الحال .

وبعد عملية الترسيم يمنح الصبى الخيط المقدس ، ويتم زواج الفتاة ، أما الناسك فينظر إليه على أنه تخلى عن الدنيا من أجل الدين .

* وليس الزواج مقتصراً على أن ينجب الرجل من يواصل عبادة الأسلاف

ويقـدم (البنـدا) لتستـريـح روح أبيـه ، وإنما هو ضـرورة مطلوبة لذاتهـا أيضًـا ، فليس ثمة مايبـرر الاعتقـاد بأن الرجل المتزوج هو وحده القـادر على تقـديم قـرابين الطعـام للأسـلاف ، وعندما يترمّل يتخلى لابنه عن رئاسة الأسرة ، وعـن القيـام بـدور الكاهن المسئول عن نارها المقدسة ، ويقرر التقاعد .

على أن الـزواج لايتـرك لأهـواء الفـرد يختـار من يشـاء ، فـلابـد من زوجـة كفء ، مساوية له فى المولد ، منحدرة من أسرة آرية أتمت عملية الترسيم وغيرها من الطقـوس ، لأنهـا وحـدها القـادرة على ممارسة الطقـوس المنزليـة دون أن تدنسـهـا ، وهى وحـدها القـادرة عـلى إنجـاب الابن الطاهر النقى المؤهل لمواصلة عبادة الأسلاف بعد والده .

وعلى الرجل أن يبحث عن عروس ليست قريبة له ، لا من ناحية أبيه ، ولا من ناحية أمه ، أعنى عروسًا لـم تقدم أسرتهـا (البندا) ، أو قرابين الماء ، لأى من الأسـلاف ، ومن ثم فلابد أن تكـون العروس غـريبة عنه ، لكن ينبغى أن تدخـل فى أسرة العريس عن طريق الترسيم ، لكى تشـارك الأسـرة فى دينهـا ، وتكف عن أن تكون عضواً فى أُسْرة أبويها .

وحفل الزواج يرمز إلى أن الزواج هبة إلهية ، أو أمر مقـدس ، أو ترسيم ، وينتقل العريس وصحبه فى مركب إلى بيت العروس ، حيث يستقبلهم والدها مرحبًا ، ثـم يجلس العروسان فى سرادق مؤقت ، على جانبيه ستارة صغيرة ، وتفتح هذه الستارة بمصاحبة العبادات المقدسة التي يتمتم بها الكاهن الذى يتولى مراسيم الزواج .

عندئذ يقدم والد العـروس ، رسميًـا ، ابنتـه للعريس ، ويقـوم العـروسـان متشابكى الأيدى بتقديم حبات من القمح للنار المقدسة ، ثم يطـوفان حول النار ، وأطراف رداءيهـما معقـودة ، ويخطوان معًا سبع خطوات ، ثم يُرش عليهـما من الماء المقـدس ، ويؤدى المزيد من الطقـوس عندمـا يعـود مـوكب الزوجين إلى بيت العريس ، وبذلك يكتمل الزواج .

يقول البيرونى : إنه لا يفرق بين الزوجين إلا الموت ، إذ لا طلاق . . ويجوز تعدد الزوجـات ، بحيث يكون للبراهمان أربع ، وللكشاترى ثلاث ، وللفايسى

اثنتان ، وللشودرى واحدة ، ويجوز للمرء أن يتزوج فى طبقته وفيما دونها ، ولايحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ، وينسب الولد إلى طبقة أمه .

والمرأة إذا مات عنها زوجها فليس لها أن تتزوج ، وتقبل على حرق نفسها خوف الزلل ، ما لم يكن لها ولد يتكفل بصيانتها وحفظها .

والأصل فى المواريث عندهم خاص بالذكور ، ماعدا الابنة فإن لها ربع ما للابن ، وجهازها من ميراثها ، أما الزوجة فإن آثرت الحياة ولم تحرق نفسها كان على الوارث رزقها وكسوتها .

* وكان الكهنة يتقاضون أجوراً عالية فى مقابل مساعدة المتعبد فى أداء طقوس القربان التى أخذت تزداد تعقداً مع الزمن ، فإذا لم يكن فى وسع المتعبد أن يدفع للكاهن أجره ، رفض أن يتلو له الصيغ اللازمة ، فأجره يجب أن يسبق التلاوة .

وقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه المتعبد : كم من الأبقار والجياد ، وكم من الذهب ، وقد كان الذهب - بصفة خاصة - أثيراً عند الكهنة والآلهة ، لأنه (ماخف حمله وغلا ثمنه) .

وفى أوراق (البراهمانا) التى كتبها البراهمة إرشادات للكاهن تدل على الطريقة التى يستطيع بها أن يقلب الصلاة أو القربان شراً على رءوس أصحابه ، إذا لم يأخذ الأجر الذى يطلبه .

كذلك سنّوا قوانين أخرى تفصل دقائق المحافل والطقوس التي ينبغى أن تقام فى كل ظرف من ظروف الحياة تقريبًا ، وهى عادة تتطلب معونة للكهنة فى أدائها .

وكان أهم عنصر فى تقديم القرابين للآلهة هو الرسوم التى تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء فى دفع تلك الرسوم .

كذلك كان من موارد الكهنة السخية الإتْيان بالمعجزات وغيرها من ألوان الخرافات ، فلقاء رسم معين يستطيع البرهمى أن يجعل العاقر ولوداً ، وأن ينبئ

بما خُط فى لوح القدر ، وأن يشفى من أخطر الأمراض ، ومن النذر السيئة ، ومن الأحلام المزعجة ، وأن يكون عونًا فى المحاكمات ، وفى المشاريع الجديدة - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص١٦٣ / ٢٢٦ .

وهكذا أصبح البراهمة شيئًا فشيئًا طبقة ممتازة ، تسيطر على الحياة الروحية والفكرية فى الهند ، وقد بلغ عدد طائفة الكهان يناهز ثلاثة الملايين .

يقول الكاتب الهندى مليبارى : (إن المهاراجا هو الكاهن الذى يؤله ، أى يتجسد فيه «فشنو» و «كرشنا» ، فيوقف عليه كل فشنوى جسمه وروحه وملكه وأهله وتوابعه) .

(وإليك بعض مايَجْبيه المهراجا من عباده الأتقياء : ٥ روبيات للتشرف برؤيته ، ٢٠ روبية للمسه ، ٣٥ روبية لغسل رجليه ، ٦٠ روبية للجلوس بجانبه ، ٥٠ إلى ٥٠٠ روبية للمبيت فى غرفته ، ١٣ روبية ليتفضل فيضربه بسوطه ، ١٩ روبية ليشرب من ماء اغتساله ، أو غسل ثيابه القذرة ، ١٠٠ إلى ٢٠٠ روبية من النساء اللاتى يقضين معه روح اللذة) .

وقد حدث شاهد عيان ثقة أنه رأى كاهنًا هندوسيًا يجلس عاريًا فى أحد البيوت ، وهو مضطجع ، وعورته بارزة للجميع ، وكل واحد من أتباعه يتهافت عليه ، ويؤدى تحية الخضوع والتقديس لهذه (العورة) البارزة أمامه - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٤٦ / ٤٧ .

* ولم يكن فى الهند تشريع قانونى واحد ، إذ كان يحل محل القانون - فى شئون الحياة اليومية - مايسمونه (داما شاسترا) ، أى النصوص العرفية التى تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، وقد كتب هذه النصوص براهمة ، من وجهة نظر برهمية خالصة .

وأقدم هذه النصوص مايعرف بـ (تشريع مانو) ، ومانو (الولى الكبير) هو السلف الأسطوري الذى تسلسلت منه جماعة المانوية ، أو مدرستها الفكرية ، المؤلفة من براهمة ، بالقرب من دلهى ، وقد صورته هذه النصوص ابنًا لله ، أو أبا البشر ، يتلقى القوانين من براهما نفسه . . وهذا التشريع مؤلف من

٢٦٨٥ بيتًا من الشعر ، كانوا يُرجعونه إلى سنة ١٢٠ ق.م ، لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح .

ولقد أريد بهذا التشريع - فى بادئ الأمر - أن يكون بمثابة الدليل ، أو الكتاب الصغير الذى يرشد البراهمة المانوية إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ يتطور فيصبح تشريعًا يحدد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، إذ يقوم على القناعة ، والصبر ، وضبط النفس ، والتقوى ، والمعرفة ، والصدق ، والتحرر من الغضب . . وتتلخص هذه الفضائل فى الوصايا الخمس لجميع الطبقات الهندوسية : ١- لاتؤذ مخلوقًا حيًا . ٢- أن تقول الصدق . ٣- ألا تسرق . ٤- أن تعيش طاهرًا . ٥- أن تضبط شهواتك .

* ولأن البراهمة احتكروا العلم والمعرفة ، فقد صاروا القائمين على صيانة التقاليد ، وأدخلوا على هذه التقاليد ماشاءوا من تعديلات ، وتولوا تربية النشء ، وكتبوا الأدب ، وأشرفوا على نشر المكتوب منه ، واختصوا بكتب الڤيدا التى هبط بها الوحى ، وصاروا وحدهم الشراح والمشرعين .

وحرم على (الشودرا) تلاوة الكتب المقدسة أو سماعها ، بحيث لو تلاها انشق لسانه ، ولو سمعها امتلأت أذناه بالرصاص المصهور ، ولو حفظ منها شيئًا قُطع نصفين ، وبهذا تظل البرهمية وقفًا على فئة متميزة .

وينص (تشريع مانو) على سيادة البرهمى على سائر الكائنات .

بل يذهب (مانو) إلى حد أن (كل ماهو كائن فى الوجود ملك البراهمة ، وللبرهمى حق فى كل موجود ، بسبب النسب) .

ويعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا ، وإن كان يؤذن لهم فى حالة الحاجة بأعمال التجارة ، أو شغل الوظائف الحكومية .

ولو اقترف البرهمى أكبر الكبائر لما حق قتله ، لكن للملك أن ينفيه ، مع احتفاظه بما يملك .

ومن حاول أن يضر برهميًا كان لزامًا عليه أن يَصْلَى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضربه بالفعل فقد حقت عليه الجحيم ألف عام .

وإذا اعتدى أحد من (الشودرا) على عفاف برهمية صودرت أملاكه ، وحكم عليه بالخصْى ، وإذا قتل أحد من الشودرا آخر من الشودرا كفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، أما إذا قتل برهميًا فلابد من قتله ، لأن جريمة القتل خاصة بقتل البرهمى .

وتقول شريعة مانو : (نار جهنم هى مثوى البرهمى الذى يتزوج امرأة من الشودرا ، فإذا ولد له ولد طرد من البراهمة) .

هذا مع أن (البرهمى لن يدنّس بذنب ، ولو قتل أهل العوالم الثلاثة) .

ولذا (يتجنب الملك قتل برهمى ، ولو اقترف جميع الجرائم) .

و (يجب أن يعد البرهمى « أبًا » للأكشترية ، ولو كان عمر البرهمى عشر سنوات ، وعمر الأكشترى مائة سنة) .

و (يجب على الشودرى أن يمتثل امتثالاً مطلقًا لأوامر البراهمة) .

إن (خدمة الشودرى للبراهمة هى أفضل عمل يحمد عليه) .

ومن ثم لاينبغى أن يجمع الشودرى ثروة ، (لأنه إذا جمع ثروة لم يقبل خدمة البراهمة ، وازداد قِحَة) .

وفى مقابل هذه الامتيازات البرهمية كان على البرهمى أن يقوم أولاً بواجبات الكاهن العملية ، وأن يعد نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وأن يدرس القانون ، ويحفظ كتب الفيدا ، وماعدا ذلك من الأعمال فهو أقل أهمية .

على البرهمى أن يستحم كل يوم ، وأن يعود فيستحم إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ، وعليه أن يطهر المكان الذى أعده لنومه بروث البقر ، ولابد أن يراعى طقوسًا دقيقة فى مباشرته لضرورات طبيعته .

وطقوس التطهُّر تستغرق من حياة الهندى ساعات ، لأن احتمالات النجاسة وأسبابها كثيرة ، فما أكثر مايصاب الهندى بما ينجسه : إن أكل طعامًا حرامًا ، وإن لمس قمامة ، أو مسّ إنسانًا من طبقة الشودرا ، أو منبوذًا ، أو جثة ، أو حائضًا ، وغير ذلك مئات الحالات .

ومن وسائل التطهر شرب مزيج من خمسة عناصر من البقرة المقدسة : اللبن ، الخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث .

قال الأب ديوا سنة ١٨٢٠ عن البول : (إنه فى نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ماشاهدت هنوداً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التى يستطيعون فيها الحصول على السائل الثمين فى أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون إلى دورهم ، وهو مايزال دافئًا ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه فى حفنات بأيديهم ، فيشربون بعضه ، ثم يمسحون وجوههم ورءوسهم ببقيته) .

وقد حرم على البرهمى أكل جميع الحيوانات ، بما فى ذلك البيض ، وأكل البصل والثوم ، والفطر والكراث ، ولا شراب له غير الماء ، والدهون والعطور محرمة عليه ، كذلك اللذة الحسية ، والجشع ، والغضب .

وإذا مس شيئًا نجسًا ، أو لمس أجنبيًا ، (حتى إن كان هذا الأجنبى الحاكم العام للهند) ، وجب أن يطهر نفسه بالاغتسال الذى تحدده الطقوس ، هذا بينما يقول جوستاف لوبون أن ولى عهد انجلترا حينما زار الهند أحيط بمظاهر التقديس لاعتقادهم أن روح الإله ڤشنو حلت فيه ، وكان الأولى أن تحل فى (الحاكم العام) لأنه يمثل القوة الفعلية . ويستحيل على البرهمى أن يؤذى كائنًا حيًا ، (فيما عدا الإنسان من غير طبقته) !!

وإذا ما تثاءب البرهمى جعل يفرقع بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يطرد الأرواح الشريرة ، فلا تدخل فمه المفتوح .

وللبرهمى حق الليلة الأولى مع كل عروس تزف فى منطقة نفوذه ، مع أنه مطالب بعدم (اقتراف الملذات الحسية) !! - قصة الحضارة مج١ ج٣ ص٣١ / ٥٠ و ص ١٦٣ / ٢٢٦ .

* كانت كلمة (برهمى) تعنى فى (الرج ڤيدا) الصلاة ، فى حين أنها تعنى الآن السلطة المقدسة ، وقد ذهب البراهمة إلى أبعد من ذلك ، فزعموا أن (البراهمة الذين يعلمون الڤيدا ، ويدرسونها ، هم آلهة آدميون) .

وينتظر من الكاهن البرهمى - عند رؤيته باكورة أحفاده - أن يعتزل عمله ، ويذهب إلى الغابة ، يمارس تمرينات تقشفية وتأملية ، حتى يبلغ القوة الإعجازية السحرية ، فيسحر الناس والآلهة ، وبهذا يختم حياته إنسانًا كاملاً ، أو إلهًا .

ولاينتسب البراهمة إلى قبائل معينة ، بالرغم من أن أكثر من نصفهم يعيش فى حوض نهر الخليج الأعلى ، وفى البنغال ، وكانوا فى بداية الأمر من السحرة الذين تحولوا تدريجيًا إلى طبقة مقدسة من المثقفين ، تلقوا الدراسات فى القوانين المقدسة ، والممارسات الشعائرية ، وفى حفظ كتب الڤيدا فى صدورهم .

وزعموا لهم امتيازات على كهنة الطبقات الأخرى ، حتى (إن براز الكاهن البرهمى يمكن استعماله فى العرافة ، وعلم الغيب) .

ولأن البرهمى هو الموجّه الروحى لأعمال الحاكم ، سواء أكانت شخصية أم سياسية ، وجب على الحكام تعويض البرهمى من الأراضى والماشية والجواهر والنقود .

ومن هنا تمثلت القوة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة - الهند عقائدها وأساطيرها ص ٣٨ / ٤٢ .

ولعل مرد هذا التمييز إلى الآريين الغزاة الذين شعروا بقلة عددهم مقابل الكثرة الكاثرة من السكان ، وخشية أن تذوب القلة فى الكثرة ، وخشية أن تتلاشى سطوة الغازى فى عادات وتقاليد السكان الأصليين - لم يكتفوا بالمحافظة على كيانهم ونقاوة عرقهم ، بالانفصال التام ، وتحريم الزواج من غيرهم . . وكان أن استدعى هذا الشعور بالتميز حقوقًا وواجبات ، وتبع الحقوق والواجبات قدر من الاستعلاء ، أخذ يتزايد ، ويدعى لنفسه ، ويفترى على غيره .

ومن ثم كان تشكيل المجتمع إلى طبقات ، من واقع أهمية الخدمات التى تؤدى لطبقة الغزاة ، أو البراهمة .

فالكشاتريا Ksatariyas (المحاربون) هم الطبقة التالية ، لأنهم يمتلكون القوة المادية التى تحمى الدولة ، وتحقق الأمن والاستقرار . . ولعل طبقة البراهمة أو

السحرة هي التى أوحت بالدستور الحربى لطبقة الكشاتريا الذى يعد الموت فى الفراش إثمًا يرتكب فى حق الطبقة ، وينتظر ممن وهنت قوته أن يبحث عن الموت فى المعركة .

ولعل هذه الطائفة كانت من بذور الآريين الغزاة ، ثم تكاثرت ، وفق مطامع الملوك ، وتوجيهات البراهمة ، وقد سمح لها بقراءة الكتب المقدسة ، وتعلمها ، لكن أن يجرؤ أحد أبنائها على تعليم هذه الكتب ، فقد وجبت محاكمته ليقطع لسانه ، حتى لاينازع منازع حق البراهمة المقدس .

وقد استمرت هذه الطائفة فى نشاطها العسكرى تحت الحكم الإسلامى ، إلى أن قاموا بالثورة ضد المغول ، وأسسوا آخر حكم هندوسى وطنى فى القرن الثامن عشر .

وثالثة الطبقات تتمثل فى (الفايْسيا Vaisyas) ، رجال المال والأعمال . . ولما كان المال عصب الحياة لاتقوم الدولة إلا به وبالتجارة الناجحة ، وإلا سيطر الكساد ، واختنقت الأسواق ، ووقفت عجلة الإنتاج - فقد كان الحلف بين التاجر والحاكم حلفًا طبيعيًا ، لأن التاجر أعرف برجال الحكم ، وأقدر على ترويضَهم ، وكشف أسرارهم ، بسبب من اكتساب الخبرة ، وتشمم مصادر الربح ، والتعرف على مجاريها .

والطبقة الرابعة هى طبقة المنتجين من الصناع والزراع والحرفيين والرعاة ، وهم مايسمون (الشودرا Sudra) الذين بدونهم تجف الزروع والضروع ، وتمتلئ الحلوق بالرماد ، والعيون بالظلام ، إنهم الذين يدفقون الحياة فى العروق ، ويملئون الصدور بالأحلام ، والعيون بالرضا والابتسام ، ومع هذا يعيشون على جانبى الطريق ، مهمّشين ، عشوائيين ، لايظفرون إلا بالفتات ، ولا يملكون البكاء على ما فات .

ولكل من هذه الطبقات الأربع نسبة إلى الإله ، كل بحسب نشاطها ، فالبراهمة خلقوا من فمه ، لأنهم أصحاب الكلمة المقدسة ، والكشاتريا من ذراعيه ، والفايسيا من جذعه ، والشودرا من قدميه .

ثـم تأتـى طبقـة المنبوذين (ياريا) فى أسفل السلم ، فى موضع حـذاء الإله ، ومن ثم لم تحسب من السلَّم ، ويكفى مـجـرد ظهور فـرد من أفـراد هذه الطائفـة داخل حـجرة حتى يُفسد هواءها ، ويلوث طعـامها ، وفى هذه الحالة يجب إلقـاء مافى المنزل من طعام إلى الخارج ، تفاديًا للنجاسة والأذى .

وتبعًا لتعاليم طبقة البراهمة ، فإن عَدْوى الرجل من الطبقات النجسة قد تذهب إلى حد إضعاف القوة الجنسية عند الطبقات الأخرى .

* وكل من أدى الواجبات التى تفرضها عليه طبقته بإخلاص وأمانة ، فقد يرتقى إلى طبقة أعلى ، عندما يبعث من جديد ، أما إذا سلك حياة لا أخلاقية ، أو خالف تعاليم طبقته ، فسيبعث فى طبقة أدنى ، وقد يبعث فى صورة حيوان أوحشرة .

والمرأة إذا ما أدت واجبها على الوجه الأكـمل - فى إطار طبقتها - يمكنها أن تبعث فى صورة رجل إذا رغبت فى ذلك .

ويبـدو أن هذا الحلم أو الوهـم من صناعـة الطبـقة الأولى ، حـتى يعـتصـروا طاقات القادرين ، وحتى يقتلوا فى الساخطين أى نزوع إلى التحرر أو التمرد .

وبارتقاء مبدأ (أهمْسا : عدم العنف) الذى تراعيه أديان الخلاص المسالمة ، البوذية والجانية بخاصـَة - هبطت رتبة الفلاح ، بل حقرت ، لأن الفـلاح - وهو يحرث الأرض - يقضى على الحشرات والديدان ، وهو خطيئة دينية لاتغتفر .

وانحدرت مهنة تربية الحيوان ، لأنها تقتضى سفك الدماء ، وحقّرت زراعة الخضراوات والدخان والبنجر ، وبعض المحصولات الأخرى ، لأسباب شعائرية مختلفة .

* ويلاحظ أن هذه الطبقات معرضة للانقسام ، بسبب مبدأ الرفض الكلى أو الجزئى للمعـاشرة ، أو الزواج من غيـر أعضـاء الطائفة ، فـمربّو الماشـيـة يكونون عرضـة لفقـدهم الطبـقـة ، بسبب بداوتهم وتنقلاتهـم المستـمـرة ، إذ إن الجزء من الأرض الهندية الذى تأسس عليه نظام الطبقـة هو الذى يعتـبر أرضًا مقـدسـة ، والهندوسية المتطرفة ترتاب فى تغيير محالّ الإقامة ، حتى داخل الهند نفسهـا ،

لهذا كان أكثر من تسعة أعشار السكان الهنود يعيشون فى حيث ولدوا .

وقد يتطلع أعضاء الطائفة إلى مرتبة أعلى ، وقد ينبذون بعض الشعائر والطقوس ، ويعتنقون شعائر جديدة ، وقد يغيرون مهنتهم ، ومجرد التغيير فى الأسلوب الفنى للعمل قد يعد سببًا كافيًا لتفكك الطبقة .

وقد تنشأ طوائف جديدة نتيجة الزواج غير الشرعى ، واتخاذ المحْظيات بين الطوائف .

خـــاجـــوراهـــــو

مدينة الآلهة ، زارها ابن بطوطة سنة ١٣٣٥م فى ولاية (ماديا برادش) ، وعاصمتها (بهوبال) ، وسماها (كاجورا) ، وقال إنها بحيرة يبلغ طولها ميلاً ، تلتف حولها المعابد والأصنام .

ومعظم هذه المعابد مشيد من صخور الجرانيت ، أو الحجر الرملى ، وتأخذ الكتلة العامة للبناء فى الارتفاع تدريجيًا إلى عنان السماء ، بواسطة أبراج متماثلة ، تتجمع حول البرج الرئيسى ، لتضفى على البناء شعورًا بالسمو والشموخ .

أما جدران المعابد وأعمدتها - سواء بالداخل أو بالخارج - فمزينة بتماثيل ونقوش من النحت البارز الذى ينبض بالحماسة والقوة ، ويضيف إلى الفن التشكيلى ثروة لاتقدر بثمن . . وتتميز هذه التماثيل بصور الأشكال النسائية الرقيقة الرشيقة ، والإسراف فى عرض صور الجنس والإباحية المطلقة .

ويعزى السبب فى ذلك إلى بعض الطقوس الدينية التى كانت منتشرة فى هذا الوقت بين المجتمع الراقى وملوك (تشانديلا) الذين قاموا بتشييد هذه المعابد ، وكانت تتضمن إقامة حفلات القصف والتهتك وممارسة الجنس علانية ، وكان معتنقو هذه الطقوس يرون أن الامتزاج الجنسى ما هو إلا رمز الامتزاج الروحى مع الإله (شيفا) .

ولعل هذا سبب المبالغة فى التأكيد على أهمية الجنس فى صور (خاجوراهو) ، وتكوين مجموعات تماثيل فاضحة من الرجال والنساء ، وإن

كان الهندوسى لايرى فيها فحشًا وإسفافًا ، بل يرى تعبدًا وصلاة وإيمانًا ، لأنها تمثل النشوة الطاغية لآلهته ، وهم يقومون بعملية خلق العالم الذى يعيش فيه .

وأهم هذه المعابد للإلهين شيڤا وڤشنو ، ويبلغ عددها اثنى عشر معبدًا ، وأكبرها معبد (كاندراماهاديفا) الذى يعتقد أنه شيد عام ١٠٠٠ ق.م ، ويضم أكبر وأهم مجموعة من التماثيل .

ويليه معبد (فيشفاتاتا) للإله ڤشنو ، وهناك معبدٌ آخر مكرس لعبادة إلهة الشر المخيفة (كالى) ، وآخر لعبادة إلهة الشمس (سوريا) ، وآخر لعبادة الخنزير البرى (فاراها) ، وهو أحد تجسيدات الإلة ڤشنو الأرضية - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ١٥٣ / ١٥٦ .

ولسعة الأراضى الهندية ، وتنوع مناخها وثقافتها ، وكثرة سكانها ، وغلبة الزهد والفقر والبطالة - شغل المنزع الدينى العقول والقلوب بألوان من الخرافات والأوهام ، وبألوان من التأملات والاجتهادات ، بحيث يمكن اتخاذ هؤلاء (المجتهدين) علامة بارزة على (عجز العقل) الذى صار فى عرف (التنويريين) عجلاً جسداً له خوار .

كان القرن السادس ق . م . . عصر تفتح دينى وفلسفى ، كما كان عصر توسع اقتصادى . . وقد تكونت طبقة أرستقراطية من ملاك الأرض ، على حين كانت تنمو طبقة من التجار ورجال المال والأعمال فى المدن الكبيرة وطفقَت الدويلات الصغيرة تتطور لتكون دولاً أكبر ، حتى كان الجزء الأخير من القَرن الرابع ق . م ، فأنشأ (تشاندرا جوبتا موريا) الإمبراطورية الهندية العظمى الأولى ، وعاصمتها (باتا ليبوترا) - باتنا الآن - على نهر الخليج ، فى (ما جدها - بيهار) .

وكان البراهمة - كما سبق - يزعمون لأنفسهم منزلة ذات امتياز خلقى واجتماعى على كل من الأرستقراطية الزمنية العسكرية والطبقات الوسطى الحديثة النمو ، باعتبارهم الأوصياء والكهان الأكفاء دون سواهم .

ومن ثم كان طبيعيًا أن تقف طبقة النبلاء والطبقات الوسطى الغنية ضد مزاعم البراهمة .

وكان أن نبتت أفكار جديدة انتسبت إلى الأسر الكشاترية ، أو نشأت بينها ، لتجد القوة والعون ، حيث يصل الأمر إلى حد الصدام .

* عاش (ماهافيرًا) ، أو (فاردهاماناجناتا بورا) بين سنتى (٥٩٩ / ٥٢٧ ق . م) ، أو (٥٤٩ / ٤٧٧ ق . م)تقريبًا ، فثمة اختلاف بين المصادر فى تحديد الزمن .

ولد ولادة طبيعية ، خالية من الأساطير ، لرجل ثرى ، وكان أبواه - على ثرائهما - ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن

يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر . . فلما بلغ وليده عامه الحادى والثلاثين أزهقا روحيهما بجوع متعمد ، مما أدى إلى أن يخلع الشاب كل ثيابه ، ويضرب فى أرجاء البنغال الغربى .

لقد دعته الآلهة أن (ينشر الدين الذى هو بركة للخلق كله فى الدنيا) .

ولما تخلى عن أملاكه ، خرج فى محفة ، استوقفها تحت شجر أشوكا ، وترجل ، ونزع شعره ، واستمر فى البحث والتأمُّل ، وعانى كثيرًا من الصعاب والآلام ، والجوع والبرد ، والحيوانات المتوحشة والزواحف السامة ، وإغراءات النساء . . وبعد ثلاثة عشر عامًا أحاط علمًا بكل شئ ، وألقى أول موعظة ، فأقبل عليه التلاميذ والأتباع ، وأعلنوا أنه (چنا) أى قاهر ، ثم اختاروا له اسمًا جديدًا هو (ماهافيرا) ، أى البطل العظيم ، وأصبحوا هم الجانتيين .

لم يكن ماهافيرا مبتدعًا ، فقد بشر بعقيدة وجدت عند سلفه (بارشفا) الذى يقال إنه مات قبله بمائتين وخمسين عامًا ، وربما كان (بارشفا) مؤسس العقيدة ، وماهافيرا داعيًا أضاف وعدل قليلاً من التعاليم ونشرها بين الناس .

كان الجانتيون يقولون ، : (ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق ، أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الغرض بقوله : إن الخالق الذى لم يُخلق ، أو السبب الذى لم يسبقه سبب – لايقل صعوبة عن القول بافتراض عالم لم تسبقه أسباب ، ولم يخلقه خالق ، وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن تعتقد أن الكون كان موجودًا منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لانهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، بدلاً من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله) .

وهذا ما ردده (الفيزيقيون) التنويريون بعد ذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد .

لكن لما أفرغَ الجانتيون السماء من الإله ، لم يلبثوا أن عمروها من جديد بطائفة من القديسيين المؤلَّهين ، وراحوا يعدونهم خالقين للعالم ، أو سادة عليه ، يحكمونه بأى معنى من المعانى . . ففيم إذن كانت صناعة هؤلاء المؤلهين ؟ ألأنهم أتباع ماهافيرا ؟ إذن وجب أن يكون ماهافيرا إلهًا أعظم ، وإذا صح هذا

فـمـا دور هؤلاء المؤلهين ؟ أهو الدعـوة إلى الطريق المؤدية إلى الخـلاص ، إلى (الأهمـسـا Ahimsa) التى تقـوم على الامـتناع عن إيذاء أى كـائن حى ، وإلى التقشف والزهد فى الحياة ؟ إن هذا أمر لايحتاج إلى تأله أو قداسة ، إنه نوع من (قلة الحيلة) ، من السلبية ، يسهل على عدم القادرين أو المطحونين والعبيد أن يبرروا به ضعفهم وهوانهم ، إن الألوهة قدرة على الخلق والإبداع ، على الثواب والعقاب ، على المنح والمنع ، فإذا لم تتحقق هذه القدرة صارت صفة الألوهية عبثًا وهزلاً وسخراً .

إن العهود الخمسة : ألا تقتل كائنًا حيًا ، ألا تكذب ، ألا تأخذ ما لم تُعط ، أن تصون عفتك ، أن تنبذ الاستمتاع بالأشياء الخارجية كلها - لاتحتاج إلى وَحْى أو إلهام ، إنها سلبيات لايستطيعها إلا من ضاقت به المسالك ، أو من فقد ماشقّ عليه فقده ، ومن السهل (اصطياد) كثيرين أرمضتهم مكابدات لاقدرة لهم على احتمالها ، ولا التماسك مع معاناتها ، ومن ثم تسهل قيادتهم وتوجيههم ، وإعادة تشكيلهم وتصنيفهم ، سواء فى مجال الإيجابية المنحرفة ، أو الانهزامية العدمية ، فلا عجب أن يحرم الجانتي اللذة الحسية ، وأن يكون هدفه ألا يأبه للذة أو ألم ، وأن يستغنى تمامًا عن الأشياء الخارجية كلها ، ويجرؤ على تحريم الزراعة ، بدعوى أنها تمزق التربة ، وتسحق الحشرات والديدان ، ويرفض العسل ، لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شربه ، خشية أن يقتل ماعساه أن يكون فيه من كائنات ، ويغطى أنفه حتى لا يستنشق أحياء عالقة بالهواء ، فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستار حتى يقى الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه - وهو يمشى - خوفًا من أن تدوس قدمه (الحافية) كائنًا حيًا فتقتله .

إن الجانتى يحرم ذبح الحيوان ، أو التضحية به ، ويقيم المستشفيات والمصحات للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ، وهذا عمل مشفوع بعواطف إنسانية رقيقة ، لكنه يرى ملايين البشر يموتون جوعًا ومرضًا ، ومع هذا لايفكر فى وسيلة تنقذ هؤلاء الملايين الذين تزدحم بهم الشوارع والساحات ، بينما تُنْفق الملايين على المعابد الضخمة ، والتماثيل والنُّصب المصنوعة من أجود الخامات ، وبينما تمتلئ الشوارع بالأبقار التى يمكن أن تحقق نمواً اقتصادياً ، ووفرة غذاء .

ومن العجيب أن الجانتية تجيز الانتحار ، ولا تعالج أسبابه ، وترى أنه إذا تم عن طريق الجوع يكون أبلغ انتصار للروح على (إرادة الحياة العمياء) . . وقادة المذهب يعجلون إلى الموت عن طريق أنفسهم ، وشاع أن غاندى كان شديد التأثر بهذا المذهب - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٥٨ / ٦٢ .

إن مثل هذه الأفكار - لا يمكن أن توافق على الزواج والإنجاب ، لأنها ترفض الحياة بداية ، ومن هنا لا تكون أسلوب حياة ، أو طريقة لتنظيم علاقات الكائنات . . إنها دعوة إلى الموت ، إلى العدمية ، وما أسهل أن تقول (لا) لكن لماذا ؟ وماذا سيترتب على هذا من نتائج ؟

إن أعمار الجانتيين لا تمثل وجودًا إنسانيًا ، وإذا اقتصرت (الجانتية) على (قهر الذات) لغير هدف أسمى ، فقد تحولت إلى لون من (التردى) الوبىء ، فما قيمة (الحى) الذى ينشد (الموت) ؟ وماقيمة (العقل) الذى يتخذ (الأكنة) ؟ وماقيمة (الحواس) التى لاتعمل ؟ ثم يأتى آخر الزمان من يرون رأى الجانتيين بعدم وجود خالق ، استنادًا على أنهم عقلانيون (؟!) .

إذا كان الجانتيون أنكروا وجود الإله فلأنهم أنكروا وجود أنفسهم ، إن الإيمان باللّٰه يوثق الإيمان بخلقه ، ويعلى من الانتساب إلى الخالق البارئ المصور ، فهل يمكن الحكم على (التنويريين) إلا بمثل ما حكم به الجانتيون على أنفسهم ؟

* كثيرون يجمعون بين الجانتية والبوذية فى طبق أو (قفص) واحد ، بالرغم من الكراهية المتبادلة بينهما ، شأن المتعاصرين من الدعاة .

وقد وصف الجانتيون (ماهافيرا) بأنه حكيم (عليم بكل شئ) ، أتى إلى الدنيا ليعيد سنّ القوانين ، بكل نقائها وطهارتها ، بعد أن استشرى الفساد بين الناس .

وادعوا أن بوذا كان أحد تلاميذه .

وهناك أربعة وعشرون من (الچينا) المؤسسين (المؤلهين) تعاقب أحدهم بعد الآخر ، وصاروا رموزًا رئيسية للعبادة ، وتبلغ تماثيل هؤلاء المؤسسين حدًا

هائلاً من الضخامة ، منتشرة فى كافة معابد الطائفة ، وتحاكى تماثيل رمسيس أو ممنون ، كما تتميز المعابد بطراز فريد يختلف عن المعابد البوذية أو الهندوسية .

وهم يشتركون مع البوذية فى تقديم الذبائح ، وفى الإيمان والولاء ، مع أن هذا معناه الاعتراف بقيمة الحياة ، وبقيمة العمل ، وبالخوف من غضب الآلهة ، وكل هذا يتنافى مع (العدمية) وإرادة الموت . . كما يشتركون مع البوذية فى استعمال الأجراس الصغيرة ، وفى تلقى الاعتراف ، وفى الاهتمام البالغ بالحج ، وفى الصوم أربعة أشهر ، وفى قراءة الكتب المقدسة ، وفى ممارسة التأملات الروحية ، كما تتمتع نساؤهم بنفس الحقوق التى يتمتع بها الرجال .

وهم كالبوذيين يرفضون كتب الفيدا البرهمية ، وينادون بفسادها ، والشك فى صحتها ، وصنعوا لهم كتبًا مقدسة ، واتخذوا كهنة من بين طائفة البراهمة ، لأنهم يعترفون أنهم هندوس ، وقد أسهموا بقسط وافر فى الحياة الهندية الأدبية والعلمية .

وهم كالبوذيين ينقسمون إلى كهنوت وعلمانيين ، وإن كان سلك الرهبنة أقل انتشاراً بينهم .

وهم أشد الطوائف الهندوسية تمسكًا بمبدأ عدم العنف ، وبالحرص على سلامة الآخرين ، وقد تجد الجانتى يتجول فى الظهيرة ، باحثًا عن جحور النمل ، يطعمها الحلوى والسكر .

وهم لايقصون شعورهم ، خوفًا على حياة القمل ، لهذا يقتلعون الشعر من جذوره ، ولايخوضون فى الماء ، حتى لا يطئوا كائنات حية .

وقد تجنب الجانتيون العمل فى الحرف الصناعية التى تهدد الحياة ، بشرية أو حيوانية أو حشرية ، كالصناعات التى تستخدم النار أو الآلات الحادة ، وصناعة الأخشاب والأحجار والبناء ، أما الزراعة فأشد حرمة .

وهم يحدّون من التملك والحيازة ، ويهبون الفائض للمعبد .

ويؤمنون بالأمانة المطلقة ، وعدم الغش فى معاملاتهم ، ويرفضون المعاملات المالية المريبة ، ولأمانتهم اشتهر تجارهم بالثراء ، حتى إن نصف تجارة

الهند فى أيديهم ، وهم يحتكرون الأعمال المصرفية والربوية ، واكتسبوا حب الحكام ، وكان لهم شأن فى دواوين الحكومة (مع أنهم يرفضون الحياة ؟!) .

ومع أنهم يفرضون على الكاهن منهم حياة التشرد و التنقل المستمر ، حتى لايتورط فى إقامة علاقة مع الناس ، فإنهم - فى الوقت نفسه - يفرضون على غير الكاهن البقاء فى مكان واحد لايغادره ، خوفًا من ارتكاب الذنوب إذا ساح ، وإذا اضطر أحدهم إلى السفر كان عليه أن يحصل على إذن من رئاسة الطائفة ، يحدد له فى (الإذن) طريق السفر ومدته ومصروفاته ، ويزوده ببعض التعليمات .

ومع أنهم كالبوذيين لايقرون بوجود خالق ، فإنهم يعتقدون أن الحياة فى هذه الدنيا خالدة - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص ١٣٩ / ١٤٧ - على حين لايعترفون بتناسخ الأرواح .

ويقولون إن آدم وحواء كانا يعيشان فى الجنة بطهر كامل ، لايشعران بحياء ولا خير ولا شر ، ولا يحملان همًا أو غمًا ، حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذا النعيم ، فحملهما على الأكل من شجرة العلم بالخير والشر ، فأخرجا من الجنة .

ويقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم ، فلو لم يكن الإثم لم يكن الحياء .

وهم يرون أن المعرفة شئ نسبى وقتى غير مطلق ، ولا يوجد شئ حقيقى ، إلا من وجهة نظر خاصة ، فقد يكون باطلاً من وجهات نظر أخرى ، وإليهم تنسب الأسطورة الطريفة الخاصة بالعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على جزء من الفيل ، فوصف الفيل بشئ يشبه الجزء الذى تحسسه بيده . . وهكذا فجميع أحكامنا نسبية محدودة ومشروطة ، أما الحقيقة المطلقة فلا يعرفها إلا المخلصون الذين يظهرون بين البشر فى فترات معينة ، وهم (الجينا) من أمثال (ماهافيرا) .

وكانوا يؤمنون بمبدأ (ثنائية) الحياة والطبيعة ، الروح والمادة .

وهم مختلفون بين العرى ولبس الأردية المعتادة ، وعددهم لايتجاوز المليونين .

وذكر أن رَسَامة الكاهن المستجد تجرى تحت شجرة ، بعد أن يضع جواهره وملابسه جانبًا ، دلالة على تخلصه من جميع مقتنياته ، ثم ينزع شعره ، ويلطخ صلعته . . وتنتهى المراسيم بأن يهمس له (الأستاذ) فى أذنه بالصيغ الكهنوتية والسحرية .

وقد مات ماهافيرا فى الثامنة والسبعين من عمره ، حيث ذهبت روحه المتحررة إلى (سدها شيلا) الذى يقوم على قمة الكون ، حيث يسكن فى قوة مطلقة ، وعلم مطلق ، متنعمًا نعيمًا كاملاً ، لاصلة له بالكون المادى . . وعند موته كان (بوذا) فى الثمانين من عمره .

البوذية ..

يسجل التراث البوذى ما لا يقل عن ٢٤ بوذا سبقوا (بوذا جوتاما) ، وليس هناك دليل على وجودهم تاريخيًا ، وإنما وجودهم مؤكد (كحقيقة تجلت) ، وأعلنها بوذا جوتاما . وينسب إلى بوذا قوله : (لقد جاء عدد من بوذا - أى المصلحين الدينيين - قبلى ، فلست وحيداً فريداً فيما أتيت ، وإنما قصدى أن أنير الطريق أمامكم ، كما فعل الأولون) .

ولقد تردد مثل هذا القول على ألسنة رسل اللّه ، بوحى من اللّه سبحانه ، كما تردد على ألسنة بعض الفلاسفة والمصلحين ، لأن التاريخ الدينى والإصلاحى لايمكن أن يقف عند مرحلة ، أو عند شخص واحد .

ويتصدر التراث البوذى فترة زمنية تقدر بمائة وعشرين ألف سنة سبقت العصر الذى عاش فيه (جوتاما) ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، غير أن هذه ليست سوى أرقام رمزية - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢١٦ .

أما عن بوذا جوتاما (٥٦٣ - ٤٨٣ ق . م تقريبًا) فتقول الأسطورة : إن الملكة (مايا) زوج (شُدْ ذو ذانا) ملك (كابيلا فاستو) الواقعة عند سفح الهميلايا - بعد أن أدت شعائرها الدينية ، وقطعت على نفسها عهود (أبوساذا) ، وهى عهود تقال فى أربعة أيام من كل شهر - دخلت مخدعها الرسمى المزذان ، ورأت رؤيا :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ، ويأخذونها إلى جبال الهميلايا ، ويضعونها على هضبات (ماتوسيلا) ، ثم رأت ملكات هؤلاء

الملوك الأربعة يأتين إليها ، ويأخذنها إلى بحيرة (أنوتانا) ، ويغمسنها فى الماء ، ليزلن عنها الصِّبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ، ويعطرنها بالعطور ، ويزينها بالزهور المقدسة ، ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلاً من فضة ، عليه قصر من ذهب ، وهناك أعددن لها سريراً إلهيًا رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ، وهاهنا انقلب (بوذا ساتفا) [1] فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب ، فلما بلغه هبط منه إلى جبل الفضة ، آتيًا إليه من جهة الشمال ، وفى جعبته التى أشبهت جبلاً من فضة كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ، وبعدئذ نفخ فى الصور ، ودخل قصر الذهب ، ودار تجاه اليمين دورات ثلاثًا ، حول سرير (مايا) ، ثم ضرب جنبها الأيمن ، وظهر لها كأنه يدخل رحمها ، وبهذا تلقى حياة جديدة .

* جمع الملك البراهمة ليفسروا الحلم ، فقالوا : سيكون لك ابن ، ولو سكن ذلك الولد بيتًا فسيكون ملكًا على الدنيا بأسرها ، أما إن ترك داره فسيكون (بوذا) ، يرفع الغشاوة عن عيون الناس .

وحملت الملكة به عشرة أشهر ، كأنه الزيت فى القدح .

ولما آن أوانها رغبت فى الذهاب إلى بيت أهلها فى (دينا داذا) .

كان فى الطريق حرج كبير ، رغبت الملكة فى أن تستريح به ، وأمسكت بفرع شجرة من أشجار (الملح) ، فأجاءها المخاض ، ووضعت وليدها ، وهى لم تزل ممسكة بالغصن .

نزل (بوذا ساتفا) كما ينزل الواعظ من منْبَرة ، ووقف لا يلوثه القذر ، ولاتدنسه شائبة ، مشرقًا بالضوء ، كأنه جوهرة مَوضوعة على ثوب بنارس .

وقيل إنه ولد فى مدينة لومينى سنة ٦٢٣ ق . م جنوب غربى نيبال .

---

(١) كائن أصبح أهلاً لأن يدخل الراحة الأبدية Nirvana ، ويصبح بوذا ، لكنه يرفض - بمحض إرادته - هذا الامتياز فى المكانة ، ليظل بين كائنات الكون التى لاتزال غير مستنيرة ، ويعمل من أجل خلاصها . . إنه شخص مبجل بطولى ، بل معبود ، من أجل احتماله الشقاء وكده ورحمته للآخرين .

وعند مولده ظهر فى السماء ضوء لامع ، فرأى الأعمى ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها ، تمد له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمه . . وعاش عيشة الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور (كأنه إله) .

كان أبوه يقيه - مدفوعًا بحبه الأبوى - شر الاتصال بما تعانيه البشرية من آلام وأحزان ، وكان يقوم على تسليته أربعة آلاف راقصة . . ولما بلغ رشده عرضت عليه خمسمائة أميرة ليختار إحداهن زوجة له .

ولما كان ينتمى إلى طبقة (الكشاترية) ، تعلم الفنون العسكرية ، لكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء ، حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية التى كانت شائعة فى عصره .

وتزوج ، وأصبح أبًا سعيدًا بزوجته وابنه (راهولا) ، ينعم بالثراء والدعة وطيب الأحدوثة .

وتروى النصوص أنه التقى - على التوالى - برجل يعذبه المرض ، ثم برجل فى آخر مراحل الوهن والشيخوخة ، ثم بجثّة محمولة إلى المحرقة ، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء . وبينما هو يفكر فى هذه الوقائع رأى رجلاً مقدسًا ، حليق الرأس ، جوالاً ، وآخر من الذين نذروا أنفسهم للسعى إلى حياة الزهد ، للتحرر من عبث الحياة ، وهكذا تحول (سدهاتا) إلى حياة الزاهد المتجول ، آملاً فى أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشرى .

* قال بوذا : (لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ، ماذا تكون ؟ ولما وجدتنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة ، بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ، ماذا تكون ؟ كذلك المرض ، وكذلك الدنس . . . فلما رأيت فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لايولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرڤانا) .

انضم إلى جماعة من النساك ، وظل فترة من الوقت يعمل بجد تام سعيًا وراء الحقيقة الروحية ، متخذًا منهج الزهد ، وأخيرًا وجد أنه لم يتقدم كثيرًا فى

سعيه ، على الرغم من أن نظام الزهد الذى اتبعه بلغ من الصرامة حداً أذاب الشحم واللحم ، واقترب كثيراً من الموت .

لبث ستة أعوام يحاول أساليب رياضة النفس (اليوجا) ، وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات بالروث ، وانتهى بالتدرج إلى أن جعل طعامه حفنة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياب الوبر ، وانتزع شعر رأسه ولحيته ، لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب .

كان ينفق الساعات الطوال واقفًا أو راقدًا على الشوك ، وكثيرًا ما كان ينام بين الجثث الغضة المكشوفة التى يجتمع عليها الطير والوحش .

ثم أدرك أن ما يبحث عنه لايمكن الوصول إليه عن هذا الطريق .

وقال : (قلت لنفسى : ماذا لو قلّلت من طعامى ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتى من عصير الفول أو العدس أو البازلاء أو الحمص . . . فضمر جسمى ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عيناى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محْجَرَيهما ، كما يبرق الماء عميقًا وطيئًا فى بئر . . . ولما كنت أمدّ يدى لألمس جَلد بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم ، وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، (إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية) .

وتساءل : (ما مصدر مايعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟) .

* ترك الزهاد ، ومضى حتى وصل إلى ضفة نهر جايا Gaya ، وهو رافد يصب فى نهر الجانج ، جلس تحت شجرة البو Bo-tree ، وأخذ التأمل الجاد ، على طريقة الرجال المقدسين فى الهند ، عازمًا على أن يظل فى تأمله ، حتى يصل إلى الاستنارة التى يسعى إليها .

ويخبرنا التراث البوذى كيف هاجمه الشيطان (مارا Mara) وبناته الثلاث ،

وكيف حاولوا بحيلهم المختلفة أن يجعلوه يحيد عن تحقيق هدفه ، أن يصبح بوذا (المستنير) ، غير أن جهودهم ذهبت هباء .

وهذا الخبر يشبه خبراً ورد فى (متى صَحْ ٤ : ٧ و ٨) من تجربة الأربعين يومًا فى المسيحية ، إذ كان الشيطان يحاول إغراء السيد المسيح .

وبعد ليلة من الصراع الروحى أمكنه أن يتغلب على جميع العوامل الشريرة التى تربط الناس - فى رأى البوذية - بهذا العالم الفانى .

وهكذا استيقظ بوذا ، ودخل فى نطاق الوجود الأزلى المثالى . . أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة ، يتعاقبان فى مجرى الحياة تعاقبًا لاينتهى ، ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ، وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد ، وخيبة أمل جديدة ، وحزن جديد ، وألم جديد .

رأى (أن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة فى هذه الحياة الدنيا ، كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة فى الحياة الآخرة كما يتوهم أنصار كثير من الديانات ، أما ما يمكن أن يظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرفانا) .

ويقال إن أول موعظة ألقاها بوذا عن (الحقيقة الخالدة) كانت فى الهواء الطلق ، فى حديقة غزلان ، قرب (بنارس) ، وتعرف هذه الموعظة فى التراث البوذى بـ(موعظة تحريك عجلة الدهاما Dhama - الحقيقة الأزلية) .

قال فى هذه الموعظة : (الميلاد مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والموت مؤلم ، والحزن والعويل واليأس والابتئاس مؤلمة كلها ، والاتصال بما لا يسر من أشياء مؤلم ، وعدم حصول المرء على ما يرغب مؤلم) .

ويمكن (العثور على المتعة هنا وهناك ، ويتركز بالذات فى اشتهاء الشهرة ، واشتهاء الوجود ، واشتهاء العدم) .

وقد أشار (جوتاما) إلى تعاليمه ، ناعتًا إياها بأنها (الطريق الوسط) بين حياة الشهوات ، وهى (منحطة وسوقية وعادية ودنيئة وباطلة) ، وبين حياة الزهد المنطوى على تعذيب الذات ، وهى (أليمة ودنيئة وباطلة) .

* لقد زعم لنفسه (الاستنارة) ، لكنه لم يّدع الوحى ، فما قال قط للناس إن إلهًا كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه كان أكثر صبرًا ومجاملة من أى معلم آخر .

(وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم ، إنها السبيل السامية ذات الشُّعب الثمانى ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النيّة ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة مانعنى به ، وسلامة التركيز) .

إن السلوك الأخلاقى يقوم على أساس الحب والحنان ، وينبع من الحكمة ، أو من عقل مستنير ، ولكن لتحقيق الحكمة ، ولمراعاة الحب والحنان ، فإن انضباط النفس يعد أمرًا مطلوبًا . . وهكذا فإن السلوك الأخلاقى والانضباط والحكمة هى الحقائق الثلاث للحياة الخيرة .

والحكمة لاتتوقف عند كشف طبيعة الأشياء ، وأسباب المعاناة ، بل تلح على قهر المعاناة ، من خلال تنحية كل ضروب الرغبة والأنانية ، وغرس حب شامل فى عمقه ومداه .

ولاتتحقق الحكمة دون انضباط ، ومن ثم يمارس المرء الجهد الحق ، والانتباه العقلى الحق ، والتركيز الحق ، حتى تكون : ١- الحيلولة دون نشوء الشر ، وحالات القصور الذهنى . ٢- التخلص من مثل هذا الشر وتلك الحالات الموجودة بالفعل . ٣- إحلال الخير ، وحالات الصحة الذهنية . ٤- تطوير الخير ، وحالات الصحة الذهنية الموجودة بالفعل والارتقاء بها نحو الكمال .

ويتمثل الانتباه العقلى الحق فى كون المرء واعيًا بمختلف نشاطه ، ومُنتبها له ، وذلك يشمل نشاط الجسم ، والحس والشعور ، والإدراك ، والتفكير والوعى .

وكون المرء واعيًا بنشاطه ، ومنتبهًا له ، يعنى فهم طبيعة النشاط ، كيف ينشأ ، وكيف يختفى ، وكيف يتم تطويره ، والسيطرة عليه ، والتخلص منه .

أما سلامة التركيز فمسألة تتعلق بإعادة خلق ذات المرء ، بوصفه شخصًا

مستنيراً ، فالجهل والاستنارة والمعاناة والسعادة تضرب جذرها فى نشاط المرء العقلى ، وقد ورد فى (الدهما بادا) أن :

(العقل يسبق كل حالات القصور ، وهو عمادها ، فهى جميعها مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث شخص ما ، أو تصرف بعقل دنس ، فإن الشقاء سيلاحقه ، كما تلاحق عجلات العربة حافر الثور ، والعقل يسبق حالات الكمال ، وهو عمادها ، فهى جميعًا مفعمة بالعقل ، وإذا ما تحدث أو تصرف بعقل نقى ، فإن السعادة ستتبعه كظله الذى لايفارقه) .

وعادة مايتم التمييز بين أربع مراحل من التركيز . . وفى المرحلة الأولى يركز المرء على التخلص من الشهوة ، وسوء النية ، والكسل ، والهم ، والقلق ، والشك ، وهذا النشاط الذهنى القاصر وغير الصحى تحل محله مشاعر البهجة والسعادة .

وفى المرحلة الثانية يركز المرء على النفاذ ببصيرته عبر النشاط الذهنى ، والوصول إلى ماوراءه ، على الرغم من احتفاظه بالوعى بالبهجة والسعادة .

وفى المرحلة الثالثة يمضى المرء إلى ما وراء النشاط الذهنى المسئول عن البهجة ، ويحقق اتزانًا تتخلله السعادة .

وفى المرحلة الرابعة يكون اتزان كامل ، ووعى كلى ، يتجاوز السعادة والتعاسة فى آن معًا .

وسلامة القول تعنى – بصفة عامة – تجنب كل قول يفضى إلى التعاسة ، واستخدام العبارات التى تجلب السعادة ، ويشمل التطبيق السلبى : لا كذب ، لا نميمة ، لا اغتياب ، ولا حديث يجلب الكراهية أو الغيرة أو العداء ، أو الفرقة ، ولا حديث يتسم بالشدة أو الوقاحة ، أو يشوبه الخبث ، أو ينقصه الأدب والاحتشام ، ولا ثرثرة بسبب من الكسل أو الخبث أو الحمق . . والتطبيق الإيجابى : يتمثل فى قول الحق ، والتحدث برقة وود ، وأن يتضمن الحديث فائدة ، ومراعاة الوقت المناسب والمكان المناسب ، وإلا فالصمت النبيل .

وسلامة السلوك تعنى تجنب الإيذاء ، والبعد عن أى نشاط يضر بالنفس ، أو بالآخرين .

وسلامة العيش باستبعاد المهن التى تؤذى الآخرين ، مثل الاتجار فى الأسلحة ، والخمور ، والمخدرات ، والسموم ، والدعارة . . . إلخ - الفكر الشرقى القديم ص ١٩٨ / ٢٠١ .

* ولقد سبق (جوتاما) البسطامي الصوفيَّ المسلمَ إلى إدراك حقيقة مايعتمل فى الذات من إيمان ، وهو ما لا يُحوج إلى شواهد ونُصُب ، (لاحاجة بك إلى السفر إلى «جايا» ، أيها البرهمى ، كن رحيمًا بالكائنات جميعًا ، فإذا أنت لم تنطق كذبًا ، وإذا أنت لم تقتل روحًا ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمنًا فى حدود إنكارك ذاتك - فماذا تجنى من الذهاب إلى «جايا» ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه «جايا») .

لقد رفض أن يبدى رأيًا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هى هى البدن أو شيئًا متميزًا عنه ، أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم . . وهو يسمى هذه المشكلات (غاية التأمل النظرى وصحراءه ، وبهلوانه ، والتواءه ، وتعقيده) .

وهو بهذا لم يخرج عن (جوهر) الفلسفة (الجانتية) ، وإن كان قد عمل على تطويرها ، ونَحابها منحى إيجابيًا ، وإن كان محدودًا .

قيل إن أحد أتباعه سأله : سيدى ، هل هناك إله ؟ فأجاب : أتراني قلت إن هناك إلهًا ؟

دهش السائل ، وراجعه قائلاً : إذن ليس هناك إله ، ياسيدى ، فأجاب : أتراني قلت ليس هناك إله ؟

ومع أن الخبر روى عن كونفوشيوس وأحد تلاميذه ، فإن المفكريْن الكبيريْن جمع بينهما الواقع المعيش ، والبحث عن طريقة لتجنب الشرور ، أو لتيسير الحياة ، دون الوقوف عند تدخل قوى غير مرئية .

* دنا أحدهم من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما قائلاً : أين

يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة الكبرى - التراب والماء والنار والهواء - بحيث لاتترك وراءها أثرًا ؟) .

أجابت الآلهة التى تؤلف حاشية براهما : (إننا - يا أخانا - لاندرى من ذلك شيئًا ، لكن هناك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلى ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، من بيده الأمر والتدبير فى جميع الشئون ، فهو ضابط كل شئ ، وخالق كل شئ ، وسيد كل شئ . . هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن ، وكل ماسيكون ، إنه أقوى وأعظم ، سلّه يجبك) .

- أين إذن هذا البراهما العظيم ؟

- (إننا - ياأخانا - لاندرى أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ، ولا من أين جاء ، ولكن - ياأخانا - إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء ، وسطع المجد ، عندئذ سيتبدى للناظرين ، لأن بادرة ظهوره هى إشراق الضوء ، وسطوع المجد) .

ولم يمض وقت طويل حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك ، وسأله ، وكرر السؤال ثلاثًا ، فأخذ براهما العظيم السائل ، ونحاه جانبًا ، وقال :

(إن هذه الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما تعتقد أنى - يا أخى - أرى كل شئ ، وأتبين كل شئ ، ولهذا لم أجبك فى حضرتهم ، لكننى - أيها الأخ - لست أدرى أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى ، بحيث لاتترك وراءها أثرًا) .

هذه السخرية المريرة من الآلهة ومن الفلاسفة هى معيار انقطاع الإنسانى عن الإلهى ، أو هى ثمرة الشعور بعدم القدرة على اعتناق الحياة ، واستثمار خصوبتها . . إنه العقم والجفاف والضياع .

سئل الإمام على : أين يذهب ضوء الشمعة ؟ فأجاب : وأين يذهب دهن المريض ؟

إنها محاجة لاتقوم على (العلم) ، بل على الاعتراف بعدم العلم ، أو على عدم الاعتراف بالجهل .

وما دام الجهل سابقًا على المحاجة ، وما دام العقل لايملك كل المفاتيح ، فكل شئ مباح ، وأوسع الأبواب ستظل مغلقة .

* كان بوذا يقول لتلاميذه : (انتشروا فى الأرض كلها ، وانشروا هذه العقيدة ، وقولوا للناس : إن الفقراء والمساكين والأغنياء والأعيان كلهم سواء ، وكل الطبقات - فى رأى هذه العقيدة - تتحد لتفعل فعل الأنهار ، كلها تصب فى البحر) .

ولكن هل تصب فى البحر لتجدد ماءه ، أو لتقلل من ملوحته ، أو لتزيد من سعته ، أو لتعوضه عن البخر ، أو لتفقد فعاليتها ، وتعلن نهاية رحلتها ؟!

لقد رفض بوذا التضحية فى سبيل الآلهة ، وفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا طقسًا لا ينتفع به غير الكهنة .

ورفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة .

وربأ بنفسه عن الرقى والعزائم والتراتيل .

جاء فى (قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٨١ / ٨٤) : إنه (يقدم للناس دينًا حرًا أكمل الحرية ، بدلاً من جمود الفكر ، ومن صناعة الكهنوت ، ويفتح طريقًا للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء) .

لماذا ؟ أليس هذا (السلوك) غاية ؟ أتكون الغاية هى الزهد فى الحياة ، وكف النفس عن الاستمتاع بها وإعلائها ؟

أحسب أن هذا الرجل كان أقدر على الاعتراف بأن (ماوراء الواقع) هو ما نجهله ، وهو ما لا سبيل إلى معرفته ، وما علينا إلا أن نتعامل مع الواقع ، مع مانعلمه ، حتى إذا جد جديد ، وانكشف غطاء (الماوراء) أو الميتافيزيقا ، وصارت (فيزيقا) ، فإن ديننا لن يتغير ، لأننا من البداية نتعامل فى حدود معرفتنا .

(إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سببًا فى سعادتك أو شقائك ، لأن السعادة والشقاء دائمًا نتيجة سلوكنا نحن ، وشهواتنا نحن) .

هذا جميل ، ولكن كيف ؟ أتكون السعادة فى عدم الحاجة إلى السعادة ؟ أهى وضع النفس فى بالون ينطلق من قمة الهميلايا الباردة إلى شعاب الغَيْب ؟ وأين نحن من الناس ، ومن العوامل البيئية والطبيعية ، ومن تسلط الحكومات ؟

إنه يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها (قوة وراء الطبيعة) ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيمًا .

فهل تتحقّق مسيرة المجتمعات البشرية دون ثواب وعقاب ؟

ولو أن الناس عاشوا فرادى (جزراً معزولة) ، وتخلوا عن طبيعتهم (الاجتماعية) ، ألا يعنى هذا نهاية العالم ، أوْ بمعنى آخر (قتل الحياة) ؟ !

إن من طبيعة (الحى) التعلق بالحياة ، حتى وهى تتسرب من شفتيه وأطرافه .

ليس من السهل التخلى عن (الوجود) ، وإلا ففيم كانت العلوم والفنون ؟ أليست هى أقوى المحاولات التى توصل إليها الإنسان لاستمرار (البقاء) ؟ !

إن إرادة الاستمرار التى صنعت العلوم والفنون هى التى صنعت الشرور والآثام ، وصنعت القوانين وقواعد السلوك ، وصنعت كذلك الجنة والمطهر والجحيم . . فإذا عجزت الدنيا عن تحقيق (العدالة) التى هى قوام الحياة الكريمة ، فلابد من التعلق بحياة أخرى تتحقق فيها هذه (العدالة) .

هذا هو النزوع الروحى والنزوع العقلى معًا . . لكن بوذا عمل على سجن الروح ، وعلى سجن العقل معًا .

إنه يرى أن (هذا العقل الذى ينسج خُيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر ، إن هو إلا شبح توهمناه ، وكل ماهو موجود حقًا هو الإحساسات نفسها ، والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية ، فى هيئة تذكارات ، وأفكار ، حتى هذه « الذات » النفسية ليست كائنًا قائمًا بذاته ، متميزاً من سلسلة الحالات العقلية . . ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافًا إلى ذلك مايتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية

وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات . . إن تعاقب هذه الحالات لاتسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والبيئة والظروف) .

(إن هذه النفس ، أو هذه الذات ، أو هذا العقل ، يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد في وجوده ، فليس القديس بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه) .

ليكن ، فما جدوى هذا العقل ؟ وما جدوى الحواس والتذكارات التى تزود العقل بوقود حركته ؟ وأين تذهب (الميول والاتجاهات) ؟ أين تفرغ الميول والاتجاهات طاقتها ؟ وكيف يفكر فى الخلود من لا يفكر فى الوجود ؟ إن العدمية تلغى كل شئ ، كل شئ !!

ومع هذا يقع فى هاوية (التناسخ) ، مع تناقضها الكامل مع (العدمية) ، إذ هى صورة من صور (البقاء) المتجدد فى الدنيا (على الأقل) .

وكما يقول ديورانت : (لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض بين علم نفسه العقلى ، وبين قبوله لمذهب التقمص قبولاً أعمى) .

(إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ ، أو تقمص الروح فى أجسام متتالية ، له فى الهند قوة وشمول ، بحيث يعتنقه كل هندوسى ، على أنه بديهة أو فرض ، لابد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه) .

يحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم (أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعًا كذلك فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم اسيديو : « إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة ، فافعلوا ما تريدون ، فقد قصد إعلامهم ، وقد قضيت حاجته) .

وترتبط عقيدة التناسخ (سمسارا) ارتباطًا وثيقًا مع شريعة كارما – الأعمال الصالحة – التى تقول إن خلق الإنسان ومركزه الاجتماعى وثروته إنما تحدها هذه الشريعة ، وهى تنص على أن المرء يحمل عبء أخْطائه ، كما يجازى على

أعماله الصالحة إلى الأبد ، وأن الروح تمر من تجسيد إلى تجسيد حتى تصل به فى النهاية إلى (الموكشا - الخلاص) ، وأن من يحيا طبقًا للقواعد ، طاهرًا ، سيد نفسه ، منعزلاً ، صادقًا ، مستوفيًا واجبات طبقته ، فسوف يرتفع فى كل تجسيد إلى درجة أعلى فى الطهارة ، وفى ترتيب طبقته .

وهكذا ، إلى أن يصل إلى مرحلة تؤهله لأن يدرك الحقيقة ، حيث تتلقى روحه الوحى بشخصية البراهمان ، وهنا فقط تتوجه روحه عن التجسيد .

والخلاص النهائى - تبعًا للنظرية الهندوسية - لايعنى فقط الانسحاب من الحياة اليومية ، بل من العالم أجمع ، بما فى ذلك الجنة ، وعالم الآلهة . . فالعالم ما هو إلا (عجلة) تدور معها الولادة والوفاة ، حتى أبد الآبدين ، أما الحقيقة الدائمة فهى الروح .

فكيف إذن تتخلص الروح من هذه العجلة ، يستحيل على الروح تحقيق ذلك إلا بعد استنفادها لعقيدتى (الكارما - الأعمال الصالح) ، و(السمسارا - تناسخ الأرواح) - الهند . . عقائدها وأساطيرها ص٦٩ / ٧٠ .

* صارت البوذية ديانة ، لكن هذا لم يكن من عمل بوذا نفسه ، بل من عمل أتباعه .

حين دعا إلى (النرفانا) لم يضع لها معالم ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يمكن أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير المقدسة ، وما أوسع مجالات المجاز .

إنها حالة من السعادة يبلغها الإنسان باقتلاعه شهوات نفسه اقتلاعًا تامًا ، وهى اتحاد الفرد بالله ، وهى انعدام شعور الفرد بفرديته ، وهى تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ، وهى فردوس من السعادة بعد الموت .

والحديث عن الاتحاد بالله ، أو السعادة بعد الموت ، يتجاوز فلسفة بوذا التى لاتؤمن بالخلود ، وهذا دليل على تطور فى المذهب ، وتأثر بغيره من المذاهب .

وعلى الرغم من ازدراء بوذا للمعجزات ، انتحل تلاميذه ألف حكاية من الأعاجيب التى تمت على يديه ، فقد سار عبر نهر الجانج فى لمحة بفعل السحر ،

وأسقط من يده شظية من الخشب كان يخلل بها أسنانه فنبتت شجرة ، وعندما اختتم وعظه ذات يوم (اهتز العالم من أقصاه إلى أقصاه) .

* ولما دنت حياته الطويلة - ٨٠ عاماً - من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، وحدثت فى تعاليمه تحويرات وإضافات وأساطير لم يكن بوذا ليرتضيها . . لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائمًا يحفزهم على الشك فى صحّة مايقول ، حتى يفسح لهم مجال التفكير الحر . . وكانت آخر كلماته لرهبانه : إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجاد) - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص٦٥ / ٨٨ .

وكان أتباعه خلال الأربعين سنة التى قضاها فى ممارسة نشاطه العام - من جميع الطبقات ، ومن كافة المهن والأعمال .

وبعد سبعة أيام من وفاته ، فى مدينة كوشنجارا ، أو كوزنجارا ، جنوب حدود نيبال ، وتسمى الآن (كازيا Kasia) - تمّ إحراق جثته ، وأقيم احتفال مهيب ، على غرار ما كان يحدث فى حالة وفاة الملك فى تلك الأيام ، وقسم رماد جثته بالتساوى على ثمانى مجموعات ، ونقلت كل مجموعة نصيبها حيث أقامت فوقه ضريحًا مقدسًا ، على غرار أشكال تخليد وتكريم الموتى المعروفة فى الهند باسم (ستوپا Stupa) ، وأصبح الضريح مركزًا لعبادة عامة البوذيين ، ثم تطور إلى الصورة التى عرفت فى جنوب شرق آسيا باسم (باغودا Pagoda) .

ويصر البوذيون على أنك (إذا أردت أن تفهم العقيدة البوذية فلابد أن تمارسها) ، لأن تعاليم العقيدة أريد لها - منذ البداية - أن ينفذها أولئك الذين ارتبطوا بالحياة البوذية ، وأن ترتبط بمواقف الحياة عند التلميذ خطوة خطوة . . وهذا لون من الاعتذار عن فشلها فى موطنها الأصلى ، وتغلب البرهمية عليها .

* وفى عام ٣٢٦ ق . م تصدى الملك الهندى فور Forus لجيوش الإسكندر ، ومع أنه هزم فقد أعجب به الإسكندر لشجاعته ، وولاه على جميع مافتح من بلاد الهند ، وبقيت حامية مقدونية ، ثار عليها الأمير الشاب جندرا كوفنا (٣٢٢ / ٢٩٨ ق . م) ، وانتصر عليها ، ومد فتوحه ، وأسس سلالة عظيمة حكمت الهند وأفغانستان زهاء ١٣٧ عامًا (٣٢٢ - ١٨٥ ق . م) .

واشتهر من هذه السلالة الملك أشوكا Ashoka (٢٧٣ - ٢٣٢ ق . م) ، الذى اعتنق المذهب البوذى ، وجعله المذهب الرسمى فى الدولة ، وكان لها بمثابة الإمبراطور قسطنطين فى مساندة المسيحية . . واستطاع أشوكا أن يمد فتوحه لتشمل معظم أجزاء الهند .

ويعد حكمه الذى دام ٢٨ عامًا من العهود المجيدة فى التاريخ البشرى ، لما قام به من أعمال ومشروعات عمرانية ، وأسس المستشفيات والجامعات والحدائق العامة ، وخصص مزارع لإنماء الحشائش والعقاقير الطبية ، وأوجد وزارة تعنى بشئون الطوائف المنبوذة فى الهند ، وشرع فى تعليم النساء ، وعنى بالبحوث والتأليف ، ووجه الكتبة البوذيين إلى نقد الديانة البوذية وتطهيرها من الخرافات والأساطير ، وبعث البعوث التبشيرية إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية . . وبسبب اهتمامه بالأخلاقيات حفر مبادئها على الصخور واللوحات الحجرية ، ونشرها فى جميع أنحاء إمبراطوريته الواسعة ، وتبشر هذه التسجيلات بالتسامح الدينى ، وبعمل الخير لكل ما هو حى ، وبالتحلى بالصبر والأناة ، وبالحث على الامتناع عن الحسد .

وقد جاء فى أحد مراسيم أشوكا :

(إن قانون التقوى شئ جميل ، لكن ، مم يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) .

لكن ما حدود (التقوى ، والخير ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء) ؟ ألا تحتاج إلى معايير تنسل خيوطها من خيوط أضدادها ، أو تلون كل قيمة بلون خاص بها ؟

ومع هذا كانت الظروف (العالمية) مهيأة لنشر التعاليم البوذية : بالرغم من عدم نضجها ، وساعد على هذا الانتشار ما تتمتع به من شاعرية ودغدغة للمشاعر البائسة .

ولم تعش إمبراطورية الموريا (الأشوكية) طويلاً من بعده ، فقد اكتسحتها

جَحَافل متعاقبة من المهاجرين ، مخترقة ممرات الجبال فى الشمال الغربى للهند ، حاملة معها أجناسا ونفوذًا أجنبيًا جديدًا .

وكان من بين هؤلاء المهاجرين الإغريق الذين تخلفوا فى شمال الهند عند غزو الإسكندر ، ثم تلاهم الإسكيذيون ، وهم من الشعوب الرحل ، أتوا من شمال آسيا ، ثم الكوشان من وسط آسيا .

وقد أسس الكوشان مملكة شمالى الهند ، بلغت أوجها فى القرن الثانى للميلاد ، وامتدت حدودها من الشمال الغربى حتى حوض نهر (بنارس) جنوبيًا ، ونحو الشمال والشرق حتى وسط آسيا ، وبذلك صارت ملتقى الحضارات الهندية والصينية والفارسية والإغريقية الرومانية .

وقد ساهم اعتناق الكوشان للبوذية فى تغلغل تعاليمها إلى الصين وكوريا واليابان ، وفى عهدهم تطور الفكر عن بوذا ، من بوذا النبى إلى بوذا الإله ، ولم يعثر على تمثال واحد لبوذا من العصر الكوشانى .

* كان كل مقصد البوذية تطهير النفس من شهواتها ، وتحليتها بمكارم الأخلاق فى معاملة الناس .

لهذا لم تكن البوذية تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية ، من الغسل فى الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام ، والاشتغل بالعبادات المجهدة ، والجولان عراة حفاة ، والتزين بزى الرهبان ، من حلق الرءوس أو تلبيد الشعر وتتريب الجسد ، وعرض النذور والقرابين . . فكل ذلك لم يكن له حظ فى النجاة عند البوذية .

يقول بوذا : (التعرى وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وتتريب الجسد . . الخ ، كل ذلك لايطهر فانيًا لم يقهر شهواته) ، ثم يقول : (لايطهر نهر رجلا متعهدًا للسيئات ، مضمَرًا للمقت ، مرتكبًا للجناية) ، ويقول : (النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد ، لا أكل اللحم) - الهندوسية تحرم أكل اللحم - والعمل الصالح فى البوذية هو تطهير الباطن ، من حُبّ النفس ، والشح ، والحقد ، والغلظة ، والشهوة ، والغضب . . كما أنه غضٌّ البصر عن عيوب الناس ، والتأسّى بهم فى أحزانهم وأوجاعهم ،

والأخذ بالتقوى فى شعابها المتعددة ، من الامتناع (عن قتل كل ذى روح ، وعن سلب أموال الناس . وعن النظر إلى نسائهم ، وعن قول الزور ، وعن شرب المسكرات ، وعن التعدى بالجوارح) - تاريخ الإسلام فى الهند / النمر ص ٥٤ / ٥٥ .

ومن هنا لم يقطع البوذى صلته بالمجتمع ، فهناك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامة الناس ، والناس يزودون الرهبان بالطعام والثياب ، ويعينون الدير بطرق شتى ، بينما يقدم الرهبان خدمات مختلفة لمن حولهم .

والراهب المتجول ، لايملك شيئًا ، ولا عمل له ، يتعفف عن اللذات الدنيوية ، الجنس والغناء والخمر والرقص ، ويمتنع عن التوابل والملح والعسل ، ويتسول فى صمت ، ويقضى أكثر وقته فى التأمل والتفكير .

وهو ليس - كالراهب البرهمى - صانع معجزات ، أو وسيطًا بين اللّٰه والإنسان ، إنما هو تائب نادم فى المقام الأول ، ثم هو واعظ ، موجه للضمائر ، معلم للدين ، أو هو مبشر ، متواضع ، لايملك شيئًا ، ولا عائلة له .

ومع هذا فالأديرة البوذية غنية بما يقدم إليها من تبرعات ، منذ أن كان بوذا حيًا .

وللبوذية أديرة كثيرة واسعة تأوى فيالق من الرهبان ، وتهتم بالنصب التذكارية ، لتخليد البقع المقدسة التى مر بها بوذا والقديسون الأوائل ، وتهتم البوذية بالمعابد والصروح الضخمة الغنية بالزخارف والصور والتماثيل . . ومع هذا ظلت العبادة بسيطة ، تتمثل فى شعائر الإيمان ، والولاء ، وتقديم الأزهار ، والاحتفاظ بمصابيح مشتعلة أمام صورة بوذا أو هيكله . . ولهم معابد مشيدة تحت الأرض تصل إلى ألف معبد .

ويعدّ التعليم أبرز الخدمات المعتادة ، فالدير مدرسة يذهب إليها البنون والبنات من أبناء القرية لتعلم القراءة والكتابة . . والدير يقدم إرشادات منتظمة للجمهور أخلاقية واجتماعية ، ويقوم بتنظيم الاحتفالات الاجتماعية ، والدينية ، ويؤدى رهبانه أدوارًا قيادية لإقامة مشروعات محلية .

* وقد يسرت البرهمية سبيل العودة للبوذيين الخارجين عليها بأن اعترفت

ببوذا إلهًا (اعتبرته مجسدًا للإله ڤشنو) - وأقلعت عن التضحية بالحيوان ، وقبلت في صميم طقوسها مذهب البوذيين في تقديس حياة الحيوان بأسره . . وهكذا أخذت البوذية تختفي في هدوء وسلام من الهند ، إيان خمسة قرون ، كانت خلالها نهبًا لعوامل التدهور البطيء .

وكان للغزو الإسلامي أثر كبير في تضييق نشاطها ، وتهجير دعاتها .

لكنها انتعشت أخيرًا إثر اعتناق أفواج من المنبوذين الهندوس لها ، وعلى رأسهم الدكتور أمبدكار الذي اعتنق البوذية مع مائتي ألف من المنبوذين في حفل جماعي .

وبعد أن حصل البوذيون على امتيازات خاصة انحسرت موجة الإقبال على البوذية .

والطائفة البوذية في الهند لاتتعدى الأن خمسة ملايين .

وفي سيلان (سريلانكا) - منذ عهد أشوكا حتى انحلال البوذية في القرن التاسع الميلادي - ظل الناس ألفي عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند البوذيين ، وكان المعبد المقام على قمة جبال كاندي كعبة يحج إليها مائة وخمسون مليونًا من البوذيين في آسيا .

وحدث في القرن السابع الميلادي أن دعا حاكم (التبت) طائفة من الرهبان البوذيين في الهند لينشروا البوذية والتعليم بين شعبه ، فأقيمت آلاف الأديرة في الجبال ، وعلى النجد الفسيح ، ونشر كتاب تشريعي عظيم يضم الكتب البوذية ، ويقع في ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيرًا من نصوص هذه الكتب التي كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل ، وها هنا في (صومعة) التبت التي أغلقت أبوابها دون العالم بأسره - راحت البوذية تتطور في شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت .

يقول ويلز (معالم التاريخ الإنسانية مج٢ ص ٥٠٠) : لو أن (جوتاما) بعث من قبره حيًا لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثًا عن تعاليمه بلا جدوى ، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر . . سيجد ملكًا

متوجًا فى شخص (الدالاى لاما - المعلم الروحانى ، أو بوذا الحى) ، وسيجد فى (لهاسا) معبدًا فخمًا غاصًا بالكهنة ، والرهبان ، واللامات (المعلمين الروحيين) ، وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنمًا ذهبيًا ضخمًا يسمى (جوتاما بوذا) ، ويسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس وسننًا فيها آثار مبهجة لأشياء مألوفة لديه ، وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسم المدهشة ، ويدور جرس فى لحظة من لحظات الصلاة ، وترفع مرآة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها فى انحنائها إمعانًا فى المهابة والتوقير .

واللاما (المعلم الروحانى) هو الشخصية الكبرى فى العقيدة ، فيه تتقمص روح البوذا ، فإن مات انتقلت الروح إلى طفل ولد فى نفس يوم وفاته ، ويغدو هو اللاما الجديد .

جاء فى رحلات (هك Huc) كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية ، لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، حيث يقول : (إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيل التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم ، أو عندما يقومون بطقوس خارج المعبد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين ، وترنيم المزامير ، والتعويذات ، والرقى ، والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل ، والتى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد أيديهم اليمنى على رأس المؤمنين ، والسبحة ، والعزوبة الاكليروسية ، والانزواء الروحى ، وعبادة القديسين ، والصيام ، والمواكب ، والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ، كل هذه متماثلات يشترك معنا فيها البوذيون) - المصدر السابق ص ٤٩٠ .

* والبوذية فى (بورما) أخلص ما بقى من ألوان البوذية من الشوائب الدخيلة ، وكثيرًا ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا . . واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليونًا (؟!) أن يبلغوا - بفضل تعاليم أولئك الرهبان - مستوى من العيش أعلى مما فى الهند بدرجة ملحوظة - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٢٠١ .

وفى الضاحية الشمالية من (رانجون) أقيم مركز عظيم للعبادة البوذية (الباغودا الذهبية) من كتلة من الحجارة الدائرية المركزية ، تُغَطّيها تمامًا صفائح رقيقة من الذهب الخالص ، ويبلغ ارتفاعه قدر ارتفاع قبة كاتدرائية القديس بولس فى لندن ، ويحيط بالمبنى رصيف دائرى مكشوف من المرمر ، أقيمت على أطرافه الخارجية مجموعة متنوعة من الهياكل والأديرة ، وهو مكان يؤمه الحجاج البوذيون من كل أنحاء جنوب شرقى آسيا ، ولاسيما مدن وقرى بورما .

وقد زارت بعثة مجلة العربى (يوليه ١٩٩٦) المعبد الفضى (وات بنوم) فى العاصمة (بنوم بنه) من (كمبوديا) ، فوجدت (مدينة دينية كاملة ، تتناثر فى رحابها صروح وأبراج ، تغطيها نقوش زخرفية بديعة من الحجر الرملى الرمادى ، توحى لمن لايدقق أو يقترب منها ، بأنها زخارف محفورة فى الرخام ، وفى المبنى الرئيسى الذى لايسمح لأحد بصعوده إلا حافيًا ، تغطى أرضه خمسة آلاف « بلاطة » من الفضة الخالصة ، وفى الصدر ينهض تمثال لبوذا من الذهب الخالص ، وزنه ٩٠ كيلو جرامًا ، ترصعه تسعة آلاف وخمسمائة ماسة) .

وفى عام ١٩٨٢ كان فى تايلاند ٢٤ ألف دير ، و ١٧٥ ألف راهب وراهبة ، وحوالى ١٠٠ ألف راهب تحت الإعداد ، والسبب فى تأرجح أعداد الرهبان أن كثيرًا من الناس لايلجئون إلى حياة الأديرة إلا فى مواسم المطر فقط . . وقد زرتُ معبدًا فى بانجكوك مذهب القباب ، كتبت وصورت على جدرانه إحدى الملاحم الهندية الدينية .

ومنذ عام ١٩٠٢ وجماعة (السنغا Sangha) ، المشرفة على نظام الجماعة ، تدبر أعمالاً مستقلة عن الحكومة ، من خلال (مجلس السنغا الأعلى) ، رغم أن الملك التايلاندى بوذى ، حام للنظام .

وقد تم إرسال بعثات تبشيرية بوذية إلى ماليزيا ، والهند ، ولاوس ، وانجلترا ، وأدت الأديرة واجباتها الاجتماعية والتعليمية والصحية على خير وجه .

رامـــا و كرشـــنا

لما كان من طبيعة الهندوس تمثيل المعانى فى صور حسية ، لعدم قدرتهم على تعمق المعانى العليا وإدراكها ، أو لتيسير فهم هذه المعانى على الآخرين - ذهبوا إلى أن الإله يحل فى صورة مادية ، يتخذونها معبودات لهم ، ويقدسونها تقديسهم الإله لنفسه ، وغالبًا ماينسى الناس الأصل ، ويتجهون إلى الرمز .

وأشهر ماعرف من الأبطال الذين حل فيهم الإله فشنو (راما) و (كرشنا) .

(راما) تحول إلى إله معبود ، بعد أن حل فيه (ڤشنو) ، وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة (راما) ، حيث خطفها من الهند إلى بلاده فى (سيلان) ، فاجتهد راما حتى عرف مكان زوجته ، بمساعدة أحد القرود ، وهجم على ملك الجن ، تساعده القردة والدببة ، وعاد بزوجته راكبيْن المركبة السحرية ، وأصبح القرد - لهذا السبب - حيوانًا مقدسًا ، وأصبح استرجاع (سيتا) ، وانتصار (راما) عيدًا دينيًا يحتفل به كل عام - تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٤ / ٤٥ .

وتقول (أساطير العالم القديم ص٢٥٦ / ٢٦٠) : كان (راما) نموذج الأرستقراطية الزمنية ، أميرا تنزه عن العيوب ، كما كان معبودًا للزراع ، ويمثل وظيفة الإخصاب السماوية ، على حين كانت زوجته (سيتا) تمثل الأرض المنتجة .

وإذا كان راما تجسيدًا لڤشنو فإن سيتا تجسيد لاكشمى قرينة ڤشنو .

قبل أن يبلغ راما السادسة عشرة من عمره ، خرج فى سلسلة من المغامرات ، وتزوج أثناءها عديمة النظير سيتا ، بنت الملك جاناكا ، حيث ظفر بها ، حين ثنى

قوسًا لم يستطع أحد ثنيها ، وما لبث الملك (داشاراتا أن نزل عن العرش ، ليتبوأه راما) .

ظل راما يحكم عشرة آلاف عام ، ولم يكن ثمت موت في مملكته ، ولامرض ، ولاجريمة ، وأنتجت الأرض إنتاجًا وفيرًا ، وساد السلام .

لهذا يتمتع اسم راما بالبركة في كل أنحاء الهند ، وحينما اغتيل غاندى ، لفظ أنفاسه وهو يردد اسم راما ، وقد نقش هذا الاسم على نصبه التذكارى فى دلهى .

وتقام فى جميع أنحاء الهند احتفالات (الدوسيرا) التى تستمر لمدة عشرة أيام متوالية ، إحياء لذكرى انتصار راما على الشيطان راڤنا (رأس أوغاد رامايانا) ، تعبيرًا عن انتصار الخير على الشر .

* وتقول (أساطير العالم القديم ص ٢٦٢ / ٢٦٧) : فى مينورا ، كان يحكم الملك الشرير (كانسا) الذى ولدته الملكة زوجة الملك (أوحراسينا) ، ولم يكن ابن أوحراسينا . . كان أحد المردة قد أغرى الملكة بعد أن تمثل فى صورة أوحراسينا ، ثم اغتصب كانسا العرش ، وصار طاغية عاتيًا ، بحيث فزعت الأرض فى صورة البقرة ، طالبة العون من الإله إندرا ، فكان أن ذهب هذا الإله ومعه جمع من الآلهة إلى براهما ، طالبًا الإغاثة ، فأرسلهم براهما إلى شيڤا ، الذى أرسلهم بدوره إلى ڤشنو ، الذى وعد بتجسيد جزء من نفسه فى صورة (كرشنا) ، ليدمر (كانسا) .

وفى حياة كرشنا يتمثل عدد كبير من قصص الطفولة والشباب ، يدل بعضها على قواه الإلهية ، ويصور الآخر سحره الذى لايقاوم .

كان فى المَحَلّ الأول انتصاره على المخلوقات التى أرسلها كانسا لتدمره ، وانتصاره على الآلهة الغيورة التى حاولت إذلاله .

وقد اشتبك فى صراع مع إله المطر (إندرا) ، لأن كرشنا نصح الرعاة ألا يعبدوه ، فأرسل إندرا سيلاً هائلاً ليقضى على الرعاة وماشيتهم ،لكن كرشنا رفع فوقهم جبل (جوفا ردانا) ، وسنده بإصبعه ، حيث سترهم بذلك تحته سبعة أيام

بلياليها ، وكان أن اعترف إندرا بقوة كرشنا ، وأوقف الطوفان .

وبمرور الوقت نسجت حول كرشنا مجموعة من الأساطير والعجائب ، تشبه ماجاء فى الأناجيل عن السيد المسيح ، فكرشنا ولد من عذراء اسمها (ديفاكى) ، وأحيطت ولادته بالعجائب ، فالأرض سبّحت ، وظهر نجمه فى السماء ، وترنمت الأرواح (الملائكة) فرحًا وطربًا ، ورتل السحاب أنغامًا جميلة ، وقد ولدته أمه فى غار ، أضاء عند ولادته بنور عظيم ، وصار وجه أمه يرسل أشعة نور ومجد ، وزعموا أنه كان لأمه قبيل ولادته خطيب لتكون زوجة له .

وتبين أساطير الصبا كرشنا طفلاً جذابًا ، تعبده المخلوقات الطيبة كلها ، وتساعده إذا احتاج إلى العون ، ويساعدها بدوره فى قضاء حاجتها . . إنه طفل ذو حيل ذكية تأسر القلوب ، يُحِبّ ويُحَبّ ، يستبدل الحب بأقصى طاقة يستطيعها طفل .

أما فى شبابه فهو المحب الذى لاقبل لأحد بمقاومته ، ولا يحسده أحد ، فإذا عزف على الناى ، أو رقص مع (الجوبيات) عاش حياة سرور بغير قيود ، مع رفاقه ، فى أرض أبد الأبد ، حيث يمارس المسرات البسيطة ، إنه تأليه الهند للطفولة والشباب .

إنه حب الإله ، هذا الشامل لكل شئ ، هو الكنه الأساسى فى أسطورة كرشنا ، الذى حبب البطل الراعى إلى ملايين العباد .

وكم ألهمت قصة حبه الفلاحة الجميلة (رادا) الفنانين والموسيقيين والشعراء ، ويرمز هذا الحب للهندوس إلى الامتزاج الصوفى بين النفس الآدمية والروح الأبدية .

* وقد عقد صاحب كتاب (العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية) موازنة بين أقوال الهنود فى كرشنا وأقوال المسيحيين فى المسيح ، فتقارب الاعتقاد ، حتى أوشكا أن يتطابقا . . وإذا كانت البرهمية أسبق من النَّصرانية المحرفة ، فقد تبين الأصل وما جرى مجراه .

وقد أورد الشيخ أبو زهرة فى كتابه (الديانات القديمة ص ٢٦ / ٣٧) موازنة

بين أقوال الهنود فى كرشنا ابن اللّه ، وأقوال المسيحيين فى يسوع ابن اللّه ، ليبين العلاقة بين الأصل والفرع .

ويقال إن كرشنا أعلن أن هدف الحياة هو معرفة اللّه ، وأنه هواللّه ، وأن السبل إلى اللّه عديدة ، واحد منها بالأعمال ، وذلك بأن يؤدى المرء واجبه على الوجه الأكمل ، بغير أثرة ، وبغير التزام ، ولاينشد هدفًا إلا أداء الواجب من أجل الواجب . . وثمة سبيل آخر هو المعرفة ، عن طريق التأمل المركز ، وهو طريق لا يستطيع سلوكه إلا القلة القليلة . . والسبيل الأسهل والأحسن هو التسليم لله عن حب ، فمن اتبع ذلك تقبله اللّه .

وخير وسيلة إلى اللّه تكون بالإخلاص محبة ، لأن اللّه محبة .

إن تأثير كرشنا فى التراث يفوق كثيراً تأثير أى من التجليات الأخرى .

وها هو يعلن - باعتباره الرب الأعلى - لأرجونا :

(كل الكائنات تنشأ من « طبيعتى » / ألا فَلْتَعْرف ذلك عنها جميعها / وعن العالم بأسره / إننى الأصل والفناء ما من شئ أسمىَ منى على قيد الوجود / يا « أرجونا » / حوْلى نُظِمَ هذا الكون بأسره / مثلما تنظم الْلآلئ فى العقد) .

ويعلن : (أيا كان ما يحظى به كائن من مجد وجلال ، فاعلم أنه فى كل الحالات صدر عن كِسْرة من مجدى) .

وقد اهتم سفر (جيتا) بعرض أفكار (كرشنا) فى صورة حوار مع (أرجونا) ، قال كرشنا :

(من لا يؤدى واجباته فى الدنيا ، ولا يخدم بنى الإنسان ، ولا يحاول قضاء مطالبهم وتوفير الأسباب لراحتهم وطمأنينتهم ، فلن يحرز النجاح ، ولن يسعد أبدًا ، لأن هدفه الوحيد فى الدنيا يجب أن يكون خدمة بنى الإنسان) .

وقال : (إذا اختلج فى صدرك ما يراودك إلى تحقيق رغبة من الرغبات ، فلا تستجب له أبدًا ، بل يجب أن تقف دونه كصخرة شامخة لاتتزعزع ، ولاتتزلزل ، ثم تتجه إلى اللّه سبحانه . . كما يجب أن تكون دائم السعى فى

إقناع قلبك ، وربط جأشك ، والتغلب على رغباتك ، فإذا استطعت ذلك كنت مهتديًا ، وأصبحت شخصية مثالية خالدة) .

وقال : (إن كل من استطاع التغلب على الغضب والبغض والخوف ، والتمس مرضاة ربه ، فستنعكس فى قلبه معرفة اللّه ، فالنجاة ليست فى حاجة أبدًا إلى العبادات والطقوس والمراسيم ، وإنما تحصل بعد التغلب على البغض والخوف والغضب ، ، فمجرد العبادة والطقوس تفرق بنى الإنسان إلى شيع وطوائف ، وتقيم بينهم جسرًا من التعصب) .

وقال : (إذا نظرنا إلى ذات اللّه نجده منزهًا تنزيهًا كاملاً عن الأشكال والألوان والأشباه والأمثال ، وهو خالد لايزول ولايفنى ، لايحيا ولايموت ، كما أنه يحيط بنا من كل جانب ، من يمين وشمال ، ومن فوق ومن تحت ، فإذا بلغ الإنْسَان هذه الغاية من التصور والتفكير فى اللّه ، فإنه يكون قد وصل إلى غايته) .

مقتطفات تعبر عن (إنسانية) مؤمنة موحِّدة ، بعيدة عن دعاوى الأساطير ، وعن أوهام الخيال والضلال .

تطـــــــــور ..

وظهر في الهند قديسون زاهدون . . اشتهر منهم :

(« **شـواسـا مـفـيـديـو بانشـاد** » الـذى رأى أن مـايحكم الأشـيـاء كـلهـا هـو «الطبيعة» التى تبتدع ، و «الزمـان» الذى يهدم ، وهـما لايأبهان بفضيلة أو رذيلة ، حين يقسمان بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

ورأى أن الناس تخـدعـهـم حـلاوة الـكلام ، إذ يعـتـنقـون الاعـتـقـاد فـى الآلهـة والمعابد والكهنة ، مع أنه لا فرق فى الواقع بين قشنو و كَـلْب) !!

إفراد هذا القول يدين صاحبه بالسطحية ، وبعدم التوفيق فى اختيار ألفاظه ، مع أن الإدانة قد تكون رهنًا بسوء الاقتباس ، وبسوء الترجمة .

(ورأى المعلم البوذى « **نجاسينا** » أن الدين لاينبغى أن يتـخـذ مـجـرد وسـيلة فـرار يلوذ بهـا المعـذبون ، بل يـجب أن يكون سـعـى الزاهد ، حـتـى يبلغ مـرحلة القداسة والحكمة ، دون أن يزعـم وجـود جنة أو إله) - قـصـة الحضـارة مج١ جـ٣ ص ٢٢٩ / ٢٣٠ .

وهذا القول يمكن تطويعه لمثل قول **رابعة العدوية** : عبدتك لا رغبة فـى جنتـك ولا خشية من نارك ، ولكن أحبك (حب الهـوى ، وحبًا لأنـك أهـل لذاك) ، لكن صيغة المعلم البوذى - كما أوردها النص - تأبى الارتقاء إلى هذا التطويع .

* وظهر فى الهند فلاسفة براهمة :

كان (چوتاما) بمثابة أرسطو ، و (كانادا) بمثابة ديمقريطس .

العالم فى مذهب (كانادا) ملىء بطائفة من الأشياء ، لكنها لاتزيد عن كونها تركيبات مختلفة من الذرات ، صيغت فى هذا القالب أو ذاك ، وتتغير القوالب ، لكن الذرات يستحيل عليها الفناء .

ويذهب كانادا - كما ذهب ديمقريطس - إلى أنه ليس فى العالم إلا (ذرات وفراغ) ، وأن الذرات لا تتحرك وفق إرادة إلهية عاقلة ، بل بدافع من قوة غير شخصية ، هى القانون .

وكان الأنصار المتأخرون لمذهب فايشيشيكا (الجزئية) يعجبون كيف يمكن لقوة عمياء أن تخلع على الكون نظامًا ووحدة ، فوضعوا عالمًا من أنفس دقيقة جنبًا إلى جنب مع عالم الذرات ، ثم جعلوا فوق العالمين إلهًا عاقلاً .

وتشير النصوص البوذية ، كما تشير (مهابهاراتا) كثيراً إلى (كاپيلا) الذى يقول عنه (ونتر نتز) إنه يرى آثاره فى فيثاغورس .

كان كابيلا يكتب - كأنه عمانوئيل كانت - أن الخالق المشخص يستحيل أن يقيم عليه الدليل عقل بشرى ، لأن كل ما هو موجود - فى رأى الشكّاك الدقيق - لايخرج على أحد فرضين ، فإما أن يكون مقيدًا ، وإما أن يكون حرًا ، ولا يمكن لله أن يكون هذا أو ذاك ، ولو كان اللّه كاملا لما مّست الحاجة به إلى خلق العالم ، ولو كان ناقصًا لما كان إلهًا ، ولو كان اللّه خيراً ، وله قدرات إلهية ، لما أمكن قط أن يخلق عالمًا على هذا النقص الذى نراه فى العالم القائم الذى يغص بكثرة ما فيه من آلام ، ولا يأخذه التردد فى الموت .

ويتحدث كاپيلا عن مبدأ نفسى قائم بذاته ، موجود فى كل الوجود ، أزلى ، أبدى ، عاجز عن الفعل بذاته ، لكنه - رغم ذلك - لايستغنى عنه فى أى فعل .

وهو - كسائر المفكرين الهنود - ينظر إلى الحياة على أنها خير مشكوك فيه إلى حد كبير ، بل قد لا تكون خيراً على الإطلاق ، (والعبودية تنشأ عن غلطة عدم (التمييز) بين النفس التى تعانى الآلام وبين الروح المحصنة ، بين السطح المضطرب وبين الأعماق التى تظل ممتنعة على كل اضطراب وتغير .

فلتتبين الروح استقلالها عن الأشياء ، وستظفر بالحرية من فورها . . إن عملية إدراكها لهذه الحقيقة كافية فى حد ذاتها - أن تهيئ لها الفرار من سجن المكان والزمان والألم ، والعودة إلى التجسيد من جديد .

وإنا لنلمس أثر كاپيلا فى مثالية بوذا المصطبغة بالإلحاد ، وبالبحث عن كيفية وصول الإنسان إلى معرفته بالعالم ، كما نلمس أثره فى فكرة بوذا عن (النرڤانا) ، وكذلك نلمس أثره فى (المهابهاراتا) ، وفى تشريع (مانو) - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٢٥١ / ٢٥٩ .

وكاپيلا - بهذه الصورة التى أوردها ديورانت - شأنه شأن كل الفلاسفة ، يضربون فى متاهات لا يعودون منها بطائل ، وإن كانوا يثيرون فينا الدهشة والإعجاب معًا ، لجرأهم الفكرية ، ولمناهجهم فى تناول القضايا الكَبرى التى لا سبيل إلى الاطمئنان إلى ثمارها إلا من خلال ما جاءنا عن طريق الخالق جل جلاله ، أما أن (العقل العاجز) الذى يستمد قدراته من الحواس المحدودة إلى توصيف اللّه وتحديد كيانه ، وإلى الرجم بالغيب فيما هو وراء الحس ، فهو أشبه بقول كاپيلا : (لو كان اللّه كاملاً لما مّست الحاجة به إلى خلق العالم) ، مع أن الكمال يتجلى فى هذا الخلق ، وما كان اللّه ليعرف بدون خلقه ، كما قال سبحانه : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ أو إلا ليعرفونى ، لأنه لا عبادة بدون معرفة ، وهو ما عبر عنه الصوفية على لسان اللّه جل شأنه : (أردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبى عرفونى) .

إن من السهل أن تصل بنا التأملات إلى أبعد مما تصل إليه الأدخنة الزرقاء ، وسنجد - دون شك - من يصفق ويرقص طربًا ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ وإذا كنا من البداية اتفقنا على عجز العقل ، وعلى محدودية الحواس ، فإن أى اختراق لعالم الغيب ، أو لعالم ما هو خارج القدرة الإنسانية - إنما هو أشبه بأحلام العراة فى الشتاء .

* **الأفيدانتا** ، أو ختام الڤيدات ، أو اليوبانشاد ، يطلقها الهنود اليوم على المذهب الفلسفى الذى حاول أن يدعم بالمنطق بناء الفكرة الأساسية التى وردت فى كتب اليوبانشاد ، وهى أن اللّه (براهما) ، والروح (أتمان) شئ واحد .

وقد استطاع شانكارا (٧٨٨ - ٨٢٠ م) - فى حياته القصيرة - أن يحقق الاتحاد بين شخصيتى الحكيم والقديس ، بين صفتى الحكمة والرحمة ، وهو اتحاد يتصف به أسمى ما أنجبت الهند من صنوف الإنسان .

ألف (بهاجاڤاد - جيتا) الذى هاجم فيه بحماسة دينية ، ودقة أسكولاتية ، طوائف الزنادقة فى الهند ، وأعاد للبراهمة زعامتها الفكرية التى سلبها إياها (بوذا) و (كاپيلا) .

وأقام شانكارا أساس فلسفته عند نقطة دقيقة ، لم يستطع أحد بعد أن يدركها إدراكًا واضحًا ، حتى قيض اللّه لها - بعد ألف عام - عمانوئيل كانت ، فكتب كتابه (نقد العقل الخالص) ، ذلك أنه ألقى على نفسه سؤالاً ، هو ، كيف تمكن المعرفة ؟ إن كل علمنا - فيما يبدو - آت من الحواس ، فهو لا يكشف عن الواقع الخارجى ، كما هو فى ذاته ، بل يكشف طريقة تشكيلنا لذلك الواقع بحواسنا ، وربما بلغ التشكيل حد التغيير من الصورة الأصلية تغييرًا أساسيًا ، إذن فبالحس وحده يستحيل أن تعرف (الحقيقى) معرفة تامة ، وكل ما قد نعرفه عنه هو العلم به ، وهو فى ثوب المكان والزمان والسببية ، وقد يكون ذلك الثوب نسيجًا خلقته حواسنا وعقولنا ، فصوّرته ، أو طورته ، على نحو يتيح له أن يتصيد ثباتًا من هذا الواقع السيال المفلات ، وأن يمسك بهذه الصورة الثابتة عنه ، مع أننا - إن استطعنا أن نحدس بوجود ذلك الواقع الخارجى - لانستطيع أن نصف خصائصه الموضوعية ، كماتقع فى ذاتها ، ذلك لأن أسلوبنا فى الإدراك سيظل إلى الأبد ممتزجًا بالشئ المدرك امتزاجًا لا سبيل إلى عزل الواحد عن الآخر .

وليس هذا بالذاتية الجَوْفَاء التى يقول بها من يريد أن يُغلق على طويته ، دون أن يجد سبيلاً لاتصاله بالعالم الخارجى ، والذى يظن أنه مستطيع أن يحطم العالم تحطيماً ، إذا تركه واسترسل فى النعاس .

إن العالم موجود ، لكنه (مايا) ، وليس معنى الكلمة أنه وهم ، بل هو ظواهر ، هو مظهر اشتراك عقل الإنسان فى تكوينه .

وعجزنا عن إدراك الأشياء إلا فى صورها التى تعرض علينا ، وهى فى

الزمان والمكان ، ثم عجزنا عن التفكير فيها ، إلا على أساس السببية والتغير ، إن هو إلا قصور فى طبائعنا ، هو (أڤيديا) ، أو جهل مرتبط ارتباطًا شديدًا بطريقة إدراكنا نفسها . . وعلى ذلك فهو جهل كتب على الجسد أن يصاب به .

إن (مايا) و (أڤيديا) هما الجانبان الذاتى والموضوعى للوهم الأعظم الذى يحمل العقل على الظن بأنه يعرف حقيقة العالم .

إننا نرى كثرة فى الأشياء ، وتيارًا من التغير ، بسبب (مايا) و(أڤيديا) ، أعنى بسبب ما ورثناه منذ الولادة من جهل محتوم ، وحقيقة الأمر أن ثمة كائنًا واحدًا ، وما التغير إلا (مجرد اسم) نطلقه على تغير صور الأشياء فى سطوحها الظاهرة ، ووراء (المايا) ، أى النقاب الذى يحجب عنا الحقيقة ، والذى قوامه تغير الأشياء - تستطيع أن تنفذ إلى الحقيقة الكلية الواحدة ، (براهما) ، لا بطريق الحواس ، ولا بقوة العقل ، بل بالبصيرة النافذة ، والإدراك الفطرى المباشر ، من روح مرنت على ذلك الضرب من الإدراك .

إن الفروق بين الأفراد ، والتمييز بين الشخصيات ، مرتبطان بالجسم والمادة ، وهما من خصائص عالم التغير الذى يشبه فى تغيره تصاوير (الكاليدوسكوب) ، وهذه النفوس التى لاتزيد على مجرد ظواهر زائلة ، ستمضى بانقضاء الظروف المادية التى هى جزء منها ، أما الحياة الكامنة وراءها والتى نحسها فى دخائلنا - حين ننسى الزمان والمكان ، والسببية والتغير - هى جوهرنا الصميم ، وحقيقتنا الأصيلَة ، تلك هى (أتمان) التى نشترك فيها مع سائر النفوس والأشياء ، والتى لاتتَجزأ ، ولا يخلو منها مكان ، وهى وبراهما ، أى اللّه ، شئ واحد بعينه .

مثل هذا الإله فى مذهب المفكر الذى سبق (كانت) فى تفكيره - لاتمكن البرهنة عليه بالعقل ، وكل ما نستطيع أداءه هو أن نفرض وجوده فرضًا ، باعتباره ضرورة عملية ، يهب الطمأنينة لعقولنا القاصرة والتشجيع لأخلاقنا المتهافتة .

و(براهما) فى جوهره محايد ، يرتفع عن كونه شخصًا ، مذكرًا أو مؤنثًا ، وهو يسمو على الخير والشر ، وهو فوق كل الفوارق الخلقية ، وكل أوجه الاختلاف بين الأشياء ، وكل الخصائص والصفات ، وكل الشهوات والغايات .

إن (براهما) هو السبب والمسبب معًا ، هو جوهر العالم الخفى الذى لاتحده قيود الزمان .

يقول شانكارا : (إن براهما لا يشبه العالم ، ومع ذلك ليس ثمة شئ ما عدا براهما ، وكل ما يبدو أنه موجود خارج حدوده يستحيل أن يكون له وجود «خارج عنه» ، اللهم إلا وجوداً وهميًا ، كالسراب الذى يبدو فى الصحراء ماء) .

وهذا فكر الصوفية الإسلامية ، وما كان لشانكارا أن يصل إلى هذا المدى من التنزيه والتجريد للإله الواحد ، وإلي وحدة الوجودة ، وفناء الموجود ، لمجرد أنه وريث الثقافة الهندية العريقة التى تأثرت بثقافات أخرى عريقة كالصينية والفارسية واليونانية والآرية ، لأن كل هذه الثقافات كانت تخبط رءوسها فى حائط الغيب ، أو كانت تصطنع للغيب أسواراً إنسانية تتقافز فوقها ، أو كانت تفضل الانشغال بالواقع المعيش عن الانشعال بما وراء هذا الواقع .

ومن ثم كان الاحتمال الكبير أن يكون هذا الشاب النابغة (مات فى الثانية والثلاثين) ، بعد أن امتدت أذناه وعيناه إلى الفكر الإسلامى - وهو فى ذروة ازدهاره - الذى كان يضرب فى عهده شواطئ الهند والصين ، وتخطى حدودهما الجبلية ، بعد أن استقر وتطور فى كل من فارس ووسط آسيا ، أو فى جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية القديمة ، قبل أن تصبح أرضًا إسلامية .

ولأن فكر شانكارا نقل إلى الهندية قمة ما وصل إليه الفكر الإنسانى ، فقد نشأت بعد موته عشر جماعات دينية تحمل اسمه ، واعتنق فلسفته كثير من طلاب المعرفة ، ثم ارتقوا بها .

* من هنا يمكن القول إن اليوبانشاد سليلة فكر شانكارا ، أو سليلة البيئة التى استقى منها هذا الرجل فكره ، مع أن صاحب (الفكر الشرقى القديم ص٥٤ / ٦١) يرى أنه لم يكن لدى حكماء اليوبانشاد تصور واضح عما يبحثون عنه . . كانوا يعرفون أنه لابد من وجود ذلك الذى عن طريقه وجدت كل الأشياء ، وهذا الذى جعلها عظيمة يسمى (براهمان) ، (ذلك الذى يضفى العظمة) ، وكانت هناك محاولة للتعرف عليه عن طريق الرموز ، والطقوس

الدينية ، وعن طريق الأشياء الطبيعية ، مثل الشمس والقمر ، وعن طريق وظائف سيكولوچية مُعيَّنة للموجودات البشرية .

وعندما بدأ الحكماء يدركون أن براهمان لا يمكن وصفه على نحو مناسب ، حاولوا تحديد هذا الواقع بالسلب .

يقول باجنافاكا : (إن براهمان لا سبيل إلى تصوره ، فهو لا يتغير ، ولا يناله أذى ، ولا يمكن إدراكه) .

وجاء فى **اليوبانشاد** : (لا سبيل إلي رؤيته ، أو الإحاطة به ، لا نسل له ، ولا لون ، بلا عين ولا أذن ، وبلا أيد ولا أقدام ، يتخلل كل شئ ، وهو كلى الوجود . . إنه الواحد الذى لا يتغير ، الذى ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدراً للموجودات) .

أما مسألة ما يمكّن الكيان الجسدى من أن يوجد ، فذلك موضوع آخر ، فقد أبدُو كيانًا جسديًا ، ولكن هل هذا ما هو أنا عليه حقًا ؟ وهل (الأنا) الذى يُظن (الذات) كيان جسدى ؟ أليس من المناسب أن نقول إن (الأنا) هو الذات أكثر من أن نقول إنه الجسد ؟

تلك هى أنواع الأسئلة التى طرأت على أذهان حكماء اليوبانشاد .

ولقد استرشد بحثهم عن الماهية العميقة للإنسان بهذه الوصية :

(إن الذات - أتمان - المتحررة من الشر ، والمتحررة من الشيخوخة ، والمتحررة من الموت ، والمتحررة من الخوف ، والمتحررة من الجوع والظمأ ، والتى تنشد الواقعى ، والتى تواكب أفكارها الحق ، ينبغى أن يسعى إليها من يرغب فى الفهم ، ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم والرغبات) .

وفى غمار السعى لفهم الطبيعة المطلقة للعالم والنفس ، تم اكتشاف أن كل الأشياء موجودة فى داخل (أتمان) ، وأن كل شخص يحتوى كل الأشياء فى داخل النفس الأكثر عمقًا ، وما على المرء سوى أن يعرف نفسه لكى يعرف كل شئ ، والنفس يمكن أن تعرف بأكثر الطرق يقينية ، فهى يمكن أن تتجلى ،

عندما يتم تجاوز موضوعات الوعى التى تحول دون الاستنارة الذاتية .

وهذا ساق الحكماء مساق الصوفية الإسلامية التى تقول (احفر فى قلبك تتفجر ينابيع المعرفة) ، وهذه الصوفية التى تعتقد فى (العلم اللدنى) قدمت من شخصيات حكمائها رجالاً أميين على مثال (ابن ماخلا) الذى ينطق الحكمة مصوغة صياغة أدبية راقية .

ينقل البيرونى عن الحكيم باسديو الهندى : (إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فإذا تلبست بها كانت بكدورتها جاهلة ، وظنت أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها ، فتمسكت بها ، وانطبعت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنّت إليها ، وعادت نحوها) .

ونظرية باسديو - مع أن لها ظلالاً صوفية إسلامية - طغت عليها الثقافة الهندوسية التى اصطحبت مفاهيم (التَّقمُّص) خلال تطورها .

ومن نصوص اليوبانشاد - كما جاء فى (الفكر الشرقى القديم ص٨٥ / ٨٩) - (أن براهمان قد خلق الكون ، ثم دخل فيه) . . وهذا تعبير فلسفى غريب ، لأنه يريد أن يجيب على كثير من الأسئلة الفلسفية التى عاناها الفلاسفة خلال عصورها المختلفة ، وعلى مستوياتها المتباينة .

إنه يريد أن يقفز فوق الحدود الزمانية والمكانية ، المطلق والنسبى ، الواحد المتعدد ، المجرد المادى ، الواقع وما وراءه ، أو الفيزيقى والميتافيزيقى .

وتتصل هذه المحاولة بما يسمى (نظرية السانحايا) ، أى أن النتيجة موجودة مسبقًا فى السبب ، ذلك :

١- لأن ما ليس بموجود لا يمكن أن يتم إنتاجه .

٢- لأن هناك علاقة محددة بين السبب والنتيجة .

٣- لأن الكل ليس ممكنا .

٤- لأن الكفء لا يمكن أن يقوم إلا بما هو كفء له .

٥- لأن السبب هو من جوهر المسبب نفسه .

والنتيجة واقعية بقدر واقعية السبب ، ذلك لأن النتيجة هى تحول السبب ، وما من نتيجة يمكن معرفتها قبل أن تحدث فعلاً ، لكن إذا عرف السبب يمكن أن تعرف النتيجة ، لأنه إذا كانت النتيجة تنتمى إلى السبب ، فلابد من الإقرار بأنها توجد مسبقًا فى السبب .

وهذا كله قائم على (المنطق المادى) الذى تحكمه الحواس ، ومن ثم إذا كان هذا من (فكر) ما بعد شانكارا عُدّ انتكاسًا ، لأن فكر شانكارا انتقد تحكيم العقل والحواس فيما هو أبعد من متناول العقل والحواس .

إننا – إلى اليوم ، بالرغم من التقدم العلمى (الهائل) فى جميع المجالات – لا نزال نقف حائرين أمام أسئلة (مادية) عن الكون الكبير (العالم) ، وعن الكون الصغير (الإنسان) ، فلا نجد جوابًا ، ونكتفى بأن الزمان كفيل بالكشف عن إجابة كثير من الأسئلة التى نقف أمامها حائرين ، فكيف بما فى الكونين ، الكبير والصغير ، من أسرار غير مادية ، وكيف بما وراء هذين الكونين من أكوان لا علم لنا بها ، ولا نملك نفيها أو إثباتها !!

* وظاهرة (هندية) أن كثيراً من الشعراء خاضوا مخاض الفلسفة الدينية ، وإن كنا نعرف شعراء خارج حدود الهند تناولوا (قشوراً) فلسفية ، فذلك بسبب من طبيعة التأمل الإنسانى ، بصورة عامة ، وانشغال الطبيعة الإنسانية بما هو عن البداية والنهاية ، ومايرى وما لايرى ، لكن أن نُدخل ابن سينا فى الشعراء والمعرى ودانتى وملتون فى الفلاسفة ، فالأمر بعيد مما نحن بصدده ، وأما ما هو من أمر الحلاج وابن الفارض وابن عربى فقد تمس الحاجة إلى سعة من القول . . ولعل السبب يرجع إلى سيطرة الفكر ذى الجذور السماوية على غير البيئة الهندية ، بالرغم من كثرة الملاحدة فى غير الهند ، وهذا ما دعا إلى القول إنها خصوصية هندية .

هذا تولسى داس ، أنبغ شعراء الأدب المكتوب باللغة الهندوسية المتداولة اليوم ، ويوشك أن يكون معاصراً لشيكسبير – كتب فى بنارس ملحمته الدينية (راما شارتا – ماناسا) ، أى (بحيرة من أعمال راما) ، أخذ فيها يقص قصة (راما) مرة أخرى ، وقدمه للهند باعتباره الإله الأسمى الذى لا إله إلا هو .

يقول : (ثمة إله واحد ، هُو راما ، خالق السماء والأرض ، ومخلص الإنسانية . . ومن أجل عبّاده المخلصين ، جسد مالله نفسه فى إنسان ، فبعد أن كان « راما » إلهًا صار ملكا من البشر ، ثم من أجل تطهيرنا عاش بيننا عيش رجل من عامة الناس) .

ومع أن الجذر الفكرى موجود فى أسفار الڤيدا ، وبخاصة فيما يتصل براما وكرشنا ، فإن الصياغة لا تبعد عن التناول المسيحى على يد بولس ومن اهتدوا بهديه .

ولأن الحظوظ تمسك بأهداب الجمادات ، كما تمسك بأقفية الحيوانات ، فقد صارت هذه الملحمة – كما يقول ول ديورانت – (أهم شَخْصية فى الأدب الهندى كله ، وهى لأهل الهندوستان بمثابة إنجيل شعبى ، فيه ما يرجع إليه الناس من لاهوت وأخلاق) .

يقول غاندى : (إننى أعد « الرامايانا » التي نظمها « تولسى داس » أعظم كتاب فى الأدب الدينى كله) .

وجاء (كابر) أعظم شاعر غنائى فى الهند الوسيطة ، وهو نساج ساذج من بنارس ، أعدته الطبيعة للمهمة التى اضطلع بها ، وهى توحيد الإسلام والهندوسية ، ذلك لأنه – كما يقال – من أب مسلم وأم برهمية . (١)

يقول (كابر) : (هناك – يا أخى – عالم لا تحده الحدود / وهناك «كائن» لا اسم له ، ولا يوصف بوصف / ولا يعلم عنه شيئًا إلا من استطاع أن يصل إلى سمائه / وإنه لعلم يختلف عن كل ما يسمع وما يقال / هناك لا ترى

---

(١) جاء فى كتاب (الديانات القديمة ص ٩٠ / ٩١) أنه ولد لأبوين هندوسيين فقيرين ، توفى والده وهو طفل ، فكفله رجل مسلم اسمه (نيرو) كان يعمل نساجًا ، فأحسن تربيته ، ولما كبر أرسله إلى أفضل المعلمين فى بنارس ، فأحب كابر الدراسة ، ولما بلغ السادسة عشرة كان قد تعلم كثيراً من عقائد المسلمين والهندوس ، وتأثر بتعاليم (راماناند) الشاعر الحكيم الذى كان يبشر بأنه ليس هناك سوى إله واحد ، وأن هذه الحقيقة هى أكبر صديق للبشر ، وأن الحياة البسيطة هى الطريق إلى النيرڤانا .
أخذ كابر ينظم شعراً على غرار (راماناند) فى الوقت الذى كان يعمل فى صناعة النسيج مع (نيرو) .
التف الناس حول كابر ، وصار له أتباع ومريدون ، وبعد أن توفى جمع أتباعه أشعاره وحكمه فى كتاب أسموه (بيجاك) ، ويبلغ عددهم الان فى الهند حوالى مليون نسمة .

صورة / ولا جسداً . ولا طولاً ، ولا عرضًا / فكيف لى أن أنبئك من هو ؟) .

وقد رفع بعضهم (كابر) إلى مصاف الآلهة ، وإنك لتجد اليوم طائفتين صغيرتين متنافستين تتبعان مذهب هذا الشاعر ، وتعبد اسمه ، إحداهما من الهندوس ، والأخرى من المسلمين .

هذا ، مع أن (كابر) سُبق بتجربة الإمبراطور المغولى (أكبر) ، وتلا كابر ماصنعه (ناناك) زعيم السيخ .

* وصار راماكرشنا (١٨٣٦ / ١٨٨٦) البرهمى البنغالى الفقير مسيحيًا حينا من الزمان .

زعم ول ديورانت أنه أحس جمال المسيحية ، وظل إلى آخر أيامه يعترف بربوبية المسيح ، لكنه أصر على أن (بوذا) و(كرشنا) وغيرهما كانوا كذلك مجسدات للإله الواحد ، واعتنق الإسلام حينا ، (وأدى صلاة المسلمين بما تقتضيه من خشونة وعنف) ؟! لكن قلبه التقّى سرعان ما عاد به إلى الهندوسية ، بل عاد به إلى (عبادة كالى الفظيعة) ؟! وجعل نفسه كاهنًا من كهانها ، وصورها فى صورة الإلهة الأم التى تفيض نفسها فيضًا بالرحمة والحب ، ونبذ أساليب العقل ، وبشر بمذهب (بهاركتى - يوجا) ، وهو مذهب يدعو إلى الحب .

ومن أقواله : (إن المعرفة لاتستطيع الدخول إلا فى الحجرات الخارجية لله ، وليس يستطيع الدخول فى غوامض اللّه الباطنية إلا محبّ) .

ولما سأله منطقى منتفخ الأوداج : (ما المعرفة ؟ وما العارف ؟ وما المعروف ؟) ، أجابه : (إنى - ياصاح - لا علم لى بهذه الدقائق من علم المتفيهقين ، إن كل ما أعرفه هو إلهتى الوالدة ، وأننى ابنها) .

وقال : (إن كل الأنهار تتدفق فى المحيط ، فاندفقْ حتى تخلى الطريق لاندفاق الآخرين) .

وجاء ترانت دوت (١٨٦٣ - ١٩٠٢) أحد أتباع راماكرشنا ، وقال : (اللّه موجود فى الكائنات جميعًا ، فهذه الكائنات صوره الكثيرة وليس وراءها إله آخر يبحث الإنسان عنه ، ليس هناك سبيل إلى خدمة اللّه سوى خدمة سائر الكائنات) .

(إن أولى العبادات كلها هي عبادة من يحيطون بنا . . . هؤلاء هم آلهتنا الذين لا آلهة لنا سواهم ، أعنى أفراد الإنسان والحيوان ، وأول ما ينبغى لنا أن نعبده من هؤلاء الآلهة هم بنو وطننا) - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص٤٠١ / ٤١٠ .

وهكذا هبط راماكرشنا وتلميذه تارانت بالفكر الدينى هبوطًا ربما كان سببه الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الهندى ، فى ظل الاحتلال الإنجليزى البغيض .

* ومع هذا ، فقد أدى هذا الاحتلال البغيض إلى نشر اليوبانشاد فى أوربا ، حتى تصور (فختته) مذهبًا مثاليًا على شبه كبير بمثالية شانكارا ، وأوشك شوبنهور أن يدخل فى فلسفته مذاهب البوذية واليوبانشاد والفيدانتا ، إدخالاً بجعلها جزءًا لا يتجزأ من فلسفته ، وكانت اليوبانشاد فى رأى شلنج - وهو فى شيخوخته - أنضج ما وصل إليه الإنسان من حكمة - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص٢٨٠ .

لكن الاتجاهات العقلية (التنويرية) التى ظهرت فى القرن الثامن عشر بأوربا ، ظلت مع هذا - فى رأى الميتافيزيقى الهندى - محاولة سطحية عابثة لإخضاع الكون الذى يستحيل حساب دقائقه لتصورات سيدة رقيقة ممن يرتدن (الصالونات الأدبية) .

وكما تقول اليوبانشاد : (فى ظلام دامس يمضى أولئك الذين يعبدون الجهل ، وفى ظلام أشد دماسة يتخبط أولئك الذين يطمئنون نفسًا بما لهم من علم) .

ويقول دكنسون : (ليس هناك قديس هندى واحد نظر إلى المعرفة المكسوبة بالعقل أو بالحواس بغير احتقار) .

ويقول كيسرلنج : (إن حكماء الهنود لم يقعوا أبدًا فى الخطأ الذى يمثلنا أصدق تمثيل ، وهو أن تأخذ أى شئ مما يركبه العقل أخذًا جادًا بالمعنى الميتافيزيقى للكلمة ، فهذه التركيبات العقلية لاتزيد جوهرًا على أى تركيب آخر مما تعرضه علينا « مايا » ، أى عالم الظواهر) - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٢٧٨ .

السيـــــــخ Sikh

مــــؤسس هذه الديانة المعلم ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) الذى ولد لأبوين هندوسيين فى مقاطعة البنجاب التى كانت تخضع للحكم المغولى الإسلامى .

أخذ يدرس الدين الإسلامى ليعرف سرقوة الغزاة ، ويستخرج منه العناصر التى تساعد على تقوية دينه ، بحيث يتيح لقومه التحرر من تسلط المغول .

كان يقول : (لايقتصر الدين على الكلمات فقط ، إنه العمل الصالح والمساواة بين الناس) .

(لايقتصر الدين على الحج وزيارة المقابر والمحارق ، أو الجلوس والتأمل) .

(احتفظ بطهارتك وسط دنس العالم ، حتى تهتدى إلى طريق اللّه) .

وأدرك أن اللّه واحد ، هو الخالق ، المفارق ، المتعالى ، الذى يجب أن يرتبط به ارتباطًا وثيقًا أولئك الذين يبحثون عن الخلاص . . والسعى من أجل الخلاص هو شاغل (ناناك) ، فعن طريقه تتشكل تعاليمه .

ويعبر (ناناك) عن فهمه لله بعدة مصطلحات ، تتجلى فى عدة صفات إلهية : أولاً : أن اللّه لا شكل له ، وثانيًا : أنه الأزلى ، وثالثًا : أنه لا يوصف .

وقد استخدم المعلم كلمات لا حصر لها للتعبير عن أهمية الصفة الأخيرة ، فكيف يمكن للمرء أن يعرف اللّه ؟

قال : إن المرء لا يستطيع أن يعرف اللّه ، لأن فى كماله يجاوز كثيراً فهم الموجودات الفانية .

وحتى يبلغ العابد الانسجام النهائى يجب أن يدخل فى نظام للعبادة ، ويثابر على تطبيقه ، وهذا النظام لا علاقة له بالشعائر الخارجية ، كطقوس المعبد ، أو صلاة المسجد ، أو الحج ، أو الزهد . . إن المقصد الوحيد المقبول للحج ، (والبيت الوحيد الذى يمكن قبوله للعبادة هو القلب البشرى الذى ينطق فيه المعلم الروحى بالكلمة الإلهية) .

حتى (التأمل) لا يكفى وصفًا للمُمَارسة الدينية ، فالمثل الأعلى هو التعرض الكامل لكيان المرء أمام الاسم الإلهى ، والتطابق الشامل لكل ما يكونه المرء ويعمله مع النظام الإلهى الذى يجد التعبير عنه فى الاسم الإلهى .

ونتيجة التطبيق المنظم (تذكر اسم اللّه) هو النمو نحو اللّه ، والنمو فى اللّه ، وهى عملية متدرجة ، شبّهها المعلم ناناك بسلسلة من المراحل الصاعدة ، وخامسة هذه المراحل وآخرتها ، هى المسماة (عالم الحقيقة) ، وهى الإنجاز الأخير ، حيث تجد الروح اتحادها الصوفى باللّه ، وفى هذا الوضع الذى تشعر فيه بسعادة لا توصف تبلغ الروح مرحلة الانعتاق المطلق باندماجها فى اللّه .

* وبعد موت ناناك خلفه أحد تلاميذه ، وخلال أكثر من قرن ونصف انعقد لواء القيادة لسلسلة من المعلمين الروحيين ، انتهت بموت المعلم العاشر (جوبند سنغ عام ١٧٠٨) . . وكان الأتباع يسمون (المتحدين مع ناناك) ، ثم سرعان ما حملوا اسم السيخ بمعنى التلميذ ، وأصبح لقب (جورو) – أى المعلم أو الأستاذ – خاصًا بناناك وخلفائه فى قيادة الطائفة .

وتحول شعب (التلاميذ) – بمرور الزمن – إلى طائفة تجمع بينها اللغة ، والثقافة ، والعادات والتقاليد ، ويتجاوز تعدادها عشرة ملايين .

وقد جمع الجورو الخامس كتابهم المقدس المسمى (آدى جرانت Adi Grant) من كتابات وتعاليم الجورو الأول ناناك ، وهو يتضمن نصوصًا إسلامية وهندوسية .

ووضَع هذا الكتاب فى (المعبد الذهبى) الذى شيده وسط بركة كبيرة فى مدينة (أمرتسار) ، وهى المدينة التى أنشأها والده الجورو الرابع (رام داس) ، وتعتبر هذه المدينة بمثابة (مكة) عند المسلمين .

وتقول الأساطير : إن رام داس اختار هذا الموقع عام ١٥٧٧ ، عندما شاهد فيه بركة عطرة الرائحة ، حطّ عليها عصفور مكسور الجناح ، فما لبث أن طار ، كما يقول إن الغربان تتحول فيها إلى بجعات بيضاء ، وإن ماءها يشفى من البرص ، والآن يتطهر حجاج السيخ بمائها المقدس تبركًا .

ويقع داخل المعبد الذهبى الهيكل المرصّع بالجواهر النفيسة ، وليس بداخله غير كتابهم المقدس (١) ، ويطوف الحجاج حوله ، وهم يستمعون إلى التلاوات المنغمة التى لم تتوقف لحظة ، ليلاً أو نهاراً ، منذ إقامة المعبد ، ثم يتناولون (العشاء الربانى) من جفنة (ماجور) كبيرة تفيض بالسمن السائل الذى تعُوم فيه كتل الدقيق (السيمولينا) .

وفى داخل المعبد أكبر مطبخ فى العالم ، يطعمون فيه كل يوم عشرة آلاف جائع بالمجان ، لايفرقون بين جنس أو دين أو لون .

والجورو (آرجون) هو الشهيد الأول لطائفة السيخ ، أعدمه الإمبراطور المغولى جاهانجير عام ١٦٠٦ ، وعلى أثر إعدامه جمع خليفته جيشًا صغيراً للمقاومة .

أما الجورو التاسع فقد أطاح برأسه الإمبراطور المغولى أورنجزيب عام ١٦٧٥ لرفضه اعتناق الإسلام (٢) .

* ومن السمات الرئيسية فى هذا النظام تحريم تدخين الغليون ، والامتناع عن قص شعر الرأس واللحية مدى الحياة ، واستخدام مشط لتصفيف الشعر ، وحمل خنجر أو مدية ، ولبس سوار فى المعصم من الصلب أو خلخال أسفل الساق من الفولاذ ، ولبس سروال قصير لايتجاوز الركبة .

أما العمامة الضخمة ذات الألوان البراقة الزاهية فهى عَلَم عليهم فى كل

---

(١) جمع الجورو الخامس أقوال ناناك وعظاته ، وأشعار راماناند ، وأشعار كابر ، فى كتاب واحد ، سماه (صاحب المواهب) ، وأصبح الكتاب المقدس للسيخ .

(٢) أهدت طائفة السيخ (موشى ديان) سيفا مرصعًا بالجواهر ، فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، إعجابًا بقدرته على التنكيل بالعرب والمسلمين .

مكان ، ويحتاج لفها على رءوسهم إلى خبرة ودراية لا يسهل على غيرهم محاكاتها .

وقد جرى تنظيم على يد المعلم العاشر جوبند سنغ عام ١٦٩٩ سماه الخلسا Khalsa ، وهو نظام من الأخوة تندمج فيه الواجبات الدينية والعسكرية مع الواجبات الاجتماعية فى نظام واحد ، وعلى جميع الذين ينتظمون فى جماعة الخلسا (الأبرار) الالتزام التام بالمحرمات السابقة ، وأن يحمل الرجل اسم (سنغ Singh) أى أسد ، والمرأة اسم (كور Kaur) .

اليوجا ..

وأبرز ما اشتهرت به الهند (اليوجا) ، أو النير ، إذ المقصود إخضاع الإنسان لنير النظام التقشفي المتزهد الذى يلتزمه الطالب ليبلغ ما يريد لنفسه من طهارة الروح من كل أدران المادة ، وقيودها ، ويحقق ما يسمو على الطبيعة من ذكاء وقوة .

وليس فى وسع الذكاء الإنسانى ، أو التدليل المنطقى ، أن يجد لها صيغة تعبر عنها ، (فلا سبيل إلى معرفة اليوجا إلا عن طريق اليوجا) .

اليوجا تكسب إدراكًا وقدرة خارقتين للطبيعة ، لأنه إذا نفضت عن الروح كل آثار الخضوع للجسد ، واشتباكها فيه ، فإنها لا تتحد مع براهما فقط ، بل تصبح نفسه ، إذ إن براهما ليس إلا ذلك الأساس الروحى والخبئ ، ذلك الروح اللارمادى الذى لا يتفرّد بنفس ، والذى يبقى بعد أن تطرد بالرياضة أعلاق الحواس . . . إلى هذا الحد تستطيع أن تكون براهما ، بحيث تمارس ذكاء برهميا ، وقوة برهمية .

ويعتقد (اليوجى) أنه بواسطة (اليوجا) يستطيع أن يخدر أى جزء من أجزاء جسمه ، بتركيز فيه ، وبذلك يجعله تحت سلطانه ، فيمكنه إن أراد أن يخفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة ، مهما كان الدافع إليها ، أو أن يمر فى أية لحظة شاء من أى جزء من أجزاء الأرض جميعًا ، أو أن يحيا من العمر ما شاء أن يحيا ، أو أن يعرف الماضى والمستقبل ، كما يعرف أبعاد النجوم .

وعلى المتشكك أن يعترف بأنه ليس فى هذه الأشياء كلها ما هو مستحيل ،

ففى وسع المجانين أن يبتكروا من الفروض ما يستحيل على الفلاسفة أن يدحضوه .

يقول ول ديورانت : والهندعرفت هؤلاء الناس مدى ألفين وخمسمائة عام ، ويجوز أن يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ ، حين كانوا للقبائل الهمجية - فيما نظن - بمثابة الأولياء ، وهذه الطريقة فى التأمل الزاهد التى تعرف باسم (يوجا) كانت موجودة أيام (الڤيدات) . . و(اليوباتشاد) ، و(المهابهاراتا) كلتاهما اعترفتا بهذه الطريقة التى ازدهرت فى عصر بوذا .

نراهم جالسين القرفصاء ، وقد لفّوا ساقا على ساق ، لايتحركون ، ويركزون أبصارهم فى أنوفهم أو سُررهم ، بعضهم يحدقون فى الشمس ساعات متوالية ، بل أيامًا متعاقبة ، فيفقدون أبصارهم شيئًا فشيئًا ، وبعضهم يحيطون أنفسهم بألسنة حامية من اللهب فى قيظ النهار ، وبعضهم يمشون حُفاة على جمرات النار ، أو يصبون الجمرات على رءوسهم ، وبعضهم يرقدون عرايا الأجسام مدى خمسة وثلاثين عامًا على أسرة من حراب الحديد ، وبعضهم يدحرجون أجسامهم على الأرض آلاف الأميال ، حتى يصلوا مكانًا يحجون إليه ، وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال فى جذوع الأشجار ، أو يزجون بأنفسهم فى أقفاص مغلقة حتى يأتيهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم فى الأرض إلى الأعناق ، ويظلون على هذا النحو أعوامًا طوالاً ، أو طول الحياة ، وبعضهم يُنفذون سلكا خلال الصدغين ، فيستحيل فتح الفكين ، وبهذا يحكمون على أنفسهم بالعيش على السوائل وحدها ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم مقبوضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفهم ، وبعضهم يرفعون ذراعًا أو ساقًا حتى تذبل وتموت . . إلخ - قصة الحضارة مج١ جـ٣ ص ٢٦٣ / ٢٦١ .

وروى ابن بطوطة أنه - فى الهند ، فى بلدة بروان ، وهى مركز لنفر من السحرة يسمون الجولية (الذين يقومون بممارسات اليوجا ورياضتها) - شهد رجلين (تربع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار فوقنا فى الهواء مُتَربِّعا ، فعجبت منه ، وأدركنى الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربع ، فأخذ صاحبه

نَعْلاً له من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً ، حتى جلس معنا ، فقال لى السلطان : إن المتربِّع هو تلميذ صاحب النعل ، ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت) .

* ولعل اليوجا أخذت طريقها إلى الصين ثم اليابان ، عن طريق هندى وصل إلى الصين فى القرن الخامس الميلادى ، ونقل ممارسة التأمل خلال الجلوس ، وتعاليم الاستناره المفاجئة ، وسُمى هذا النظام (الزازن) الذى يشكل القاعدة الرئيسية لممارسة (الزن Zen) ، لتحقيق الحد الأمثل من الظروف الملائمة للتطلع مباشرة إلى نفس المرء ، واكتشاف الطبيعة الحقيقية لكل وجود من خلال نقاء وجود المرء . . وتقتضى هذه القاعدة افتراض السيطرة الكاملة على القدمين ، واليدين ، والساقين ، والذراعين ، والجذع ، والرأس ، وتنظيمها . . ويلى ذلك ضرورة تنظيم النَّفس ، بحيث يمكن السيطرة على أنشطة العقل ، وخلال سلاسل من الأشكال الخاصة من التركيز يتم تجميع أنشطة العقل ، وتوحيدها ، وتسكينها ، وتتم كذلك السيطرة على الانفعالات والنزاعات وتنسيقها مع الذهن . . وبعد تحقيق هذا كله يبقى غرس ما يسمى عادة بالصمت العميق ، فى أعماق أبعاد كيان المرء .

وهناك ثلاثة أهداف رئيسية للزازن : الأول زيادة قوى التركيز ، بالتخلص من كل العناصر المشوشة ، وكل الازدواجيات ، وعادة ما تتبعثر طاقات العقل فى العديد من الاتجاهات ، الأمر الذى يخلق طوفانًا من التشويشات التى تجعل التركيز مستحيلاً ، على وجه التقريب ، وعن طريق توحيد العقل ، فإن هذه التشويشات يمكن التغلب عليها ، وتركيز طاقة العقل الديناميكية بصورة كاملة على الأشياء موضع التناول ، وتنمية قوة الوعى المركزة هذه تعطى المرء الحرية والاتزان اللذين يخلقان شعوراً بأن المرء على ما يرام ، حتى فيما هى تعده للساتورى Satori (الاستنارة باليابانية) ، أو الهدف الثانى من أهداف (الزازن) .

وتحقيق الساتورى هو صحوة الاستنارة ، أو النظر إلى نفس المرء المطلقة ، واكتشاف الطبيعة الحقيقية للواقع ، وكمال الوجود .

والهدف الثالث هو إدماج الاستنارة الكاملة للنفس الكلية فى كل الأنشطة اليومية .

يقول دوجن : (دراسة الطريق هى دراسة للنفس / ودراسة النفس نسيان لها / ونسيانها استنارة بالأشياء كافة / والاستنارة بالأشياء كافة إزالة / للحواجز بين نفس المرء والآخرين) - الفكر الشرقى القديم ص٢٩٦ / ٢٩٩ .

ويقول ين هوى فى حوار مع كونفوشيوس : (إنى أرخى أوصالى ، وأنفصل عن كل من الجسم والذهن ، وأتوحد مع التاو العظيم) .

وهذه اليوجا التاوية مماثلة فى روحها لممارسات التأملية البوذية المستعارة من تراث اليوجا الهندية - المصدر السابق ص٢٩٠ .

الصيـن

طبيعـــة خـاصـــة

كانت البيئة الطبيعية التى ظهرت فيها الحضارة الصينية بيئة قاسية : الأهوار ، والأحراج ، والصحارى الفاصلة ، والجبال العالية ، والفيضانات الغامرة ، والحر اللافح ، والبرد الزمهرير ، والجفاف الفاصل ، والسيل الجارف . . ومن ثم كان الدافع إلى (التحدى) ، فروّض الإنسان هذه البيئة ، وجعل منها مهداً لحضارة عريقة .

وفى إطار أعظم إقليم جغرافى ، فى قارة آسيا ، يحيط به أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقى ، كما يحده أعلى الجبال وأوسع الصحارى (صحراء كوبى) – حدث ما ظُنّ أنه العزلة والثبات والركود ، من حيث عدم القدرة على متابعة ما يجرى داخل (السور) الطبيعى لعالم الصين ، ولكن كانت الحقيقة على خلاف ذلك ، لأن من المستحيل – داخل هذا المخزون البشرى الكبير – أن يكون ثبات أوركود أو عزلة ، فقد أثبت التاريخ امتداد الفيض البشرى الصينى إلى كافة الأقاليم المجاورة ، غزو سلمى كاسح ، منذ فجر التاريخ ، داخل اليابان وكوريا ولاوس وفتنام وكمبوديا وبورما وتايلاند وسيريلانكا وماليزيا ، والهند ، وجزر المحيط الهادى (إندونسيا والفليبين) .

كما أثبت التاريخ أن دولاً غير صينية الأصل نشأت داخل الصين ، واستقرت بها ، وصارت جزءاً رئيسيًا من تاريخها .

إن بالصين أكثر من ٥٥ قومية ، وإن شكلت قومية (هان) ٣ر٩٣٪ من عدد السكان الإجمالى ، لكن كلا من القوميات الصغيرة ماتزال تحتفظ بخصائصها المميزة ، ولم تتلاش فى هذا الخضم البشرى الهائل ، مما يفيد وقوعها تحت

مؤثرات داخلية وخارجية شجعت على عدم (الذوبان) ، وإن كانت لم تشجّع على الانفصال .

وإذا كانت بقايا الإنسان القديم في الصين ، المعروف باسم إنسان بكين ، يشير إلى أقدم استيطان للإنسان في العصور الحجرية القديمة – مع أن لفظ (أقدم) ليس علميًا – فليس ما يؤكد أن هذا الإنسان سقط (من السماء) في هذه المنطقة .

وكان أن تطورت الصين بنفسها ، لأنها تملك أسباب التطور ، في داخلها خمسة آلاف نهر ، وتتعلق بها ألفا جزيرة ، وترقد على ظهرها ثروات زراعية هائلة ، وفي جوفها ثروات طبيعية بلا حصر . . لهذا لا تعجب إذا كان انقلاب العصر الحجري المتأخر قد حدث في الصين في نفس الوقت الذي حدث في مصر ووادي الرافدين والهند ، حيث عرفت زراعة الحبوب ، ولا سيما الأرز ، وتدجين الحيوان ، ولا سيما البقر والخنازير ، وعرف التعدين والخزف ، والكتابة الصورية ، والعربات التي تجرها الخيول في الحرب .

ولسعة المساحة ، وعمق الحضارة ، وصعوبة القفز فوق الأسوار الطبيعية ، ومشقة الحصول على خيرات البلاد ، وطول المعاناة مع التغيرات البيئية – اكتسب الصيني صفات لازمة ، في عاداته وتقاليده ، وفي فنونه ، وفي لغته ، وفي علاقاته بالآخرين .

في عام ١٩٨٠ – تقريبًا – دعي كاتب مصري لحضور حفل شاي صغير بدار السفارة الصينية في الكويت ، فصحبه الملحق الصحفي إلى قاعة واسعة كل ما فيها صيني : السجاد ، والمقاعد ، والطاولات ، واللوحات المثبتة على الجدران ، والزهريات الموزعة على الأركان . . قال الكاتب المصري جلسنا نتبادل عبارات المجاملة ، بينما أخرج القنصل من جيب سترته علبة سجائر صينية ، وعلبة كبريت صينية ، وضعها إلى جوار المنفضة الصينية ، وجاء الشاي الصيني الأخضر الخالي من السكر ، في كوب صيني ، على صينية لست بحاجة إلى وصفها – الإسلام في الصين ص ١٦ – هذا ، على حين لو دخلت بيت السفير المصري لوجدت متحفًا فيه من كل بستان زهرة ! !

ولقد زرتُ أحياء صينية فى أكثر من بلد من بلدان شرق آسيا ، فوجدت الطابع الصينى هو المسيطر ، هذا على حين تسير فى أى حى من أحياء القاهرة فلا تجد إلا كرنفالاً من (قطع الغيار) العالمية !!

إن هذا (الالتزام) الصينى يتمثل فى لغة لا تربطها صلة بأى جماعة لغوية أخرى ، وتكتب بخط لا يشبه غيره من خطوط الكتابة ، خط تعبر رموزه عن الأفكار لا الأصوات ، ولذا يمكن قراءته فى جميع أنحاء الصين ، بغض النظر عن (لهجة) المتكلم ، بل إن الكتب التى كتبت بهذا الخط - قبل ألفى سنة - يمكن قراءتها اليوم دون مشقة ، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها بدور قوى فى إحساس الشعب ، لا بالوحدة والهوية فقط ، بل كذلك بالاستمرار والاتصال .

ولو أننا قارنا هذا الحال بما أصابنا لكان البون الشاسع ، والغباء الناصع ، لافتات مَحالّنا لاتنتمى إلى جنس واحد ، شرفات منازلنا لا تنتمى إلى أى نسق هندسى ، أسماء بناتنا لا تنتمى إلى بلادنا ، برامج تليفزيوننا ، مناهج فنوننا وآدابنا ، كلها فسيفساء مستوردة . . ولما دعونا إلى (الانفتاح) صار كل شئ مباحًا ، حتى اللحوم الفاسدة ، والبذور الفاسدة ، والأدوية الفاسدة ، وحتى صار كل شئ يتحرك بحركة القروض و(الخبراء) والعملاء ، وصارت التجارة فى كل شئ (!!) . وصارت الضرائب تثقب جيوب الكادحين ، وتلحس أقفيتهم ، وتُحفى أقدامهم ، تلاحق الأحياء والموتى ، الراكبين والراجلين ، هذا على حين تتحرك شباك الصيد فى أعالى البحار تحمل اللآلئ والعمولات والآثار .

ولما كان الدين آخر جدار نحتمى به ، وإن كان هذا الجدار أقرب إلى معرض للفنون ، علقت عليه صور شتى للّه (؟!) والملائكة والنبيين والأولياء الصالحين وغير الصالحين - فقد تحول هذا الجدار إلى لوحة إعلانات ، تُدين وتتّهم ، وتعلق الأجراس فى رقاب القطط التى لاتجد مأوى ، ولا تجد مايمسك رمقًا ، حتى (المواء) صار جريمة ، والاحتفاظ (بالمخالب) خيانة عظمى .

أما فى الصين ، ومنذ كانت حضارة الصين ، فإن التدين بينهم من أصول المعاملة ، وأدب البيت ، وتنظيم السلوك ، وأشيع المعتقدات عبادة الأسلاف

والأبطال فى طريق واحد وخطوات متناغمة . . السماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة ، أكبرها إله السماء (شانج لى) ، تليه الشمس إلهًا ، وبقية الأجرام السماوية والعناصر الأرضية ، وامتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية ، حين تسمى عاهل الصين باسم (ابن السماء) .

ولقد ألبس الصينيون آلهتهم ملابس الحكماء ، لتكون الآلهة فى خدمة أبناء الصين ، (تجد كل واحد من الآلهة يصلح هنْدامَه ، ويجلس بوقار ، إنه من الحكماء الأجلاء ، ومثال للأخلاق ومعيارَها ، إنهم يغيثون المحتاجين ، ويواسون المنكوبين ، ويتمتعون بالانضباط الذاتى الصارم ، وأخلاق الحكماء النبيلة) - الصينيون المعاصرون جـ١ ص ٩٠ - وهذا يدل على رغبة الصينى فى تطويع كل شئ لإنقاذه من كثافة ما يعانيه .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج١ جـ٤ ص ٢٥٦ / ٢٦١) :

(لم يشهد التاريخ شعبًا من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات ، أو أكثر منه تشككًا ، أو أعظم منه تقى ، أو أكثر انصياعًا لحكم العقل ، أو أقوى منه دنيوية) .

حكم يحمل فى طياته بطلانه ، لأنه يعتمد على (التعميم) فى أكبر تجمع بشرى ، يصل إلى خمس سكان العالم ، وفى مساحة شاسعة من الأرض ، مُتَنوعة الإمكانيات الطبيعية . . وهذه أسباب تعين على (تصور) وجود هذه الأحكام فى (قارة الصين) ، لكن بشكل جزئى ، وبغير حدود مكانية وزمانية .

ويقول : (لم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة ، ولم يسعد قوم - غير الهنود - بآلهتهم ، أو يشقوا بها ، بمثل ما سعد الصينيون أو شقوا) .

هذا مع أن فكر (لو - دزه) ، و (كونج - فو - دزه) لم يكن وليد الإيمان بالآلهة ، بل بالطبيعة ، وبما تعود به الطبيعة على المجتمع من خير وشر ، وإن كان هذا الإيمان يتضمن الإيمان بخالق الطبيعة ، إلاّ أن هذين الحكيمين المعلِّمين لم يَعنيا بأمر الخالق ، بل المخلوق ، وترويض حياته بالفضيلة ، أو بالثقة .

أجل ، (لم يكن دين سكان الصين « البدائيين » يختلف - بوجه عام - عن دين عبدة الطبيعة ، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة ، وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها) .

(وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ماتكون بصلة - الرجل والمرأة ، وصلة السيد والتابع) .

وهذا متمثل فى كل الديانات التى سبقت الديانة الصينية ، والتى عاصرتها ، لأن أثر السماء فى الأرض واضح للعيان ، وغلبة السماء على الأرض لا يحتاج إلى برهان .

(وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها) ، شمسًا وقمرًا ونجومًا ، ورعدًا وبرقًا ومطرًا ، أو قوة وراء كل هذا ، قادرة على الاحتجاب والظهور ، ولعل الليل الموحش الملئ بالأرواح والأشباح ، والمطلّ (أحيانًا) بوجه القمر ، وبعيون النجوم - أخطر المظاهر لهذا الإله الأكبر الذى يتخذ هذا الرداء الأسود ، وهو يجوس الديار ، يقطف الأرواح قبل الأوان ، وينشر الأوجاع والآلام والشرور ، ويفرض الخوف على الناس ، (هذا النظام الأخلاقى ، وهذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ، ويحدد العلاقات الحقيقية بين الأطفال والآباء ، والزوجات والأزواج ، وبين الأتباع والسادة ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله) .

(ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما الدين الصينى القومى ، وهما عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة ، وعبادة السماء ، وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكونفوشية) .

(وكان الصينيون يُقَرِّبون فى كل يوم قربانًا متواضعاً للموتى ، ويكون فى العادة شيئًا من الطعام ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ، ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة ، أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه) .

(ومــا مـن شك فى أن هـذا الدين كــان يســبب للصـــينيين بعض المتـــاعب والمضــايقـات ، من ذلك أنه مـلأ البـلاد بما لا يحـصى من القبـور الضـخـمـة التى لايمكن انتـهـاك حـرمـتـهـا ، فـعـاقت هذه القـبـور إنشـاء الطـرق الحـديـدية ، وفلح الأرض الزراعية) .

(إن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانيـة ، رغم ما فيـهـا من عـوامل التـفرق والانفـصـال التى تحـول دون وحـدتهـا المكانية ، وأهمها المسافات الشاسعة ، وضعف وسائل المواصلات ، وبفضل هذه الوحدة ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد) .

(وقـد خـلا هذا الدين الرسـمى من كل إشــارة للخلود ، فـلم تكن الســمـاء مكانًا ، بل كانت إرادة اللّه ، أو نظام العالم) .

(وكـان الصـينيـون - كـغيرهـم - يـجمّلـون الحـقائق الـواقـعيـة العـادية بخـوارق الطبيعة الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافًا من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حــولـهم فى الهــواء المحــيط بهـم ، وفى الأرض التى تحت أقــدامــهـم ، وكـــانوا يحرصون على أن يردوا عـداوة هذه القوى الخفية ، أو يستعينون عليها بالأدعية وبالرقى السحرية ، وكانوا يسأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم ، من سطور أصداف السلاحف ، أو حركات النجوم) .

* ويقـول ول ديورانت : (المصـدر السـابق ص ٢٦٣) : (أكبر ما يهـتم بـه الصـينى أن يعيش بخـيـر فى هـذه الحـيـاة الدنيـا ، وإذا صلى فـإنـه لايطلـب فى صلاتـه أن ينال نعـيم الجنة ، بـل يطلـب الخيـر لنفسـه فى هذا العـالم الأرضى ، وإذا لـم يسـتجب إلهـه لدعـائه فقـد يطلق فيـه لسـانه بالسـبـاب ، ثم يقـذفـه آخـر الأمر فى النهـر) .

وهذا قول متجاوز ، وبخاصة فى إطلاقه ، فليس ثمة شعب دنيوى وآخر أخروى ، إنما هى ظروف المعاناة القاسية التى تطلب اليوم قبل الغد ، و (عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة) . . وليس الشعب الصينى بدعًا فى هذا ، فشعوب العالم كلها عرضة لأن تصنع الآلهة من التمر ، فإذا جاعت أكلتها .

والمثل الصينى الذى يقول : (ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أى مادة تصنع) - يبين واقعية هؤلاء القوم وبعد نظرهم ، فهم لا يعبدون آلهة مصنوعة ، وحتى يعرفوا الإله الخالق القادر الذى بيده ملكوت كل شئ ، فإنهم - دون شك - سيؤمنون بتعاليمه ، ويحرصون على تنفيذ أوامره ونواهيه .

* نعم ، إن أهل الصين لا يدينون لرسل وأنبياء ، بل يكتفون بالمربين والحكماء ، ذلك لأنهم أقاموا على أرض الواقع ، يعالجون همومهم بإمكانياتهم المحدودة ، ومن ثم كان الاهتمام بالإنسان . . علاقته بالإنسان ، وعلاقته بالكون المادي ، مع اهتمام قليل بالأصول الكونية . . إنهم لاينكرون وجود اللّه ، ولا الملائكة ، ولا الأرواح الشريرة والخيرة ، لكنهم فى شغل عن هذا كله بالحياة ، بمقاومة الآفات الإنسانية والطبيعية ، ولعل من هذا القول (ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع) ، أو لعل هذا من قبيل أن الدين تنظيم للسلوك الاجتماعى ، فما كانت الشرائع إلا فى خدمة البشرية ، ومن ثم تتطور وتتجدد بتطور الحياة البشرية وتجددها . . قد نعدهم فى الكافرين ، لكنهم أقرب إلى (الصحة النفسية) من أولئك (الذين نسوا اللّه فأنساهم إنفسهم) أولئك الذين (اشتروا الضلالة بالهدى) ، فخسروا الدنيا والآخرة . . وإذا كان هؤلاء الذين وقفوا عند حدود الواقع قد خسروا ما وراءه ، فإن من يخسر ما يجهله لا يكاد يشعر بما خسر ، على حين تكون فداحة خسران ما يتعلق المرء به ، ويكون على يقين من أنه نهاية الطريق .

* ومن الخصائص المميزة للفكر الصينى التأكيد على التكامل . لا التناقض ، وهذا يمثل جانبًا آخر من (الصحة النفسية) . . ومن البداية فإن اختلاف الآراء والمبادئ لا يمثل تناقضاً ، بل تنوعًا ، قوامه أساس مشترك ، ومن هنا كانت الدعوة إلى (ترك مائة زهرة تتفتح) ، لأن تنوع الأزهار يساعد على تأصيل اللوحة الفنية ، وتوسيع دائرة الجمال ، وتضميخ أكبر مساحة بالعُطور . . بالإضافة إلى تربية الذوق ، وتهذيب الحس ، وإثراء الفكر ، وإشاعة الرضا ، والتَّوق إلى الكمال .

قالوا : إن الأساطير غير الصينية تتميز بالعنف ، والمرح العاصف ، وراقصات الموت ، والاهتمام بالجنس ، على حين تكاد تخلو الأساطير الصينية من هذا كله ، وتميل إلى الاعتدال - أساطير العالم القديم ص٣٦٢ .

إن الاعتدال لا يمثل ضعفًا ، ولهذا جاء المثل الذى يقول (يعطى اللّه القوة لمن يصونها) ، وساقوا فى هذا المساق الجمل والفيل والحمار ، على حين تتمثل الشراسة فى فصيلتى القطط والكلاب ، وفى الحشرات السامة ، وفى المصابين بالبواسير والأمعاء الغليظة ، وفى المدمنين .

ومن هذا الاعتدال كان الاهتمام بالجانب التعليمى والخلقى فى الآداب الصينية ، وكان حرص كتاب الصين على تدوين التاريخ ، متحرّين تسجيل حقائق الحياة المجردة ، وفق ما اعتقدوا .

وقد كثرت السجلات التاريخية التى خلفها لنا مؤرخو الصين القدماء ، وإن كانت هذه السجلات القديمة لاتخضع ، أو لا تثبت أمام النقد التاريخى ، فيما قبل عام ٧٧٦ ق . م ، أى فيما قبل عهد الإقطاع ، فى عهد أسرة تشو .

ومعروف أن أشهر حكام الصين يتمثلون فى أسرة شانج (١٧٦٦ - ١٠٢٧ ق . م) ، وأسرة تشو (١٠٢٧ - ٢٢١ ق . م) ، وأسرة هان (٢٠٦ ق . م - ٢٢٠ م) .

وخلال هذا التاريخ الطويل (لم يعرف علماء الصين - فى تفسير الروايات الأسطورية - غير طريقة التفسير التاريخى للأسطورة ، وذلك بحجة استخراج اللب التاريخى من مثل تلك الروايات ، فهم يحذفون عناصر الروعة التى تبدو لهم بعيدة الاحتمال ، ولا يحتفظون بغير بقية لا لون لها ، حيث يتحول الآلهة والأبطال إلى أباطرة حكماء ، ووزراء حكماء ، والوحوش إلى متمردين أمراء ، أو شريرين وزراء) - أساطير العالم القديم ص٣٢٢ .

وهذا لا يرجع إلى قصور فى الخيال ، أو إلى عدم استبطان الرموز ، إنما هى طبيعة الاعتدال ، أو الارتباط بالواقع المعيش ، وقد يكون ثمة وعى سياسى من المتسلطين بمحاصرة المارد النائم خشية أن يصحو .

سأل أحد المريدين : أكان حقًا للسيد الأصفر القديم أربعة وجوه ؟

فأجاب كونفوشيوس : ليس بحق أبدًا ، وإنما المراد أن السيد الأصفر قد كان يستخدم أربعة من الموظفين لحكم الأرباع الأربعة من إمبراطوريته ، وبذلك كان ذا أربعة أوجه ، بمعنى أن الجوانب الأربعة من إمبراطوريته قد كان يديرها هؤلاء الموظفون بالنيابة عنه .

وجاء فى (أساطير العالم القديم ص ٣٣٧) أن عام ٢٢١ ق . م كان الخطّ العظيم الفاصل فى تاريخ الصين القديم ، وذلك لأنه الوحدة النهائية للصين الإقطاعية فى إمبراطورية مركزية . . فقد كانت البلاد - قبل ذلك العام - مقسمة إلى دويلات مستقلة يحارب بعضها بعضًا ، ويحكم كلا منها بيت وراثى ، ينقسم بدوره إلى أملاك صغيرة ، تقبض أزمّتها أسر نبيلة ، ويقال إن عدد هذه الولايات وصل فى بعض الأحيان إلى خمس وخمسين .

كان أغلب ما قبل العصر الإمبراطورى هذا - من الوجهة السياسية - تحت أسرة تشو ، وشهدت البلاد - بعد ٢٢١ ق . م ، لبضعة قرون - شكلاً جديدًا لإمبراطورية مركزية ، حيث قامت سلطة غير وراثية ، من الموظفين المعيّنين من قبل السلطة المركزية ، فكان أهل الترف واليسار ، من أصحاب الأرض ، على عهد تشو ، وظل نمط الإمبراطورية المؤسسة يومئذ هو الطابع المألوف ، حتى بداية القرن الحالى ، وإن كان الطابع التقليدى من التاريخ الصينى قد أوفى على نهايته بانحلال أسرة هان سنة ٢٢٠ م ، لكن البلاد أخذت طريقها ، بحكم القصور الذاتى ، وبانشغالها بالغزو المغولى ، ثم بالأطماع الاستعمارية ، أوربية وأمريكية ويابانية .

* وخلال العهود الطويلة - سواء أكان الحكم مركزيًا أو غير مركزى ، وطنيًا أو غير وطنى - عانت الجماهير الصينية معاناة قاسية لدرجة السقوط تحت سيطرة العصابات المسلحة التى كانت تشارك فى مسيرة الحكم أحيانًا ، بطريق مباشر ، أو بالتأثير على سياسة الحاكمين .

ولأن الشعب كان يُلجم إيمانه بهذا الواقع ، فقد سهل عليه أن يتقبله ، أو أن يجد ما يبرر قبوله .

وقد استطاع هذا (الزحام) الجماهيرى أن يؤلف معتقداً هو مزيج من الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية ، التى لاحيلة له فيها أو معها إلا الرضا بقضائها ، والصبر على نازلتها ، ومحاولة تخفيف ويلاتها .

وليس عجبًا أن تمتزج الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية فى معتقد ، ذلك لأن الظواهر الإنسانية من نواتج الظواهر الطبيعية ، حتى تشاكلتا وتبادلتا الأسماء ، هذا بالإضافة إلى أن المعاناة الكبرى كانت من (العصابات المسلحة) التى كانت تجوب المزارع والمقاطعات ، وتفرض الإتاوات ، وتهلك الحرث والنسل وهذه العصابات تكونت من المطحونين والموتورين والأقنان الذين تحملوا من قسوة الإنسان والطبيعة معًا مانَبا بهم إلى التمرد والانتقام ، وأكثر ما يكون هذا الانتقام من أولئك الذين على مثالهم من المطحونين والموتورين والأقنان !!

من هنا نشأت الأسطورة التى لم تكد تتجاوز هذا الواقع المهين .

قالوا فى خلق العالم : كانت السماء والأرض يومًا ممتزجتين امتزاجًا لا انفصام له ، كبيضة الفرخ ، حيث أنجب داخلها (با ان كو) – القدم المتراكم – وبعد ١٨ ألف سنة انفتقت هذه الكتلة البدائية ، فأما ماكان براقًا لطيفًا فقد شكل السماء ، وأما ما كان مظلمًا كثيفًا فقد شكل الأرض .

وفى ١٨ ألف سنة أخرى طفقت السماء تزداد كل يوم عشرة أقدام فى الارتفاع ، والأرض تزداد كل يوم عشرة أقدام فى الكثافة ، ويزداد (با ان كو) بينهما كل يوم عشرة أقدام فى الحَجْم .

وبعد أن مات (با ان كو) تحولت أنفاسه ، فصارت الرياح والسحب ، وصوته الرعد ، وعيناه الشمس والقمر ، وأطرافه أقسام الأرض المختلفة ، ودمه الأنهار ، وعضلاته وعروقه طبقات الأرض ، ولحمه التراب ، وشعر رأسه ولحيته الأفلاك ، وجلده وشعر جسده النبات والشجر ، وعظمه المعادن والأحجار ، ونخاعه الذهب والأحجار الكريمة ، وعرقه المطر ، أما الطفيليات على جسده فقد صارت الناس بعد أن لفحتها الريح – أساطير العالم القديم ص٣٤١ .

ربما لا تكون هناك أسطورة أخرى تفسر خلق العالم ، وربما كانت هناك أساطير لاتبعد عن هذا التفسير ، وهو دليل على انصراف القوم عن (الميتافيزيقا)، أو عن زهدهم فيها ، لأنها لا تصنع لهم حلولاً » و لا تسعى إلى تغيير ماهم عليه منذ آلاف السنين . . وحَسْبُهُم - منذ وعوا - أنهم مجرد (طفيليات تلفحها الريح) ، وتتقاذفها أقدار (طبيعية) ، وأقدار إنسانية .

* يبدأ التاريخ المسجّل للصين بأسره شانج Shang (١٧٦٦ - ١٠٢٧ق . م) ، وكانت سجلاتها تتألف من مجموعة من العظام نقشت عليها نبوءات ، وتم اكتشافها قرب نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ، حيث أصبحت منذ ذلك الحين المصدر الرئيسى لتاريخ أسرة شانج .

كانت هذه العظام إجابات عن أسئلة قدمت إلى العرافين ، وقد تم إنقاذ مئات الآلاف من شذراتها . . كانت الأسئلة تُحْفر على عظام الحيوانات والقواقع والأصداف ، وتوجه إلى الأرواح طلبًا للهداية والإرشاد ، وبعد أن يحفر السؤال ، يقوم العراف بتسليط النار على ثقوب يحدثها العظم ، ثم يؤول ما ينتج عن الحرارة من تصدعات ، بأن الأرواح تجيب ببشائر خير أو نذر شؤم .

أما القوى التى يستشيرونها فى عملية التنبؤ بالغيب ، فهى أرواح الموتى من الملوك ، وكذلك أرواح الأسلاف .

ومن الأسئلة التى تطرح حول آداب تقديم القرابين ، وتأدية الطقوس ، نعرف أن آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة كانت تعبد إلى جانب أرواح الموتى ، ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد فى مسائل السلوك ، بل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية (مانا Mana) ، حتى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٧٠ / ٢٧١ .

وهذا لا يفسر معتقداً بقدر ما يفسر عمق (الخوف) الذى يحفر فى قلوبهم ، وبقدر ما يفسر مدى الحيرة التى عششت فى آفقهم ، ذلك أن ملوك الصين الأوائل أخذوا على الشعب كل طريق ، كانوا ملوكًا وكهنة فى آن واحد ، وتعتمد سيادة الملك على أن السماء هى التى قلدته مهام منصبه ، وعندما ثار (ون Wen)

على أسرة شانج تولى ابنه (وو Wu) المُلك (١٠٢٧ - ١٠٢٥ ق . م ، وأسس أسرة Chou ١٠٢٧ - ٢٢١ ق . م) ، التى حكمت بمشيئة السماء ، فالسماء هى التى أزاحت أسرة شانج ، وكلفت أسرة تشو بتولى الحكم . . وهذه الدعوى سبقتها إشاعات ضد آخر ملوك شانج أنه كان وغداً ظالماً ، يتهكم على الآلهة ، ويغش فى تقديم القرابين ، مع أنه كان حريصًا على أداء الطقوس الدينية ، ولم يكن ضالاً متلافًا .

لكنها حجة الذئب الذى تهيأ لابتلاع الحمل .

فلما سيطرت القبيلة البدائية ، أمسكت بمقادة كل شئ ، وكانت الوظائف الكهنونية للملوك تعتمد على تقديم القرابين للموتى (من أبناء الأسرة الحاكمة) ، كما تعتمد على تقديم تقرير للّه عن مسار الأحداث الدنيوية ، والانخراط فى طقوس إيمائية ، مثل : حرث الأرض ، وبذر البذور ، أو غزل شرانق الحرير من شجرة التوت ، لكى تبدأ من جديد دورة الحياة وتجدد السنة .

ويساعد الملك - فى تأدية واجباته على النحو الذى يرضى الإله - مجموعة الكهنة والمرتلين ، فهم (الخبراء) في أشكال الطقوس ، والقادرون على المراقبة الفلكية ، لاختيار الوقت المناسب لقبول القرابين ، وفى الوقت نفسه كانوا القوامين على (صناعة) التقويم .

وكذلك كان يفعل أمراء الإقطاع ، إذ كانت لهم سيادة محلية بتفويض من الملك ، وكانوا بدورهم يفوضون الإقطاعيين التابعين لهم بالقيام بواجبات معيتة .

وهكذا ، كان الهرم الإقطاعى كله لأسرة تشو (الأكثر بدائية) يقوم من القمة إلى القاع على إرادة السماء .

وصف قائد مظفر - فى نقوش على آنية مقدسة - المراسم النموذجية التى شارك فيها ، وكانت فى جانب منها عبادة ، وفى الجانب الآخر حفلاً ملكيًا . . قال :

فى اليوم الأول ، وقبل الشروق ، يقوم الكهنة الكبار بتجهيز الملك فى

قصره ، ثم يتقدم الملك إلى معبد الأسلاف ، وقد وقف أمراء الإقطاع العائدون من حملات عسكرية أمام البوابة الجنوبية ، ثم يدعون إلى الفناء الكبير ، حيث يعرضون أسراهم . . عندئذ يُضَحى بالأسرى كقرابين فى معبد الأسلاف ، ويتقدم المشاركون نحو الفناء الرئيسى ، حيث يُلْقَى تقرير عن الحملة . . ثم يسير الملك من الفناء الرئيسى إلى المعبد ، لتقديم القرابين للأسلاف الملكيين .

وفى اليوم الثانى تُولَم للرعايا المجتمعين وليمة من اللحوم والخمر التى سبق تقديمها مكافأة لهم من الملك .

ومن الترانيم التى كانت تتلى فى هذه المناسبات الدينية :

(بهدوء جليل ، وانسجام مهيب / يسجل الوزراء والفرسان الحاضرون / فضائل سيدهم المنشئ / المتكفل بنا من قبل السماء / الملك العظيم ون Wen / آه يامولاى ، لعلك تجد وأنت فى جلالك العظيم / فى العمل المتزن ، والكلمة المهذبة / مديحًا لا يغضبك من بشرفانين / جليل ولا حد لجلاله / هو تكليف السماء / فضيلتك أيها الملك الشهير « ون » / تهبط ليغمر بالبركة / خدمًا على الأرض / ليس علينا إلا أن نتلقى عطفك وإحسانك / فليحفظها من يأتون بعدنا / إننا نأتى - بتواضع - بما لدينا من قرابين / حتى نصون عطف الملك ، ونحافظ على طريقنا المستقيم) - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٢٧٣ / ٢٧٥ .

الترنيمة لم تَصْنَع من الملك إلهًا ، ولا من الإله ملكًا ، إنما هى تتحدث عن الملك (ون) ، بصفات البشرية ، وهو بين رجاله ، ولايزيد ذكر (السماء) عن كونه (لمسة) كهنونية لإضفاء قدر من التميز والتفرد على الملك ، حتى يحتفظوا لأنفسهم بدور التطفل والنفاق فى معية الملك .

ولعل عبادة الأسلاف ما جاءت إلا من هذا الطريق ، شأن الذين يهتمون اليوم بتدوين (شجرة الأسرة) ليجدوا شيئًا يتباهون به . . أما من ناحية الملك فهو يريد أن يصنع لأسرته تاريخًا يغرسه فى قلوب الناس ، ويغرسه فى عيونهم ببعض الشواهد والأنصاب ، وبالطقوس والمراسم والقرابين ، والناس على دين

ملوكهم ، يحاولون أن يصنعوا بأسلافهم شيئًا على شاكلة ما صنع الملوك والأمراء والإقطاعيون .

ولعل افتقاد الأمن والمعاناة الاقتصادية كانا من دواعى ترابط الأسرة وتمجيد الماضى ، ذلك لأن عشق الماضى يروج مع عدم الاطمئنان إلى الحاضر والمستقبل . . ومن هنا كان الاهتمام الشعبى بشجرة نسب العشيرة ، وشجرة الأسرة ، (وغالبًا يعود أصل تاريخها إلى عشرات الأجيال) .

(يرى عالم الاجتماع سون بين وين أن خصائص العشيرة الصينية تظهر فى) :

١- النظام الأبوى ، وسلطة الأسرة ، والتركيز على رب الأسرة ، ويجب على الأبناء الطاعة العمياء لرب الأسرة ، واحترامه .

٢- توارث النظام الأبوى ، واحترام الرجال ، وعدم المساواة بين الرجل والمرأة .

٣- تطبيق نظام إعلاء شأن الزوجة الأولى ، وعدم المساواة بين الأشقاء ، وقصر الإرث على الابن الأكبر للزوجة الأولى .

٤- الاهتمام بالعلاقة التى تربط بين أقارب العشيرة .

٥- بر الوالدين ، وحب الإخوة ، وعبادة الأجداد) .

وأكثر الأدبيات الصينية تؤكد هذه القيم ، باعتبارها وسيلة (الأمان النفسى) وترابط الكيان الصينى ، ويتمثل هذا فى حرص دونج تشونج شو (١٧٩ - ١٠٤ ق . م) على إبراز أهمية الأركان الثلاثة : (سلطة الملك على الرعية ، وسلطة الأب على الابن ، وسلطة الزوج على الزوجة) ، وعلى إبراز المكارم الأزلية الخمس : (البر ، الاستقامة ، الأب ، الحكمة ، الإخلاص) كمعيار للأخلاق - الصينيون المعاصرون جـ١ ص٩٢ / ١٢٤ .

وقد يذهب الظن بأن هذه الأبيات إملاءات (فوقية) لصالح التسلط الحاكم ، لكنها فى الوقت نفسه لاتبعد عن أن تكون من واقع (الافتقار) الشعبى .

* وسرعان ما أصبحت أرواح الأسلاف (بعامة) تؤدى دورًا فى حياة

(الأشباح) ، وحتى يكون هذا الدور أكثر فاعلية فقد تمثلت الأرواح بعناصر الطبيعة ، واقتضى هذا - مع مرور الزمن - قدراً من التصديق والاقتناع ، واستوجب قرابين من الأغذية والأشربة والأكسية ، والطيوب ، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التى تحتاج إلى كل ما كانت تحتاج إليه فى عالم الأجساد .

يروى الأستاذ العقاد أن تسمية عاهل الصين باسم (ابن السماء) كانت من وحى كاهن يابانى أراد أن يزدلف إليه ، فعلمه مراسم تأليه الميكاد فى بلاده ، فنقلها العاهل إلى بلاط الصين - اللَّه ص٧٣ .

وهذا (وهم) لا مبرر له ، لأنه من إفرازات البيئة (المتجاوزة) ، وإلى يومنا هذا - فى نهاية القرن العشرين - نجد من يصف الحاكم فى (الدول النامية) بما يخرج عن نطاق البشر ، ولقد دون التاريخ العربى (الإسلامى) من قال فى الحاكم (الفاطمى) : (ما شئت لا ماشاءت الأقدا ر . . فاحكم فأنت الواحد القهار) ولم يجد الحاكم الفاطمى غضاضة ، بل انتشى ، وأغدَق على الشاعر من أموال (الرعية) !!

إنه إذن (مرض) أخلاقى لايحتاج إلى استيراد ، وبخاصة أن أسرة (تشو) تركت لزعماء القبائل والإقطاعيين والقادة العسكريين حقّ العبث بحقوق العامة والأقنان ، مما زاد فى أطماعهم ، فانقلب بعضهم على بعض ، وخرج العامة والأقنان يعملون لحساب هذا أو ذاك ، ثم يعملون لحسابهم الخاص ، مشكّلين عصابات تخرب وتنهب وتسفك الدماء .

وبحلول عام ٧٧٠ ق . م كانت الأمور قد تردت إلى حد تمكن معه تحالف من الإقطاعيين من مهاجمة عاصمة التشو ، وقتل الملك ، واغتصاب سلطته .

وشكل العنف والتآمر الطابع السائد فى الساحة السياسية ، وتغلبت المنفعة على (الأخلاق السوية) ، وشكل الغش والخداع أسلوب الحكم السياسى ، وسيطر الفقر والخوف والشعور بالضياع .

وفى مثل هذا الإطار يصبح النفاق (سيد القرار) ، وعنه تتوالد كل عناصر

الشرور ، وتنشأ أفكار بلا جذور ، وتتعاظم رؤى و (أيديو لوجيات) بأقدام خشبية كما يقول جلال الدين الرومى .

* ويلاحظ أن القوانين تكثر مع كثرة الفساد ، وبخاصة (فساد القمة) .

وكان السياسى العبقرى الذى وضع لولاية (تشى) نظامها هو (جوان جونج) مستشار الدوق (هوان) .

وبيْن نبلاء الإقطاع نشأت شيئا فشيئا تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حدا يكفى لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع ، ثم وضعت أسس التشريع .

وأصدرت دوقيتا (چنچ) و (تشين) - بين عامى ٥٣٥ / ٥١٢ ق . م - كتبًا فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعْبًا ، وتنبئوا بما سيحل بهم من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة ، إذ كانت قائمة على محاباة طبقية .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا التنظيم فى (دستورچو) ، وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى (چو چونج) عم دوق (چو) الثانى وكبير وزرائه . . يقول **ول ديورانت** : (وهو بالطبع قول لا يقبله عقل ، لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد) - قصة الحضارة مج١ جـ٤ ص ٢١ .

ولعل (چو) هذا هو شانج يانج ، الذى يدعى كونج سون يانج (ت سنة ٣٣٨ ق . م) - ويعده صاحب (الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج ص٢١٠ / ٢١١) أعظم المشرِّعين الأوائل ، ويضيف : جاء فى (السجلات التاريخية) التى دونت فى عهد أسرة هان : (كان قانونه ينادى بأن يرتب الناس إلى مجموعات من الأسر التى يجب أن تكون مسئولة بالتبادل عن السلوك الطيب إزاء البعض ، وتشارك بعضها البعض فى العقوبات ، وكل فرد لايبلغ عن مجرم يجب أن يشطر شطرين عند الوسط ، وأى فرد يبلغ عن مجرم يتلقى نفس المكافأة التى يتلقاها الشخص الذى يقطع رقبة جندى من الأعداء ، وكل من يأوى مجرمًا يتلقى عقوبة من يستسلم للعدو ، والأسرة التى بها فردان بالغان يجب أن تقسّم أو تدفع ضرائب مزدوجة ، والبسالة العسكرية تكافأ بألقاب النبالة طبقًا

لجدول ثابت ، ومن يتقاتلون لحزازات شخصية يعاقبون طبقًا لجسامة اعتداءاتهم ، ويجب أن يجبر الكل على العمل فى الفلاحة والنسيج ، والكسالى والمعذبون يصبحون عبيدًا ، وأفراد الأسرة الحاكمة يجب ألا يعتبروا منتمين إليها إلا بقدر مواهبهم العسكرية ، ومن لا يملك موهبة لا يمنح امتيازًا ، ولو كان غنيًا) .

يقول ول ديورانت : وقد ظل تشريع چو (أوكونج) مدى ألفى عام يمثل فكرة الصينين عن النظام الحكومى ، وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه (ابن السماء) ، يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ، وإلى جانب الإمبراطور أعيان ، بعضهم بحكم مولدهم ، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم - يصّرفون أعمال الدولة ، وشعب يرى أن واجبه فلح الأرض ، يعيش فى أسرة أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ، ولكن لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ، ومجلس من ستة وزراء ، كل واحد منهم على ناحية من النواحى الآتية ، وهى : حياة الإمبراطور وأعوانه ، ورفاهية الشعب ، وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان ، وتنظيم الأشغال اليدوية .

ويقول ديورانت : (يكاد هذا القانون يكون قانونًا مثاليًا ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول ، لم يحتمل أعباء الحكم) - قصة الحضارة مج١ جـ ٤ ص٢٢ .

* قامت حكومة تشن Ch'in ، وتوحدت الصين لمدة خمسمائة عام ، وقد استلهم حكام تشن مذهب التطبيق الحرفى للقانون ، فى فرض نوع من الحكم الشمولى ، فوحّدوا دول المدينة فى دولة واحدة تمثل الأمة . . ونجح أول إمبراطور من أسرة تشن فى إخضاع الأمراء والشعوب السابقة لدول المدينة ، وجعلهم رعاياه هو وحده ، بل سعى لكى يثبت لهم أن سيادته المطلقة تمتد إلى المذابح فى المعابد ، وإلى الآلهة التى يعبدونها . . ولقد قام بسلسلة رحلات طاف فيها حول الإمبراطورية صاعدًا جبالها المقدسة ، زائرًا هياكلها ، مقدمًا القرابين المناسبة للآلهة المحلية .

ولما تقدم الإمبراطور الأول فى العمر سعى لصداقة الشامانيين [١] من مختلف أجزاء الإمبراطورية ، باحثًا عندهم عن عشب الخلود ، على أمل إطالة عمره .

ومات الإمبراطور مصابًا بجنون العظمة ، وبألوان أخرى من الجنون .

وجاءت أسرة هان (٢٠٢ ق . م - ٢٢٠م) فورثت البيئة والمؤسسات التى أقامتها أسرة تشن ، لكنها نبذت قوانين أسرة تشن القاسية ، كما نبذت التطبيق الحرفى للقانون وما فيه من إجحاف وتسلط .

كانت أسرة هان تبشر باقتراب فترة غنية من منجزاتها العقلية والثقافية ، ولا يزال الصينيون حتى اليوم يحبون أن يطلقوا على أنفسهم (رجال أسرة هان) .

وخلال هذه الفترة أصبحت الكونفوشية هى العقيدة الرسمية ، كما أصبحت التاوية ديانة شعبية ، وقرب نهاية أسرة هان ظهرت البوذية فى الصين لأول مرة .

واشتهر من أسرة هان الإمبراطور وو Wu الذى حكم من سنة ١٤٠ إلى ٨٧ ق . م ، وقد تعلم على يد الكونفوشيين ، واقترح أن تكون الكونفوشية هى الفلسفة الوحيدة للحكومة ، وعين موظفين رسميين فى البلاد ، من أجل دراسة الآداب الكلاسيكية الكونفوشية وتفسيرها ، بل أنشأ جامعة إمبراطورية لتدريس الكونفوشية ، وكان اختيار ضباط الدولة من خريجها .

(١) Shaman من يشتغل بالطب والكهانة والسحر عند الشعوب البدائية .

الحكيـــــم ..

لا ريب في أن ما تمتع به فلاسفة الصين - من قبل كونفوشيوس ، ومن بعده - لم يكن مقصوراً على ما جبل عليه الشعب الصينى من حكمة وصبر ورضا بالمصير ، فما كانت الأرض الصينية لتشع إشعاعات تغير من التكوين البيولوچى والنفسى لشعب هو أكثر العالم عدداً ، ولعله أكثر تنوعًا مناخيًا ، مما يفيد إمكانية التنوع الفكرى ، والاختلاف المذهبى ، وإذا كان ثمة توافق بين الفلاسفة ، أو كانت خطوط الاتصال أقوى من خطوط الانفصال أو الاختلاف - فما ذلك إلا بسبب من (خطيئة) الانتخاب التاريخى التى وقفت عند بعض (الرموز) دون أخرى .

كان (لو - دزه) أعظم فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس ، أكثر حكمة من (تنج شى) ، فقد كان يعرف حكمة الصمت .

يقول ول ديورانت : (وما من شك فى أنه عمر طويلاً ، وإن لم نكن واثقين من أنه عاش حقًا ، لكن الروايات والأقاصيص التي لاتخفى عليها خافية تقول : إنه عاش سبعة وثمانين عامًا ، ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لايكون هذا أو ذاك له) - قصة الحضارة مج١ جـ٤ ص٣٠ .

هذا التشكيك الذكى الظريف يرجع إلى ماعرف ديورانت من طبيعة التأريخ ، قبل التدوين أو بعده ، ومن طبيعة الانتخاب المعنوى ، فى لون من التكامل البطولى ، متمثلاً فى (شخص) أُوتى (حظًا) وفيراً .

وقد نسب إلى (لو - ذره) أنه قال : شر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها

حكومة فلاسفة ، ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ، وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب ، والإكثار من الآراء ، (ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يُنكّل بها ، ويفسد شئونها ، أما الذى لايفعل هذا فهو نعمة وبركة) .

وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ، فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على مايتمتع به المجتمع من حرية وحيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة ، أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة ، إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها .

وهذا قول أنضج بكثير من الأفكار المعاصرة ، ولعل هذا سر تشكيك ديورانت فى وجود صاحبه ، ذلك لأننا فى مصر المعاصرة جربنا حكم الساسة وحكم التكنوقراطيين ، فإذا الجامعيون المتخصصون أضر بسير المؤسسات ، وأبعد من النجاح ، لم يتبينوا - وهم يصنعون (غابة) من القوانين والقرارات الإدارية - أنهم إنما يصنعون شباكًا تصطاد الأسماك الصغيرة ، دون غيرها ، وقد يكون لهم عذر فى أنهم (مأمورون) أكثر من كونهم (آمرين) ، ويزعمون أن القيادة العسكرية تعودت أن تُملى (وعليك أن تنفذ ثم تتظلم) ، وهذا التظلم كثيراً ما يصل بك إلى (السجن الحربى) أو إلى (قهوة النشاط) ، وقد يصل بك إلى (ما وراء الشمس) ، و (أنت وبختك) ، لأن كل شئ رهن (المزاج) الخاص ، أو رهن (تقارير) المخابرات ! !

يقول (لو - دزه) : (لما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق) ، وعدد القضاة ، وعدد طرق التقاضى ، ولم يعد يسهل التمييز بين من هو خارج الأسوار ومن هو فى داخلها .

ومن الأراء الحكيمة النافذة البصيرة ، ما نسب إلى (لو - دزه) : (ليس فى العالم شئ ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شئ أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة) .

وهذا ما نجحت فيه سياسة اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى احتوت الدولة (المستعْمرَة) بقوة اقتصادها ، وهو ما فشلت فيه دول كثيرة تتخذ شعار (ما أخذ بالقوة لاَ يسترد بغير القوة) .

(إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شئ ، تؤدى واجبها ، دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ، ثم تراها تسكن وتَخْمد ، وإذا ما ترعرعت وإزدهرت عاد كل منها إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قُدّر لها أن تؤديه ، وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة) .

هذه الحكمة عبرت عنها شعوب بقولها (تمسكن حتى تتحكم) ، وهذا أيضًا هو ما فعلته اليابان ، حتى أنها رفضت - فى مرحلة من مراحل نموها - أن تنفق على دفاعاتها ، مكتفية بدفاعات محتلّها ، مستثمرة كل طاقاتها فى مجال التكوين والتشييد والإنتاج ، حتى غزت العالم كله بهذا الإنتاج ، مزودًا بانحناءة وابتسامة رقيقة .

(إذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا ، نراها بأعيننا ، وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ، ونباح الكلاب ، فإنى لن أجعل للناس - وإن طال عمرهم - صلة بها إلى يوم مماتهم) .

وهذا لا يعنى العزلة والانقطاع عن المؤثرات الخارجية ، بل الإقبال على العمل ، وعلى جودة الإنتاج ، فإذا وثقنا من قوة الدولة ، وسلامة البناء ، وصلابته ، فلا ضير من أن نخترق (حاجز الصوت) لنقارن بين ضجيج الدجاج وضجيج الآلات .

إن هذا الفيلسوف لم يذكر دولة الدجاج والكلاب عبثًا ، إنما يعنى طبيعة الدجاج والكلاب ، فالدجاجة حين تبيض تعلن عن نجاحها بكثرة النقنقة والقأقأة ، وإذا بقية الدجاج الذى لم يبض يندفع فى (تظاهرة) صاخبة تعلن عن العبثية ، واحتفالات النشامى والصناديد بالانتصارات فى (أم المعارك) ، كذلك الشأن مع الكلاب ، وبخاصة حين يرخى الليل سدوله ، وتملأ الأشباح عيون

الكلاب ، فإذا الرعدة تهز الحبال الصوتية لكلب هزيل ، وإذا كل الكلاب - حتى من يقيم بين الجدران والقضبان - يعلن عن وجوده بهذا النباح !!

المعلـــــم ..

يتكون اسم كونفوشيوس من لفظين : كونج Kung اسم القبيلة التى ينتمى إليها ، ثم فو تزى Fu-tze بمعنى الرئيس ، أو المعلم .

ذلك أن والده (شوليانج - هى) عاش مع زوجته الأولى زمنًا طويلاً دون أن ينجب ، وكان إذ ذاك حاكمًا على مدينة (تسيئو) ، فلما بلغ السبعين تزوج ثانية ، وأنجب كونفوشيوس ، وتوفى وابنه فى الثالثة ، والأسرة تعانى شظف العيش .

ولد سنة ٥٥١ ق . م فى مدينة (تشو - فو) ، إحدى البلاد التى كانت تكوّن وقتئذ مملكة (لو Lu) ، التى تكوّن الآن ولاية شانج تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية - كما قصت الأقاصيص الهندية عن بوذا - كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده ، وكيف كانت الهُولات التى تحرسها ، والأرواح الإناث تعطر لها الهواء ، وهى تلده فى أحد الكهوف .

وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنّين ، وشفتا ثور ، وفم فى سعة البحر ، وأنه ولد من أسرة هى أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة ، لأنه - كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون - من نسل الإمبراطور العظيم (هوانج - دى) .

نشأ الصغير فى خدمة أحد الأمراء الذى كلفه رعى الأغنام ، فتفانى فى الخدمة ، مما أدى إلى زيادة إنتاج الغنم ، ومن ثم رقى إلى منصب المشرف على الحدائق العامة بالولاية ، فتزوج وأنجب ولدًا وبنتًا ، ثم اضطر لترك مسقط رأسه ، مودعًا زوجه وولديه ، إلى الولايات المجاورة ، لأنه شعر أن هذه الأعمال لا تناسب مواهبه . . ولما أعياه التجوال ، ولم يثمر ثمرته ، عاد إلى

حيث نشأ ، فأقام فى داره - وهو بعد في الثانية والعشرين - مدرسة يعلم فيها أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسة والتاريخ والشعر ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من رسوم .

جاء فى كتاب (المحاورات) : (انصرفت إلى طلب العلم ، وأنا فى الخامسة عشرة من سنى ، وفى الثلاثين التزمت جادة الفضيلة ، وفى الأربعين لم يكن فى نفسى أى ريب فى حقائق الأشياء ، وعلمت القضاء والقدر وأنا فى الخمسين ، وأصغَتْ أذنى إلى الحق ، عارفًا فاهمًا فى الستين ، ولم أتجاوز حدود السلوك القويم وأنا فى السبعين) .

وكان يقول : (السياسة فى الإصلاح ، فإن جعلت نفسك أسوة حسنة لرعيتك ، فمن الذى يجترئ على الفساد ؟) .

(إن أخلاق الرؤساء كالريح ، وأخلاق المرءوسين كالعشب ، وإلى أى جهة هبت الريح مال العشب) .

أحيا التعاليم الدينية القديمة ، ودّون أصولها ، ولم يتعرض فى دراسته الخاصة لمناقشتها ، ولم يكن له مذهب يدعو إليه ، ويحث الناس على اعتناقه ، بل كل عنايته كانت تقوم على السلوك المستقيم ، والدعوة إليه .

لم يكن مدعيًا رسالة ، ولم يكن رسولاً مبعوثًا ، بل كان حكيمًا يبشر بمذهب أخلاقى ، ويستمسك أشد الاستمساك به . . أما عقيدته فلم تتجاوز عقيدة الصينيّين القدماء ، المتمثلة فى السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، وأرواح الآباء .

كان الطريق الكونفوشى فى جوهره طريق (چين Jen) ، أو طيبة القلب وتعاطفه مع الآخرين ، وقد فسر كونفوشيوس الچين بأنه (حب البشر) ، وقال :

(يرغب كل إنسان فى الثَّروة والشرف ، ولكن إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق فإنه لا ينبغي الإبقاء عليهما . . ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة ، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية فإنه لا ينبغى تجنبهما ، وإذا ما نأى أى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية - چين -

فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة ؟ ذلك أن الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلى عن الإنسانية - چين - حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة ، فهو فى لحظات التعجل ، وهو مسرع ، يعمل وفقًا لها ، وهو فى أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقًا لها) .

* أصبح كونفوشيوس - إلى جانب التدريس - مستشارًا لكثير من الولاة والأمراء والنبلاء فى الشئون السياسية ، ووجد الفرصة سانحة لتطبيق آرائه السياسية ، ثم شغل منصب وزير للأشغال العامة ، بعد أن اشتغل قاضيًا فى بعض الولايات . . وذاع نبأ سياسته وحكمته فى إدارة الشئون القضائية والسياسية فعينه حاكم ولاية (لو) سنة ٤٩٦ ق . م . رئيسًا لوزرائه ، فأصبحت ولاية (لو) من أقوى الولايات وأغناها ، وأكثرها استقرارًا وأمنًا ، مما أدى إلى حقد حكام الولايات الأخرى ، فاتفق بعض الحكام على إرسال وفد نسائى يقوم بالرقص أمام حاكم (لو) ووزرائه ، ونجحت الخطة فى إفساد رجال الحكم فى الولاية ، فاضطر كونفوشيوس إلى الاستقالة .

ثم أخذ فى التجوال بين الولايات الصينية ، يتصل بالولاة ، ويقدم النصائح ، ويدرس لتلاميذه ، ويناظر العلماء والأدباء . . وامتدت فترة التجوال هذه بين حوالى ٤٩٣ ق . م إلى وفاته سنة ٤٧٩ ق . م ، بعد أن عاش ٧٢ عامًا .

وأصبح اللامعون من تلاميذه الذين بلغوا ثلاثة آلاف من قادة الفكر والسياسة ، واتصل بعضهم حوالى سنة ٥٢٤ ق . م بالفيلسوف لاوتزى Laotze الذى يعزى إليه المذهب التاوى (Tao) ، القانون السماوى الأعظم الذى يبعث الحياة فى الموجودات .

* وقد تمثل أكبر جهد كونفوشيوس فى نقله التراث الصينى ، فى لغة بسيطة سهلة ، حتى يفيد منها أكبر عدد من الصينيين ، وحتى يعملوا على إعادة مجد أسلافهم .

وأدت جهوده إلى تأليف خمسة كتب ، يعرض فيها تاريخ الصين القديم ، وأصول ديانات الأسر الصينية وعشائرها ، ودرّس فنون المعرفة الستة التى كانت

سائدة فى عصره : الطقوس ، والموسيقا ، والرماية ، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة ، ثم الرياضة والحساب .

لهذا كان يلقبه تلاميذه (معلم الجنس البشرى) ، بل كانوا يعدونه أعظم معلم أنجبته العصور ، وكانوا ينقلون آراءه ، ويعلقون عليها ، ويشرحونها ، مما ساعد على تكوين مدرسة كبرى ، هى المدرسة الكونفوشية .

والكتب الخمسة التى ألفها هى :

١- كتاب الأغانى ، أو الشعر ، ويحتوى على ثلاثمائة أغنية وخمس ، بالإضافة إلى التراتيل الدينية ، وتعود أشعار هذا الكتاب إلى عهد تشو .

٢- كتاب التغيرات ، الذى بين سبب تطور الحوادث ، وفيه استطاع أن يحول علم التنجيم إلى دراسة علمية للسلوك الإنسانى ، وكيف يتأثر الإنسان بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن التنبؤ بسلوك الفرد ومُسْتقبله .

٣- كتاب التاريخ ، ويشمل الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها القديمة (من ٢٠٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م) ، ولا سيما الأوامر والمراسيم الملكية والإمبراطورية .

٤- كتاب الربيع والخريف ، وقد عالج فيه تاريخ الصين بالتفصيل بين سنتى ٧٢٢ و ٤٦٤ ق . م تقريبًا .

٥- كتاب الطقوس ، أو التقاليد ، وهو يبين النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر التى لعبت دورًا هامًا فى تاريخ الصين .

وثمة كتب آخرى كتبها تلاميذه ، وإن كانت تنسب إلى منشيوس ، تلميذه الروحى ، الذى تتلمذ فعلاً على حفيده تزيس Tsesze ، ويعد منشيوس أكبر شخصية فى تاريخ المذهب الكونفوشى .

ومن هذه الكتب :

١- مختارات كونفوشيوس ، وقد قام تلاميذه بجمعها وتنسيقها .

٢- العلم العظيم ، ويضم تعاليم كونفوشيوس .

٣- عقيدة الوسط ، ويقدم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تنظيم الحياة .

٤- كتاب منشيوس ، وهو شروح كتبها منشيوس على متن كونفوشيوس .

ونسب إلى تلاميذه أنهم اهتموا بالأشكال الشعائرية ، ووضعوا تفاصيل الاحتفالات الرسمية ، وقيل إن بعض تلاميذه أصروا على أن يرتدى الكونفوشى الحق نوعًا خاصًا من الثياب .

* وقد أتاحت ظروف العمل لكونفوشيوس أن يرى عن قرب معاناة عامة الشعب ، وأن يستشعر آلامهم ، بسبب من تجبّر السادة وتسلطهم . . وفى هذا يقول :

(من الصعب أن تتوقع أى شئ من أناس يمتلئون من الطعام طوال اليوم ، فى حين أنهم لا يستعملون عقولهم فى أى سبيل على الإطلاق ، بل إن المقامرين يفعلون شيئًا ، وفى هذه المرتبة هم خير من هؤلاء الكسالى) .

(حيثما يذهب المرء عليه أن يعامل كافة الناس كما لو كان يستقبل ضيفًا هامًا ، وإذا صار موظفًا فى الحكومة وجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان يقدم قربانًا عظيمًا) .

(الرجل الفاضل حقًا هو من يرغب في تثبيت أقدام الناس كما يرغب فى تثبيت قدميه ، يريد لنفسه النجاح ، ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا ، ويجد فى أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير فى منهج من الفضيلة الحقيقية) .

(لو حاول أحد أن يرشد الناس عن طريق سنّ القوانين ، ويحافظ على النظام عن طريق فرض العقوبات ، فسيسعى الناس لتجنب العقوبات فحسب ، دون أن يكون عندهم إدراك للالتزام الأخلاقى ، ولكن ، لو أن فردًا قادهم عن طريق الفضيلة – سواء عن طريق الإدراك أو عن طريق القدوة – واعتمد على «لى» فى الحفاظ على النظام ، لأحسن الناس إذن بالتزامهم الأخلاقى بأن يقوّموا ما بأنفسهم) .

لقد أصبح (الخير) جوهر الفكر الكونفوشى ، لأنه ليس المُثُل العليا السياسية

والاجتماعية ، ونموذج الأخلاق السامية فحسب ، بل هو جوهر الشخصية المثالية ، والمنزلة الرفيعة لذوى الأخلاق الحميدة .

تساءل تسى تونج : (إذا قدم الإنسان الجميل والمعروف للشعب على نطاق واسع ، واستفاد منه عامة الشعب ، هل يمكن أن يستحق لقب رجل الخير ؟) .

فأجاب كونفوشيوس : (بل إنه يستحق أكثر من أن يكون خيّرًا ، يجب أن نسميه حكيمًا ، لأن الحكماء فى العصر القديم مثل « ياو » و « شو » كان من الصعب عليهم أن يفعلوا ذلك ، إن الإنسان الخير يجب أن يقدم المساهمات والإنجازات ، ويساعد الآخرين على أن يقدموا ذلك أيضًا ، كما يجب عليه أن يصل إلى أعلى درجات السلوك الاجتماعى والاحترام ، ثم يساعد الآخرين على أن يحذو حذوه ، ثم يستطيع كل إنسان أن يفهم الآخرين بنفسه ، ومن ثم نستطيع القول إن ذلك يعتبر منطق سلوك الإنسان الخير) .

وقد أشار كتاب (سجل المراسم . . مقال سلوك الكونفوشيين) : إلى ست عشرة ميزة للشخصية المثالية ، هى :

١- الاعتماد على النفس . ٢- الملامح الأخلاقية . ٣- التأهب والاستعداد . ٤- التودد إلى الناس . ٥- الاستقامة . ٦- الطبائع القومية الحازمة . ٧- الإخلاص . ٨- تولى الوظيفة الرسمية . ٩- الإحساس بمتاعب الشعب . ١٠- التسامح ولين الجانب . ١١- تزكية الأكفاء . ١٢- تقبل المسئولية وتحملها . ١٣- العمل النزيه المنفرد . ١٤- الأدب والسلوك الحسن . ١٥- التصادق . ١٦- الاحترام والتواضع .

وجاء فى كتاب (العلم الكبير) :

(إذا كنت تريد أن تكون إنسانًا حكيمًا ينشر الأخلاق النبيلة فى الأرض ، يجب عليك تهذيب الذات ، كما يجب فى المقام الأول تقويم أعماق الذات حتى يتحقق تهذيبها ، وتقويم الذات يحتم إخلاص الأفكار التى يعبر عنها الإنسان ، ويجب إغناء المعرفة الذاتية وتعميقها ، إن تعميق أبحاث حقيقة كل الأشياء وإدراكها إدراكًا كاملاً هو بلوغ الغاية القصوى للمعرفة ، وذلك يعنى حقيقة

الأفكار التى تعبر عنها الذات التى تسيطر على أعماق النفس ، وتعمل على تهذيبها ، إن تقويم الأفكار يعنى تهذيب الذات أيضًا ، إن بلوغ الإنسان مرحلة التثقيف الذاتى ضرورة لإصلاح بيته وتقويمه ، حتى يستطيع بعد ذلك إدارة شئون الدولة ، وتعميم الهدوء والاستقرار فى كل أنحاء البلاد ، ويرى الجميع - من الإمبراطور ابن السماء حتى عامة الشعب - أن تهذيب الذات أساس كل شئ ، وإذا لم يتحقق تهذيب الذات الذى هو أساس كل شئ يكون من المستحيل إدارة شئون الدولة ، وتعميم الهدوء والاستقرار فى أنحاء البلاد) - الصينيون المعاصرون جـ١ ص ١٢٧ / ١٣١ .

* لقد آمن **كونفوشيوس** بوجوب أن تعمل الحكومة على رفاهية الناس أجمعين ، ورأى أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شئون الحكم أعظم الرجال كفاءة ، ومثل هذه الكفاءة لا علاقة لها بالمولد أو الثروة أو المكانة ، وإنما هى خاصة بالمعرفة وحسن السلوك ، وهما ثمرة التربية الحقيقية ، ولهذا يجب انتشار التربية والتعليم ، حتى يمكن إعداد الكثيرين للاضطلاع بمهام الحكم .

وقد قال لدوق (لو) : (إذا كانت سياسة الحاكم طالحة ، ولم يعارضه أحد ، فإن هذا التراخى كفيل بالقضاء على الدولة) .

ولما سأله (تشى كانج تزو) رئيس أقوى عائلة فى ولاية (لو) ، (كيف يمكن معاملة اللصوص بطريقة فعاله ؟)

أجابه : (إنك ياسيدى ، إذا لم تطمع فى أشياء لاتخصك فإنهم لن يسرقوا ، حتى لو أنك استأجرتهم لذلك) .

وسئل عن صفات الحكم المثالى ، فأجاب : (إنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافيًا ، وجيشًا يحميهم ، وثقة عظيمة فى حكامهم) .

فسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة إذا دعت ضرورة إلى ذلك ؟

فقال : (أفضل أولاً الاستغناء عن الجيش) .

فسئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك .

فقال : (أفضل الاستغناء عن الطعام ، فما أكثر من ماتوا جوعًا منذ وجد الإنسان ، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة فى حكامها) .

وأوصى الحاكم بأن يستمع إلى نصيحة الشعب ، (لأن ماتراه السماء وتسمعه ليس شيئًا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه ، وما يعده الشعب جديرًا بالثواب والعقاب هو ما تعده السماء جديرًا بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب ، وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يراعوا ذلك ويتدبروه) .

ينسب إلى الرسول محمد العظيم قوله (لاتجتمع أمتى على ضلالة) ، وهذا يعنى أن الهدف الأسمى من السياسة هو القيام على حاجة الرعية ، (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، إنه إذا استهان الراعي بحق الرعية وجب عزله ومحاكمته على التفريط في حق من تولى أمرهم ، إنه لم يكتسب بتوليه القيادة (حقًا مقدسًا) ، إنما هو حَقّ مرهون بالحفاظ على حقوق الآخرين (المقدسة) ، فإن تجاوز سقط ، وإن فسد فسد كل شئ بفساده .

وكل هذا فكر نظرى ، لأن التطبيق يراعي احتمال أن تدول دولة الأحدث ركوبًا على كتفى الشعب ، ومن ثم كان التغاضى عن جرائم (السابق) ، حتى يحظى (اللاحق) بهذا التغاضى ، مهما نهب وسلب واجترأ على أخطر المقدسات .

وقد جاء فى كتاب التاريخ : (إن توكيل السماء للحاكم ليس أبديًا ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعًا بهذا التوكيل الإلهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير ، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم) .

(إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة اللّه أو إرادته ، وإرادة اللّه هى إرادة الشعب ، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فإن اللّه العلى السامى ينظر إليه بعين الرضا ، ويوطد عرشه ، أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإن اللّه العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته) .

ومن واجبات الحاكم عند كونفوشيوس :

١ – أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق . ٢ – أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه . ٣ – أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى ، وأن يقوم بالتزاماته إزاءهم كاملة . ٤ – أن يجلّ وزراء ولايته وإمبراطوريته . ٥ – أن يعامل موظفى دولته بالحسنى . ٦ – أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى ، وأن يجعل من نفسه أبًا للشعب . ٧ – أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها . ٨ – أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته . ٩ – أن يهتم برفاهية أمراء الإمبراطورية .

سأل تلميذ : (كيف يجعل الحاكم رعاياه يجلونه ، ويثقون به ، ويتواصون بالخير فيما بينهم ؟) .

قال كونفوشيوس : (إذا قابلهم بالسمت والوقار أجلوه ، وإذا كان بارًا بوالديه ، شفيقًا على قومه أخلصوا له . وإذا رفع الصالحين ، وأعان العاجزين تواصوا بالخير) .

وقال ناصحًا : (آمن بالحق ، وأحب العلم ، واتبع الفطرة ، ولا تقم فى مملكة سادتها الفوضى ، واطلب المنصب إذا كانت البلاد محكومة بسياسة حكيمة ، واعتزل إذا كانت تحت سياسة غاشمة ، فمن العار أن تفتقر وتبتعد والبلاد تحت سياسة عادلة ، ومن العار أن تغنى وتعتز والبلاد تحت سياسة غاشمة) .

(لا يكن همك أن تتولى المنصب ، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب ، ولا تهتم بجهل قدرك ، بل اهتم بالفضل الذى تريد أن يعرفوك به) ، ثم إنه يوجب على طالب المنصب ألا يجعل عنايته موجهة إلى مقدار المرتب من المال ، ولكن ليجعل عنايته فى القيام بالواجب لذات الواجب : (من يخدم الأمراء فليجعل العناية بأداء الواجب فى المحل الأول ، وأمر الراتب فى المحل الثانى) .

* كان اهتمامه الأكبر بالتربية الأخلاقية ، فإننا (إذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، وإذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة تعود المجتمع كله على العطف والشفقة ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنسانى بأسره) .

(الرجل الذى لا يصلح خطأه يرتكب خطأ جديدًا) .

(الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق ، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول إلى الحق أفضل ممن يعشق الحق) .

(إذا وجدت شخصا يستحق أن تتحدث معه ولم تخاطبه فإنك قد افتقدته ، وإذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فإنك تكون قد أضعت كلامك سدى ، والرجل العاقل هو من لايفتقد الرجال ، ولا يضيع كلامهم سدى) .

(إن الإنسان هو الذى يجعل الصدق عظيمًا ، وليس الصدق هو الذى يجعل الإنسان عظيمًا) .

(إن الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول إلا كلامًا جيدًا ، ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لايكون دائمًا ذا أخلاق كريمة) .

* قيل إن طريقة كونفوشيوس فى التأليف أن يذكر أمثلة وقصصًا مسرودة الواحدة بعد الأخرى ، لا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب . . ومن ثم يستحيل استخلاص مذهب فلسفى أو اجتماعى من كتاباته .

وهذا يمثل رؤية خارجية ، ورؤية جزئية ، لأن مذهب الرجل قد يتمثل فى (الچين) الذى تدور حوله كل أفكاره وتعليماته ، إنها فلسفة تطبيقية لا ترتبط بطريقة التأليف ، ولكن بالطريقة نفسها التى حُكم على سقراط من بعد بأنه فيلسوف ، مع أنه لم يدون كتابًا ، إنما كان حوار سجله تلميذه أفلاطون ، ولعل ذلك بعينه ما حدث مع كونفوشيوس ، فضلاً عن أن كونفوشيوس كان يسير على أرض الواقع ، يرشد الحكام ، ويرشد المحكومين ، والهدف محدد هو إصلاح البشرية ، وتخليصها من الشرور والآثام ، وسواء تم هذا الهدف عن طريق المشاركة فى الحكم ، أو فى نصيحة الحاكم ، أو فى تربية جيل من التلاميذ ، وبثّه بين الناس ، أو عن طريق الجلوس إلى الآخرين يسألون فيجيب ، وسواء كانت الإجابة بالرمز والإشارة ، أو بالقصة والمثل – فإن الغاية المرجوة لم تتغير .

(إن كل نظام للقوانين الأخلاقية لابد أن يتخذ أساسه من ضمير الإنسان نفسه وظروفه ، وهو الضمير الذى تؤيده التجارب الإنسانية للأجيال المتعاقبة ، كما تؤيده تجارب عامة الناس ، وكل نظام اجتماعى ناجح يجب أن يقوم على الدين ، إذ الحكام والأفراد إذا قاموا بالطقوس الدينية وتقديم القرابين ، فإن هذا يؤدى إلى توكيد الروابط الاجتماعية فيما بينهم ، كما يؤدى إلى إشاعة الحب والمودة بين الناس ، وبالتالى إلى تأكيد الإخلاص والثقة بين أفراد المجتمع ، فاللَّه أو السماء هو صانع هذا العالم بما فيه وفق قوانين منتظمة لا تقبل التخلف ، إذْ الشمس والقمر مثلاً يسيران فى تتابع منتظم ، والأشياء توجد وتعيش وتفنى بانتظام ، ودون أى تدخل من جانبنا ، وتلك الظواهر كلها تمثل القانون الإلهى ، والرجل العاقل هو الذى يسير وفق هذا القانون الذى يمثل فى الوقت نفسه القانون الأخلاقى ، إذ عندما يطيع الابن أباه فإنه يحترم فى نفسه اللَّه ، فالحياة الفاضلة ليست إلا تأكيداً للقانون الإلهى الذى هو فى الوقت نفسه تأكيد للطبيعة الإنسانية ولقانون الطبيعة العام) .

هذه الفقرة من ترجمة الدكتور حسن شحاته سعفان (الكتب الخمسة لكونفوشيوس ص٣٠) ، وقد توحى بأن المترجم قد طبع فكْرنفوشيوس بثقافته الإسلامية ، ومزج بين الكونفوشية والتاوية ، والسبب فى هذا أننا وقفنا عند الفكر التجريبى لكونفوشيوس ، مغفلين تمامًا الفكر الدينى ، مع أنهما واحد ، كما تقول الفقرة ، ثم إن الاهتمام بالواقع المنظور لا يمكن معه إغفال الواقع غير المنظور ، لأن الفكر الصينى بعامة لم يغفل (السماء) جملة ، لكنه آثر عدم الحديث عن دورها بالتفصيل الذى هو شاغل الفلاسفة فى جميع أنحاء العالم ، وحسبنا أن نستمع إلى كونفوشيوس يقول : (إن الحق المطلق غير قابل للتجزئة ، ولما كان غير قابل للتجزئة فهو خالد ، ولما كان خالدًا فهو موجود بذاته ، ولما كان موجوداً بذاته فهو لا نهائى ، ولما كان لا نهائيًا فهو واسع وعميق ، ولما كان واسعًا وعميقًا فهو متعال وروحى) - المصدر السابق ص٢٢ .

ماذا تقول الفلسفة الميتافيزيقية أكثر من هذا ؟ لكن (المعلم) لم يرد أن يشغل باله بأكثر من حلول المشكلات (المادية) التى كان يعانيها الشعب الصينى ، ولهذا

كانت دراسته للتاريخ والشعر والموسيقى ، وكان اهتمامه بالتربية والتعليم ، وكان اتصاله بالحكام ليعرض مشورته وخدماته .

جاء في كتاب (العلم العظيم) :

(إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا تهذيب نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء ، فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة) .

بالرغم من أن (الفقرة) تقوم على أساس (خيالى حالم) ، لأن البحث عن (حقائق الأشياء) وصولاً إلى (العلم الكامل) مجرد استغراق فى (حلم دافئ) لا علاقة له بالواقع ، لكن الأحلام مهما اتسع خيالها هى خطوة على الطريق ، ورغبة (عارمة) فى الوصول ، وسواء صح هذا أو لم يصح فهو دعوة إلى صدق الظاهر والباطن ، إلى (تصحيح المعانى) أو (تحرير الألفاظ) ، ذلك لأن (الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ، وإذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التى تعرض لها) .

قد نقول إن الرجل تختلط تأملاته بأحلامه ، بسبب من حبه الناس ، وحرصه على الخروج بهم من (سراديب) المعاناة النفسية والمادية ، يبين هذا قوله :

(إن العالم فى حرب ، لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ، والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة ، والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا

النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوّموا نفوسهم ، وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الدنيئة الفاسدة ، وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ، بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع ، ببحث طبائع الأشياء بحثًا منزهًا عن الأهواء ، فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ، وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم عن الشهوات الفاسدة ، وبتطهير قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ، وبإصلاح نفوسهم تصلح أحوال أسرهم ، وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ، وبتنظيم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح) .

هذا التحليل النفسى يكشف عن (معلم) دقيق الملاحظة ، واسع التجربة ، لا يقف عند إطلاق الشعارات مثل (اعرف نفسك) ، بل يرسم الطريق لمعرفة هذه النفس ، ويحدد الصعوبات التى تشغل الطريق ، إنها شبكة التفاعلات الاجتماعية ، معرفية وسلوكية ، من القمة إلى القاعدة ، ومن القاعدة إلى القمة . . لكن فاته أن يقف عند (الأهواء التى تشوه الحقائق) ، و (المعارف المنزهة عن الهوى) . . إن المرء لا يستطيع (وحده) التمييز بين الخير والشر ، ولو أنه استعان (بالقدوة الصالحة) ، فإن حدود الصلاح قد تتداخل مع حدود الهوى ، ومن ثم احتاجت البشرية إلى من يَضَع الحدود ، حقوقًا وواجبات ، من خارج الدائرة البشرية .

لقد وضع كونفوشيوس (المعرفة البشرية) فى درجات :

١ – درجة رجل وهبته السماء المعرفة ، وأوتى الإلهام ، وهى أعلى الدرجات .

٢ – درجة رجل لم يؤت إلهامًا ، ولكن فيه ذكاء ، فتعلم ووصل إلى أقصى ما يتعلمه من لم يؤت إلهامًا .

٣- درجة رجل لم يؤت ذكاء ، بل فيه غباء ويطلب المعرفة ، وينال منها بقدر طاقته .

٤- درجة رجل حائر بائر ، فيه غباء وبلادة ، فلم يعرف ، ولم يحاول معرفة ، وهى بالدرك الأسفل .

لكن هذه الدرجات تمثل أخطر ما فى (شبكة التفاعلات الاجتماعية) من صعوبات ، لأن الاختلاف فى القدرات يوهن القوى ، وينشر الفتن ، وهو ما يمثله الاختلاف فى خيوط النسيج ، فما وهن منها لاينفع معه قوة ما اشتد فَتْله ، وخلصت مادته ، (إن الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة ، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة) ، وشتان بين من يبنى ، ومن يهدم ، وبخاصة إذا كان من يهدم من أولئك الذين أتوا نصيبًا من (الذكاء والإلهام) الشيطانى ، (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا ، شياطين الإنس والجن) ، فكيف تميز بين النبى والشيطان ، ولكل أدواته المبهرة (الخارقة) إلا عن طريق خير هذا وشر ذاك ، والخير فى الاعتدال ، لا فى طلب المثل الأعلى ، (فالقناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة ، واللين من غير ضعف فضيلة ، والرحمة مع العدلَ والتسامح مع المسىء فضيلة) .

ينبغى أن يوضع فى الاعتبار ما بين الناس من تفاوت ، ولهذا كانت (الرحمة أخص ما يجب أن يسود الناس من صلات ، فهى الرابطة التى تربط أبناء المجتمع ، وتجعل الناس متحابين سعداء) ، وقد تكون الرحمة فى الحزم والشدة ، الرحمة ليست مجرد قيمة ، قد تشتبه بالعدل والتسامح والشفقة والعون ، ومن ثم وجب (تحرير الألفاظ) ، كما قال المفكرون الإسلاميون .

سأل أحد التلاميذ كونفوشيوس : (بأى شىء تبتدئ سياستك إن توليت حكم الإمارة ؟) .

قال كونفوشيوس : (لابد من تصحيح الأسماء) .

دهش التلميذ من هذا الجواب ، فقال المعلم : (إذا لم تكن الأسماء صحيحة ، لا يوافق الكلام حقائق الأشياء ، وإذا لم يكن الكلام موافقًا

للحقائق وقع الخلط فى اللغة وفسدت الأمور ، فلا تزهو الآداب ولا الموسيقى ، ويضطرب التفكير ، ولا تنزل العقوبات على من يستحقها ، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها ، لا تعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم ، ولذلك يرى الرجل أن من الضرورى أن توافق الأسماء مسمياتها ليمكن أن يتكلم بها ، وأن يعمل بما يتكلم ، والرجل الكامل الخلق لا يستهين بكلامه ، ولا يهمل فى تعبيره) .

إن (تصحيح الأسماء) ، أو (تحرير الألفاظ) يعنى أن تصبح الكلمة التزامًا ، فتتجرد من الاحتمالات والتأويلات والوقوع فى إصر الالتباس والغموض ، و(المعنى فى بطن الشاعر) ، والأرقام الزائفة ، وبيانات الحاكم التى تخالف ما جرى تنفيذه .

* ولعل من هذا قوله : (إنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره ، وإذا ما عرضت ركنا من موضوع على إنسان ، ولم يستطع ما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى) .

(المعلم) متفهم واع لأصول التربية الناجحة ، فليس معنى (العلم للجميع) فتح أبوابه لكل (من هب ودب) ، فللعلم قدراته ومواهبه ، ومن الخطأ أن نعتمد على حشو الرءوس بالدروس العامة والخاصة ، لأنها لن تخرّج إلا ببغاوات لاتلبث أن تنسى ، أو تفقد معنى ما حشيت به ، ومن ثم تكون (الحالقة) للمعالم ، والحالقة للقيم ، ومن هنا تتخلق كل المبادئ الرخيصة ، وتتعاظم كل المباذل النقيصة ، ولهذا قيل (لا تعلموا أولاد السفلة العلم) ، لأنهم يهبطون بما يعملون إلى ما يعملون ، ويستثمرون علمهم فى إشاعة الفساد حقداً ونقمة وكسبا رخيصًا .

يقول اللّٰه سبحانه : « **﴿إن اللّٰه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** ، أى إن حركة التغيير لا تأتى من الخارج ، لابد من أن تنفعل النفوس ، وتتمخض أقدارها ، من يترك نفسه لأيدى الآخرين فإنهم لن يحرصوا على تمام تكوينه ، وهذه خطيئة خضوع التربية والتعليم للخبراء الأجانب ، ليس أحد أعرف بك

منك ، والطبيب لا ينجح فى العلاج ما لم ينجح المريض فى تشخيص الداء ، وهذا سر فشل العملية التعليمية فى بلادنا ، جملة وتفصيلاً ، فما نزال نعتمد على الكم ونتباهى به ، مع أن أرقام الأمية فى ازدياد . . ومنذ صار التعليم (كالماء والهواء) ، دون صيانة (الماء والهواء) من التلوث - فسد كل شئ . . إن من الواجب أن يكون الاهتمام بالفضيلة قبل الاهتمام بالكمبيوتر ، لأن الكمبيوتر بدون فضيلة يخرب كل شئ ، فالمواد التى (يلتقمها) يمكن أن تتحول إلى خلايا سرطانية لا تلبث أن تنتشر فى جميع أجهزة الدولة .

* ولا فضيلة بدون جمال ، (إنه لم يُرقَطٌ إنسان يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال) .

يعلق ول ديورانت على قول كونفوشيوس هذا بأن (من أغلاط الطبيعة التى لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين) - قصة الحضارة مج١ جـ٤ ص٤٧ .

ولو أن قول ديورانت خلا من السخرية لجانبه الصواب ، لأن الفضيلة فى حد ذاتها جميلة ، والجمال فى حد ذاته فضيلة ، فالفضيلة قيمة معنوية جميلة لا تلبث أن تكون سلوكًا قويمًا ، والجمال قيمة معنوية أيضًا لا تلبث أن تأخذ شكلاً حسيًا مريحًا ، والسلوك القويم والشكل الحسى المريح كلاهما يساعد على سعادة الآخرين . . لهذا (إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها ، وعلى هديها ، تطهر قلبه ، وصار قلبًا طبيعيًا سليمًا ، رقيقًا ، عامرًا بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة) .

ولهذا كانت عناية (المعلم) بالموسيقى والفنون ، وبخاصة الشعر ، والطقوس الدينية ، حتى يحقق الانسجام داخل الفرد ، وداخل المجتمع .

يقول فى كتاب الشعر : (عندما تسود الألفة بين الزوج والزوجة والأولاد ، فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تآلفت أنغامهما . . وعندما يعيش الإخوة فى تآلف وسلام يظل المنزل فى وحدة وانسجام) .

(إذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، وإذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على العطف

والشفقة ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها ، فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنسانى بأسره) .

والمعروف أن الموسيقى تأليف وتنغيم وانسجام ووئام بين ألحان ، (وفى القلب الإنسانى أوتار مختلفة ، كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وترافى القلب ، فإن الإنسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود فى القلب يكون بائسًا حزينًا ، والنغم الذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشنًا ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقًا . . وهكذا ، وهذه الأنغام تنتج إذن من التقاء الحوادث بالقلب الإنسانى ، فالموسيقى إذن تعبر عن النفس الإنسانية وما يعتريها من انفعالات ، ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهدئ النفوس أو نثيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية ، وعلى ذلك نستطيع إصلاح النفوس بالموسيقى ، وترقيق مشاعر الأفراد ، وتحسين علاقاتهم الاجتماعية ، ومن ثم يستطاع تدعيم التضامن الاجتماعى بين الأفراد عن طريقها ، ودراسة نفسية أى شعب ، ومعرفة مدى تقدمه أو تأخره ، إذ إن موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام تكون موسيقى هادئة ، على حين تكون موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى مضطربة صاخبة ، وموسيقى الشعوب المغلوبة تكون حزينة كئيبة مليئة بالمرارة والأسى . . ولا تعكس الموسيقى النفس الإنسانية فحسب ، بل هى تعكس النظام الكونى كله) .

(لذلك يجب على الجميع أن يتعلموا الموسيقى ، وأن يأتلف كيانهم بها ، لأنها تؤدى إلى مداواة الأدواء ، وتجعلهم أقرب إلى فهم القانون الإلهى والقانون الأخلاقى ، ومن ثم تجعلهم أقرب إلى الفضيلة) .

والموسيقى فن الفنون : الشعر والرسم والرقص والتشخيص ، إنها جميعًا وسائل إزالة القشور التى لا تزال تراكمها الأيام والأحداث حول القلوب والعقول ، ولعل الفضيلة فى جماع هذه الفنون ، أو فى إزالة القشور وجلاء الفطرة النقية الطاهرة .

* يلخص صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٢٨٦ / ٢٨٧) أفكار كونفوشيوس فيما يلى :

(هناك طريق على الأمير أن يتبعه ، وهو طريق الملوك السابقين ، ولما كان الملوك السابقون - فى نظر كونفوشيوس - قد سلكوا فى حكمهم وفق ما أمرت به السماء ، فقد قدموا نماذج تحتذيها الأجيال القادمة ، وقد فعلوا ذلك ، لأنهم كانوا مهذبين . . ومن ثم كانت صفات مثل : احترام الآخرين ، والأدب ، والولاء للأسرة ، والإخلاص للأمير - من صفات الرجل المهذب الذى لا يتذمر ولا يشكو من المحن ، وهو جرئ واضح فى مسألة الحق ، لكن هذه كلها مجرد نموذج متعال لم يبلغه إلا حكماء الماضى .

وعلى الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة التى هى مركز رفيع تُجاوز قوته كثيراً القوة البدنية أو القهر ، والشخص الخير يمارس الفضيلة فيتحول الآخرون إلى الخير .

وشريعة السلوك المهذب تتحكم فى ارتداء الثياب ، وفى المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، بصفة عامة ، بل فى التصرفات والإيماءات والإشارات ، بحيث يضاف المظهر الخارجى الملائم إلى السلوك الأخلاقى) .

كان تركيز كونفوشيوس على (الملوك السابقين) مثالاً لصحة السلوك ، أقرب إلى ما نفعله حين نردد القول المأثور (سبق الأولون بالفضل) ، وكما نترحّم على السابقين لأنهم ترفعوا عن الدنايا التى نرتع فيها ، وهذا وهم كبير ، لكنه دعوة تربوية لصناعة القدوة والمثل .

يقول أحد الباحثين - الفكر الشرقى القديم ص ٣٦٥ : (لكى يتم الإبقاء على ثبات المجتمع يتعين أن يكون له قادة يمكن الوثوق بهم ، وإن القادة الوحيدين الذين يمكن الوثوق بهم هم الرجال ذوو الشخصية ، وتلك الشخصية يمكن تطويرها من خلال التربية التى يتم اكتسابها من الآخرين ، ومن ضبط النفس معًا . . إنه ما من أب أو معلم أو صاحب منصب عام يحق له أن ينظر

باستخفاف إلى مسئولياته عن توجيه سلوك من يرعى أمرهم ، وذلك من خلال الإدراك الحسى والقواعد والمثل التي يضربها لهم) .

وهذا أشبه بالقول (لو لم يكن اللّه موجودًا لوجب إيجاده) حتى يتحقق الخوف والرجاء ، وحتى تستقيم كفتا الميزان ، كذلك لابد من صنع المثل الأعلى ، حتى تقوى الحوافز إلى الفضيلة والطموح إلى المجد ، إننا ننشد النجوم فى طلب الرفعة ، وإن كان أقصى جهدنا فى طلوع شجرة أو فى صعود قمة .

قال أب لابنه : ماذا تريد أن تكون ؟ أجاب الولد : أن أكون مثلك ، قال الأب : بئس الولد أنت ، حين كنت فى سنك طلبت أن أكون وزيرًا فإذا أنا أدير أحد مكاتب البريد .

* يقول هـ. ج. ويلز (معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ص ٤٩٦ / ٤٩٧) : لقد قدم كونفوشيوس بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخلص الذى وقف حياته على الخدمة العامة .

كان مفكرًا سياسيًا إنشائيًا أكثر من (جوتاما) أو (لاوتسى) ، وكان ذهنه فى شغل شاغل بحالة الصين ، فحاول أن يخلق الرجل الأرستقراطى ، مبتغيًا إنشاء الدولة النبيلة ، وفى ذلك يقول :

(من المستحيل أن يعتزل المرء العالم ، وأن يخالط الطيور والوحوش التى لا يجمعنا وإياها تشاكل ولا تآلف ، فمن ذا الذى ينبغى لى أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون ؟ إن هذه الفوضى التى تعم الدنيا هى ما يحتاج إلى تغيير حالتها) .

لقد صارت تعاليمه تفرض على الناس كافة ، وهى (مراسم ومرعيات فى كل جزء من تفاصيلها ، كالتى لا ترى إلا فى بلاط الملوك ، وقصور علية القوم ، وأصبحت كل شئون الحياة اليومية خاضعة لقواعد جامدة ، حتى الطعام الذى قد تتناوله الطبقات المختلفة امتدت إليه يد التنظيم ، وقد فرق بين الذكور والإناث فى الطرقات ، بل إن سُمك النعش وشكل القبور وموقعها قد خضعت هى أيضًا للتنظيم) .

ويقول هيرث Hirth : (لا مجال للريب فى أن كونفوشيوس كان له فى تطور الخُلق الصينى أثر أعظم مما لكثير من الأباطرة مجتمعين ، فالذى بشر به معاصريه لم يكن جديداً كل الجدة عليه ، بيد أنه - بعد أن سمع بنفسه أثناء دراسته للسجلات المدونة القديمة صوت حكماء الماضى خافتًا - أصبح بوقا يُسمع الصم ، وحَاكيًا ينقل للشعب تلك الآراء التى استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه) .

* ولما مات كونفوشيوس (٤٧٨ ق . م) أقاموا له الهياكل ، وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يجعلوا عبادته (رسمية) ، على عهد أسرة (هان) فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس ، كما يؤمونها لأداء الصلاة . . ولم تزل عبادته قائمة حتى القرن العشرين ، فخصّوه سنة ١٩٠٦م بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر (شانج تى) ، إله السماء ، لأنه فى عرفهم (ند السماء) ، وقد جعلوا يوم ميلاده (٢٧ أغسطس) عيداً قوميًا يحجون فيه إلى مسقط رأسه ، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه - اللّه للعقاد ص٧٣ .

روى أنه قال لأحد تلاميذه : (إن البلاد قد خلت من العدل والاستقامة من زمن بعيد ، وستتخذ السماء أستاذكم ناقوسًا لها) .

ولما جلس على العرش (تاى ذرونج) الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكونفوشيوس فى كل مدينة وقرية ، فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرب له فيها القرابين العلماء والموظفون .

وفى عهد أسرة (دزونج) نشأت مدرسة قوية للكونفوشية الجديدة ، أضافت شروحًا وتعليقات ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها فى بلاد الشرق الأقصى .

وظلت مبادئ كونفوشيوس - من قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو - ما يقرب من ألفى عام تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها .

واستطاعت الصين - بفضل هذه المبادئ - أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجابًا شديدًا بالعلم والحكمة ، وأن تنشر ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها ، وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت البلاد .

وكان يمكن لما أحدثته ثورة سن يات سن ، وشيانج كاى شيك ، وماوتسى تونج - من انقلاب خطير فى طريقة التفكير ، وفى أسس العلاقات الاجتماعية ، أن يأخذ الشعب طريقًا غير الطريق ، وأن يتحول كل التحول عن هذا (التراث القديم) ، لكن الحضارة الصينية العريقة ما تزال تعمل عملها فى السلوك والعلاقات الاجتماعية ، ولم تكد تحدث (المبادئ الاشتراكية) والعلوم الحديثة أكثر مما أحدثته الأطعمة الأمريكية فى الأجسام اليابانية .

الصوفى / المعلـم العجـوز

التاوية Taoism تنسب إلى الحكيم الصينى (لاوتزو Laotzu) الذى عاش فى الفترة ما بين (٦٠٤ - ٥١٧ ق . م) تقريباً ، قبيل ظهور كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٨ ق . م) ، وذلك فى عصر كثُر فيه الحكماء والفلاسفة والمفكرون . . ويبدو أنه كان يبشر بنوع من السلوك (الرواقى) ، والرجوع إلى حياة البساطة .

كان لاوتزو أميناً للمكتبة الملكية فى مقاطعة هونان ، فى عهد أسرة (تشاو) ، ولما عاين بداية انهيار الدولة ، هاجر إلى مكان قصى ، جنوب الصين ، حيث كانت النفوس تنزع إلى التصوف ، ولا تتقبل النزعة العقلية الجامدة .

ثم خرج إلى الناس بدعوة تقوم على إظهار جمال الفعل البشرى ، متحرراً من الأنانية ، مجنداً فضائل الشفقة والتواضع والتسامح ودفع السيئة بالحَسَنَة ، كما دعا إلى اكتساب العظمة بالتوحد مع المنهج الداخلى للكون ، وتطوير الإنسانية من خلال السلوك القويم .

وفى ذلك يقول : (إنه ما لم يعرف المرء ويحيا وفقًا لقوانين الكون الداخلية - الثوابت - فإنه ينتهى بكارثة) .

(إن من يعرف الثابت يتحرر ، ومن يتحرر يخلُ من الهوى والتحيز ، ومن يخل من الهوى والتحيز يتسع إدراكه ، ومن يتسع إدراكه يصبح رحب الأفق ، ومن يصبح رحب الأفق يكن مع الحقيقة ، ومن يكن مع الحقيقة يستمر إلى الأبد ، ولا يعرف الفشل على امتداد عمره) .

إن الاختبار الحقيقى للفلسفة هو قدرتها على تحويل دعاتها إلى مُثل و(نماذج

بشرية) تقتدى ، وتكون منارات ، ومن ثم يجب أن يظل الدعاة بمنأى عن التجربة المباشرة ، لأنهم إذا سقطوا سقطت الجماهير بسقوطهم ، (إن أسوأ الحكومات هى التى يتولى الفلاسفة فيها الحكم ، كما أن المثقف خطر على الدولة ، لأنه يريد أن تسير الأمور ، والدولة نفسها ، بموجب نواميس مطردة) ، وهذا يعنى أن الدعوة شئ والواقع شئ آخر ، وهذا يتمثل فى (البرامج) الانتخابية التى يستحيل تنفيذها ، فلو أن الدعاة مارسوا التطبيق وفشلوا دمروا آخر حصون المقاومة ، وملئوا قلوب الحالمين بالرصاص .

لم يكن (التاو) مجرد درب أو سلوك معيشى يخضع للربح والخسارة ، للنصر والهزيمة ، للقوة والضعف ، للسيطرة والاستسلام ، للخير والشر . . إنه الحياة المثالية ، الحياة البسيطة المتناسقة ، الحياة التى تقوم على كبح الرغبات ، والتعالى على الشهوات .

(التاوية) وحدة الإنسانية والطبيعة ، الإنسانية متضمنة فى شمول الكون وقدرته على العطاء فى غير مقابل .

وهى المعرفة التى تتجاوز حدود المدركات والتصورات ، معرفة مباشرة وفورية ، لا تعتمد على ثنائية زائفة بين الذات العارفة والموضوع المعروف .

وهى المبادئ التي ينبغى أن ترشد الحياة ، وأن تنظم أفعال البشر ، المبادئ التى تنظم الطبيعة ، فالحياة لاتعاش بصورة طيبة إلا عندما يتوافق الناس بصورة كاملة مع الكون بأسره ، وعندما تغدو أفعالهم هى أفعال الكون متدفقة عبرهم ، ومؤسسات المجتمع تنتظم من خلال السماح لهم بأن يكون ما هم عليه بصورة طبيعية ، فالمجتمع بأسره يتعين عليه بدوره أن يتوافق مع الكون - الفكر الشرقى القديم ٣٧٥ .

كأنه يتحدث عن وحدة الوجود باللهجة الصينية ، أو عن التناغم الموسيقى الكونى الذى أحسه فيثاغورس بعد ذلك بقرون ، أو كأنه الذى أوحى إلى أفلاطون أن النشاز الموسيقى يحدث نشاطًا فَوْضَوِيًّا اجتماعيًا وسياسيًا ، أو كأنه يستوحى قول اللّه سبحانه **﴿ما ترى فى خلق الرحمَن من تفاوت﴾** ، **﴿لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا﴾** .

ويلخص (الفكر الشرقى القديم ص ٣٧٦ - ٣٧٧) تعاليم لاوتزو المتعلقة «بتاو» الإنسانية فى تسعة مبادئ :

١- يتحرك الناس بصفة عامة لتحقيق رغباتهم .

٢- ينتج عن محاولات الأفراد لإشباع رغباتهم حدوث التنافس والصراع .

٣- لإقرار السلام بين المتنافسين يجب التوصل إلى معايير للاستقامة والأخلاق الإنسانية .

٤- وضع المعايير الأخلاقية لا يحل المشكلات ، لأن عدم إشباع الرغبات يدعم الشر ، ويوسع دائرة الخطأ .

٥- قد يكمن الحل فى التخلى عن هذه المعايير .

٦- لا يمكن التخلى عن الأفعال الصادرة عن الرغبات إلا عندما يتبنى الناس (الطريق السهل) للفعل .

٧- (الطريق السهل) للفعل يفترض مقدمًا التناغم مع الكون ، والتصرف وفقًا للتاو الكونى الشامل .

٨- ينبغى أن يكون تنظيم المجتمع وحكم الناس وفقًا للطريق الطبيعى السهل ، كما ينبغى أن يدعم الطريق الطبيعى فى نفوس الناس .

٩- بما أن خيارات معظم الناس وأفعالهم تنطلق من رغباتهم ، وتسترشد بإشباع هذه الرغبات ، فإن أكثر المبادئ الأساسية تنظيمًا للفعل هو تحقيق هذه الرغبات .

ولتنظيم التنافس وتقليل الصراعات يتم إدخال القواعد الأخلاقية كمرشد يهدى السلوك الإنسانى .

الخير لا يتحقق من خلال الفعل الذى تحركه الرغبة ، إنما يحققه الإحجام عن الفعل الذى يستمد وحيه من بساطة (التاو) ، ولا ينبغى أن تفرض الرغبات على الطبيعة ، بل أن نتبع مبادئ الطبيعة .

* ويمكن تبسيط هذا المذهب فى قول أحد الصوفية (الإسلاميين) - حين

اشتكى أصحابه من غلاء اللحم - (أرخصوه) ، أى لا تشتروه ، لأن (الطبيعة الإنسانية - التاو) لا تعتمد عليه ، بل قد تصحّ بدونه ، وكذلك الشأن مع بقية الرغبات التى تثير الإحَنَ والشجن ، وكما قال الكاتب الإسلامى مصطفى الرافعى: (فرق ما بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء ساعة جوع وساعة عطش) ، والشاعر العربى يقول : (النفس راغبة إذا رغبتها ، وإذا ترد إلي قليل تقنع) .

الحياة الإنسانية لا تقوم على كثرة المال ، ولا على سعة الجاه ، ولا على قوة السلطان ، وهذا ما أدركه صوفيّة المسلمين ، وفقراء الهنود ، ورهبان الأديرة فى بطون الصحارى ، وفوق ظهور الجبال .

يقول صاحب (التاريخ كيف يفسرونه ص ٧ - ٨) : إن أقرب شئ فى الصينية إلى (التاو - الطريق) هو معنى الانتظام ، وبخاصة فى عمليات الطبيعة ، ذلك لأن من يعيشون عيشة الفلاحة يهتمون به ، من حيث تعاقب الفصول ، والترتيب المتجلى فى نمو النباتات وإثمارها وتصويحها وتلفها ، والتكرار المتسق لحركات الأجرام المساوية .

وكان الناس يحسون أنهم جزء من (الطبيعة) ، مع انطباعة مباشرة باستمرار الفضاء المحيط بهم إلى مالا نهاية ، واشتماله على كل شئ .

وربما كانت يقظة (التاو) تدل على (الكل) الضخم الجامع للأشياء التى تدرك حسيًا (فيزيقيًا) ، لأن (التاو) - بوصفه (الكل) - يسيطر على كل ما وقع داخله ، ولما لم تكن ثمة جدوى من مكافحته انتشر بينهم جميعًا اتجاه عام إلى تقبل سلبى لمجْرَيَات الأمور ، بَيْد أن الصينيين لم يكونوا يعدّون أجزاء (الطبيعة) ، ولا الطبيعة بأكملها ، مواتًا مجردة من الحياة ، ومهما بلغ من إبهام تصورهم للفكرة فإن كل شئ كان يعُامل ويتجاوب معه بوصفه شيئًا له حياة داخلية ، كالتى يحس بها الناس أنفسهم ، وإن قدماء الصينيين كثيراً ما تحدثوا عن (أرواح) الأنهار والأشجار ومعظم ما عداها من أشياء . . وأسمى الأرواح منزلة هو (شانج تى) رب السموات ، وهناك (زمالة) أو قران بين الناس وهذه الأرواح اللا بشرية ، تجرى فى المناسك الزراعية والمنزلية ، وفى الشعائر الدينية ،

وترامى الأمر فى النهاية إلى أن أصبح الحاكم الأعلى للصين يلقب بلقب (ابن السماء) .

وشاع بينهم الاعتراف بثنائية الوجود Dualistic ، يعبر عنها المصطلحان (ين Yin) المبدأ الأنثوى ، و (يانج Yang) المبدأ الذكورى ، ذلك أن (ين) يمثل حالة التلقى والاستيعاب والسلبية النسبية ، فى حين يمثل (يانج) الناحية (الإسقاطية) الإيجابية الناشطة ، ويكمل كل منهما الآخر .

ومن هنا كان التنظيم والترتيب ، والاتزان ورباطة الجأش ، فى الخضوع للإيقاع العام الصاعد من (ين يانج) ، أو (چانج Jang) ، بمعنى (يذعن ، يتخلى عن ، يستسلم ، يتنازل عن الموقع الأفضل ، يدعو) - موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ص ١٦٣ .

وقد ظل الشعب الصينى بأسره (تقريبًا) يمارس - على مدى تاريخه كله - عبادة الأجداد ، وهى تومئ إلى الإيمان بأن أرواح من ماتوا لاتزال تواصل العيش ، محتفظة بحاجاتها البشرية ، ولن تتضح للأذهان أشكال القرابين وزيارات المقابر وشعائر الأسلاف المنزلية إلا مقترنة بذلك المعتقد ، ويبدو أن فكرة الخلود الشخصى ضمنية هنا ، لكن لم يحدث أن الصينيين - بطبعهم الأصلى - عالجوا هذه الحياة بوصفها تمهيداً وإعداداً لأخرى فى عالم آخر ، ولا بوصفها مرحلة كمال لابد من بلوغها فى سلسلة متتالية من الحيوات ، ولم يخض مفكرو التاوية ولا الكونفوشية غمار أى بحث جدى فى الخلود الشخصى ، ولا التمسوا فى التاريخ أى معنى من ناحية تلك الفكرة .

وهذا (الزهد أو العزوف) لا يمثل إنكاراً ، بل هو كما قال كونفوشيوس : (لا يعرف الناس كيف يدبرون شئون البشر ، فكيف يتسنى لهم العلم بشئون الآلهة والأرواح ؟) .

ومن هنا لا نستطيع الذهاب بعيداً بقول لاوتزو : (طرائق البشر تقررها طرائق السماء ، وطرائق السماء تقررها طرائق التاو ، والتاو اكتسب كينونَتَه من تلقاء ذاته) .

إنه الإيمان بالنظم الكونية التى تخضع لها كل المخلوقات ، بشراً وشجراً ، حيوانًا وجمادًا ، على السواء ، أما كيف كانت هذه النظم ومنذ متى ، وإلى أين ، ومن المنظم ، وما صفاته ، وما علاقته بهذه النظم - فأمر أبعد من القدرة الإنسانية ، كما قال : كونفوشيوس ، والانشغال بمعرفة الغيب إهدار للطاقة ، وإضعاف للإيمان ، وهروب من الواقع .

إن أولئك الذين شغلوا أنفسهم بحجاب الغيب - على مدى التاريخ الفلسفى - لم يزيدوا على أن (سوّدوا) صفحات (بيضاء) ،

والإراتباط بأرواح الكون فى شكل عبادة ، أو فى شكل تنظيم السلوك ، ليس بدعًا صينيًا ، وإن أخذ فى الصين شكلاً يلائم البيئة ، ويلائم الذين انطبعوا بهذه البيئة .

* ينقل صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٠١ - ٣٠٢) عن شوانج تسو (٣٦٩ - ٢٨٦ ق . م تقريبًا) قوله : (يمضى الخبير - فى حالة الوجد - ممتطيًا صهوة الريح ، تحمله عربات السحب إلى اللا متناهى ، فيرى أن السماء والأرض ظهرا إلى الوجود معى ، ومعى أصبحت الأشياء جميعاً شيئًا واحدًا) .

تعبير شعرى ، أو رؤية تجعل كل الأشياء نسبية ، فتتألف جميع الأضداد ، وتنسجم جميع المتقابلات ، لتكون التلقائية الشاملة (التاو) لجميع الأشياء . . كل شئ هو كذلك من ذات نفسه ، ومن ثم (يستطيع التاو أن يفعل كل شئ بألا يفعل شيئًا) .

من هنا يعارض (الخبير) المؤسسات والقوانين الأخلاقية والحكومية ،بوصفها حيلاً بشرية تعترض الدور الحر للتاو ، وتعرقله ، لذلك كانت أفضل طريقة لحكم العالم هى ألا تحكمه ، وقل مثل ذلك فى فن الحياة ، فالسعادة يمكن بلوغها بالتّرك ، بالسماح للتاو بالقيام بدوره الحر ، بالانغماس فى أنشطة ليست أفعالاً ، إن الصفات والقيم نسبية ، وما هو موجود فهو خير . . (الحياة والموت شئ واحد ، وكذلك الصواب والخطأ) ، وهذا هو ما يحرر الإنسان من قيوده وأغلاله .

يقول لاوتزو : (التاو كوعاء ، رغم إنه فارغ يمكن أن يسحب منه بلا نهاية ، وليس فى حاجة إلى أن يملأ ، أنه عظيم جداً ، وبالغ العمق ، حتى ليبدو أنه أقدم من كافة الأشياء ، إنه فى سكونه كالخلود نفسه ، إننى لا أعرف وليد من هو) .

والقول بأن (التاوخاو) إشارة إلى أنه بلا سمات ، أو خصائص ، إنه خاو من كل خصوصية ، لأنه إمكانية ، ومصدر كل خصوصية ، وعلى الرغم من أنه خاو من أشياء محددة فهو الأكثر نفعًا بين كل الأشياء .

ولمساعدة الحاكم (التاو) لا يستخدم المرء القوة والعنف ، لأن ذلك من شأنه أن يحدث انقلابًا أو عكسًا للأمور ، لأنه (عندما تغدو الدنيا باردة للغاية فإن عكسًا للأمور يحدث ، ويبدأ الدفء فى القدوم ، وعندما يتفاقم الحر ، فإن عكسًا للأمور يحدث مجدداً ، ويبدأ البرد فى الانعدام ، وهذا هو طريق الطبيعة على نحو مادى تعاقب فى الفصول) .

وهذا القول نقله الدكتور إمام - مترجم (الفكر الشرقى القديم) - على علاته ، دون نظر إلى أن هذا يحدث بسبب دوران الأرض حول الشمس ، مع اتساع دائرة الدوران وضيقها ، أو مع القرب من الشمس والبعد عنها ، وإلا فارتفاع درجة حرارة المريض - دون تدخل خارجى - يؤدى إلى الموت ، واشتداد برودة القطبين لا يؤدى إلى مزيد من التجمد ، وحين نترك القدر يغلى على النار لا تنخفض درجة الغليان .

ومن العجيب أن ينسب إلى لاوتزو - بناء على هذه القاعدة - قوله (كلما زادت المحرمات والضوابط فى العالم غدا الناس أكثر فقراً) ، و (كلما فرضت قوانين وزواجر إضافية زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق) ، مع أن هذا القول يقوم على أن أكثر المحرمات والضوابط تغل القدرة على الإنتاج ، فيكون الفقر ، وكثرة القوانين دليل على ضعف سيطرة الحاكم ، أو على سوء علاقته باللصوص ، ومن هنا كانت كثرة عدد الخارجين على القانون ، فالأمر لا يرجع إلى قاعدة (إذا زاد الشئ عن حده انقلب إلى ضده) إلا من خلال الممارسة الأخلاقية ، فالإنسان ليس مجرد مادة كثرة الطَّرق عليها يزيدها ليونة ، أو يفتتها ، إن ثمة قدرة على (التكيُّف الحيوانى) ، وثمة قدرة على (التمرد) ،

وثمة ما هو من المراوغة وسعة الحيلة والدهاء والنفاق ، وقد نذهب مذهبًا صوفيًا ، فنتحدث عن القدرات النفسية التي تتحدى - وهى فى (صورة) الهدوء والصمت والسكون - أعتى القوى المادية .

ولا علاقة لهذا بالقول (إن الأضداد متكاملة) ، لأن هذه القاعدة تتمثل فى أن (ماهو موجود يتضمن ما ليس بموجود) ، وكما يقول شوانج تسو (إنه عندما تكون حياة يكون موت ، وعندما يكون موت تكون حياة ، وحين يكون هناك إمكان تكون استحالة ، وحين تكون استحالة يكون إمكان ، وبسبب الصواب يكون خطأ ، وبسبب الخطأ يكون صواب) ، إن هذا قد يمثل قصوراً فى الحكم ، وعجزاً عن الإحاطة ، وعدم إدراك لماهية الوجود ، وعدم الإلمام بكل خصائص المادة ، لكنه فى الوقت نفسه ينزع منزع قولهم (إن الأسد مجموعة من الحملان) ، لأن قوته نشأت من افتراسها ، أو (كل الأنهار تصب فى البحر والبحر ليس بملآن) ، أو ما يقال عن دورة الحياة .

يقول شوانج تسو : (ذات مرة حلمت ، أنا شوانج تسو ، بأنى كنت فراشة ، وكنت سعيداً باعتبارى فراشة ، وكنت أعى أننى مسرور تمامًا بنفسى ، ولكننى لم أكن أعرف أننى تسو ، وفجأة استيقظت ، وهناك عرفت بجلاء أننى تسو ، ولم أدر ما إذا كان تسو يحلم بأنه فراشة ، أم أن الفراشة هى التى تحلم بأنها تسو) .

إن عدم التمييز بين الحلم والحقيقة ، بين الصواب والخطأ ، قد يستدعى - كما يقول شوانج تسو - أن تنسى (التمييز بين الصواب والخطأ ، وأن تستريح فى عالم اللا متناهى) ، لكنه لون من الهروب الصوفى القائم على الفناء فى المطلق ، لأن هذا لا يمثل إلا حالة انقداح الشرارة من الزند ، وما هى إلا لمحة (لا إرادية) ، فقد يبرد الزند ، ولا تنقدح له شرارة .

ثم ، (كيف يمكن أن نعرف أن ما ندعوه معرفة ليس فى حقيقة الأمر معرفة) ؟

(إن الإطار المعرفى المألوف غير مقنع وغير كاف ، ولابد من تبنى إطار معرفى جديد ، إطار معرفى شامل ، للإفلات من قيود المشروع المعرفى المحدود الذى يتم توظيفه عادة) ، ولكن كيف ، والأمر نسبى ؟

لهذا يجب الوقوف فى (اعتدال) عند قول لاوتزو : (إذا أردت ألا تسكب النبيذ فلا تملأ الكأس أكثر مما ينبغى ، وإذا أردت لنصلك أن يحتفظ بحده فلا تتجاوز حدود المضاء ، وإذا لم ترد أن يقتحم دارك اللصوص فلا تملأه بالذهب . . الثراء والجاه والغطرسة تدفع إلى الدمار ، فإذا ما أديت عملك ، وقمت بما يجب عليك نحو الآخرين ، انسحب ، هذا هو طريق السماء) .

* يقول صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣١١ - ٣١٣) : طورت الكنيسة التاوية ضروبًا من الطقوس والخدمات الدينية التى تقام للتكفير عن الخطيئة ، وكفارة المرض الذى (يُعتقد أنه حدث بسبب الخطيئة ، ويقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء ، ثم يقدمه إلى التائب ليشربه ، فإذا فشلت هذه العملية فى تحقيق الشفاء يعزى الفشل إلى نقص الإيمان) .

وفى الكنيسة الغربية (غربى الصين) يدفع المؤمن خمسة مكيالات من الأرز فدية مالية ، (وقد ظلت الكنيسة الغربية - لعدة قرون - تعرف على المستوى الشعبى باسم « عقيدة مكيالات الأرز الخمسة ») . . وتدون الخطايا كما تدون الاعترافات ، وتعد ثلاث نسخ توجه إلى السماء والأرض والماء ، توضع واحدة على قمة جبل ، بينما تدفن الثانية فى باطن الأرض ، وتلقى الثالثة فى عمق . . والخطايا التى يكفر عنها بهذه الطريقة هى : السكر ، والفسق ، والسرقة .

كانت الديانة التاوية والكنيسة التى تدعو لها - فى نهاية أسرة هان - أبعد ما تكون عن مدرسة التصوف التى كانت تحمل اسم (التاوية) فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، فقد تحولت التاوية من نظرية فلسفية تقوم على أساس الحدس الصوفى إلى ديانة للخلاص ، ومن مسألة تأمل شخصى وخاص إلى منظمة ذات نظام كهنوتى تصاعدى وأتباع .

وفى نهاية أسرة هان تحولت التاوية إلى ديانة ، على نحو ما كانت عليه البوذية ، وما صارت إليه الكونفوشية ، وكانت استجابة الناس لها على نطاق واسع .

وقد ظلت ديانة ذات شأن خلال ست أسر حاكمة ، حتى أسرة تانج Tang ، بل إنها حظيت فى بعض الأحيان بالرعاية الإمبراطورية .

لقد عمد بعض (الفقهاء) الشعبيين إلى هذه العقيدة (الغامضة) فصاغوها تدريجيًا فى صورة (دين) ، واتخذ الناس (لوتزو) إلهًا يعبدونه ، وأضفوا عليها مسحة سماوية ، فذكروا أن أمه حملت به حملاً سماويًا ، وأنه ولد كامل العقل ، طاعنًا فى السنّ ، لأنه أقام فى بطن أمه ثمانين عامًا .

ولقد عبّد دين التاوية هذا للمؤمن عدةَ طرق توصل إلى الجنة ، ولما كان المؤمن المخلص – فى صورته الشعبية البسيطة – شديد الفقر ، بحيث يعجز عن المشاركة فيما ابتدع الكهنة من أساليب ، ولما كان محدود الثقافة ، أو من الجهل بحيث لا يمكنه أن يتابع البحوث (الموضوعية) عن الاتحاد والجذب الصوفى – فقد أقنعه الكهنة بأنه عن طريق التقوى والاعتراف والتكفير ، و (طاعة الكنيسة) ، يمكنه البقاء فترة فى العالم السفلى ، ثم يتمّ إنقاذه ، فينقل إلى الجنة .

وفى مرحلة عليا من التدين ، يستطيع المؤمن بالإحسان ، والتقشف ، وتأدية الخدمات للكنيسة ، أن يبلغ مرحلة يلحق فيها بطبقة الموظفين الرسميين في العالم السفلى ، ومن خلال هذه (الخدمة) يضمن دخول الجنة .

والسالك الحق كان يسعى إلى تجنب الموت ، والعبور مباشرة إلى عالم الخالدين ، فى السماء ، فهناك أساليب متعددة ونظم كثيرة ، يمكن بواسطتها بلوغ مرتبة الخالدين ، لكن هذه المرتبة مقصورة على فئة معينة من كبار رجال الطريق (التاو) .

وهذه النظم تشمل عادات خاصة بالغذاء ، وتمرينات التنفس ، وضبط العملية الجنسية ، وما شابه ذلك ، حتى تحل فى الجسد الفانى عناصر أثيرية محل العناصر المادية الفانية .

وعن طريق التأمل ، والتركيز العميق ، يدخل فى حالة السكون والطمأنينة ، ويستطيع الاتصال مع الأرواح الخيرة ، التى تؤدى بالتدريج – كلما تقدمت الرؤية – إلى تحقيق الخلود .

التلامـــيذ ..

تتمثل أفرع الفكر التاوى فى الأجزاء المختلفة من كتب (شوانج تسو) ، و (ليه تسو) ، و (لاوتى تشنج) ، وثمة أسس مشتركة وأفكار أساسية تتحرك فيها جميعاً .

ولعل (شوانج تسو) أبرز هؤلاء الثلاثة بكتابه التى يقدم أفكاره فى صورة أمثولات ، أو حكايات رمزية ، وحوارات متخيلة بينه وبين نقاده ، وانتقادات لاذعة لأحاديث المقاطعة ، وقصص عن القديسين التاويين تمثل شكلاً من أشكال المعرفة لا يلم به إلا الخبير ، أو (سالك الطريق) فحسب .

موتزو Motzu (٤٨٠ - ٣٩٠ ق . م تقريبًا) .

يظن بعض العلماء أنه ولد فى ولاية (لو) ، شأن أستاذه كونفوشيوس ، لكنه كان من أصل متواضع نسبيًا .

درس على أولئك الذين نقلوا مبادئ كونفوشيوس ، وأحس أن الكونفوشية لم تصل إلى جذور المشاكل التى تسببت فى شقاء الناس ، فانشق عليه ، وأسس مدرسته الخاصة .

كان يتحدث عن (التاو) كثيراً ، كما كان يفعل كونفوشيوس ، وكان يقول : (إن الذين يعرفون الطريق سيعلّمون غيرهم دون أن يحسّوا) .

وكان يرى - كما كان يرى كونفوشيوس - (أن الحكومة يجب أن تستهدف تحقيق رغبات الشعب) .

كما كان يرى (وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب) ، وفى هذا يقول : (لنفرض أن حاكمًا أراد أن يصنع رداء ، فسيبحث عن خياط ماهر ، وإذا أراد أن يشفى جوادًا فسيبحث عن بيطرى ماهر ، ولن يستخدم قريبه ، أوأحد الأثرياء النبلاء الذين تعوزهم المهارة . . لكن إذا كان الموضوع حكم دولة فإنه يختار الأقارب والأثرياء بلا مواهب ، لمجرد حسن مظهرهم . . هل هذا الحاكم تهمه الدولة مثل اهتمامه بملبس أو جواد ؟) .

وذهب إلى أن المجموع الكلى للتجربة البشرية يشهد بوجود إله ، وأن الإله غاية وإرادة ، ويمكن تصور الغاية والإرادة فى الحب والرحمة ، والنظام هو التجلّى النهائى للرحمة الإلهية . . وأصر على أن (السماء) هى التى استوجبت الحب الشامل بين الناس ، وأن (السماء) تثيب الأفراد أو تعاقبهم بقدر طاعتهم لإرادتها أو عصيانهم لها .

ويقول : (إن الناس جميعًا متساوون فى أعين السماء ، السماء تمطر على العادل والظالم ، البر والفاجر ، والسماء تنشر حبها على الناس جميعًا ، بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم ، واختلاف أعمالهم ، لهذا ينبغى أن يحب الناس بعضهم بعضًا ، بلا تمييز ، وبقدر متساو) .

وقد بدا هذا التفكير – لمنشيوس – مدمرًا للحياة ذاتها ، ولهذا احتج قائلاً : (إنها إهانة للمشاعر البشرية كلها) .

وعلى الرغم من اعتراضات الكونفوشية على نظرية المحبة العامة ، فقد واصل (موتزو) عرض فكرته ، موضحًا أن الناس يفهمون ما الذى يجلب لهم النفع ، وما الذى يسبب لهم الضرر ، ولو أتيحت لهم الفرصة لاختاروا المحبة الشاملة الجامعة ، لأن المعيار هو الصالح العام ، وهذا الصالح العام لا يكون إلا بالمحبة الشاملة الجامعة .

إن الفعل الأخلاقى الأسمى للفرد – فى مذهب موتزو – إنما يوجد فى التضحية من أجل الجميع .

* ولقد كون مع تلاميذه – لتحقيق هذه الغاية – جماعة متعاهدة ، انخرطت فى مذهب متطرف من الزهد ، وارتدوا ثيابًا خاصة ، ووضعوا شعارات مميزة ،

وأذعنوا تمامًا لرئيس الجماعة .

كانت الحرب هى النقيض الصريح للحب الشامل ، ومن ثم انتقدت الجماعة أى ضرب من ضروب العدوان ، هذا على حين رأى خصوم الجماعة أن الحرب سوط عذاب فى أيدى الصالحين ، وأن القتال فى سبيل قضية عادلة هو نفسه عدالة ، ويبدو أن الجماعة تأثرت بحجة الخصوم ، فرأت أن أعظم قدر من الخير قد يكون فى دفع العدوان . . ولقد كرس فرع من الجماعة نفسه لتحقيق (دفع العدوان) ، عن طريق دراسة فنون الدفاع عن المدنيّة ، وكان من أعجب النتائج الجانبية لهذا الهدف اختراع عدد من وسائل التحصين . . وتتضمن (قوانين المنطق) - عند هذه الجماعة - إشارات عديدة إلى الميكانيكا ، ومبادئ علم البصريات ، وهذا بسبب الاهتمام بالهندسة الحربية ، وهى إشارات من أقدم الملاحظات العلمية فى التراث الصينى .

منشيوس Mencius (٣٧١ - ٢٨٩ ق . م تقريبًا)

تفرق تلاميذ كونفوشيوس بعد موته ، ونشأت منهم مدارس كونفوشية متعددة ، وأهم شخصيتين بينهم كان منشيوس الذى هو بمثابة أفلاطون من سقراط ، وهسون تزو الذى يشبه أرسطو .

كان منشيوس - مثل أستاذه - مُعَلّما شغوفًا أن ينال منصبًا فى بلاط دولة من دول المدينة ، فبحث عن أمير (يضع طريقه - التاو - موضع التطبيق) ، ومر بتجارب محبطة عندما أخفق فى العثور على هذا الأمير ، وبعد أن خدم فترة وجيزة وزيرًا فى ولاية (تشى) اعتزل العمل ليعيش حياته الخاصة مع تلاميذه المخلصين .

وبعد وفاة منشيوس جمع أتباعه أقواله وتعاليمه ، وبقى نص بعنوان (أعمال منشيوس) ، على غرار (مختارات كونفوشيوس) ، يحتوى على أقواله ، فى صورة جمل وفقرات ، وحكايات توضيحية ، وحكم وأمثال سائرة .

والهدف الذى نذر له نفسه - كما فعل معلمه - أن يستوعب حكمة القدماء ، دون أن يبدع شيئًا من ذات نفسه .

كان كونفوشيوس يقول : (أنا ناقل ولست مبدعًا) ، لكن عملية (النقل دون إبداع) تحولت فى تاريخ الكونفوشية إلى (إبداع عن طريق النقل) ، فقد كان منشيوس يتحدث إلى عصره ، مؤولا حكمة القدماء بما يحتاجه العصر ، وفى هذه العملية يكمن إسهامه المميز فى الكونفوشية .

أدخل منشيوس - من خلال تأكيده على العدالة - الاهتمام بالشعب ، على حين لم يكن لدى كونفوشيوس ما يقوله عن الشعب إلا أقل القليل ، وأصبح ضمان وصول الشعب إلى حقوقه هو واجب الأمير عند منشيوس ، وكان لدى منشيوس ما يقوله عن الاقتصاد ، إذ كان يرى أن حلقة الاتصال بين الاقتصاد والأخلاق محكمة ، (فالذهن الثابت بلا معيشة ثابتة أمر مستحيل) ، وهكذا يصبح واجب الحكومة (توفير ضرورات الحياة بكميات كافية) .

وكان يذكر أن جميع الناس ينطوون بطبيعتهم على إحساس بالرحمة نحو الآخرين ، وأن بهم إحساسًا بالخجل يصرفهم عن الشر ، وإحساسًا بالحياء يتجه نحو المجاملة ، وإحساسًا قادرًا على التمييز بين الصواب والخطأ ، وإحراز هذه الصفات هو الذى يميز بين الناس والكائنات الأخرى .

وكان يرى أن الشر الموجود فى العالم له ثلاثة مصادر : ١- الظروف الخارجية . ٢- التخلى عن الخير الفطرى . ٣- عدم تغذية المشاعر والحواس بالمعرفة .

ومن أقواله : (لو أن شخصًا بذر بذورًا مثالية فى أماكن متفرقة ، فإن البذرة التى تقع على تربة غنية مشبعة برطوبة كبيرة ستغل محصولاً وفيرًا ، فى حين أن التى تنمو فى تربة فقيرة ، ويصيبها قدر يسير جدًا من المطر ، يكون محصولها سيئًا ، والناس كذلك يختلفون باختلاف البيئة التى ينشئون فيها) .

(إذا أردت طفلاً يتحدث بلهجة « تشى » فمن الأفضل أن تبعث به إلى ولاية «تشى») .

(الحاكم العاقل الذى يرغب فى أن يكون شعبه فاضلاً عليه أن يهتم بالبيئة التى ترعى الفضيلة ، لأن الفقر المدقع يترك ندوبًا فى عقول الناس وقلوبهم ، فضلاً على أنه يضنى أجسادهم) .

ولكى يبين أن التدخل فى نظم الطبيعة يفسدها ، ضرب مثلاً برجل من (سونج) أصابه الحزن لأن حنطته ليست أطول عوداً مما هى عليه ، فراح يجذب العيدان لأعلى ، وحين عاد إلى بيته بدا فى غاية الحمق ، وهو يقول لأهله : (أنا اليوم مرهق ، إذ كنت أساعد الحنطة على النمو) ، فجرى ابنه ليرى الحنطة ، فإذا هى ذابلة كلها .

هسون تزو Hsuntzu (٣٢٠ - ٢٣٥ تقريبًا)

ولد فى ولاية تشاو Chao ، ودرس الفلسفة فى ولاية Ch'i ، حيث كُرم تكريمًا ساميًا ، بوصفه من العلماء ، وأسند إليه منصب فى البلاط ، حيث كان ممثلون لفلسفات عديدة ، فأثار (تزو) عداوات عجلت بمغادرته (تشى) .

وهو - شأن كونفوشيوس - لم يتجه إلى إنكار الغيبيات ، بل اقتصر على تجاهلها ، (إن طريق السماء ، وإن يكن عميقًا ، فإن هذا الإنسان يأبى أن يركز عليه عميق التفكير ، وهو - وإن يكن شيئًا عظيمًا - لن يستخدم قدرته فى تفحصه وبحثه ، وهو - وإن يكن حافلاً بالأسرار - يأبى أن يتقصى أسراره) .

كان يهاجم ميول منشيوس المثالية ، مفضلاً نظرة واقعية للمشكلات .

بدأ من مقدمة قاسية تقول : إن البشر ولدوا شريرين ، لكنه فى الوقت نفسه يؤكد أن فى استطاعتهم أن يصبحوا أخياراً بالتربية والتهذيب الأخلاقى . . وتستمد التربية والتهذيب الأخلاقى من النصوص الكلاسيكية ، ومن النظر إلى حكماء الماضى ، باعتبارهم قدوة ، وهؤلاء الحكماء لايختلفون عن سائر البشر فى طبيعتهم ومواهبهم الأساسية ، وإنما هم نماذج لما يمكن بلوغه بالفهم والبصيرة الأخلاقية ، إذا تم استخدام العقل استخدامًا سليمًا .

وكان يقول : لا سبيل للناس إلى إشباع كل رغبة يشتهونها ، على أن فى إمكانهم الحصول على كل ما يهيئهم له وضعهم الاجتماعى ، (فالصغير يخدم الكبير ، والوضيع يخدم الرفيع ، والمنحط يخدم الشريف) ، تلك هى قاعدة العالم السارية ، (فلو ترك الناس مراكزهم ، ولم يخدم بعضهم بعضًا ، فالعاقبة هى الفقر ، وإذا قامت جموع الجماهير بلا تقسيم اجتماعى ، فالعاقبة هى الفوضى) .

إن العقل هو الميزان ، وهو صمام الأمان ، لكن بشرط أن تفسح أمامه الطريق ، وأن تيسر له سبل المعرفة ، (حين يسير شخص فى الظلام ، يرى الحجر القابع على الأرض فيظنه نَمراً رابضا ، ويرى مجموعة من الأشجار فيظنها رجالاً منتصبين ، ذلك أن الظلامَ يغرّر ببصره . . ولقد عاش فى جنوب مصب نهر «هسيا» رجل يدعى «جوان - شو - ليانج» ، وكان مخبولاً رعديداً ، وذات ليلة خرج والقمر ساطع ، فأحنى رأسه على حافة الماء ، ورأى ظله ، فظنه شيطانًا يتعقبه ، ثم رفع بصره فرأى شعره منتفشًا تعبث به الريح ، فظنه غولاً واقفًا ، فجرى هاربًا) .

إن النظام الأخلاقى والكمال البشرى يبدآن من العقل ، بل إن العقل البشرى - فى نظره - يعد مركز الكون .

وقد قادته هذه الفكرة إلى نظرة إنسانية عقلانية للدين ، فأدان بغير تحفظ بعض الممارسات الدينية ، وعدها من قبيل الخرافات . . ومن ذلك : الصلاة استجلابًا للمطر ، وطرد المرض بالرقى والتعاويذ ، وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه ، لكنه أباح التنبؤ بالغيب ، شريطة أن تقوم التأويلات على العقل البشرى ، وأنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة . . وأصبحت أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة عنده تجليات للسمو الخلقى ، وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس فى رأيه أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم .

وهكذا أصبح هسون تزو أعظم الفلاسفة العقليين فى الكونفوشية .

وآراؤه فى الحكومة مماثلة لآراء كونفوشيوس ، فالحكومة للشعب ، وليست للحاكم ، وإفقار الناس وسوء معاملة العلماء مما يشجع على الاضطراب . . ولا يمكن أن يفوز أى حاكم فى حرب وليس بينه وبين شعبه مودة وائتلاف .

الديـــــن القومـــــى ..

كـان (هان - كـاو - تسـو) أول أباطرة (الـهـان) الذى قـام سنة ١٩٥ ق . م بتقديم قرابين هامة فى معبد أسرة (كهونج) ، تكريمًا لكونفوشيوس .

وفى عـهد أسرة هان (٢٠٢ ق . م - ٢٢٠م) طعمت الكونفوشية بقدر كبير من مـختلف الأفكار العلمية الزائفة ، بل وبأعمال السحر ، وقد صار هذا اللون الجديد من الكونفوشـية - كـمـا قال هوشـيه Hushih - (ديانة مـركبة عظيـمـة ، امتزجت فيـها كافة عناصر الخرافات الشعبية ، وعبادة الدولة ، وأدخلت فيها النزعة العقلية ، للتخلص من القليل من المبادئ التى يستحيل قبولها ، والمسْتَترة بدقة تحت سماء الدراسات القديمة للكونفوشية والسابقة عليها ، لكى تبدو مبجَلة وجديرة بالثقة ، وبهذا المعنى كانت الكونفوشية الحديثة فى إمبراطورية « هان » الديانة القومية للصين بحق) .

ويبـدو أن الإمـبـراطور ون Wen (١٧٩ - ١٥٧ ق . م) - رابع حكام أسـرة هان - قد تأثر كثيراً بمبادئ الكونفوشية ، فعمل على تحقيق رفاهية الشعب ، خفض الضرائب حتى وصلت إلى حدها الأدنى ، وأعتق عبيد الحكومة ، وقاوم فساد الموظفين ، وخفف من شدة القانون ، حتى صـارت عقوبة الإعدام نادرة التنفـيـذ ، وأجـرى مـعـاشـات على المسنين ، وألـغى القـوانين التى تحظر نقـد الإمـبـراطور ، قـائلاً إنه يود أن يعـرف أخطاءه ، واقـتـرح - طبـقًـا للمـبـادئ الكونفوشية - ألا يتولى ابنه العرش ، وأنه يجب البحث عن أفضل شخص فى الإمبراطورية ليجلس مكانه . . وقد عاش عيشة مقتصدة ، وطلب عندما يتوفى أن يقتصد فى نفقات العزاء .

وفى عهد الإمبراطور (وو Wu) الذى حكم من ١٤٠ إلى ٨٧ ق . م ، وتعلم على يد الكونفوشيين - قُدم اقتراح بأن تكون الكونفوشية هى الفلسفة الوحيدة للحكومة ، وعُين موظفون فى البلاط لدراسة الآداب الكلاسيكية للكونفوشية وتفسيرها ، بل أنشئت جامعة إمبراطورية لتدريس الكونفوشية ، واختير ضباط الدولة من بين خريجها ، بل إن تعيين الموظفيين كان على أساس امتحان فى الدراسات الكونفوشية القديمة . . وهكذا تم بالتدريج طرد أتباع غير الكونفوشية .

وتحت حكم الإمبراطو(هسوان Hsuan) الذى حكم من ٧٣ إلى ٤٩ ق . م ، دُعى مجلس من ثقات الكونفوشيين ليناقش - على مدى ثلاث سنوات - مشكلات تأويل الآداب الكلاسيكية ، وكتبت مداولات المجلس فى مذكرة رفعت إلى الإمبراطور . . وفى عام ٥١ ق . م صدق الإمبراطور على مضمونها ، ومنذ ذلك الحين استقرت عقيدة رسمية ، وتأويل رسمى للآداب الكلاسيكية الكونفوشية التى أصبحت لها سلطة رسمية فى الحكومة .

وانقسمت الكنيسة التاوية إلى جماعتين ، واحدة فى الشرق بتوجيه شانج شوه Chang chueh وأخويه ، وأخرى فى الغرب بتوجيه الشانجيين Changs من أسرة (شانج لنج) ، ولقد قيل إن الكنيسة الشرقية فى عصر ثورة أصحاب (العمامة الصفراء) حصلت على ثمانية أقاليم ، أى ثُلُثَىْ إمبراطورية (هان) ، وإنها جندت ٣٦٠ ألفًا من أتباعها . . وكان للكنيسة التاوية فى هذه الأقاليم الثمانية ٣٦ منطقة ، وكان على رأس النظام الهرمى الإخوة الثلاثة Changs ، قائد وحاكم السماء ، وقائد وحاكم الأرض ، وقائد وحاكم الإنسان ، والخبير - أو (السالك الأعظم) - هو المسئول عن المناطق الواسعة ، مع أكثر من عشرة آلاف من المريدين - أما المناطق الصغرى فتخضع لمسئولية (الخبير الأصغر) .

وكان هناك تقسيم مماثل فى الكنيسة الغربية ، يشرف عليها شانج هنج Chang heng ، وشانج لو Chang Lu .

وامتد النظام الدينى التصاعدى هابطًا إلى المجتمع الفردى ، مشكّلاً مراتب من الكهنة وجمهور التابعين .

ومع هذا ، ظلت الشريعة الكونفوشية لألفى سنة هى العصب الرئيسى لمنهج التربية والتعليم فى الصين .

وفى جزء كبير من تاريخ الصين كان الاعتقاد أن الكونفوشية والتاوية مظهران أصيلان للروح القومى ، لا مجرد دعوة إلى الهداية ، تتطلب الانتماء والالتزام الشخصى .

* وقد ظهرت مع دخول البوذية - فى بداية العهد المسيحى - فكرة الدين ، بوصفه مؤسسة رسمية منتظمة ، فطورت (التاوية) - كرد فعل عاجل على البوذية - مؤسسات على نحو ما كان للبوذية من نظام كهنوتى هرمى ، وصارت لها معابد وأديرة وشريعة مقدسة . . غير أن القصر الإمبراطورى والمؤسسة الحاكمة ظلا كونفوشيين ، وتأصلت الكونفوشية ، بوصفها الفلسفة السائدة بين الطبقات المسئولة عن الإدارة ، وفى المراسم والطقوس الرسمية ، وما تقدم الدولة من قرابين . . وبهذه الطريقة أصبحت جزءاً من الجهاز الحكومى ، بل عقيدة الدولة .

ومع هذا ، كانت هناك عناصر دينية كامنة فى كثير من مظاهر التنظيم العائلى والاجتماعى ، وفى طقوس وممارسات الجماعات الاقتصادية وغيرها ، وفى الحكم المحلى ، كما كان لها وجود مع الآلهة المحلية ، والمذابح الخاصة ، والمعابد المنتشرة فى القرى .

* وفى عهد أسرة سونج Sung - خلال القرن الحادى عشر الميلادى - ازدهرت الدراسات الكونفوشية ، كما عقد العزم على خطة إصلاح ذى طابع قومى خاص ، وقد شرع فلاسفتها ، أمثال شاويونج ١٠١١ - ١٠٧٧م ، الذى طور نظرياتها على نحو رياضى ، عندما ذهب إلى أن الأعداد هى أساس الوجود كله . . وتشينج آى ١٠٣٣ - ١١٠٧م ، الذى قال : (المعرفة الحقيقية ، والمعرفة المألوفة ، مختلفان . . لقد رأيت ذات مرة فلاحًا جرحه نمر ، وعندما قال أحدهم إن النمر عاكف على إلحاق الأذى بالناس استبد الفزع بالجميع ، لكن محيا الفلاح استجاب على نحو مختلف . . إن الصبى الصغير يعرف أن النمور بمقدورها إلحاق الأذى بالناس ، لكنها ليست معرفة حقيقية ، المعرفة لا تغدو حقيقية إلا

عندما تكون من نوعية معرفة الفلاح . . من هنا فإن الناس حين يعرفون الشر ، ويواصلون اقترافه ، لا تكون معرفة حقيقية ، لأنها لو كانت كذلك لتوقفوا عن اقتراف الشر) .

وهذا قول يخالف بين المعرفة التجريبية والسماع ، ويدعو إلى الاستفادة من المعرفة التجريبية ، وإلا خرجت عن حدود التجريب الصحيح إلى مجرد مباشرة (سطحية) ، كذلك الطبيب الذى حفظ علوم الطب ، دون دراية بالتشريح ، ودون دراية بخصائص العقاقير ، وكذلك الشأن مع العالم الذى لم يدخل مختبراً ، ولم يتعرف إلى طبيعة العناصر وتفاعلها .

وشوتون آى ١٠١٧ - ١٠٠٧٣م ، الفيلسوف الذى أصبحت أفكاره الأخلاقية والميتافيزيقية ممثلة للفكر الصينى لما يقرب من ألف عام ، فقد عبر عن أفكار تدور حول الجنس البشرى ، والكون .

ثم اكتمل هذا الفكر النظرى فى صورة نهائية على يد أعظم فلاسفة الصين شوهس Chu - Hsi ١١٣٠ - ١٢٠٠م ، الذى أصبحت الكونفوشية بعد وفاته العقيدة الرسمية ، وظلت كذلك على مدى ألف عام ، حتى امتد أثرها إلى كوريا واليابان ، وقد أطلق على شوهس لقب (توما الإكوينى) الكونفوشيوسى .

والكونفوشية الجديدة - كما جاء على لسان شوهس - تذهب إلى (أنه يوجد فى أى عقل بشرى ملكة للمعرفة ، كما يوجد فى أى شئ مبرر وجوده ، ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شئ ، ولابد للطالب أن يذهب إلى جميع الأشياء الموجودة تحت قبة السماء ، بادئًا من المبادئ المعروفة ، وساعيًا للوصول إلى أسمى المبادئ ، وبعد بذل الجهد الكافى يأتى اليوم الذى يصبح فيه كل شئ واضحًا ومفهوماً) .

ثم إذا وانج منج ١٤٧٢ - ١٥٢٩م يقول : إن (المعرفة هى بداية الفعل ، والفعل هو تمام المعرفة ، وعندما تتعلم كيف تكون حكيمًا فستعرف أن ذلك لا يقتضى إلا جهدًا واحدًا هوأن المعرفة والفعل لاينبغى فصلهما) .

(إن الرجل العظيم ينظر إلى السماء والأرض وحشد الأشياء باعتبارها

كيانًا واحدًا ، وهو يرى العالم أسرة واحدة ، والبلد شخصًا واحدًا ، أما أولئك الذين يفصلون بين الموضوعات ، ويميزون بين النفس والآخرين ، فإنهم من صغار الناس) .

(كما أن الأطفال والأبوين يكونون أسرة واحدة ، فإن صلة الحب الأسرى التى تنطلق من إنسانية الفرد هى التى تخلق وحدة العائلة ، وفى العالم تخلق الوحدة ، من خلال رابطة الحب العظيم ، التى تنطلق من « چين » الكون ، وعند الرجل العظيم يتحد « چين » الكون مع « چين » الفرد ، وهناك وحدة لكل الأشياء تشكّل كيانًا واحدًا) .

(يتمثل تجلى الشخصية الحقيقية فى محبة الناس ، ومحبة الناس هى الطريق لتجلى الشخصية الحقيقية ، ومن هنا فإنى عندما أحب أبى ، وآباء الآخرين ، وآباء كل البشر - يمكن لإنسانيتى حقًا أن تشكل كيانًا واحدًا مع أبى ، وآباء الآخرين ، وآباء كل البشر) .

إذن (لابد من حب كل شئ ، ابتداء من الحاكم ، والوزير ، والزوج ، والزوجة ، والأصدقاء ، إلى الجبال والأنهار ، والكيانات الروحية ، والحيوانات والنباتات ، حبًا حقيقيًا ، لكى أحقق إنسانيتى التى تشكل كيانًا واحدًا مع الجميع ، وعندئذ تتجلى شخصيتى الحقيقية فى كامل صورتها ، مشكّلة كيانًا واحدًا مع السماء والأرض وكل الأشياء) .

(إن الخير الأسمى هو المبدأ المطلق لتجلى الشخص ومحبة الناس ، والطبيعة التى جعلتنا السماء عليها هى طبيعة نقية وكاملة ، وحقيقة كونها واعية وصافية وبعيدة عن الضبابية تبدو واضحة فى نشوء الخير الأسمى ، والكشف عنه ، والجوهر الأصلى للشخصية الحقيقية هو الذى يسمى المعرفة الفطرية للخير) .

والطبيعة الخيرة - بأشكالها جميعًا - يمكن ممارستها فى هذه الحياة ، (وذلك أن أساسها يكمن فى طبيعة العقل الجوّانية ، فأما الظروف المتغيرة للوجود فلا حاجة لأن يكون فيها ، أو لا ينبغى أن يكون فيها أى نقص فى الاتزان الجّوانى بسبب ما يعترى المرء من إخفاق أو نجاح ، وذلك أن المتحلى بالفضيلة ، أو الحكيم ، يعد الإخفاق ، أو النجاح ، أو الموت فى ريعان الشباب ، أو طول

العمر – إرادة اقتضتها السماء ، فهى من ثم شئ لا يبهج العقل ولا يزعجه) .

وذهب وانج منج إلى أن الكونفوشيين الخلصاء – لا البوذيين – هم الذين يتحلون حقًا بصفة الاتزان ، (ويدل ادعاء البوذيين بخلوّهم تمامًا من كل تعلق بالظواهر على أنهم بالفعل أصحاب تعلق بتلك الظواهر ، كما أن عدم ادعائنا – نحن الكونفوشين – بأنه ليس لنا أى تعلق بالظواهر يدل على أننا لسنا أصحاب تعلق بها . . ويخاف البوذيون من المتاعب التى تنطوى عليها العلاقات الإنسانية ، وبهذا يهربون منها ، وهم مضطرون إلى الفرار ، لأنهم متعلقون فعلاً بها) .

وقال وانج منج : (إن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كله إذا اجتمعت لا تستطيع تفسير حقيقة غصن خيزران ، أو حبة أرز) .

إنه يقترب من الحقيقة الإلهية ، وإن لم يصل إليها ، أو لم يفكر فى الوصول إليها ، لأن الحواجز البيئية ، والتراث (الدنيوى) لم يساعداه على البحث عن السر الأعظم خلف (غصن خيزران أو حبة أرز) ، ولو أنه وجد من يعينه على تفسير القوانين الإلهية ، وعلى واضع هذه القوانين ، لسهل عليه القفز فوق (سور الصين) إلى رحابة العالم الإلهى .

قال لأحد تلاميذه : (إن الغرض الذى تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل فى الأزهار والحشائش ، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما ؟ قد نقول : إن هذه خير وتلك شر ، فإن كنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت : إن الأزهار حسنة ، والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب فى أن تنتفع بالحشائش ، فإنك ترى فيها الخير كل الخير ، وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن فى عقلك من حب هذا الشئ أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ) .

قال التلميذ : (وفى هذه لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟) .

قال المعلم : (إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعى لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هى الحالة

التى يوجد فيها الخير والشر كلاهما ، فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية ، لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذى يطلق عليه اسم الخير الأسمى) .

قال التلميذ : (إذن فالخير والشر لايوجدان قط فى الأشياء نفسها) .

قال المعلم : (إنهما لا يوجدان إلا فى عقلك) - قصة الحضارة مج١ جـ٤ ص١٦٢ / ١٦٤ .

العبارة الأخيرة لا تسد الطريق إلى المعرفة ، بل تفتحها ، وإن كانت لاتدل عليها ، فالمعلم يعرف أن العوامل النفسية تتدخل فى الحكم ، وتميل به . . ولو أننا تغلبنا على هذه (العوامل النفسية) - ذاتية أو تراثية - لأمكن للعقل الوصول إلى (الخير الأسمى) ، إلى البارئ المشرع الفارق بين الخير والشر ، المثيب على الخير ، والمعاقب على الشر .

يقول (لن يو تانج) فى كتابه (أهمية العيش) : (لن توصف فلسفة بالتمام ، ولا فكرة عن حياة الإنسان الروحية بالكفاية - ما لم نربط أنفسنا بوثائق علاقة مرضية ومنسجمة مع حياة الكون المحيط بنا) .

ويقول : (إن الوثنى الصينى من الأمانة بحيث يترك خالق الأشياء متربعًا فى هالة من الأسرار ، فى حين يشعر بإزائه بضرب من التقوى والتوقير المشوبين بالرهبة . . وحسبه هذا الشعور) .

البوذيـــــة فــــى الصــــين

بالرغم من سيطرة الكونفوشية والتاوية على الفكر الصينى لم تجد البوذية صعوبة فى التسلل إلى حصونهما ، واحتلال مواقع ذات أهمية .

فى عهد الإمبراطور منج تى Mingti أخذ الباندیت كاسيابا ، رسول البوذية ، طريقة إلى الصين ، ثم تلته سلسلة من المعلمين القادرين . . وكان الرسل والجنود الصينيون قد خدموا فى البلاد البوذية فى آسيا الوسطى . . هذا بالإضافة إلى وجود (جاليات) من البلاد البوذية استقرت فى المدن التجارية الصينية . . ثم ظهرت قرب نهاية القرن الأول الميلادى جماعة بوذية فى لويانج Loyang العاصمة . . فلا غَرْو أن نجد فى سجل بلاط أسرة هان عام ٦٥م ما يشير إلى وجود جماعة بوذية .

وفى سنة ١٤٨م وصل مبعوث بارثى (خراسانى) اسمه شيه كاو Shihkao إلى لويانج ، وتعاون مع الجماعة البوذية هناك فى تأسيس كنيسة بوذية ، وأكب على ترجمة الكتب البوذية المقدسة إلى الصينية .

وفى سنة ١٦٦م أقام الإمبراطور هوان Huan – من أسرة هان – مراسم تاوية وبوذية فى القصر الإمبراطورى ، وفى هذا اعتراف (رسمى) أو (سياسى) بالوجود البوذى .

ولكن أيام الدعاية البوذية العظيمة فى الصين كانت فى القرنين الثالث والرابع ، ثم لقيت اضطهادات محزنة ، ثم عادت فنشطت من جديد ، وأخذت تبرز وتشتهر قبل ظهور أسرة (تانج) .

كانت التاوية والبوذية عقيدتين متناقضتين فى عدد من الجوانب الأساسية ، فالتاوية تسعى لإدامة الشخصية الإنسانية ، فى حين تنكر البوذية وجودها ذاته ، فلا يوجد عن البوذيين ما نسميه (نفسًا) أو (أنا) ، والتاوية تتطلع إلى خلود الجسد المادى ، بينما تنظر البوذية إلى الجنس البشرى - على نحو ما تنظر لجميع المخلوقات - من حيث هو عابر زائل .

على أن هذه الخلافات العقائدية كانت فى البداية مبهمة غامضة لدى الصينيين ، إذ كان للبوذية - فى ممارستها الدينية - أشياء متشابهة فى ظاهرها مع التاوية ، فهى تمارس عبادة شعبية بغير قرابين ، وتضفى أهمية على التأمل ، وممارسات اليوجا ، وتهتم بالصوم والتقشف . . وقد ظل الاعتقاد شائعًا فى الصين لعدة قرون أن (لاوتزو) ، أبا التاوية ، هو الذى علم بوذا ، وأن البوذية ببساطة صورة أجنبية من التاوية .

وعلى مدى أربعة قرون حل محل (الوحدة) زمن أسرة (هان) عهد من التمزق والاضطراب ، عرف بفترة الممالك الثلاث ، والأسر الست ، واستمر التفكك حتى توحدت البلاد فى عهد آسرتى (سوى Sui) و (تانج Tang) .

وكانت فترة التفكك السياسى بداية عصر الإيمان فى الصين ، فقد أرْخَت حالة الاضطراب قبضة الكونفوشية عن المثقفين ، وازدهرت الكنيسة التاوية ، وأخذت البوذية تقوى وتنتشر .

وفى مرحلة التفكك هذه قصرت الكنيسة البوذية معظم طاقاتها على ترجمة الكتب البوذية المقدسة ، وأدخلت تنظيم جماعة الرهبان ، وأخذت تتغلغل فى الطبقات الحاكمة لتحظى بالرعاية والحماية .

وخلال القرنين الرابع والخامس للميلاد نجحت الكنيسة البوذية فى تشكيل صفوة كهنوتية عقلية من الرهبان الصينيين والأجانب الذين أخذوا يدعون لبوذية متكيفة مع ظروف البلاد ، حتى تمكنت من النفاذ إلى الطبقات الصينية العليا ، وأصبحت تمثل تحديًا قويًا للتاوية .

وعندما أعد كوماراجيفا - وهو بوذى من آسيا الوسطى - مكتبًا للترجمة ،

بمساعدة الإمبراطور ، مع حشد ضخم من المساعدين ، استطاع أن يخرج كتبًا مقدسة جديدة ، وأعاد ترجمة المترجمات السابقة بعبارة أقرب إلى الوجدان الصينى ، فقد أضفت رشاقة ترجمات كوماراجيفا - بلغت ٩٨ كتابًا بقى منها ٥٢ - على الكتابات البوذية سحراً جديداً اجتذب المثقفين الصينيين الشغوفين بالأدب .

وفتحت مكاتب أخرى للمترجمين ، وبخاصة مكتب (بارامارثا) الهندى البرهمى الذى ترجم حوالى ٧٠ كتابًا ، منتصف القرن السادس ، ومكتب (هسوان تسانج) - من طبقة الموظفين الصينيّين - الذى حج إلى الأماكن المقدسة بالهند سنة ٦٤٥م ، وترجم عدة نصوص مقدسة جمعها فى رحلاته ، برعاية الإمبراطور .

وبعد وفاة هسوان تسانج ، زار الهند عن طريق البحر (آى شنج) ، وجمع نصوصًا عكف على ترجمتها .

ومن هنا انتشر الاعتراف بطريق بوذا إلى النرفانا ، (الوجود المطلق غير المشروط ، والوجود الذى يدوم دون أن يُفضى إلى الموت ، أو إلى ميلاد جديد) ، ويأتى الخلاص عن طريق الاعتراف بالإيمان ، (إنى أجد ملاذى فى بوذا ، إنى أجد ملاذى فى الشريعة ، إنى أجد ملاذى فى جماعة الرهبان) .

ومن تعاليم مدرسة تشان Ch'an (التأمل) الأساسية القول بأن (الخلاص يأتى من الاستنارة الداخلية ، وتأتى هذه الاستنارة فى لمحة خاطفة ، على نحو ما حدث لبوذا ، إنها تحول فجائى يمكن بلوغه هنا والآن ، وهى تعلمنا أن الحقيقة الوحيدة هى طبيعة بوذا ، وعندما نستدير إلى داخل نفوسنا بنظرتنا الفاحصة نستطيع أن نرى ذلك ، وبرؤية واحدة نهائية تنكشف لنا بغتة) .

وهكذا نجد أن (تشان) تعادى ما أصبح تراثًا فى البوذية ، وتنظر نظرة عدائية إلى الصور والكتابات المقدسة ، ، وتنبذ النظر الميتافيزيقى ، وكذلك النظرية ، لصالح الفكر العينى ، وبذلك تخلت عن عمليات التجربة الدينية المتدرجة ومستوياتها فى سبيل لحظة واحدة ، وتجربة شاملة . . ولقد جمعت (تشان) فى هذه الأمور أشياء كثيرة مشتركة مع تعاليم التاوية الصوفية .

وبهذا أصبحت (تشان) مدرسة مستقلة إلى بداية القرن الثامن ، وبحلول عام ٧٥٠م كان لديها نظام خاص بالأديرة وقواعد الحياة فيها ، وقد زعمت أنها ترتبط بأصول موغلة فى القدم – المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣١٥ – ٣٢١ .

* وجاءت مدرسة الأرض الطاهرة Ch'ingtu ، لتبين أن من يعجز عن بلوغ الاستنارة بنفسه يمكن أن يصل إليها عن طريق الإيمان بفاعلية بوذا ، والتضرع البسيط لاسم أميتابها Amithabha (النور اللا متناهى ، بوذا صاحب الحياة الأبدية) – مقرونا بالإيمان بفاعليته – يضمن للمؤمن الميلاد من جديد فى الأرض الطاهرة .

وتتطلب مدرسة الأرض الطاهرة إيمانًا بسيطًا ، وابتهالات بسيطة ، من المؤمن المتواضع الذى يرتبط بعمله اليومى ، فهو أفقر من أن ينغمس فى دراسة الشعائر الدقيقة وممارستها .

ولقد كانت هذه المدرسة – بقدر ما بقى فى الذاكرة الحية – أكثر صور البوذية شعبية بين العامة .

وما إن حلت سنة ١٠٠٠م حتى جذبت مدرسة تشان شنج تو ولاء الغالبية العظمى من الرهبان الصينيين .

* وثم أسس شيه يى Chih - yi ٥٣٨ – ٥٩٧م مدرسة (تيان تاى) ، وهو تلميذ هوى سو Hui - su ت ٥٧٧م ، الراهب الذى عمل بهمة للمحافظة على الآداب البوذية . . وكانت تعاليم (شيه يى) الذى كان فى بداية حياته مفسرًا وشارحًا للشان (التأمل) – تقول : إن الخلاص لا يكمن فى عملية واحدة فحسب ، وإنما يكمن فى توازن دقيق للتأمل والتركيز ، ودراسة الكتب المقدسة ، والنظام الأخلاقى ، ومراسم الطقوس . . وهذا الرفض للتطرف ، بجانب الدور الذى خصص لدراسة الشريعة المقدسة ، كانا مبعث جاذبية خاصة شدت الكونفوشية .

ولقد أخرجت هذه المدرسة كثرة من الباحثين المتمكنين ، كما كتب (شيه يى) عدداً من الشروح والبحوث عن البوذية ، أثارت اهتمام الكونفوشيين ، بفضل اعتدالها وتفسيرها المنهجى البسيط .

وتستند مدرسة (تيان تاى) - وهذا الإسم مستمد من سلسلة جبال تيان تاى جنوب شرقى الصين - إلى : ١- أن الأشياء جميعها تفتقر إلى حقيقة أنطولوجية . ٢- للأشياء وجود مؤقت عابر . ٣- الأشياء موجودات غير حقيقية ومؤقتة فى آن معًا .

وكل واحدة من هذه الحقائق تتضمن سواها ، وكان أول من علم هذه الحقيقة الثلاثية هوى ون Hui Wen - ٥٥٠ / ٥٧٧م - لكن الرئيس الثالث لهذه المدرسة (تشيه يى) هو الذى نظم الشريعة البوذية بطريقة جديدة - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٢٤/ ٣٢٥ .

وأشهر إلهة فى الصين (بوذيساتفا) هى (كوان ين Kuan Yin) التى كان يطلق عليها (إلهة الرحمة) ، توجد صورتها فى كل بيت تقريبًا ، ومعابدها منتشرة فى أنحاء الصين .

يقول لويس هودوس : (إن بعض الصور الصغيرة لهذه الإلهة قد صورت تصويرًا أنيقًا على الخشب والعاج والخزف ، وهى جميلة جدًا وجذابة ، حتى كادت تحولنى إلى البوذية) .

وهناك شخصية (البوذا المنتظر)الذى تمثله الصورة يحمل حقيبة تحوى سعادة مقبلة للجميع ، وهو يضحك ، لأنه يعلم - بغض النظر عما تكون عليه الأمور من سوء - كم سيكون كل شئ عجيبا فى المستقبل المبارك .

والبوذية الصينية لم تقدم خلاصًا للصالحين والمؤمنين فحسب ، بل صورت فى عبارات واضحة العذاب الذى ينتظر الأشرار فى نيران البوذية المتأججة .

ويقول الأستاذ العقاد (اللّه ص٧٥) : أراد الفيلسوف (شوهس) - فى القرن الثانى عشر - أن ينشئ بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور ، وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ، ولا خلود للروح . . ووضع (لى) موضع (كارما) الهندية ، أو القانون ، أو القضاء والقدر ، وسمى دولاب الزمن (كايشى) لأنه المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة ،

أو (دوشى) ، قوام العالم ، ظاهره وخافيه ، فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لا وعى له ، ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد ، فيخرج الشرر ، ثم ينطفئ فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد ، متى نضجت ، كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم ، وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح ، فهى إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال .

وليقل (شوهس) ما شاء ، فقد خلقت الأفواه بلا أقفال ، وغاية ما وصل إليه هذا الفيلسوف - فيما أورد الأستاذ العقاد - إنما هو من تاريخ الفكر الصينى القديم . . أما عن قدح القانون للمادة ، فقد ورد فى أكثر من لسان فى التراث الإنسانى ، وثمة من المفكرين العرب من يقول : إن لكل إنسان دوراً ينتهى أجله بأدائه ، فإذا لم يكن له دور مات طفلاً ، وإذا ظل قادراً على الأداء امتد به الأجل .

وكل هذا لا يعدو أن يكون تأملات (خيالية) تصنعها ليالى الصيف ، وما أكثر الفلاسفة الذين تعتريهم هذه النوبات الفكرية ، فيقدحون زناداً يورى شرراً ، ولا يصنع ناراً ، أو يورى شرراً يرمض العيون ، ويحرق الثياب .

هـامـــــش . .

نتيجة التقاء الفكر الصينى التقليدى بالبوذية الوافدة ، ونتيجة تفاعل الديانتين بالفكر المسيحى ، نشأت طقوس كثيرة ، يشوبها بعض التعقيد الذى لم تألفه التقاليد الصينية منذ فجر تاريخها .

نقل الأستاذ بوكيه عن كتاب الأناشيد Shi King حفل قربان ظلت الأجيال تتوارثه حتى قيام الجمهورية سنة ١٩١٠ . . وهذه صورته كما جاءت فى كتاب (مقارنة بين الأديان ص١٧٩ / ١٨٣) :

إن المذبح - فيما يقال - أعظم مذبح صنعه الإنسان إلى اليوم ، يتكون من ثلاث شرفات ، ترتكز الواحد على الأخرى ، وأعلاها يبلغ قطرها تسعين قدماً ، والوسطى قطرها مائة وخمسون قدماً ، والدنيا مائتان وعشر أقدام . .

والمظنون أنه أقيمت به الصلوات من سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وفى مكانه أقيم مذبح من الرخام سنة ١٤٢٠م ، على أن المعبد الذى يراه السائح اليوم يقال إنه بنى فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو بوضعه الحالى ذو جمال رائع ، رخامه يتلألأ بياضًا ، وكل شرفة فيه محاطة بحاجز منحوت ، وعلى جوانب الشرفات ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين لوحة ، وفى كل جهة من الجهات الأصلية سلم ذو سبع وعشرين درجة ، كل تسع درجات توصل إلى شرفة ، وحول المذبح كله فناء دائرى قطره ثلاثمائة وخمس وثلاثون قدمًا ، يسوّره جدار صغير مزين بالطوب الأزرق ، وفى كل جهة فتحة ذات ثلاثة أبواب ، وجميع المعبد محاط بفناء مربع ، كل ضلع من أضلاعه طوله تسع وأربعون وخمسمائة قدم ، يسوره جدار ذو حمرة كئيبة .

وأثاث هذا المعبد يتضمن عددًا من المصابيح موضوعة على قوائم ، وفرنًا كبيرًا من الطوب الأخضر لحرق الضحية ، ومناضد توضع عليها الهبات وقنانى الخمر ، وخزانة للهدايا ، وحجرة يرتدى فيها الإمبراطور ثوبه ، وكذلك مختلف المنابر لكبار الرسميين وكبار الكهنة ، وأماكن المرتلين ، وأماكن الحرس الإمبراطورى .

وترتيب الحفل يشبه أى حفل تتويج حديث ، والنظام يشبه نظام القداس البابوى للعشاء الربانى . . ومنصة المذبح بنيت بدقة فائقة تتفق مع نظرية توزيع الصوت ، بحيث يسمع الترتيل فى المعبد كله .

وفى اليوم السابق ليوم القربان يقام عرض فخم يتقدم إلى ساحة المعبد ، تتمثل فيه الأساطير والتاريخ الدينى للشعب الصينى ، يتقدم فيه الإمبراطور ، يحيط به الحرس والموسيقيون والراقصون والقواد وأصحاب الأعلام والمظلات والرياش والريش .

وفى الليل يظل الإمبراطور ساهرًا صائمًا ، بينما يقوم رئيس الكهنة ومساعدوه بتنظيم مختلف الأشياء ، ويضاء مصباح ذهبى ، ويكوم الخشب لحرق الضحية ، وتوضع على منضدة مستقرة أجسام الضحايا ، وقبل شروق الشمس يتخذ الإمبراطور وحاشيته أماكنهم ، وكذلك جماعة الموسيقيين من ثلاثمائة

موسيقى ، والراقصون المائة والثمانون ، وحملة المباخر ، وحملة الخمر والحرير والوسائد ، وكذلك المراقبون المشرفون على صحة أداء الشعائر .

وتبدأ الإجراءات بقيام الإمبراطور بالغسل المقدس ، بينما تنشد ترتيلة مزمارية ، ثم توقد الأخشاب لتشوى الضحايا ، ثم يقدم الإمبراطور البخور ، وبعد ذلك يقدم قربان الزمرد والحرير ولحم الضحية والحساء ، ويقوم الزامرون ذوو الريش برقصة مقدسة ثم يتم حَرْق نوع معين من الطعام المقدس ، وكل ما تبقى من القرابين يحرق فى الفرن ، كل هذا يصاحبه إنشاد التراتيل . وفى أثناء الغسل المقدس تنشد الترتيلة الآتية :

(بإجلال نتلقى بركات السماء / كم هى تتلألأ فى روعة / الدولة فى سلام من أبعد الآماد / والشعب بين البحار الأربعة فى اتحاد / نقدم مخلصين قرباناً عظيمًا / خضوعًا لأحكام الاثنتى عشرة منضدة ننسق الأنواء / وسيمنح حكم السماء عديم النظير نعمة نعماء / و ستنظر السماء إلى نفسى الوضيعة بعطف / وسأنظر إلى الكرم السامى بتقدير عميق / متمنيًا أن أعان للوصول بأفعال السماء إلى التمام / لقد أعددنا الضحايا مرتبة / وبالنهار وبالليل نبدى رغباتنا للسماء / تنتظر عرباتنا كالسحب زمنًا طويلاً) .

(الخيول والعربات تملأ الفضاء ، بأعداد كبيرة / الأعلام الزرقاء ترفرف فى الهواء بانتظام عظيم / يقفون منتظمين فى صفوف لاعداد لها / وبخشوع تبدأ مشاعرنا تتلاءم مع الفرح / وتنظر بإجلال نحو القبة الزرقاء / وأنتم أيها الأرواح المائة ، تعطفوا بمنح حمايتكم / للحكام الذين يطهرون أنفسهم / وأنتم ياشن ، تعالوا إلى المأدبة واستمتعوا / شانج تى بصير / وهم جميعًا يتلألئون بالرحمة والعطف ، ويعطفون من بعد على فضائلى) .

وبعد تلاوة النشيد المعد خصيصًا لهذه المناسبة ، توضع اللوحة المسطور عليها النشيد فى سلة أمام لوحة (شانج تى) ، ثم ينحنى المنشد وينسحب ، وبعد ذلك يذهب الإمبراطور إلى الشرفة الثانية ، ويقدم القرابين للوحات الآلهة الصغار ، ثم يعلن المنادى عن القربان الثانى للخمر ، فيوجه الإمبراطور إلى الشرفة العليا ، وأثناء سيره تنشد ترتيلة ، ويقوم الزامرون برقصة مقدسة .

ويعد قربان الخمر يستقبل الإمبراطور ما يسمى (لحم النعمة) ، وهذا الطعام المقدس كان يوضع على منضدة أمام لوحَة (شانج تى) ، وكان الإمبراطور يوجه إليه بوقار ، ثم يعطيه حَبْران مقدسان قطعًا يأكلها بالانحناءات المعتادة ، وفى هذه الأثناء يرتل أحد الأناشيد .

وهذا الحفل كان الصينيون فى عصورهم القديمة المختلفة يعدون له كل إعداد ، ليأتى رائعًا مهيبًا ، وكانوا يحتفظون بتقاليده الموروثة بتعصب شديد ، أقنع الباحثين أنه تقليد دينى عرفته الحياة الدينية على مختلف أزمانها .

اليابـان

الشنتوية

يقول جوزيف نيدهام (موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ص٦٩) :
حقيقة وصول الصينيين إلى اليابان ، واستقرارهم هناك ، وإسهامهم فى تركيبتها السكانية وفنونها - أمر يبدو واضحًا من الشواهد الحديثة للغاية ، التى وفرتها لنا دراسة أسنان الهياكل العظمية الأثرية ، فأسنان الجماجم اليابانية شبيهة من عدة أوجه بأسنان هياكل شعب شانج الصينى ، بينما أسنان شعب جومون (السكان الأوائل لليابان) أشبه بأسنان شعب (أيْنو Ainu) الحالى الذى يقطن الآن جزيرة هوكايدو ، وهو شعب بدائى يتصف تكوينه البدنى بالقصر والامتلاء ولون البشرة الفاتح ، والانتشار الكثيف للشعر على الجسم ، أما لغته فلا تمت بصلة لأية لغة معروفة ، وقد تناقص عدد الأيْنو كثيراً ، نتيجة الزواج المختلط ، وامتصاصهم فى المجتمع اليابانى ، ولعل الدماء الصينية فى العروق اليابانية هى التى أورثت اليابانيّين ما نعرفه عنهم من قدرات خلاقة ، أو ينبغى أن نقول إن اختلاط الدماء اليابانية بالدماء الصينية أكسب اليابانيين هذه القدرات ، لأن عملية (التهجين) فى النبات والحيوان يحدث (تحسينًا) فى السلالة ، وهو ما دعا العرب إلى (الاغتراب) فى الزواج ، وقد أثبت العلم الحديث أن زواج الأقارب يخلف عللاً وآفات جسميّة ونفسية . . لكن ، هل يخلو شعب من هذا (التهجين) ؟ حتى (شعبَ اللّه المختار) اختلطت دماؤه بدماء الأمميين ، وفسد الزرع المقدس . . الأمر إذن قد يرجع إلى طبيعة (التحدى) التى فرضتها قسوة الحياة - بيئيًا ومناخيًا - على هذه الجزر .

ومهما قيل عن (عزلة) هذا الشعب - مع أن حياته تقوم على الصيد ، حتى

صار له أكبر الأساطيل فى بحار اللّه السبعة ، ومع أن حياته تقوم على التجارة الخارجية ، بحيث لا تجد أرضًا مأهولة فى بر وبحر إلا وقد نفشت فيها غنم القوم - فقد تتلمذت اليابان على الفكر الصينى ، فقد كان معتقد اليابانيين - قصة الحضارة مج١ جـ ٥ ص١٣ - أن الأرواح سارية فى كواكب السماء ونجومها ، وفى نباتات الحقول وحشراتها ، فى الأشجار والحيوان والإنسان .

ويعتقدون أن عددًا لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء الصباح ووهجه . . ولا ريب فى أن هذا كله من صناعة الهواجس التى بعثها الخوف من الزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير ومياه المحيط وأسماكه المتوحشة التى كثيرًا ما تبتلع الخارجين فى طلب الرزق ، هذا بالإضافة إلى (الخواء الدينى) الذى تتطلب (الفطرة) شغله ، فلا تجد سوى هذه الخيالات والأوهام التى تفرزها طبيعة البيئتين المادية والروحية .

وكان التقرب إلى هذه الآلهة الكثيرة العاتية بإحراق عظام غزالة ، أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخُطوط التى تحدثها النار فحصًا تستمد فيه المعونة من دعاة المعرفة .

كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شرًا مستطيرًا ، فلكى يسترضواالموتى كانوا يضعون النفائس فى قبورهم ، كأن يضعوا سيفًا إذا كان رجلاً ، ومرآة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ، ويقدمون فاخر الطعام أمام صور أسلافهم كل يوم .

وكانوا يلجئون إلى التضحية البشرية ، آنا بعد آن ، توسلا لإيقاف مطر غزير ، أو ضمانًا لثبات بناء تتهدده الزلازل .

وكان يحدث أحيانًا أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ، ليدافعوا عنه فى أول مراحل حياته الآخرة ، وهذا يعنى الإيمان بالبعث ، وإن لم تأخذ الصورة إطارها الصحيح .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قامت فى اليابان ، وهى (شنتو Shinto) ، أى (طريق الآلهة) .

(ولم تكن عبادة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبى ، أو طقوس معقدة ، أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، ولم تذهب إلى ما يبعث العَزَاء فى نفوس الناس ، من خلود الروح ، ونعيم الفردوس) .

وهذا قول غير مسلم به على إطلاقه ، وإن كان يفيد أن اليابانيين لم يرتفعوا بديانتهم إلى المستوى الذى وصلت إليه الديانات السماوية ، إذْ كان لديهم الاستعداد دون (الدليل) الذى يحقق الهداية .

يقول سوندرز (أساطير اليابان القديمة ص٣٧٢ / ٣٧٩) : (تنحى اليابانيون بعامة عن تشخيص الكوارث ، وترد الصراعات فى رواياتهم الأسطورية مخففة اللهجة ، تسودها روح التوفيق) .

(وهذا التناغم مع الطبيعة يكوّن العنصر الجوهرى فى المشاعر اليابانية ، فالطبيعة كالناس متحركة مشبّعة بروح حيوية ، وكان كل شئ ذى قوة أو جمال ، أو ذى شكل يفوق المعتاد - موضعًا للإجلال) .

وهذا لا يمثل طبيعة يابانية خاصة إلا بقدر ما نعرف عن بيئة يابانية خاصة ، ذلك أن مجموعة الجزر اليابانية معروفة بكثرة الكوارث الطبيعية وفداحتها ، مما أحدث تقبلاً لهذه الكوارث ، أو عدم سخط ونقمة عليها ، لأنه لا سبيل إلى تجنبها ، فكان لون من الاستسلام للقضاء ، لأنه الأقوى ، وكان توجّه إلى الدعاء والصلاة للأرواح والقوى غير المرئية ، التى لاتفتأ تعلن عن قدرتها بصورة (مرئية) . . وهذا يتجلى فى الآداب التى (انفردت) بها التقاليد اليابانية ، وجعلت من هؤلاء المغالين فى توقير الآخرين واحترامهم (الأقدر) على التضحية وركوب المخاطر .

ويقول سوندرز : إن جملة الأساطير اليابانية الأولى جُمعت فى بداية القرن الثامن الميلادى فى مجموعتين : الكوچيكى ، أو (سجلات الأمور القديمة) سنة ٧١٢م ، والنيهونجى ، أو (حوليات اليابان) سنة ٧٢٠م ، وقد كُتب كل من المجلدين بالصينية ، مما يفيد قوة الوجود الصينى فى العروق اليابانية ، وفى ثقافتها ، حتى هذا الزمن المتأخر .

وأسطورة الخلق لا تكاد تبعد عن مثلها فى الصينية ، ففى البدء كانت الهيولى كمحيط من زيت ، أو كبيضة غير مُحددة الشكل ، لكنها تحوى بذرة الحياة ، ومن هذا الخليط انبعث شئ أشبه ببرعم البوص ، لكنه حوى معبودًا ، وأعطى اسمًا ، وفى نفس الوقت خرجت آلهة أخرى تنوعت وفق أمور مختلفة ، وهى تشخّص القوى المتفاعلة كالطين والأبخرة والبذور .

وظهر إيزاناجى وأخته إيزانامى ، وبأمر الآلهة السماوية وقف إيزاناجى وإيزانامى معًا على جسر السماء الطافى ، وغوّرا رمحًا سماويًا محلى بالجواهر فى الماء الهيولى الملْح من تحتهم ، وطفقا يحركان ، حتى تخثّر السائل وغلظ وعندئذ جذبا الرَمح ، فكان أن تكونت من قطرات الماء المتساقط فى المحيط جزيرة .

ونزل إيزاناجى وإيزانامى على هذه الجزيرة الجديدة ، وجعلاها (العمود المركزى) للأرض ، ويعجب كل منهما بجسم الآخر ، وأدى الإعجاب إلى الجماع والإنجاب .

وواصلت إيزانامى إنجاب أنواع من الآلهة ، من بحر وأمواج وجبال ، وأخيرًا أنجبت إله النار ، ونشأت من عينى إيزاناجى كل من الشمس والقمر .

هذا الذى حكاه سوندرز يبدو أنه (تشكيلة) من الأساطير والأفكار ، قد ترمز إلى القدرة على إضافة أرض جديدة إلى الجزر ، وهو ما يحدث حتى اليوم ، وقد ترمز إلى تفوق الكائن اليابانى وقدرته على تشكيل الحياة ، وهو ما تحاول اليابان إثباته زراعيًا وصناعيًا ، بالرغم من ضآلة ثرواتها المادية .

ويقول الأستاذ العقاد (اللّه ص٧٥ / ٧٦) : اختار اليابانيون ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى ، وتلك الربة هى (أميتراسوا - أموكامى) التى لاتزال معبودة إلى اليوم .

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون ، أو خلقت الإنسان ، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود طويلة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم بمثابة الأرواح والملائكة والجن والشياطين ، من

قوى الخير والشر عند الأمم الكتابية ، ويسمون الواحد منهم (كامى) ، وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة ، بالغ فى القوة أو الجمال ، ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل ، وصار الأمر إلى الربة الكبرى ، برضوان من خالق السموات والأرض .

ثم يقول : فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسية سلفية ، جمعت معنى التوحيد أولاً فى إله السماء ، حيث تصورته أبًا للخليقة بمفرده ، أو بمشاركة زوجته ، ثم جمعتها فى الربة الواحدة ، على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب .

وهذا القول لا يسهل الشك فى صدقه ، ولا يسهل إعلانه معتقدًا عامًا ، لأن الذين جمعوا الأساطير لم يفصلوا بين البيئات المختلفة أشد الاختلاف فى اليابان ، فالجزر ليست متماثلة ، والعلاقة بمياه المحيط تختلف من جزيرة إلى أخرى ، وساكنو الجبال غير ساكنى الشواطئ ، وتمتد مناطق شديدة الحرارة وأخرى جليدية ، هذا إلى أن الصينيين والكوريين حملوا إلى اليابان أساطير ومعتقدات .

من هنا يصعب الجزم بشئ عن هذه (الديانة) ، وبخاصة أن كلاً من اللغتين الصينية واليابانية لغة رموز وأشكال وطريقة خاصة بالنطق والإشارة .

لهذا يحسن عدم الإيغال فى المعتقد القديم ، والاكتفاء بما تحدّث به مجموعة الطقوس التى تتجه جميعًا إلى عبادة روح الطبيعة القادرة فى جميع مظاهرها ، سواء فى الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحه ، كذلك الأبطال ، كما توجد معابد تعبد فيها السيوف التى خاض بها أصحابها معارك وحققوا انتصارًا ، على أساس أن للسيف روحًا مكنت صاحبه من الانتصار ، وهناك معابد للجبال ذات الشكل المتميز ، مثل جبل فوجى ، وثمة أشجار مقدسة ، وملابس . . الخ ، وتعتبر المرآة مقدسة لأنها تعكس الشمس ، جدة العائلة الإمبراطورية .

وعلى الرغم من التقدم التكنولوچى اليابانى فإنهم لا يزالون يصرون على التمسك بهذه المواريث الطقسية .

* يقول د. ل. فليبى (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص٣٤٤) : كان على الكهنة فى كل هيكل إعداد صلوات يرونها ملائمة لكل مناسبة ، وظلت هذه العادة قائمة حتى عصر ميجى (١٨٦٨ - ١٩١٢م) ، وقد تولى الإمبراطور ميجى (١٨٥٢ - ١٩١٣) حكم اليابان سنة ١٨٦٧ ، وقام بتحديث البلاد ، وإضفاء الطابع الغربى عليها ، ومنذ سنة ١٨٧٥ قدمت الدولة صلوات رسمية تؤدى فى الأعياد والطقوس المقررة ، ومنذ سنة ١٩٤٦ بدأت (جمعية هياكل الشنتو) - التى يرتبط بها أكثر من ثمانين ألف هيكل - فى إعداد الصلوات ، وإن تركت للكهنة حرية تأليف صلواتهم الخاصة بهم إذا رغبوا فى ذلك .

ودخلت عبادة الشنتو المنزل من خلال هيكل المنزل ، وكان من المألوف أن توجد فيه تمائم مجلوبة من هيكل (آيس Ise) ، وهو الهيكل الذى اصطبغ بصبغة قومية مع توحد الأمة ، بوصفها أسرة واحدة مع الإمبراطور الذى يقوم بدور الأب ، ومن هنا سمى (هيكل العشرة) ، أو الهيكل المحلى ، ولابد من تقديم القرابين كل صباح وكل مساء ، لألواح الهياكل ، وألواح الأسلاف ، فى آن واحد ، ولابد للمتعبد الورع أن ينحنى - بعد مراسم الطهارة - أمام الهيكل ، ويُصَفّق بيديه مرتين ، ثم ينحنى مرة أخرى فى صمت لمدة دقيقة .

وتخلو ديانة الشنتو من الصور ، أما الرموز فهى وفيرة ، وأكثرها شيوعًا ثلاثة : المرآة التى تربط الأساطير بينها وبين الإلهة أماترسو Amatersu إله الشمس ، والرمزان الآخران هما السيف والجوهرة اللذان وهبتهما أماترسو لحفيدها عندما هبط إلى الأرض .

وتعد الشنتوية (الحدسية = الإدراك الباطنى السريع للحقيقة بغير مقدمات) مظهرًا واضحًا من مظاهرها ، مع الاهتمام بالتجربة الدينية أكثر من المبادئ اللاهوتية . . ونادرًا ما يسأل الشنتويون أسئلة أنطولوجية ، تتعلق بطبيعة الوجود بصفة عامة ، مثل هل هذا الوجود الذى نعيش فيه يتألف من عنصر واحد ، أو عنصرين ، أو أكثر ؟ وهل هو عنصر روحى ، أو مادى ، أو محايد ؟ إلى آخره . . بل هم بالأحرى يشعرون بحقيقة الكامى Kamy وواقعيته ، لأن

المرور بتجربة مباشرة مع الألوهية ، والإدراك المرهف للسر الغامض ، أكثر أهمية لهم من النظر العقلى لدقائق العقيدة .

ومع أن كـامى كـثيراً مـا تتـرجم بإله أو آلهـة ، وقـد تطلق على الوحـوش ، والطيور ، والنباتات ، والبحار ، والجبال ، وظواهر الطبيعة ، كالعاصفة ، والريح ، والصدى – فهو فى العقيدة الشنتوية يجسد الاستقامة والأمانة الجوهريتين ، ومن ثم فهو تقدير سماوى يجعلنا نعيش حياة سعيدة وأمينة تنسجم مع إرادة الكامى ، الروح فى الطبيعة ، والإخلاص فى الإنسان ، والفضيلة الرئيسية فى فكر الشنتو .

البوذيـــــة فـــي اليابـــــان

دخلت البوذية اليابان حوالى سنة ٥٣٩م ، عندما عقد حاكم مملكة كورية صغيرة تحالفًا مع حاكم ياماتو Yamato ، ولكى يرضيه أرسل إليه تمثالاً صغيراً لبوذا ، وبعض النصوص البوذية (سوترا Sutra) التى وصفها بأنها (أعظم كنوز يمكن أن يرسلها إليه) . . وكانت اليابان متأثرة - إلى حد كبير - بالفكر والثقافة الصينية ، وبخاصة من خلال إدخال النظام الصينى فى الكتابة سنة ٤٠٥م ، كما أن عبادة الأسلاف الصينية قد أثرت أيضًا على موقف اليابانيين من الماضى ، واتحدت مع عناصر السحر التاوى ، والتنبؤ بالغيب فى معتقدات شنتو الوطنية .

ومع آن دخول البوذية جاء عن طريق كوريا ، فإن استمرار الاتصال كان مع الصين ، حيث تكيفت البوذية بالفعل مع صور من الفكر الكونفوشى والتاوى ، ومن ثم كان من الطبيعى أن تدخل الصورة الصينية للبوذية إلى اليابان ، وهى بوذية (المهايانا) ، مع قدر من التأثر بتعاليم (الهنايانا) .

عارضت الكهانة الشنتوية بشدة - فى البداية - الإيمان الجديد ، وعندما انتشر الطاعون نسب الكهنة انتشاره إلى أن العبادة اتجهت إلى (كامى) أجنبى ، وأدى هذا الاتهام إلى حرق المعابد البوذية ، وتحطيم تماثيل بوذا .

غير أن الديانة الجديدة لقيت دعمًا من دوائر البلاط ، فقد أدخل أحد القادة المرموقين فى الثورة الثقافية والدينية - وهو الأمير شوتوكو (٥٩٣ - ٦٢٢ تقريبًا) الذى كان وصيًا على العرش الذى كانت تجلس عليه عَمّته - دستوراً جديداً يقوم على مبادئ البوذية ، فأصبحت البوذية بهذا الدستور ديانة تعترف بها الدولة ،

(وظهر – فى ذلك الحين أو بعده – ميل إلى التوحيد بين البوذية والقوانين الوطنية ، مما جعل الدولة تتكفل بحماية الدين ، وتنال حق التصديق الدينى فى وقت واحد) .

وقد بنى الأمير شوتوكو المعابد والأديرة ، بوصفه بوذيًا ورعا ، ومن بينها معبد هوريوچى Horyuji القريب من مدينة (نارا) ، وهو معبد يتميز بالجمال الهادئ ، ويعد من أقدم المبانى الخشبية فى العالم . . وقد خلف شوتوكو وراءه ثروة من اللوحات البوذية الجميلة ، كانت بمثابة الوثائق التاريخية لذلك العصر . . وقد أرسل الأمير بعثات إلى الصين لتلقى التعليم مباشرة من منبع هذه الثقافة الرفيعة ، وأخذ ينقل عن الصين نظام مؤسساتها السياسية .

وقد أظهر شوتوكو سعة اطلاع وقدرة على البحث ، عندما نشر شروحًا على بعض النصوص المقدسة (Sutra) ، وساعد على إلحاق (مستوصفات) للإنسان والحيوان بالأديرة ، ونُزُل للمرضى ، واليتامى ، والمسنين .

واحتاج الأمر إلى وقت طويل حتى يستوعب الناس تعاليم البوذية ، فلا تظهر بمظهر الديانة (الأجنبية) ، وكان أيسر على الغالبية العظمى فهم الجوانب الثقافية للبوذية ، أكثر من فهمهم الجوانب المذهبية والميتافيزيقية ، الأكثر صعوبة .

* ورغم أن دخول البوذية إلى اليابان – على المستوى الرسمى – كان يعنى تطوراً واسع المدى لديانة منظمة ، فإن التراث غير التقليدى للقائد الملهم ازداد رسوخًا ، وسعى (رجال مقدسون) – من خارج المؤسسات الدينية الرسمية – إلى تقديم الحياة الدينية لعامة الناس ، ويسمى هؤلاء الرجال Hijivi ، وهم يركزون كثيراً على التقوى الفردية ، وقد سار كثير منهم على نهج النساك البوذيين . . وكان الاعتقاد السائد أن الناسك يستطيع أن يبلغ قوة سحرية تفوق قوة البشر ، نتيجة الميزة التى حصل عليها من خلال ممارساته الدينية الصارمة . . وكان بعض النساك ينتقلون من قرية إلى قرية ، ويعملون (كشامانيين) ، لهم قدرة خارقة على شفاء المرضى ، والاتصال بالعالم العلوى ، وارتبطت طريقة النساك بعبادة الجبال الشنتوية البدائية ، ولا يزال متسلقو الجبال هم السحرة

الذين يسعون إلى حالة (الإلهام) ، أو الوجد الصوفى ، أثناء تسلقهم . . وقد جاء فى الفكر البوذى أن صعود الجبال يوازى الصعود فى الطريق ذات الشعب الثمانى التى تؤدى إلى الاستنارة .

وكان چيوچى Gyogi (٦٧٠ / ٧٤٩م) واحداً من النُّساك المبكرين غير التقليديين ، ثم أصبح بوذيا بدرجة تعادل درجة (المطران) ، وقد نظر إليه – أثناء حياته – على أنه (بوذا المنتظر) ، وارتبطت صور الشنتو الأقدم عهداً مع خلفائه بطقوس السحر البوذية وشعائرها ، وبالخرافات الشعبية التاوية .

وترددت فى تراث (الرجال المقدسين) أفكار الاستحواذ على كامى Kami أو على بوذا ، كما أن الرجال الأفذاذ الملهمين ينتقلون – فى بعض الحالات – من جيل إلى جيل ، داخل الأسر ، كما هو الحال مع يامابوشى (الإله الذى كان يعمل مرشداً للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدسة التى تسكنها آلهة الشنتو) ، أو كما هو الحال مع (ميكو) كاهنة هيكل الشنتو ، وقد يعملون وسطاء بفضل موهبة خاصة لديهم .

وصار المعبد الرسمى (إنجرياكوجى) مركزاً للنشاط البوذى فى اليابان ، لمدة ثمانمائة سنة تقريبًا ، وفى هذه الأثناء امتلأ منحدر الجبل بالمعابد والرهبان الذين كان بوسعهم غزو العاصمة عن طريق تشكيلات مسلحة .

* يقول ول ديورانت (قصة الحضارة مج١ جـ٥ ص ٨٤) :

ولم يتعذر على البوذية أن تخلى من نفسها مكانًا فى لاهوتها ، وفى عداد آلهتها ، لمذاهب (شنتو) وآلهتها ، فاندمج بوذا عندهم بـ (أمانيراسو) ، وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح شنتو .

وكان الكهنة البوذيون الذين ظهروا فى القرون الأولى يتمثل فيهم الولاء ، كما يتمثل العلم والرحمة ، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامون أو نحاتون من الطراز الأول ، كما كان منهم علماء أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى .

وقد أكد الكهنة للعبّاد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشترى

عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته ، إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل فى سن الخمسين أن يشترى عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين معبداً تدعو له ، وفى سن الستين يستأجر ستين معبداً ، وهكذا ، حتى يموت بسبب ما قد يكون فى تقاه من نقص .

وكان الرهبان فى عهد (توكوجاوا) يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ، ويحيط بهم الغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلي من يدفع ثمناً أعلى .

يقول مردوخ : (كان الرهبان فى دير « كيوتو » و « نارا » العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان الشعب يتضور فيها جوعاً ، بل يموت عشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات) .

ويقول مردوخ : (فى سنة ١٤٥٤م كان الصِّبية يباعون للكهنة ، وكان الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ، ويزينون وجوههم بالمساحيق ، ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه من عهد «يوشيمتسو» الذى ضرب مثلاً سيئًا فى هذا الصدد ، وفى كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعًا ، وخاصة فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن مقصوراً على الأديرة وحدها) .

ومع هذا الفساد المتفشى فى القمم الدينية فقد كان ثمة محاولات لاقتحام هذا السد الصفيق العتيق .

يقول كيوسو : (لا تظنوا أن اللّه بعيد عنكم ، ابحثوا عنه فى قلوبكم ، لأن القلب هو مقر اللّه) .

ويقول إكن : (إن حمقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، وطلبًا لسعادة أنفسهم ، فى الوقت الذى تراهم فيه يقترفون الموبقات) .

ويقول ناكايى توجو : (إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى

سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلاً آخر يسمى الضمير ، وهذا هو الجانب الذى لاينتمى إلى عالم الأشياء ، بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى ، أو الكونى ، كان بغير بداية أونهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير ، كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد) .

ولأن هذا الفكر لم يتطور حتى مع الصحوة اليابانية فى نهاية القرن التاسع عشر ، إذ كانت الصحوة مسوقة سوقًا ماديًا - قال ول ديورانت : (إنها الحكمة التى أسماها موليير : « الفضائل التى تجلب النعاس ») .

* وشهد القرنان الحادى عشر والثانى عشر تطوراً جديداً هامًا تمثل فى اهتمام عامة الشعب اليابانى بالمعتقدات البوذية ، ومن أهمها خلاص الروح ودخولها الجنة بالإيمان البسيط بضرورة الاعتماد على أى إله من الآلهة البوذية العديدة ، ولم تكن تلك المعتقدات سوى انعكاس كامل لجوهر العقيدة البوذية القائلة باتحاد الذات الإنسانية فى الكون ، عن طريق التدريب القاسي للنفس وصولاً إلى مرحلة الاستنارة .

وقد نتج من تلك الأفكار ظهور حركات مذهبية جديدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . . أما الفرسان فقد فضلوا - من بين مذاهب الديانة البوذية - مذهبًا آخر عرف باسم زن Zen ، نقل عن الصين فى أوائل عهد نظام (كاما كورا) .

ويركز مذهب (زن) على فلسفة التأمل والبساطة والالتصاق بالطبيعة ، وينادى بتقشف الفرسان ، والانضباط النفسى الصارم ، من أجل ممارسة فلسفة (زن) فى التأمل ، كوسيلة لتنمية إرادة التحكم فى النفس ، والوصول إلى الشخصية الحازمة ، وهو الهدف من الحياة .

وقد اتخذ أباطرة أسرة (آشيكاجا) من رهبان (زن) مستشارين لهم ، خصوصًا فيما يتعلق بعلاقاتهم واتصالاتهم بالصين ، ومن خلال هؤلاء الرهبان شهدت اليابان نهضة كبيرة فى مجال العلوم والآداب الصينية .

وفى أواخر العصور الوسطى وضع رهبان (زن) نظامًا جماليًا متكاملاً أصبح فيما بعد من العناصر الدائمة فى الثقافة اليابانية ، ارتكز هذا النظام على الاهتمام بقيمة أى عنصر بسيط طبيعى ، وغير منسق أيضًا أكثر من اهتمامه بالعناصر المصنوعة الفخمة المتناسقة ، وكانت التشكيلات الطبيعية الخشبية وجذوع الأشجار الدائرية ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم أكثر من قطع الخشب محددة التشكيل والمطلية بالألوان . . وكانوا يفضلون التشكيلات المعمارية البسيطة غير المنتظمة ، والتى لاء مت مستويات الأرض المختلفة أكثر من الطراز المعمارى الصينى الثابت المتوازن المتسم بالأبهة والفخامة ، وفى مجال الحدائق صمموا نماذج للحدائق الصغيرة التى تعبر عن روعة الطبيعة الوحشية فى صورة مصغرة ، وهو اتجاه يتناقض تناقضًا شديداً مع ولع الغربيين بأنماط الحدائق الكبيرة ذات التنسيق الهندسى ، ولعل أبرز مثال لهذا الاتجاه هو حديقة الصخرة الشهيرة المعروفة باسم (رويوانجى) فى مدنية كيوتو ، والتى تمثل بحق المذهب اليابانى .

وشهد القرن الثالث عشر نهضة زاهرة فى فن النحت ، وظل تمثال بوذا العظيم القائم فى مدينة كاماكورا رمزاً لذلك العصر ، وهو من أكبر التماثيل البرونزية فى العالم – اليابانيون ص ٨٦ / ٨٨ .

* وقد عرف المعبد البوذى بأنه بناء يحيط به سياج ، وقد يشكل البناء أكثر من معبد ، ويحرس مدخل المعبد عادة تماثيل منفردة ذات وجوه عابسة ، حتى تمنع الشرور ، وتُغطى المعابد عادة بالورق ، لأن المتعبدين يكتبون التماساتهم على قصاصات من ورق يقذفون بها إلى التماثيل ، بعد أن يلوكوها بأفواههم ، وإذا التصقت بالتماثيل وثق المرء من إجابة التماسه ، وكثيراً ما يحتوى المعبد على (باغودا Pagoda) ترتفع من ثلاثة إلى أربعة طوابق مزخرفة ومنمقة فى العادة ، ويحتوى المحراب الرئيسى على مذبح به شموع مضاءة مع تماثيل لبوذا ، والبوذات المنتظرين (بوذا ساتفا) ، وآلهة الهند (ديفا) ، وحول المذبح صناديق تشتمل على السوترا (النصوص) . . ولا تحصل فرقة واحدة على الشريعة (الصينية) كلها ، بل يكون لكل فرقة أن تنتقى من النصوص ما تعتقد أنه النصوص المعتمدة ، وتختلف الصورة المركزية فوق المذبح تبعًا لكل فرقة .

ويقوم الكهنة بإنشاد النصوص ، وتلاوة الصلوات ، بمصاحبة الطبول والأجراس ، وحرق البخور ، ونادراً ما يحضر المؤمنون العاديون هذه الصلوات/ فعبادة هؤلاء شخصية إلى حد كبير ، وهى تنحصر - فى كثير من الأحيان - فى مذبح الأسرة بالمنزل ، وهو صورة مصغرة مما يوجد فى المعبد .

وتقدم كثير من المعابد - بصورة أساسية - وجبات ، وفقًا لحاجة الناس ، كما تزودهم بتذكارات ، وتنقش أسماء المساهمين فى موارد المعبد المالية على بعض الأشياء المقدسة ، أو الزخارف التى يمكن وضعها فى مذبح الأسرة فى المنزل .

ويتأكد الجو الصوفى الغامض للمعبد بتوزيع التمائم والرقى ، مع شئ خاص بالمعبد البوذى ، هو ميدالية تشبه القديس **كريستوفر** الذى (كان يرعى المسافرين فى القرن الثالث الميلادى ، وفى القرن العشرين يرعى ركاب السيارات وسائقيها) .

وتباع هذه الميدالية لسائقى سيارات الأجرة فى طوكيو ، أما الكهنة فى معظم المعابد فهم على استعداد لتأدية الطقوس العامة ، والشعائر الخاصة ، التى تنحو نحو التوسل أكثر من التوقير الخرافى لصحة النصوص الدينية .

وبغض النظر عن الحقيقة التى تقول إن عقيدة الأناتا Anatta (اللاذات) للأرواح تكمن فى قلب البوذية ، فإن قوة عبادة الأسلاف - كما تمثل فى القيام بالطقوس الجنائزية والتذكارية للمتوفى - تشغل الكاهن أكثر مما يشغله التعليم المنتظم للبوذية .

ولقد ظهرت لوحات الأسلاف فى مذبح الأسرة ، ووجدت لها مكانًا فيه ، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى ، فأصبحت تعبد جنبًا إلى جنب مع التماثيل الصغيرة لبوذا ، ونسخ من النصوص المقدسة ، والمتعبد الشنتوى يتطلع إلى أن يُصبح روحًا (Karma) عندما يموت ، كما أن البوذى ينتظر أن يصبح بوذا (مستنيراً) ، وليس ثمة فرق بين التصورين ، لأنهما تغذيا من ثدى واحد .

أما بالنسبة لموضوع قرابين النذور ، فهناك فارق على المستوى الشعبى بين

ممارسى الشنتوية ، فهناك نذور للشفاء من المرض ، ونذور للحمل السهل ، أو الولادة الآمنة للطفل ، كما يقدم نموذج للثدى قربانًا أثناء الصلاة ، ليكون لبن الأمن غزيراً ، وتقدم مغرفة للطفل أثناء الصلاة ، لكن إذا كان قاع المغرفة غير صالح فإن الإجهاض يكون موضوع التوسل ، وتقدم شخصيات الدهارما Dharma (المؤسس المزعوم لبوذية زن ، أو الجوهر الأزلى الذى يحرك العالم) بغير عيون ، حتى يستجاب الطلب .

ويضيف صاحب (المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٤٢ / ٣٤٣) أنه إذا كانت زيارة الهيكل خاصة سار المتعبد على قدميه (حافيًا) بمجرد أن يتخطى البوابة الأولى ، ولابد أن يغسل يديه وفمه من نبع طبيعى فى مجمع الهيكل ، أو من حوض الماء المحفور فى الصخر ، مستخدمًا أوانى يزوده بها الهيكل ، ثم يصفق المتعبد - ذكرًا أو أنثى - وهو يحنى الرأس إجلالاً ، أثناء توسلاته ، غير أن التوسل يمكن أن يكتب فى ورق ، ويعلق على إحدى أشجار السكاكى Sakaki المقدسة .

وتتضمن العبادة الرسمية أربعة عناصر ، وهى :

١- فعل التطهير بالإضافة إلى الاغتسال ، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكى على المتعبد .

٢- القربان الذى يكون رمزيًا فى صورة غصن من شجرة السكاكى ، كما يكون من الحبوب والشراب ومن المال .

٣- طقوس الصلاة .

٤- الوليمة الرمزية ، دلالة على تناول الطعام مع (كامى) ، وكثيراً ما يشمل هذا العنصر رشف قطرات من خمر الأرز المقدس الذى يقدمه الكاهن ، ويمكن لجماعة المتعبدين أن تطلب أيضًا تأدية الرقصة المقدسة للمعبد ، التى يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تعبر عن الأساطير القديمة .

وثمة صلاة ضارعة للكامى من أجل محصول وفير : (ليت الحبة الأخيرة من الأرز التى ستحصد / بحبات العرق من سواعدهم / وتشد مع الوحل العالق

بالفخذين / ليت هذه الحبة تزدهر بفضلك أنت / وتتفتح سنابل الأرز التى تتوق إليها الأيدى الكثيرة / فتكون أولى الثمرات فى الشراب وأعواد النبات) .

وأخـــــيراً ..

تأسست فى اليابان ديانة سيكاكيسكو (ديانة إنقاذ العالم ، أو العالم المنتظر) على يد أوكادامو كيشى (١٨٨٢ / ١٩٥٥) عندما انشق عن فرقة أُموتو ، وقد اعتقد أنه وهب القدرة على الأعمال الخارقة ، وهى قدرة كانون Kannon (بوذا المنتظر ، صاحب الرحمة) ، وتذهب إحدى القصص التى تروى عنه إلى أن هذه القدرة تتضمنها لؤلؤة صغيرة داخل جسمه ، ويشع نور من هذه اللولؤة يقتل البكتريا ، كما يعتقد أن لديه القدرة على شفاء الأمراض ، وإثراء المحاصيل ، وبسبب ذلك سمى هيكارى - سان ، أى رجل النور ، ويزعمون أن لديه القدرة على تحويل القوة الشافية إلى قصاصات من ورق ، تكتب عليها العلامة اللغوية الدالة على (النور) ، وهناك محاولة داخل مراكز هذا الدين لإقامة (المملكة) ، فالشغل الشاغل لهذه الفرقة هو (إزالة المرض ، والفقر ، والحرب ، من هذا العالم ، وتحويله إلى جنة أرضية) .

ويسمى الإله باسم ميروكو Miroku (بوذا المنتظر) ، كما يقال إن الصحة والثراء والسلام هى عناصر مملكته ، وتقول إحدى الترانيم : (تعال يا ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، مزوداً بقوة عظمى / قوة الثلاثة فى واحد : النار والماء والتراب / ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، لقد أنشأت السماء / فوق الأرض ، من قديم الأزل / ميروكو ، يأيها الإله العظيم ، حتى عندما يتسلل لص ، فإنك / تكون قد ولدت تحته بطريقة خفية / تاركًا خلفك العرش الممجد الرفيع / فأنت دائمًا تولد تحته لكى تجلب الخلاص) .

فى ١٨ أغسطس ١٩٩٦

١٤ ش عبد القادر المغربى - النزهة - مصر الجديدة

الفهرســــت

الصفحة

مصـــــادر ومــراجـــــع

1 - معالم التاريخ الإنسانية - هـ.ج . ويلز
2 - قصة الحضارة - ول ديورانت
3 - فجر الضمير - جيمس بريستيد
4 - أساطير العالم القديم - صمويل كريمر
5 - المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفرى بارندر
6 - اللّه - عباس العقاد
7 - مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - طـه باقـر
8 - تاريخ الكتاب - ستيبتشفيتش
9 - مختصر دراسة التاريخ - توينبى
10- تاريخ الحضارة الإسلامية - فاسيلى بارتولد
11- ترانيم زارادشت - ت. فيليب عطية
12- سفر نامة - ناصر خسرو
13- السحر والعلم والدين - مالينوفسكى
14- التاريخ وكيف يفسرونه - ويد چرى
15- الشاهنامة - الفردوسى
16- ملحمة جلجامش - طـه باقـر
17- جماليات ملحمة جلجامش - دياكونوف وترافيموف
18- عشتار ومأساة تموز - فاضل عبد الواحد
19- حمورابى ملك بابل وعصره - هورست كلنجل
20- محاكمة جلجامش - عبد الغفار مكاوى
21- نهاية الأرب - النويرى

العنوان	المؤلف
22- مروج الذهب	– المقدسى
23- الملل والنحل	– الشهرستانى
24- تاريخ الرسل والملوك	– الطبرى
25- القصة فى الأدب الفارسى	– أمين عبد المجيد
26- جولة فى الشاهنامة	– أمين عبد المجيد
27- من روائع القصص فى الأدب الفارسى	– أمين عبد المجيد
28- تاريخ اليمن القديم	– محمد عبد القادر بافقيه
29- كتاب التيجان فى ملوك حمير	– عن وهب بن منبه
30- الفكر الشرقى القديم	– جون كولر
31- الديانات القديمة	– محمد أبو زهرة
32- ابن بطوطة ورحلاته	– حسين مؤنس
33- تاريخ الإسلام فى الهند	– عبد المنعم النمر
34- الأساطير الإيرانية القديمة	– يارشاطر
35- الهند . . عقائدها وأساطيرها	– عبد الرحمن حمدى
36- تراث الإنسانية (عدة بحوث)	– محمد إسماعيل الندوى
37- تراث الإنسانية (بحث عن البيرونى)	– أحمد الساداتى
38- موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين	– نيدهام
39- الإسلام فى الصين	– فهمى هويدى
40- نشأة الكون ووحدة الخلق	– محمد فتحى عوض اللّه
41- الفكر الصينى . . من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج	– كريل
42- الكتب الخمسة لكونفوشيوس	– حسن شحاتة سعفان
43- كتب غيّرت الفكر الإنسانى	– أحمد الشنوانى
44- أساطير اليابان القديمة	– سوندرز
45- الصينيون المعاصرون جـ١	– وو – بن
46- اليابانيون	– أدوين رايشاور
47- الفلسفة الشرقية	محمد غلاب
48- الأديان القديمة	رشدى عليان

49- في العقائد والأديان	جابر الحيني
50- فجر العلم الحديث	- توبي هاف
51- مجلة الهلال	- يونية ١٩٧٢
52- مجلة العربي	- يولية ١٩٩٦

كتـــب للمؤلـــف

كتب مطبوعة:

1 - المنهج البياني في التفسير الحديث للقرآن الكريم بمصر		الأنجلو المصرية
2 - التراث . . واجبنا نحوه		»
3 - أمين الخولي في مناهج تجديده		المجلس الأعلى للفنون والآداب
4 - أمين الخولي . . حياته وأعماله		
5 - سبحان اللّه		الهيئة العامة للكتاب
6 - الذين يلحدون في آيات اللّه		دار المعارف
7 - قراءة في ديوان ابن الرومي		»
8 - آيات بينات من الهدى والفرقان		»
9 - اليهود تاريخًا وعقيدة		»
10- هوامش تراثية		دار الاعتصام
11- في صحبة أبي العلاء		»
12- الساعة الخامسة والعشرون		دار الأمين
13- دراسة في التوراة والإنجيل		»
14- محاكمة النص القرآني		دار الفضيلة
15- قبل أن تفيض الكأس	رواية	»
16- حتى مطلع الفجر	»	توزيع دار المعارف
17- عبر الأسلاك الشائكة	»	»
18- الإدانة . . شاهد من أهلها	»	»

19- في مرقص الظلال	شعر	توزيع دار المعارف
20- الأرض لاتنبت أغصانا جافة	«	«
21- حتى تعود الابتسامة	«	المجلس الأعلى للثقافة
22- من تجارب الشعر والشعراء جـ١		دار الأمين
23- هذا أبو الطيب شاعر المعاناة والتمرد		دار الزهراء
24- مسيحية بلا مسيح		دار الفضيلة
25- الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا		دار الأمين
26- الشيخ أمين الخولى	(كتب للشباب)	الدار المصرية اللبنانية
27- الشيخ على عبد الرازق	«	«

كتب معدة للطبـــع:

1 - من تجارب الشعر والشعراء (جـ ٢ فى العصر العباسى)		دار الأمين
2 - كنانة اللّه يافرعون (دراسة فى معتقدات مصر القديمة)		دار الندى
3 - معتقدات يونانية ورومانية		دار الندى
4 - حالة مخاض	رواية	
5 - الأرض والجرذان	رواية	
6 - حين ينزعون اللحاء	رواية	
7 - للّه لا لقيصر	(دراسة فى الإمامة)	دار الفضيلة
8 - اليهود من الجيتو إلى الفاتيكان		«

رقم الإيداع : 2077 / 99

الترقيم الدولى : 977-5936-08-x